

فهرس

﴿ الجزء الخامس من كتاب الحيوان ﴾

صحيفه

صحيفه

﴿ تم الفهرست ﴾

الجزء الخامس من كتاب

الحيوان

لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
البصرى المتوفى سنة ٢٥٥ هجريه

وهذا الكتاب هو

البارع فى الأدب والجامع فى حكم العرب

الحاج محمد افندى ساسى المغربى التونسى

سنة ١٣٢٤هـ — و١٩٠٦م

مطبعة التقدم بشارع محمد على بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

نبدأ فى هذا الجزء بتمام القول فى نيران العرب والعجم ونيران الديانة ومبلغ أقدارها عند أهل كل ملة وما يكون منها مفخراً وما يكون منها مذموماً وما يكون صاحبها بذلك مهجوراً ونبدأ بالاخبار عنها وبدئها وعن نفس جوهرها وكيف القول في كونها وظهورها إن كانت النار قد كانت موجودة العين قبل ظهورها وعن كونها على المجاورة كان ذلك أم على المداخلة وفى حدوث عينها ان كانت غير كامنة وفى استحالة الهوي لها والعود جمراً إن كانت الاستحالة جائزة وكانت الحجة فى تثبت الاعراض صحيحة وكيف القول فى الضرام الذى يظهر من الشجر وفى الشرر الذى يظهر من الحجر وما القول فى لون النار فى حقيقتها وهل يختلف الشرار في طبائعها أم لا اختلاف بين جميع جواهرها أم يكون اختلافها على قدر اختلاف مخارجها ومداخلها وعلى قدر اختلاف ما لاقاها وهيجها ونبدأ باسم الله وتأييده بقول أبى اسحاق (قال أبو إسحاق) النار اسم للحرق والضياء فاذا قالوا أحرقت أو سخنت فانما الاحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين وهو الحر دون الضياء وزعم أن الحر جوهر صعاد وانما اختلفا ولم يكن اتفاقهما على الصعود موافقاً بين جواهرهما لانهما متي صارا من العالم العلوى الى مكان صار أحدهما فوق صاحبه وكان يجزم القول ويبرم الحكم فان الضياء هو الذي يعلو اذا انفرد ولا يعلى قال ونحن انما صرنا اذا أطفأنا نار

الاتون وجدنا أرضه وهواه وحيطانه حارة ولم نجدها مضيئة لأن فى الارض وفى المادى الذى قد لابس الارض حداً كثيراً وتداخلا متشابكا وليس فيها ضياء وقد كان حر النار هيج تلك الحرارة فاظهرها ولم يكن هناك ضياء من ملابس فيهيجها الضياء ويظهرها كما اتصل الحر بالحر فازاله من موضعه وأبرزه من مكانه فلذلك وجدنا أرض الأتون وحيطانها وهواها حارة ولم نجدها مضيئة (وزعم أبو اسحاق) أن الدليل على أن في الحجر والعود ناراً اختلاف الجهات لانه يلزم من أنكر ذلك أن يزعم أن ليس في السمسم دهن ولا في الزيتون زيت ومن قال ذلك لزمه أن يقول أن ليس في الانسان دم وأن الدم انما يخلق عند الشرط وكان ليس بين من أنكر أن يكون الصبر مر الجوهر والعسل حلو الجوهر قبل أن لا يذاقا وبين السمسم والزيتون قبل أن يعصرا فرق وان زعم الزاعم أن الحلاوة والمرارة عرضان والزيت والخل جوهر واذا لزم من قال ذلك في حلاوة العسل وحموضة الخل وهما طعمان لزمه مثل ذلك فى ألوانهما فيزعم ان سواد السبج وبياض الثلج وحمرة العصفر وصفرة الذهب وخضرة البقل انما تحدث عند رؤية الانسان وان كانت المعاينة والمقابلة غير عاملين فى تلك الجواهر (قال) فاذا قاس ذلك المتكلم في لون الجسم بعد طعمه وفى طوله وعرضه وصورته بعد رائحته وفى خفته وثقل وزنه كما قال في رخاوته وصلابته فقد دخل في باب الجهالات ولحق بالذين زعموا أن القربة ليس فيها ماء وان وجدوها باللمس ثقيلة مؤكدة وانما تخلق عند حل رباطها وكذلك فليقولوا فى الشمس والقمر والكواكب والجبال اذا غابت عن أبصارهم قال فمن هرب عن الانقطاع الى الجهالات كان الذى هرب اليه أشد عليه وكان يضرب لهما مثلا ذكرته لظرافته (حكى) عن رجل أحدب سقط في بئر فاستوت حدبته وحدثت له أدرة فى خصيته فهناه رجل عن ذهاب حدبته فقال الذى جاء شر من الذى ذهب وكان أبو اسحاق يزعم أن ضرار بن عمرو قد جمع في إنكاره القول بالكمون الكفر والمعاندة لانه كان يزعم أن التوحيد لا يصح مع انكار الكمون وأن القول بالكمون لا يصح الا بأن يكون في الانسان دم وانما هو شئ يخلق عند الرؤية قال وهو قد كان يعلم

يقينا ان جوف الانسان لايخلو من دم قال ومن زعم أن شيئاً من الحيوان يعيش بغير الدم أو شيء يشبه الدم فواجب عليه أن يقول بانكار الطبائع ويدفع الحقائق فى قول جهم فى تسخين النار وتبريد الثلج وفي الادراك والحس والغذاء والشم وذلك باب آخر في الجهالات ومن زعم أن التوحيد لايصلح إلا بان يكون في الانسان دم وإلا بأن تكون النار لاتوجب الاحراق والبصر الصحيح لايوجب الادراك فقد دل على أنه في غاية النقص والغباوة أو فى غاية التكذيب والمعاندة (وقال أبو اسحاق) وجدنا الحطب عند انحلال أجزائه وتفرق أركانه التى بني عليها ومجموعاته التى ركب منها وهى أربع نار ودخان وماء ورماد ووجدنا للنار حراً وضياء ووجدنا للماء صوتاً ووجدنا للدخان طعما ولونا ورائحة ووجدنا للرماد طعما ولونا ويبساً ووجدنا للماء السائل من كل واحد من أصحابه ثم وجدناه ذا أجناس ركبت من المفردات ووجدنا الحطب ركب على ما وصفنا زعمنا أنه ركب من المزدوجات ولم يركب من المفردات (قال أبو اسحق) فاذا كان المتكلم لا يعرف القياس ويعطيه حقه فرأى أن العود حين احتك بالعود فانه يلزمه فى الدخان مثل ذلك ويلزمه في الماء السائل مثل ذلك وان قاس قال فى الرماد مثل قوله فى الدخان والماء والافهو إماجاهل وإما متحكم وان زعم أنه انما أنكر أن تكون النار كانت في العود لانه وجد النار أعظم من العود ولا يجوز أن يكون الكبير في الصغير وكذلك الدخان فليزعم أن الدخان لم يكن فى الحطب وفى الزيت وفي النفط فان زعم أنهما سواء وانه انما قال بذلك لان بدن ذلك الحطب لم يكن يسع الذى عاين من بدن النار والدخان فليس ينبغى لمن أنكر كونها من هذه الجهة أن يزعم أن شرر القداحة والحجر لم يكونا كامنين في الحجر والقداحة وليس ينبغى أن ينكر كمون الدم فى الانسان وكمون الدهن فى السمسم وكمون الزيت فى الزيتون ولا ينبغي أن ينكر من ذلك الا مالايكون الجسم يسعه فى العين فكيف وهم قد أجروا هذا الانكار في كل ماغاب عن حواسهم من الاجسام المستترة بالاجسام حتى يعود بذلك الى أن طال في الاعراض كنحو حموضة الخل وحلاوة العسل وعذوبة الماء ومرارة الصبر قال فان قاسوا قولهم وزعموا

أن الرماد حادث كما قالوا في النار والدخان فقد وجب عليهم أن يقولوا في جميع الاجسام مثل ذلك كالدقيق المخالف للبر في لونه وفي صلابته وفي مساحته وفي أمور غير ذلك منه فقد ينبغي أن تزعم أن الدقيق حادث وان البر قد بطل واذا زعم ذلك زعم أن الزبد الحادث بعد المخض لم يكن في اللبن وأن جبن اللبن حادث وقاس ماء الجبن على الجبن وليس اللبن الا الجبن والماء واذا زعم أنهما حادثان وان اللبن قد بطل لزمه أن يكون الفخار الذي لم نجده حتى عجنا التراب اليابس المتهافت على حدته بالماء الرطب السيال على حدته ثم سويناه بالنار الحارة الصفارة على حدتها ووجدنا الفخار في العين واللمس والذوق والشم وعند النقر والصك على خلاف ما وجدنا عليه النار وحدها والماء وحده والتراب وحده فان كان ذلك الفخار هو تلك الاشياء والحطب وتلك الاشياء إلا ان أحدها من تركيب العباد والآخر من تركيب الله والعبد لا يقلب المركبات عن جواهرها بتركيبه ما ركب منها والحجر متى صك بيضة كسرها وكيف دار الامر وسواء كانت الريح تقلبه أو انسان فان زعموا أن الفخار ليس ذلك التراب وذلك الماء وتلك النار وقالوا مثل ذلك في جميع الاخبصة والانبذة كان آخر قياسهم أن يجيبوا بجواب أبي الجهجاه فان زعم أن القائم غير القاعدة والعجين غير الدقيق وزعموا أنه لو لم يقل ذلك ان الحبة ٢ متى فلقت فقد بطل الصحيح وحدث جسمان في هيئته نصفي الحبة كانت اذا فلقت بأربع فلق الى أن تصير سويقا ثم تصير دقيقا ثم تصير عجينا ثم تصير خبزاً ثم تعود رجيعاً وزبلا ثم تعود ريحانا وبقلا ثم يعود أيضاً لبناً وزبداً لان الجلالة من البهائم تأكله فيعود لحما ودما (وقال أبو الجهجاه) فليس القول الا ما قال أصحاب الكمون أو قول هذا (قال أبو اسحق) فان اعترض علينا معترض من أصحاب الاعراض فزعم أن النار لم تكن كامنة وكيف تكمن فيه وهي أعظم منه ولكن العود اذا احتك بالعود حمي العودان وحمي من الهواء المحيط بهما الجزء الذي بينهما ثم الذي يلي ذلك منهما فاذا احتدم رق ثم جف والتهب فانما النار هواء استحال والهواء في اصل جوهره حار رقيق وهو جسم رقيق خوار جيد القبول سريع الانقلاب والنار التي تراها أكثر من الحطب انما هي ذلك الهواء المستحيل وانطفاؤها بطلان تلك الاعراض الحادثة

من النارية فيه فالهواء سريع الاستحالة الى النار سريع الرجوع الى طبعه الاول وليس انها اذا عدمت فقد انقطع الى شكل لها علوي واتصل وصار الى تلاده ولان أجزاءها أيضاً تقرب في الهواء لانها كانت كامنة فى الحطب متداخلة منقبضة فيه فلما ظهرت انبسطت وانتشرت وإنما الذهب هو استحال ناراً لان الهواء قريب القرابة من النار والماء هو حجاز بينهما لان النار يابسة حارة والماء رطب بارد والهواء حار رطب فهو يشبه الماء من جهة الرطوبة والصفاء ويشبه النار بالحرارة والخفة فهو يخالفهما ويوافقهما فلذلك جاز ان ينقلب اليهما انقلابا سريعا كما ينعصر الهواء اذا استحال رطبا وحدث له كثافة الى أن تعود أجزاؤه مطرا فالماء ضد النار والهواء خلاف لهما وليس بضد ولا يجوز أن ينقلب الجوهر الى ضده حتى ينقلب بديا الى خلافه فقد يستقيم أن ينقلب الماء هواء ثم ينقلب الهواء ناراً وينقلب الهواء ماء ثم ينقلب الماء أرضاً فلابد من الانقلاب فى الترتيب والتدريج وكل جوهر فله مقدمات لان الماء قد يحيل الطين صخراً وكذلك فى العكس قد يستحيل الصخر هواء والهواء صخراً الا على هذا التنزيل ولا ترتيب (وقال أبو اسحق) لمن قال بذلك من حذاق أصحاب الاعراض قد زعمتم أن النار التى عاينّاها لم تخرج من الحطب ولكن الهواء المحيط بهما احتدم واستحال ناراً فلعل الحطب الذى يسيل منه الماء الكثير ان يكون ذلك الماء لم يكن في الحطب ولكن ذلك المكان من الماء استحال ماء وليس ذلك المكان من الهواء أحق بأن يستحيل ماء من أن يكون سبيل الدخان في الاستحالة سبيل النار والماء فان قاس القوم ذلك فزعموا أن النار التى عاينّاها وذلك الماء والدخان فى كثافة الدخان وسواده والذى يتراكم منه فى أسافل القدر وسقف المطابخ انما ذلك هواء استحال فلعل الرماد أيضا هواء استحال رماداً فان قلتم الرماد فى أول ثقله المتراكم على أسافل القدور وفى بطون سقوف قد الحمامات الذى دبر بعض التدبير جامنه الانفاس المحببة أحق بأن استحال أرضيا فان قاس العرض وزعم أن الحطب انحل بأسره فاستحال بعضه رماداً كما قد كان بعضه ناراً مرة واستحال بعضه ماء كما كان بعضه ماء مرة وبعضه استحال أرضا كما كان بعضه أرضاً مرة ولم يقل إن الهواء المحيط به استحال رماداً ولكن بعض أخلاط الحطب استحال رماداً

ودخاناً وبعض الهواء المتصل به استحال ماء وبعضه استحال ناراً على قدر العوامل وعلى المقابلات له وإذا قال صاحب العرض ذلك كان قد أجاب في هذه الساعة على حد ما نزلته لك وهذا باب من القول فى النار وعلينا أن نستقصى للفريقين والله المعين (وباب آخر) وهو أن بعض من ينكر كون النار فى الحطب قالوا ان هذا الحر الذى رأيناه قد ظهر من الحطب لو كان في الحطب لكان واجبا أن يجده من مسه كالجمر المتوقد اذا لم يكن دونه مانع منه ولو كان هناك مانع لم يكن ذلك المانع الا البرد لان اللون والطعم والرائحة لا يفاسد الحر ولا يمانعه الذي يضاده دون الذى يخالفه ولا يضاده فان زعم زاعم انه قد كان هناك من أجزاء البرد ما يعادل ذلك الحر ويطاوله ويكافيه ويوازيه فلذلك صرنا اذا مسسنا الحطب لم نجده مؤذيا وانما يظهر الحرق ويحرق لزوال البرد اذا قام في مكانه وظهر الحر وحده فظهر عمله ولو كان البرد المعادل لذلك الحر مقيما فى العود على أصل كونه فيه لكان ينبغي لمن مس الرماد بيده أن يجده أبرد من الثلج فاذا كان مسه كمس غيره فقد علمنا انه ليس هناك من البرد ما يعادل هذا الحر الذي يحرق كل شيء لقيه فان زعم أنهما خرجا جميعاً من العود فلا يخلو البرد أن يكون أخذ فى جهته فلم وجدنا الحر وحده وليس هو بأحق أن نجده من ضده وان كان البرد أخذ شمالا وأخذ الحر جنوبا فقد كان ينبغي أن يخمد ويهلك ما لاقاه كما أهلك الحر وأحرق وأذاب كلما لاقاه قالوا فلما وجدنا جميع أقسام هذا الباب علمنا أن النار لم تكن كامنة فى الحطب قال أبو اسحق والجواب عن ذلك أنا نزعم أن الغالب على العالم السفلى الماء والارض وهما جميعا باردان وفي اعماقهما واضعافهما من الحر ما يكون مغموراً ولا يكون غامراً ويكون مقموعا ولا يكون قامعا لان هناك قليل والقليل ذليل والذليل غريب والغريب محقور فلما كان العالم السفلى كذلك حدث ما فيه من قوة البرد وذلك البرد الذي كان فى العود عند زوال مانعه لان العود مقيم فى هذا العالم ثم لم ينقطع ذلك البرد الى برد الارض الذي هو كالعرض له الا بالطفرة والتحطيف على الامور بالاماكن والمجاورة لها وقام برد الماء منه مقام قرص الشمس من الضياء الذي يدخل البيت للخرق الذى يكون فيه فاذا سد فم السد ينقطع الى قرصه واصل جوهره فاذا أجاب بذلك أبو

أسحاق لم يجد خصمه بدا من أن يبتدئ مسالة فى افساد القول بالطفرة والتحطيف ولولا ما اعترض به أبو اسحاق من الجواب بالطفرة في هذا الموضع لكان هذا مما يقع في باب الاستدلال على حدوث العالم وكان أبو إسحاق يزعم أن احتراق الثوب والحطب والقطن انما هو خروج نيرانه منه وهذا هو تأويل الاحتراق ليس أن نارا جاءت من مكان فعملت فى الحطب ولكن النار الكامنة في الحطب لم تكن تقوى على نفى ضدها عنها فلما اتصلت بنار أخرى واشتدت منها قويتا جميعاً على نفى ذلك المانع فلما زال المانع ظهرت فعند ظهورها تجزأ الحطب وتجفف وتهافت لمكان عملها فيه فاحراقك للشيء انما هو اخراجك نيرانه منه وكان يزعم ان حر الشمس انما تحرق فى هذا العالم باخراج نيرانها منه وهى لا تحرق ما عقد العرض وكثف تلك النداوة لان التي عقدت تلك الاجزاء من الحر أجناس لا تحترق كاللون والطعم والرائحة والصوت والاحتراق انما هو ظهور النار عند زوال مانعها فقط وكان يزعم أن سم الافعي مقيما فى بدن الافعى ليس يقتل وأنه متى مازج بدنا لا سم فيه لم يقتل ولم يتلف وانما يتلف الابدان التى فيها سموم ممنوعة مما يضادها فاذا دخل عليها سم الافعى عاون السم الكامن ذلك السم الممنوع على مانعه فاذا زال المانع تلف البدن المنهوش عند أبي اسحاق انما كان أكثر ما أتلفه السم الذى معه وكذلك كان يقول فى حر الحمام والحر الكامن في الانسان ان الغشى الذى يعتريه فى الحمام من الحر القريب ولكن من الحر الغريب حرك الحر الكامن فى الانسان وامده ببعض أجزائه فلما قوى عند ذلك على مانعه فازاله ذلك العمل الذى كان توقعه بالمانع واقعا به وانما ذلك كماء حار يحرق اليد صب عليه ماء بارد فلما دخل عليه الماء البارد صار شغله بالداخل وصار من وضع يده فيه وضع يده في شئ قد شغل فيه بغيره فلما دفع الله عز وجل عند ذلك الجسم الذى هو مشغول به صار ذلك الشغل مصروفا الى من وضع يده فيه اذ كان لا ينفك من عمله وكان مع ذلك يزعم أنك لو أطفأت نار الاتون لم تجد شيئا من الضوء ووجدت الكثير من الحرلان الضياء لو لم يكن له فى الارض أصل ينسب اليه وكان له في العلو أصل كان أولى به وفى الحقيقة انهما جميعاً قد اتصلا بجوهرهما من العالم العلوي وهذا الحر الذى تجده فى لارض انما هو من الحر

الكامن الذى زال مانعه هكذا كان ينبغى أن يقول وهو قياسه وكان يزعم أنك ان أبصرت مصباحا قائماً الى الصبح أن الذى رأيته فى أول وهلة قد بطل من هذا العالم وظفر من الدهر بشيء من وزنه وقدره بالافضل ثم كذلك الثالث والرابع والتاسع فانت إن ظننت أن هذا المصباح ذلك فليس به ولكن ذلك المكان لايخلو من أقسام متقاربة متشابهة لم يكن فى الاول شبه ولا علامة وقع عندك أن المصباح الذى رأيته مع طلوع الفجر هو الذي رأيته مع غروب الشفق وكان يزعم أن نار المصباح لم تأكل شيأ من الدهن ولم تشربه وأن النار لاتأكل ولا تشرب ولكن الدهن ينقص على قدر مايخرج منه من الدخان والنار الكامنين اللذين كانا فيه وإذا خرج كل شيء فهو بطلانه وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل وعلى الاشتقاق وعلى التشبيه فان قلتم فقد قال الله عز وجل في الكتاب (الذين قالوا إن الله عهد الينا أن لانؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) فقد علمنا أن الله عز وجل إنما كلمهم بلغتهم وقد قال أوس بن حجر

فأشرط فيها نفسه وهو معصم * وألقي بأسباب له وتوكلا
وقد أكلت أظفاره الصخر كلما * تعايا عليه طول مرقى توصلا

فجعل النحت والشقص أكلا وقال خفاف بن ندبة

أبا خراشة إما أنت ذا نفر * فان قومي لم تأكلهم الضبع

والضبع السنة فجعل شقص الجدب والازمه بابا آخر مما يسمونه أكلا وقال مرداس ابن أدية

وأدّت الارض مني مثل ماأكلت * وقربوا لحساب القسط أعمالى

وأكل الارض لماصار فى بطنها احالتها له الى جوهرها

باب آخر

وهو قول الله عز وجل (إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلما) وقوله تعالى عز اسمه (أكالون للسحت) وقد يقال لهم ذلك وان شربوا بتلك الاموال الانبذة ولبسوا الحلل وركبوا الدواب ولم ينفقوا منها درهما واحداً فى سبيل الا كل وقد قال الله عز وجل

(إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) وهذا أيضاً مجاز آخر وقال الشاعر في اجزاء السنين من اجزاء الخمر

أكل الدهر ما تجسم منها * وتبقى مصاصها المكنونا

وقال الشاعر

مرت بنا تختال فى أربع * يأكل منها بعضها بعضا

وهذا قوله *وقد أكلت أظفاره الصخر* إلا كقوله *كضب الكري ابرى براثنه الحفر*

واذا قالوا أكله الاسد فانما يذهبون الى الاكل المعروف واذا قالوا أكله الاسود فانما يعنون النهش واللدغ والعض فقط وقد قال الله عز وجل (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) ويقال هم لحوم الناس وقال قائل لاسماء بن حماد أى اللحمان أطيب قال لحوم الناس هي والله أطيب من الدجاج ومن الفراخ والعنوز والحمر ويقولون فى باب آخر فلان يأكل الناس ان لم يأكل من طعامهم شيأ وأما قول أوس بن حجر

وذو شطبات قده ابن مجدع * له رونق ردينه يتأكل

فهذا على خلاف الاول وكذلك قول دهمان النهرى

سألتنى عن أناس أكلوا * شرب الدهر عليهم وأكل

فهذا كله مختلف وهو كله مجاز (باب آخر) وهو قول الرجل إذا بالغ فى عقوبة عبده ذق وكيف ذقته وكيف وجدت طعمه وقال عز وجل (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وأما قولهم ماذقت اليوم ذواقا فانه يعنى ما أكلت اليوم طعاماً ولا شربت شرابا وإنما أراد القليل والكثير وانه لم يذقه فضلا عن غير ذلك وقال بعض طبقات الفقهاء ممن يشتهى أن يكون عند الناس متكلما ماذقت اليوم ذواقا على وجه من الوجوه ولا على معنى من المعانى ولا على سبب من الاسباب ولا على جهة من الجهات ولا على لون من الألوان وهذا من عجيب الكلام قال ويقول الرجل لوكيله إئت فلانا فذق ماعنده وقال شماخ بن ضرار

فذاق فأعطته من اللين جانباً * كفى ولها أن يغرق السهم حاجز

وقال ابن مقبل

وكاهتزاز رديني تذاوقه * أيدى التجار فزادوا متنه لينا

وقال بشار بن حربى

وعهد الغانيات كعهد قين * ونت عنه الجعائل مستذاق

الجعائل من الجعل وتجاوزوا ذلك الى أن قال يزيد بن الصعق لبنى سليم حين صنعوا بسيدهم العباس ماصنعوا وقد كانوا توجوه وملكوه فلما خالفهم في بعض الامر وثبوا عليه وكان سبب ذلك قلة رهطه وقال يزيد بن الصعق

وإن الله ذاق حلوم قيس * فلما ذاق خفتها قلاها

رآها لاتطيع لها أميراً * فخلاها تردد فى خلاها

فزعم أن الله عز وجل يذوق عند ذلك قال هياش الرعلى يخبر عن قلته وكثرتهم فقال

وأمكم ترجوا التؤام لبعلها * وأم أخيكم كزة الرحم عاقر

وزعم يونس أن أسلم بن زرعة لما أنشد هذا البيت أغرورقت عيناه وجعل هياش أمه عاقراً إذ كانت نزوراً وقد قال الغنوى

وتحدثوا ملأً لتصبح أمنا * عذراء لا كهل ولا مولود

جعلها إذقل ولدها كالعذراء التى لم تلد قط لما كانت كالعذراء جعلها عذراء وللعرب إقدام على الكلام ثقة بفهم أصحابهم عنهم وهذه أيضاً فضيلة أخري وكما جوزوا لقولهم أكل وإنما عض وأكل وإنما أفني وأكل وإنما أجاله وأكل وانما أبطل عينه جوزوا أيضاً أن يقولوا ذقت ماليس بطعم ثم قال طعمت لغير الطعام وقال العرجى

وان شئت حرمت النساء سواكم * وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

قال الله تعالى (إنى مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه مني) يريد لم يذق طعمه وقال علقمة بن عبدة

وقد أصاحب فتيانا طعامهم * حمر المزاد ولحم فيه تنشيم

يقول هذا طعامهم في الغزو والسفر البعيد الغاية وفى الصيف الذى يفتر الطعام والشراب والغزو على هذه الصفة من المفاخر ولذلك قال الاول

لا لا أعق ولا أحو * ب ولا أغير على مضر

لكنما غـزوى إذا * صح المطي من الدبر

وعلى المعنى الاول قول الشاعر

قالت الافاطم عميرا تمراً * وكان تمرى كهرة وزبرا

وعلى المعني الاول قال حاتم هذا فصدي أنه ولذلك قال الراجز *العامرات البيت بالخراب* يقول هذا هو عمارتها وكان أبو اسحاق يتعجب من قولهم النار يابسة قال أما قولهم الماء رطب فيصح لأنا نراه سيالا واذا قال الارض يابسة فانما يريد التراب المتهافت فقط فان لم يرد الابدن الارض الملازم بعضه لبعض لما فيها من اللدونة فقط فقد أخطأ لان أجزاء الارض مخالطة لاجزاء الماء فامتنعت من التهافت على أقدار ذلك ومتى حفرنا ودخلنا فى عمق الارض وجدنا الارض طينا بل لاتزال تجد الطين أرطب حتى تصير الى الماء والارض اليوم كلها أرض وماء والماء ماء وارض وانما يلزمها من الاسم علي قدر الكثرة والقلة فاما النار فليست بيابسة البدن ولو كانت يابسة البدن لتهافتت تهافت التراب ولتبرأ بعضها من بعض كما أن الماء لما كان رطبا كان سيالا ولكن القوم لما وجدوا النار تستخرج كل شئ فى العود من النار فظهرت الرطوبات لذلك السبب ووجدوا العود تميز أخلاطه عند خروج نيرانه التى كانت إحدى مراتبها من التمييز فوجدوا العود قد صار رماداً يابساً متهافتاً ظنوا أن يبسه انما هو مما اعطته النار وولدت فيه والنار لم تعطه شيئاً ولكن نار العود لما فارقت رطوبات العود ظهرت تلك الرطوبات الكامنة والمائعة فبقى من العود الجزء الذي هو الرماد وهو جزء الارض وجوهرها لان العود فيه جزء أرضى وجزء مائى وجزء ناري وجزء هوائى فلما خرجت النار وأعتزلت الرطوبة بقى الجزء الارضى فقولهم النار يابسة غلط وانما ذهبوا الي ماتراه العيون ولم يغوصوا على مغيبات العلل وكان يقول ليس القوم فى طريق خاص المتكلمين ولا فى طريق الجهابذة المتقدمين وكان يقول إن الامة التى لم تنضجها الارحام ويخالفون فى ألوان أبدانهم وأحداق عيونهم وألوان شعورهم سبيل الاعتدال لاتكون عقولهم وقرائحهم الا على حسب ذلك وعلى حسب ذلك تكون أخلاقهم وآدابهم وشمائلهم وتصرف هممهم فى لؤمهم وكرمهم لاختلاف

السبك وطبقات الطبخ وتفاوت ما بين المطير والخمير والمقصر والمجاوز وموضع العقل عضو من تلك الاعضاء وجزء من تلك الاجزاء وكالتفاوت الذى بين الصقالبة والزنج وكذلك القول فى الصور ومواضع الاعضاء ألا ترى ان أهل الصين والتبت وحذاق الصناعات لما فيها الرفق والحذق واطف المداخل والاتساع فى ذلك والغوص على غامضه وبعيده وليس عندهم لا ذلك فقد يفتح لقوم فى باب الصناعات ولا يفتح لهم سوى ذلك قال وكان يخطئهم فى قولهم ان الحرارة تورث اليبس لأن الحرارة انما ينبغى أن تورث السخونة وتولد مايشا كلها ولا تولد ضربا آخر مما ليس منها فى شئ ولو جاز أن تولد من الاجناس التى تخالفها شكلا واحداً لم يكن ذلك الخلاف باحق من كلام آخر إلا ان يذهبوا الى سبيل المجاز فقد يقول الرجل انما رأيتك لاني التفت وهو انما رآه لطبع في البصر الدارك عند ذلك الالتفات ولذلك يقول قد نجد النار تداخل ماء القمقم بالايقاد من تحته فاذا صارت النار في الماء لابسته واتصلت بما فيه من الحرارات والنار صعادة ليحدث عند ذلك الماء غليان لحركة النار التى قد صارت فى إضعافه وحركتها تصعد فاذا توقعت أجزاء النار وقعت معها لطائف من تلك الرطوبات التى قد لابستها فاذا دام ذلك الايقاد من النار الداخلة على الماء صعدت أجزاء الرطوبات الملابسة لاجزاء النار ولقوة حركة النار وطلبها التلاد العلوى كان ذلك فمتى وجد من لا علم له في أسفل القمقم كالحس أو وجد الباقي من الماء مالحا عند تصعد لطائفه على مثال مايعتري ماء البحر ظن أن النار التى أعطته اليبس وإن زعموا أن النار هي الميبسة على معني ما قد فسرنا فقد أصابوا فان ذهبوا الى غير المجاز فقد أخطؤا وكذلك الحرارة اذا مكنت في الاجساد بعثت الرطوبات ولابستها فمتى قويت على الخروج أخرجتها منها فعند خروج الرطوبات توجد الابدان يابسة ليس أن الحر يجوز أن يكون له عمل الا التسخين والصعود والتقلب الى الصعود من الصعود كما ان الاعتماد من شكل الزوال وكذلك الماء الذي يفيض الي البحر من جميع ظهور الارضين وبطونها اذا صار الى تلك الحفرة العظيمة فالماء غسال مصاص والارض تقذف اليه مافيها من الملوحة والذى يخرج اليه من الارض من أجزاء

النيران المخالطة يرفعان لطائف الماء بارتفاعهما وتخبيرهما فاذا رفعا اللطائف فصار منهما مطر وما يشبه المطر وكان ذلك دأبهما وعاد ذلك الماء ملحاً لأن الارض اذا كانت تعطيه الملوحة والنيران تخرج منه العذوبة واللطافة كان واجباً أن يعود الى الملوحة ولذلك يكون ماء البحر ابداً على كيل واحد ووزن واحد لان الحدود تطلب القرار وتجرى فى اعماق الارض برفع اللطائف فيصير مطراً وبرداً وثلجاً وطلاً ثم تعود تلك الانواء سيولا تطلب الحدود وتطلب القرار وتجرى في اعماق الارض حتى تصير الي ذلك الهواء فليس يضيع من ذلك الماء شيء ولا يبطل منه شيء والاعيان قائمة فكانه مجنون غرق من بحر وصب فى جدول يفيض الى ذلك النهر فهو عمل الحرارات إذا كانت فى أجواف الحطب او فى أجواف الارضين أو فى أجواف الحيوان والحر اذا صار فى البدن فانما هو شيء مكره والمكره لايالو تخلص وهو لا يتخلص الا وقد جمل معه كل ماقوى عليه مما لم يشبه فتى خرج خرج معه ذلك الشيء قال فمن ههنا غلط القوم قال ابو اسحق قالت الدهرية فى عالمنا هذا باقاويل فنهم من زعم ان عالمنا هذا من اربعة اركان حر وبرد ويبس وبلة وسائر الاشياء نتائج وتركيب وتوليد وجعلوا هذه الاربعة اجساما ومنهم من زعم أن هذا العالم من اربعة اركان من ارض وهواء وماء ونار وجعلوا الحر والبرد واليبس والبلة أعراضاً في هذه الجواهر ثم قالوا فى سائر الارايح والألوان والأصوات ثمار هذه الاربعة على قدر الاخلاط فى القلة والكثرة والرقة والكثافة فقدموا ذكر نصيب حاسة النفس فقط واضربوا عن انصباء الحواس الاربع قالوا ونحن نجد الطعوم غاذية وقاتلة وكذلك الارايح ونجد الاصوات ملذة ومؤلمة وهي مع ذلك قاتلة وناقضة للقوى متلفة ونجد الالوان في المضار والمنافع واللذاذة والالم المواقع التى لا تجهل كما وجدنا مثل ذلك فى الحر والبرد واليبس والبلة ونحن لم نجد الارض باردة يابسة غير انا نجدها مالحة أو ذات لون ومذاقة أى ذلك كان وجدناها ذات رائحة وذات صوت متي قرع بعضها بعضاً فبرد هذه الاجرام وحرها ويبسها ورطوبتها لم تكن فيها العلة كون الطعوم والارايح والالوان فيها وكذلك طعومها وأريحها وألوانها لم تكن فيها العلة لكون البرد واليبس والحر والبلة فيها ووجدنا

كل ذلك إما ضاراً واما نافعاً واما غاذيا واما قاتلا وإما مؤلما واما ملذاً وليس يكون كون الارض مالحة وعذبة ومنتنة أو طيبة أحق بان تكون علة لكون اليبس والبرد والحر والرطوبة من أن يكون كون الرطوبة واليبس والحر والبرد علة لكون اللون والطعم والرائحة وقد هجم الناس على هذه الاعراض الملازمة والاجسام المشاركة هجوما واحداً على هذه الحلية والصورة ألقاها الاول والآخر قال فكيف وقع القول منهم على نصيب هذه الحاسة وحدها ونحن لم نرمن البلة أو من البل نفعاً ولا ضرا تنفرد به دون هذه الأمور قال (والهواء يختلف على قدر العوامل) فيه من تحت ومن فوق ومن الأجرام المشتملة عليه والمخالطة له وهو جسم رقيق وهو في ذلك محصور وهو خوار سريع القبول وهو مع رقته يقبل ذلك الحصر مثل عمل الريح والزق فانها تدفعه من جوانبه وذلك لعلة الحصر واقطعه عن شكله والهواء ليس بالجسم الصعاد والجسم النزال ولكنه جسم به تعرف المنازل والمصاعد والأمور ثلاثة شيء يصعد في الهواء وشيء ينزل في الهواء وشيء مع الهواء فكما أن المصعد فيه والمنحدر لا يكونان الا مخالفين فالواقف معه لا يكون الا موافقا ولو ان انسانا أرسل من يده وهو في قعر الماء زقا منفوخا فارتفع الزق لدفع الريح التي فيه لم يكن لقائل أن يقول ذلك الهواء شأنه الصعود بل إنما ينبغي أن يقول من شأنه ان يصير الى جوهره ولا يقيم في غير جوهره الا أن يقول من شأنه ان يصعد في الماء كما ان من شان الماء ان ينزل في الهواء وكما ان الماء يطلب تلاد الماء والهواء يطلب تلاد الهواء قالوا والنار أجناس كثيرة مختلفة وكذلك الصاعد ولا بد اذا كانت مختلفة أن يكون بعضها أسرع من بعض أو يكون بعضها اذا خرج من عالم الهواء وصار الى نهاية الى حيث لا منفذ لا يزال فوق الآخر الذي صعد معه وان وجد مذهبا لم يقم عليه ويدل على ذلك انا نجد الضياء صعاداً والصوت صعادا ونجد الظلام راكدا وكذلك البرد والرطوبة فاذا صح ان هذه الاجناس مختلفة واذا حدث في جهة علمنا ان الجهة لا تخالف بين الاجناس ولا توافق وان الذي يوفق منها اختلاف الاعمال ولا يكون القطعان متفقين الا بان يكون سرورهما سواء واذا صار الى الغاية صار اتصال كل واحد منهما بصاحبه كاتصال

بعضه ببعض ثم لا يوجد أبداً الا إما اعلا وإما أسفل (قال أبو اسحق) فيستدل على ان الضياء أخف من الحر لزواله وقد ذهب ضوء الأتون وتبقى سخونته قال أبو اسحق لأمر ما حصر الهواء في جوف هذا الفلك ولا بد لكل محصور من أن يكون تقلبه وضغطه على قدر شدة الحصار وكذلك الماء اذا اختنق قال والريح هواء ترك لا غير فلم قضوا على طبع الهواء في جوهريته بالسخونة والهواء الذي يكون بقرب الشمس والهواء الذي بينهما على خلاف ذلك ولولا ان قوى البرد غريزية فيه لما كان مروحا عن النفوس ومنفسا عن جميع الحيوان اذا اختنق في أجوافها البخار والوهج المؤذى حتى فزعت اليه واستغاثت به وصارت تجتاب من روحه وبرد نسيمه في وزن ماخرج من البخار الغليظ والحرارة المستكنة قال وقد علموا ما في اليبس من الخصومة والاختلاف وقد زعم قوم ان اليبس إنما هو عدم البلة قالوا وعلى قدر البلة قد تحول عليه الاسماء حتى قال خصومهم فقولوا أيضاً انما نجد الجسم باردا على قدر قلة الحر فيه وكذلك قالوا في الكلام ان الهواء انما يقع عندنا أنه مظلم لفقدان الضياء ولان الضياء قرص قائم وشعاع ساطع فاصل وليس للظلام قرص ولو كان في هذا العالم شئ يقال له ظلام لما قام لا في قرص فكيف تكون الأرض قرصة والأرض غبراء ولا ينبغي أن يكون شعاع الشئ أسبغ منه قال والاول لا يشبه القول في اليبس والبلة والقول في الحر والبرد والقول في اليبس والرطوبة والقول في الخشونة واللين لان التراب لو كان كله يابسا وكان اليبس في جميع أجزائه شائعا لم يكن بعضه أحق بالتقطيع والتبدد والتهافت من الجزء الذي نجده متمسكا قال خصمه ولو كان أيضاً التهافت الذي نجده فيه إنما هو لعدم البلة وكله قد عدم البلة لكان ينبغي للكل ان يكون متهافتا ولا نجد منه جزءين متلازقين فان زعمتم أنه إنما اختلف في التهافت على قدر اختلاف اليبس فينبغي لكم ان تجعلوا اليبس طبقات كما تجعل ذلك للخضرة والصفرة وقال إبراهيم أرأيت لو اشتمل اليبس الذي هو غاية التراب كله كما عرض لنصفه أما كان واجبا ان يكون الافتراق داخلا على الجميع وفي ذلك القول بالجزء الذي لا يتجزأ وأبو اسحق وان كان اعترض على هؤلاء في باب القول في اليبس فان المسألة عليه وذلك أشد وكان أبو اسحاق

يقول من الدليل على أن الضياء أخف من الحر ان النار تكون منها على قاب علوها فيأتيك ضوؤها ولا يأتيك حرها ولو أن شمعة فى بيت ذى سقف لارتفع الضوء فى الهواء حتى لاتجد منه على الارض الا الشئ الضعيف وكان الحر على شبيهه بحاله الاول وقال أبو اسحق زعمت الديصانية ان أصل العالم انما هو من ضياء وظلام وان الحر والبرد واللون والطعم والصوت والرائحة انما هى نتائج على قدر امتزاجها فقيل لهم وجدنا الخبز اذا اختلط باللبن صار جسما أغبر واذا خلطت الصبر بالعسل صار جسما مر الطعم ومتى زدنا من أحدهما أعطانا من ذاك الطعم على حساب مازدنا وكذلك نجد جميع المركبات فمالنا اذا مزجنا بين شيئين من ذوات المناظر خرجنا الى ذوات الملامس والى المذاقة والمشمة وهذا نفسه داخل على من زعم أن الاشياء كلها تولدت من تلك الاشياء الاربعة التى هى نصيب حاسة واحدة وقال أبو اسحق ان زعم قوم ان ههنا حسا هو روح وهو ركن خامس لم نخالفهم وان زعموا ان الاشياء يحدث لها حس اذا امتزجت بضرب من المزاج فكيف صار المزاج يحدث لها حساو كل واحد منه اذا انفرد لم يكن ذاحس وكان مفسداً للجسم وان فضل عنها أفسد حسها وهل حكم قليل ذلك الا كحكم كثيره ولم لايجوز أن يجمع بين ضياء وضياء فيحدث لهما منع الادراك فان اعتل القوم بالمزاج والعفص والماء وقالوا قد نجد كل واحد من هذه الثلاثة ليس باسود فاذا اختلطت صارت جسما واحداً أشد سواداً من الليل ومن السبج ومن الغراب (قال أبو اسحق) بينى وبينكم فى ذلك فرق أنا أزعم أن السواد قد يكون كامناً ويكون ممنوع النظرة فاذا زال مانعه ظهر كما أقول فى النار والحجر وغير ذلك من الامور الكامنة فان قلتم بذلك فقد تركتم قولكم وان أبيتم فلا بد من القول قال أبو اسحق وقد غلط أيضاً كثير منهم فزعموا أن طباع الشيخ البلغم ولو كان طباعه البلغم والبلغم لين رطب أبيض لما ازداد عظمه نحولا ولونه سوادا وجلده تقبضاً وقال النمر بن تولب

كان مخطاً فى يدى حارثية * ضياع علت مني به الجلد من عل

وقال الراجز * وكثرت فواضل الاهاب * قال ولكنهم لما رأوا بدنه يتغضن

ويظهر من ذلك التنفض رطوبات بدنه كالبلغم من الفم والمخاط السائل من الانف والرمص والدمع من العين ظنوا أن ذلك لكثرة مافيه من أجزاء الرطوبات وأرادوا أن يقسموا الصبا والشباب والكهولة والشيوخة على أربعة أقسام كما يتهيأ لهم ذلك فى غير باب واذا ظهرت تلك الرطوبات فانما هي لنفى اليبس لها ولعصره قوي البدن ولو كان الذى ذكروا لكان دمع الصبا أكثر ومخاطه أغزر ورطوباته أظهر وفى البقول والرياحين والاغصان والاشجار ذلك اذ كانت فى الحداثة أرطب وعلى مرور السنين والايام أيبس قال الراجز

اسمع أنبئك بآيات الكبر * نوم العشي والسعال بالسحر
وسرعة الظهر وضعف فى النظر * وتركى الحسنا في قبل الطهر
وحذر ازداده الى حذر * والناس يبلون كما يبلى الشجر

وكان يتعجب من القول بالهيولى وكان يقول قد عرفنا مقدار رزانة البلة وستعطيكم ان للبرد وزنا أليس الذى لاتشكون فيه ان الحر خفيف ولا وزن له وانه اذا دخل فى جرم له وزن صار أخف وانكم لاتستطيعوا أن تثبتوا لليبس من الوزن مثل ما تثبتون للبلة وعلى ان كثيراً منكم يزعم ان البرد المجمد للماء هو أيبس وزعم بعضهم ان البرد كثيراً مايصاحب اليبس وان اليبس وحده لوحل بالماء لم يجمد وان البرد وحده لوحل بالماء لم يجمد وان الماء أيضاً يجمد لاجتماعهما عليه وفى هذا القول ان شيئين مجتمعين قد اجتمعا على الاجماد فما تنكرون أن يجتمع شيئان على الاذابة وان جاز للقبس أن يجمد جاز للبلة أن تذيب قال أبو اسحق فان كان بعض هذه الجواهر صعاداً وبعضها نزالا ونحن نجد الذهب أثقل من مثله من هذه الاشياء النزالة فكيف يكون أثقل منها وفيه أشياء صعادة فان زعموا أن الخفة انما تكون من التحليل والسخف وكثرة أجزاء الهواء فى الجرم فقد ينبغي أن يكون الهواء أخف من النار وان النار فى الحجر كما أن فيه هواء والنار أقوى على رفع الحجر من الهواء لذى فيه وكان يقول من الدليل على أن النار كامنة فى الحطب ان الحطب يحرق بمقدار من الاحراق ويمنع الحطب أن يخرج جميع مافيه من النيران فيجعل فحما فتى أحببت أن تستخرج الباقي

من النار استخرجته فترى النار عند ذلك يكون لها لهب دون الضرام فتي أخرجت تلك النار الباقيـة ثم أوقدت عليها ان عام لم تستوقد وتأويل لم تستوقد انما هو ظهور النار التى كانت فيه فاذا لم يكن فيه شيء فكيف يستوقد وكان يكره التعجب من ناس كانوا ينافسون في الرآسة اذ رآهم يجهلون جهل صغار العلماء وقد ارتفعوا فى أنفسهم الى مرتبة كبار العلماء وذلك أن بعضهم كان يأخذ العود فينقيه فيقول أين تلك النار الكامنة مالى لاأراها وقد ميزت العود قشرا بعد قشر فكان يقول في الاشياء الكامنة ان لكل نوع منها نوعا من الاستخراج وضربا من العلاج فالعيدان تخرج نيرانها بالاحتكاك واللبن يخرج زبده بالمخض وجبنه يجمع بانفحة وبضروب هى علاجه ولو أن انسانا أراد أن يخرج القطران من الصنوبر والزفت من الأرزلم يكن يخرج له بان يقطع العود ويدقه ويقشره بل يوقد له نارا بقربه فاذا أصابه الحر عرق وصار فى ضروب من العلاج ولوان انسانا مزج بين الفضة والذهب وسبكهما بسبيكة واحدة ثم أراد أن يعزل أحدهما من صاحبه لم يمكنه ذلك بالفرض والدق وسبيل التفريق بينهما قريبة سهلة عند الصاغة وأرباب الجمانات وزعم أبو اسحق انارسطاطا ليس كان يزعم ان الماء الممازج للأرض لم ينقلب أرضا وان النار الممازجة للماءلم تنقلب ماء وكذلك ماكان من الماء فى الحجر ومن النار فى الارض والهواء وان الاجرام انما يخف وزنها وتستخف على قدر مافيها من التحليل ومن أجزاء الهواء وأنها توزن وتصلب وتمتن على قدر قلة ذلك فيها ومن قال هـذا القول فى الارض والماء والنار والهواء وفيما تركب منها من الاشجار وغير ذلك لم يصل الى أن يزعم أن فى الارض عرضاً يحدث وبالحرا ان يعجز عن تثبيت لون الماء والارض والنار عرضاً واذا قال فى تلك الاشجار بتلك القالة قال فى الطول والعرض والعمق وفى التربيع والتثليث والتدوير بجواب أصحاب الاجسام لايلزم أصحاب الاعراض أصحاب الاجسام بقولهم فى تثبيت السكون والحركة ان القول فى حراك الحجر كالقول فى سكونه وكذلك أصحاب الاجسام يلزمون كل من زعم ان شيأ من الاعراض لاينقض وان الجسم يتغير في المذاقة والملمسة والمنطقة والمشمة من غير لون الماء وفي برودة نفس الارض وتثبيتها كذلك

ومتى وجدنا طينة مربعة صارت مدورة فليس ذلك بحدوث تدوير لم يكن فكان عند تغيره في العين أولا من غير الطينة في العين من البياض ان السواد سبيل الصلابة والرخاوة والثقل والخفة سبيل الحلاوة والملوحة والحرارة والبرودة وليس يقيس القول في الاعراض الا من قال بالاستحالة وليس في الاستحالة شيء أقبح من قولهم في استحالة الجبل الصغير الى مقدار خردلة من غير ان يدخل أجزاءه شيء على حال فهو على قول من زعم ان الخردلة تنتصف أبداً أحسن فاما اذا قال بالجزء الذي لا يتجزأ وزعم ان أقل الاجسام الذي تركيبه من ثمانية أجزاء لا يتجزأ أو ستة اجزاء لا يتجزء يستحيل جسما على قدر طول العالم وعرضه وعمقه وانا لو وجدناه كذلك لم نجد بدا من ان نقول انا لو رفعناه من اوهامنا من ذلك شبراً من الجميع فان كان مقدار ذلك الشبر جزأ واحداً فقد وجدناه جسما اقل من ثمانية اجزاء ومن ستة اجزاء وهذا نقض الاصل مع ان الشبر الذي رفعناه من اوهامنا فلا بد ان كان جسما ان يكون من ستة احزاء اومن ثمانية اجزاء وهذا كله فاسد لان النار حر وضياء ولكل ضياء بياض ونور وليس لكل بياض نور وضياء وقد غلط في هذا المقام عالم من المتكلمين والضياء ليس بلون لان الالوان تتفاسد وذلك شائع في كلها وعام في جميعها فاللبن والحبر يتفاسدان ويتمايع التراب اليابس والماء السائل كما تمازج الحار والبارد والحلو والحامض فصنيع البياض في السواد كصنيع السواد في البياض والتفاسد الذي يقع بين الخضرة والحمرة فبذلك الوزن يقع بين البياض وجميع الالوان وقد رأينا ان البياض مياع مفسد كسائر الألوان فانت قد ترى الضياء على خلاف ذلك لانه اذا سقط على الالوان المختلفة كان عمله فيها عملا واحداً وهو التقبيل بين أجناسها وتميز بعضها من بعض فيبين من جميعها ابانة واحدة ولا تراه يخص البياض الا بما يخص عنه السواد ولا يعمل في الخضرة الا مثل عمله في الحمرة فدل ذلك على ان جنسه خلاف أجناس الالوان وجوهره خلاف جواهرها وانما يدل على اختلاف الجواهر اختلاف الاعمال فباختلاف الاعمال واتفاقها تعرف اختلاف الاجسام واتفاقها

(وجملة القول في الضد والخلاف والوفاق) قالوا الالوان كلها متضادة وكذلك الطعوم

وكذلك الارابيح وكذلك الاصوات وكذلك الملامس من الحرارة والبرودة واليبس والرطوبة والرخاوة والصلابة والخشونة وهذه جميع الملامس وزعموا ان التضادد انما يقع بين نصيب الحاسة الواحدة فقط فاذا اختلفت الحواس صار نصيب هذه الحاسة الوحدة من المحسوسات خلاف نصيب تلك الحاسة ولم يضادها بالضد كاللون واللون لمكان التفاسد والطعم والرائحة لمكان التفاسد ولا يكون الطعم ضد اللون ولا اللون ضد الطعم بل يكون خلافا ولا يكون ضدا ولا وفاقا لانه لايكون وفاقا لانه من غير جنسه ولايكون ضدا لانه يفاسده وزعم من لا علم له من أصحاب الاعراض ان السواد انما ضاد البياض لانهما لايتعاقبان ولا يتماوتان ولانهما يتنافيان قال القوم لو كان ذلك من العلة كان ينبغي لذهاب الجسم قدما ان يكون بعضه يضاد بعضاً لان كونه في المكان الثانى لا يوجد مع كونه فى المكان الثالث وكذلك التربيع كطينة لو ربعت بعد تثليثها ثم ربعت بعد ذلك فى قياسهم ان هذين التربيعين ينبغي لهما أن يكونا متضادين اذا كانا متنافيين لان الجسم لايحتمل فى وقت واحد طولين وان الضد يكون على ضدين يكون احدهما يخالف الشيء من وجوده عدة والآخر يخالفه من وجهين فقط قالوا والبياض يخالف الحمرة ويضادها لانه يفاسدها ولا يفاسد الطعم وكذلك البياض للصفرة والحمرة والخضرة فاما السواد خاصة فان البياض يضاده بالتفاسد وكذلك التفاسد وكذلك السواد وبقي لهما خاصته من الفصول في أبواب المضادة إن البياض ينصبغ ولا يصبغ والسواد يصبغ ولا ينصبغ وليس كذلك سائر الالوان لانها كلها تصبغ وتنصبغ قالوا فهذا باب مايساق

باب آخر

ان الصفرة متى اشتدت صارت حمرة ومتى اشتدت الحمرة صارت سواداً وكذلك الخضرة متى اشتدت صارت سواداً والسواد للبياض مضادة تامة وصارت الالوان الأخر فيما بينها تتضاد عادة وصارت الطعوم والارابيح والملامس تخالفها ولا تضادها وقد جعل بعض من يقول بالاجسام هذا المذهب دليلا على أن الالوان كلها انما هي

من السواد والبياض وانما تختلفان على قدر المزاج وزعموا أن فى الحقيقة انما هو البياض والسواد وحكموا في المقالة الاولى بالقوة للسواد على البياض اذا كانت الالوان كلها كلما اشتدت قربت من السواد وبعدت من البياض فلا تزال كذلك الى أن تصير سواداً وقد ذكرنا قبل هذا قول من جعل الضياء والبياض جنسين مختلفين وزعم ان كل ضياء بياض وليس كل بياض ضياء وما كان أحوجنا وأحوج جميع المرضى أن يكون جميع الاطباء متكلمين والى أن يكون المتكلمون علماء فان الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد فى الاصول التي يبنون عليها من الخلل ما نجد وزعموا أن النار حمراء وذهبوا الى ماترى العين والنار فى الحقيقة بيضاء ثم قالوا على خلاف الحقيقة المرّة الحمراء وشبهوها بالنار ثم زعموا أن المرّة الحمراء مرة وأخلق بالدخان أن يكون مراً وليس الدخان من النار فى شئ وكل نور وضياء هو أبيض وانما يحمر فى العين بالعرض الذي يعرض للعين فاذا سلمت من ذلك وأفضت اليه العين رأته أبيض وكذلك نار العود تنفصل من العود وكذلك انفصال النار من الدهن ومعها الدخان ملابساً لاجزائها فاذا وقعت الحاسة على سواد أو بياض فى مكان واحد كان نتاجها فى العين منتظرة الحمرة ولو أن دخانا عرض بينك وبينه قرص الشمس وبين القمر لرأيته أحمر وكذلك قرص الشمس فى المشرق أحمر وأصفر للبخار والغبار المعترض بينك وبينه والبخار والدخان أخوان متى تحلق القرص فى كبد السماء فصار على قبة رأسك ولم يكن بين عينيك وبينه الا بقدر ما تمكن البخار من الارتفاع في الهواء صعداً وذلك يسير قليل فلا تراه حينئذ الا فى غاية البياض واذا انحط شرقا أو غربا صار كل شئ بين عينيك وبين قرصها من الهواء ملابساً للغبار أو الدخان والبخار وضرب الضباب والسواد فتراها اما صفراء واما حمراء ومن زعم ان النار حمراء فلم يكذب ان ذهب الى ماترى العين ومن ذهب الى الحقيقة والمعلوم فى الجوهرية فزعم انها حمراء ثم قاس على ذلك جهل وأخطأ وقد نجد النار تختلف على قدر اختلاف النقط الازرق والاسود والابيض وذلك كله يدور فى العين مع كثرة الدخان وقلته ونجد النار تتغير في ألوانها في العين على قدر جفوف الحطب ورطوبته وعلى قدر أجناس

العيدان والادهان فنجدها شقراء ونجدها حمراء ونجدها خضراء اذا كان حطبها مثل الكبريت الاصفر ونجد فوق السحاب مختلفاً فى الحمرة والبياض على قدر المقابلات والاعراض ونجد السحابة بيضاء فاذا قابلت الشمس بعض المقابلة فإن كانت السحابة غربية أفقية والشمس منحطة رأيتها صفراء ثم حمراء ثم سوداء تعرض للعين لبعض مايدخل عليها وقال الصلتان الفهمى في النار

وتوقدها شقراء فى رأس هضبة * ليعشوا اليها كل باغ وجازع

وقال مزرد بن ضرار

فابصر ناري وهي شقراء أوقدت * بعلياء نشز للعيون النواظر

وقال آخر

ونار كسحر العود يرفع ضوؤها * مع الليل هبات الرياح الصوارد

والغبار يناسب بعض الدخان ولذلك قال طفيل الغنوى

اذا هبطت سهلا كان غباره * بجانبها الاقصى دواخن تنضب

لان دخانه يكون أبيض يشبه الغبار وناره شقراء والعرب تجمع الدخان دواخن وقال الازرق الهمدانى

ونوقدها شقراء من فرع تنضب * وللكمت أروى للنزال وأشبع

وذلك ان النار اذا ألقى عليها اللحم فصار لها دخان أصابت بدخان ماء اللحم وسواد القتار وهذا يدل أيضاً على ماقلنا وفى ذلك يقول الهيبان الفهمي

له فوق البحار جفان شيزى * ونار لاتضرم للصلاء

ولكن للطبيخ وقد عراها * طليح الهم مستاب الفراء

وما غذيت بغير لظي فنارى * كمر تكم الغمامة ذي العفاء

وقال سحر العود

له نار تشب على يفاع * لكل مرعبل الأهدام بالى

ونار فوقها جزر رحاب * مبجلة تقاذف بالمحال

ويدل أيضاً على ماقلنا أن النار يختلف لونها على قدر اختلاف جنس الدهن

والحطب والدخان وعلى قدر كثرة ذلك وقلته وعلى قدر يبسه ورطوبته قول الراعي حين أراد أن يصف لون ذئب فقال

وقع الربيع وقد تقارب خطوه * وأري بعقوته أزل نسولا

متوضع الأقران فيه شهبة * هش اليدين تخاله مشكولا

كدخان مرتجل بأعلا تلعة * غرثان ضرم عرفجا مبلولا

المرتجل الذى أصاب رجلا من جراد فهو يشويه وجعل غرثان لطول الغرث لايختار الحطب اليابس على رطبه فهو يشويه بما حضره وأدار هذا الكلام ليكون لون الدخان بلون الذئب لأطحل متفقين وزرادشت هو الذى عظم النار وأمر باحيائها ونهى عن إطفائها ونهى الحيض عن مسها والدنو منها وزعم أن العقاب فى الاخرة انما هو بالبرد والزمهرير والدمق وزعم أصحاب الكلام أن زرادشت وهو صاحب المجوس جاء من بلخ وادعى أن الوحي نزل عليه على جبال سيلان وأنه حين دعا لسكان تلك الناحية الباردة الذين لايعرفون الا الاذى بالبرد ولا يضربون المثل الا به حتى يقول الرجل لعبده لئن عدت الى هذا لانزعن ثيابك ولاقيمنك فى الريح ولاوقفنك فى الثلج فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع جعل الوعيد بتضاعفه وظن أن ذلك أزجر لهم عما يكره وزرادشت في توعده تلك الامة بالثلج دون النار مقر بانه لم يبعث الا الى أهل الجبال وكأنه اذا قيل له أنت رسول الى من قال لاهل البلاد الباردة الذين لابد لهم من وعيد ولا وعيد لهم الا بالثلج وهذا جهل منه ومن استجاب له أجهل منه والثلج لا يكمل لمضادة النار فكيف يبلغ مبلغها والثلج يؤكل ويشرب ويقضم قضما ويمزج بالاشربة ويدفن فيه الماء وكثير من الفواكه وربما أخذ بعض المترفين القطعة منه كهامة الثور فيضعها على رأسه ساعة من نهار ويتبرد بذلك ولو أقام إنسان على قطعة من الثلج مقدار صخرة فى خمدان ربع ساعة من نهار لما خيف عليه الا المرض فقط فلو كان المبالغة في التغيير والزجر أرادوا اليه قصد الذكر لما هو فى الحقيقة عند الامم أشد والوعيد بما هو أشد وبما يعم بالخوف سكان البلاد الباردة والحارة أشبه إذ كان المبالغة يريد والثلج قد يداوي به بعض المرضى ويتولد

فيه الدود وتخوضه الحوافر والأظلاف والاخفاف والاقدام بالليل والنهار فى الاسفار وفى أيام الصيد يهون على من شرب خمسة أرطال نبيذ أن يمدوا عليه خمسة أشواط وقد عارضني بعض المجوس وقال فلعل أيضاً صاحبكم إنما توعد أصحابه بالنار لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دمن وإنما هى ناحية الحرور والوهج والسموم لأن ذلك المكروه أزجر لهم فرأي هذا المجوسى أنه قد عارضنى فقلت له إن أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر فى الصيف وشدة البرد فى الشتاء لأنها بلاد صخور وجبال والصخر يقبل الحر والبرد ولذلك سميت الفرس بالفارسية العرب والاعراب كهيان والكه بالفارسية هو الجبل فمتى أحببت أن تعرف مقدار برد بلادهم فى الشتاء وحرها فى الصيف فانظر في أشعارهم وكيف قسموا ذلك وكيف وضعوه لتعرف أن الحالتين سواء عندهم في الشدة والبلاد ليس يشتد بردها على كثرة الثلج وقلته فقد تكون بلدة أبرد وثلجها أقل والماء ليس يجمد للبرد فقط فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر وقد تكون الليلة باردة جداً وتكون متغيرة فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً وقد يختلف جمود الماء فى الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون وقد خبرنى من لا أرتاب بخبره أنهم كانوا في موضع من الجبل يستغنون به بلبس المبطنات ومتى صبوا ماء فى إناء زجاج ووضعوه تحت السماء جمد من ساعته فليس جمود الماء بالبرد فقط ولا بد من شوط ومقادير واختلاف جواهر ومقابلات أحوال كسرعة البرد فى بعض الأدهان وإبطائه عن بعض كاختلاف عمله في الماء المغلى وفى الماء المتروك على حاله وكاختلاف عمله في الماء والنبيذ وكما يعترى البول من الخثورة والجمود على قدر طبائع الطعام والقلة والزيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار فيستحيل من الحرارة الى مقدار لا يستحيل اليه ما هو أحر وحجة أخري على المجوس وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال لم أبعث الا الى أهل مكة لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة فأما وأصل نبوته والذى عليه مخرج أمره وابتداء مبعثه الى ساعة وفاته أنه المبعوث الى الأحمر والاسود والى الناس كافة وقد قال الله تعالى (قل أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعاً) وقد قال تعالى (نذيراً للبشر) فلم يبق أن يكون

مع ذلك قولهم معارضة وأن يعد في باب الموازنة ومما قالوا في البرد قول الكميت

إذا التف دون الفتاة الضجيع * وزحزح ذو الفروة المزمل
وراح الفنيق مع الرائحات * كإحدى أوائلها المرسل

وقال الكميت أيضاً في مثل ذلك

وجاءت الريح من تلقاء مغربها * وضن من قدره والقدر بالعقب
وكهكه المدلج المقرور في يده * واستدفأ الكلب في المأسور ذي الذنب

وقال في مثله جران العود

ومشبوح الاشاجع أريحي * بعيد السمع كالقمر المنير
رفيع الناظرين الى المعالي * على العلات في الخلق اليسير
يكاد المجد ينضح من يديه * إذا دفع اليتيم عن الجزور
وألجأت الكلاب صبابليل * وآل نباحهن الى الهرير
وقد جعلت فتاة الحي تدنو * مع الهلاك من عرق القدور

وقال في مثل ذلك ابن قميئة

ليس طعمي طعم الانامل اذ قا * ص درُّ اللقاح في الصنّبر
ورأيت الاماء كالجعثر البا * لى عكوفاً على قرارة بدر
ورأيت الدخان كالودع الاهجن ينباع من وراء الستر
حاضر شركم وخيركم ذو * حرسي من الارانب بكر

وقال في مثل ذلك

وإذا العذارى بالدخان تقنعت * واستعجلت نصب القدور فملت
درت بارزاق العباء معالق * بيدى من قمع العشار الجلت

وقال الهذلي

وليلة يصطلى بالفرث جازرها * يختص بالنقري المثرين داعيها
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة * من العشاء ولا تسرى أفاعيها

وفي الجمد والبرد والازمان يقول الكميت

وفي السنة الجماد يكون غيثاً * اذا لم تعط درتها الغضوب
وزوجت اللقاح مبهلات * ولم تعطف على الربع السلوب
وكان السرف للفتيان قوتا * يعيش به وهيّبت الرقوب

وفى هذه القصيدة يقول فى شدة الحر

وخرق تعزف الجنان فيه * لأفئدة الكماة لها وجيب
قطعت ظلام ليلته ويوما * يكاد حصى الاكام به يذوب

وقال آخر لمعشوقته

وأنت التي كلفتنى البرد شاتيا * وأوردتنيه فانظرى أى مورد

فما ظنك ببرد يؤدي هذا العاشق الى أن يجعل شدته عذراً له في تركه الالمام بها وترك هذه القصيدة قوله

فياحسنها إذ لم أعج أن يقال لى * تروح فشيعنا الى ضحوة الغد
فأصبحت مما كان بيني وبينها * سوى ذكرها كالقابض الماء باليد

ومما يقع فى الباب قبل هذا ولم نجد له بابا قول مسكين الدارمي

واني لا أقوم على قناتى * أسب الناس كالكلب العقور
وإني لا أحل ببطن واد * ولا آوى إلى البيت القصير
واني لا أخاوص عقد ناد * ولا أدعو دعاءى بالصفير
ولست بقائل للعبد أوقد * إذا أوقدت بالعود الصغير

ولو تأملت دخان أتون واحد من ابتدائه الى انقضائه لرأيت فيه الاسود الفاحم والابيض الناصع والسواد والبياض هما الغاية في المضادة وذلك على قدر البخار والرطوبات وفيما بينهما ضروب من الالوان وكذلك الرماد منه الاسود ومنه الابيض ومنه الاصهب ومنه الحصيف وذلك كله على قدر اختلاف حالات المحترق وجواهره فهذا بعض ما قالوا فى البرد وسنذكر بعض ماقالوا فى صفة الحر قال مضر بن زرارة بن لقيط

ويوم من الشعرا كان ظباءه * كواكب مقصور عليها ستورها
تدلت عليه الشمس حتى كأنه * من الحر يرمى بالسفينة نورها

سجود لدي الارطى كان رؤسها * علاها صداع أو فوار يصورها

وقال القطامي

فهن معترضات والحصى رمض * والريح ساكنة والظل معتدل
حتى وردن ركيات الغوير وقد * كاد اللآء من الكتان يشتعل

وقال الشماخ بن ضرار

كأن قتودى فوق جاب مطرد * من الحقب لاحته الجداد الغوارز
طوى ظمئها في بيضة القيظ بعد ما * جرت فى عنان الشعريين الاماعز
وظلت بيؤود كأن عيونها * الى الشمس هل تدنو ركى نواكز

ولهذه الأبيات كان الحطيئة والفرزدق يقدمان الشماخ بغاية التقديم وقال الراعى

ونار وديقة في يوم هيج * من الشعرى نصبت لها الجبينا
اذا معزاءها جرة أرثت * جناد بها وكان العيس جونا

وقال مسكين الدارمي

وهاجرة صليت كأن ظباءها * اذا ما اتقتها بالقرون سجود
تلوذ لشؤبوب من الشمس فوقها * كما لاذ من حر السنان طريد

وقال جرير

وهاجر موماة بعثت الى السرى * وللنوم أحلى عنده من جني النحل
يكون نزول الركب فيها كلاؤها * عشاشا ولا يدنون رحلا الى رحل
ليوم أتت دون الظلال سمومه * وظل المهي صورا جماجمها تغلى

وفيها يقول جرير

تمني رجال من تميم لى الردا * وما ذاد عن أحسابهم ذائد مثلى

وقال أبو سحق أخطأ من زعم ان النار تصعد فى أول العود وتحدر وتغوص فيه وتظهر عليه وتأخذ منه غرضاً وقال العود النار فى جميعه كامنة وفيه سائحة وهى أحد أخلاطها والجزء الذى لا يرى منها فى الطرف الاول غير الجزء الذى فى الوسط وغير الجزء الذي فى الطرف الآخر فاذا احتك الطرف فحمي زال مانعه وظهرت النار التي فيه واذا ظهرت

حمي لشدة حرها الموضع الذي يليها وتحمي أيضاً مانعه وكذلك الذي في الطرف الآخر ولكن الانسان اذا رأى النار قد اتصلت في العود كله وظهرت أولا فأولا ظن أن الجزء الذي كان في المكان الاول قد سرى الى المكان الثاني ثم الى المكان الثالث فيخبر عن ظاهر مايرى ولا يعرف حقيقة مابطن من شأنها (وقال أبو اسحق) ولو كانت العيدان كلها لانار فيها لم يكن سرعة ظهورها من العراجين ومن المرخ والعفار أحق منها بعود العناب والبردي وما أشبه ذلك لكنها كانت في بعض العيدان أكثر وكان مانعها أضعف وكان ظهورها أسرع وأجزاؤها اذا ظهرت أعظم وكذلك ما كمن منها في الحجارة ولو كانت أجناس الحجارة مستوية في الاسرار فيها لما كان حجر المرو أحق بالقدح اذا صك بالقداحة من غيره من الحجارة ولو طال مكثه في النار ونفخ عليه بالكير ولم صار لبعض العيدان جمر باق ولبعضها جمر سريع الانحلال وبعضها لا يصير جمرا ولم صار البرى مع مشاشته ويبسه ورخاوته لاتعمل فيه النيران ولذلك اذا وقع الحريق في السوق سلم كل مكان يكون بين أضعاف البردى ولذلك ترى النار سريعة الانطفاء في أضعاف البردي ومواضع جميع الليف (وقال أبو اسحق) فلم أختلف في ذلك الا على قدر مايكون فيها من النار وعلى قدر قوة الموانع وضعفها ولم صارت تقدح على الاحتكاك حتى تلهبت كالساج في السفر اذا اختلط بعضه ببعض عند تحريك الامواج لها ولذلك أعدوا لها الرجال لتصب من الماء صبادائما وتدوم الريح فتحتك عيدان الأغصان في الغياض فتلتهب نار فتحدث نيران ولم صار العود يحمي اذا احتك بغيره ولم صار الطاق لايحمي فان قلت لطبيعة هناك فهل دللتمونا إلا على اسم علقتموه على غير معني وجدتموه أولسنا قد وجدنا عيون ريح وعيون ماء حارة وعيون ماء بارد بعضها البيض وينطف الجلد وبعضها يجمد الدم ويورث الكزاز أولسنا وجدنا عيون نار فلم زعمتم أن الريح والماء كانا مختفيين في بطون الارض لم تجوزوا لنا مثل ذلك في النار وهل بين اختلاف الريح والماء فرق وهل الريح الاهواء تحرك وهل بين المختنق والكامن فرق (وزعم أبو اسحق) أنه رمي بردائه في بئر النبي صلى الله عليه وسلم التي من طريق مكة فردته الريح عليه وحدثني رجل من بني هاشم قال كنت برامة من طريق مكة فرميت في

بئرها ببعرة فرجعت الى ثم أعدتها فرجعت فرميت بحصاة فسمعت لها خريقا وحفيفا شديدا وشبيها بالجولان الى أن بلغت قرار الماء وزعم أبو اسحق أنه رأى عين نار في بعض الجبال يكون دخانها نهارا وليلا أو ليس الاصل الذى بني عليه أمرهم أن جميع الابدان من الاخلاط الاربعة من النار والماء والارض والهواء فاذا رأينا موضعا من الارض يخرج منه ماء قلنا هذا أحدث الاركان فما بالنا إذا رأينا موضعا من الارض يخرج منه نار لم نقل مثل ذلك فيه ولم لا نقول في حجر النار إنه متى وجد أخف من مقدار جسمه من الذهب والرصاص أو الزئبق انما هو لما خالطه من أجزاء الهواء الرافعة له وإذا وجدناه أعلك علوكة وأمتن متانة وأبعد من التهافت جعلنا ذلك لما خالطه من أجزاء الماء واذا وجدناه ينقض الشرر ويظهر النار جعلنا ذلك للذى خالطه ولم جعلناه اذا خف من شيء لمقدار جسمه لما خالطه من أجزاء الهواء ولا نجعله كذلك لما خالطه من أجزاء النار ولا سيما اذا كانت العين تجده يقدح بالشرر ولم نجر أجزاء الهواء فيه عندنا عيانا فلم أنكروا ذلك وهذه القصة توافق الاصل الذى بنوا عليه أمرهم قال أوليس من قوله إنه لولا النيران المتحركة في جوف الارض التى منها يكون البخار الذى بعضها أرضي وبعضها مائى لم يرتفع ضباب ولم يكن صدا ولا مطر ولا نداء ومتى كان البخار حارا يابسا قدح وقذف بالنار التى تسمي الصاعقة اذا اجتمعت تلك القوى في موضع منه فان كانت القوى ريحا كان لها صوت وان كانت نارا كانت لها صواعق حتي زعم كثير من الناس وذلك شائع على أفواه الاعراب والشعراء قال أبو الهول الحميرى

حاز صمصامة الزبيدي من بيـ * ـن جميع الانام موسي الامين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا * خير ما أطبقت عليه الجفون
أوقدت فوقه الصواعق نارا * ثم ساطت به الزعاف المنون

وقال منهم آخر

يكفيك من قلع السماء عقيقة * فوق الذراع ودون بوع الباع

قال الاصمعى الانعقاق تشقق البرق ومنه وصف السيف بالعقيقة وأنشد

* وسيفي كالعقيقة وهو كمى * وقال الاخطل

وأرقني من بعد ما نمت نومة * وعضب إباطي كالعقيق يمانى

﴿ ونذكر بعون الله وتأييده جملة من القول في الماء ﴾

﴿ ثم نصير الى ذكر ما ابتدأنا به من القول في النار ﴾

ذكروا ان الماء لا يغذو وانما هو مركب ومعبر وموصل للغذاء واستدلوا لذلك بان كل رقيق سيال فانك متى طبخته انعقد الا الماء وقالوا فى القياس إنه لا ينعقد في الجوف عند طبخ الكبد له فاذا لم ينعقد لم يجئ منه لحم ولا عظم ولأنا لم نر انسانا قط اغتذا وثبت عليه روحه وأن السمك الذى يموت عند فقده ليغذوه سواه مما يكون فيه دونه قال خصمهم انما صار الماء لا ينعقد لانه ليس فيه قوى مستفادة مأخوذة من قوى الجواهر والماء هو الجوهر القابل لجميع القوى فبضرب من القوى والقبول يصير دهنا وبضرب آخر يصير خلا وبضرب آخر يصير دما وبضرب آخر يصير لبنا وهذه الامور كلها انما اختلفت بالقوى العارضة فيها فالجوهر المنقلب فى جميع الاقسام السيالة انما هو الماء فيصير عند ضرب من القبول دهنا وعند ضرب من القبول لبنا وعصير كل شئ ماؤه والقابل لقوى ما فيه فاذا طبخت الماء صرفا سالما على وجهه ولا قوى فيه لم ينعقد وانحل بخاراً حتى يتفانى وانما ينعقد الكائن من الملامس له فاذا صار الماء فى البدن وحده لم يكن فيه قوى لم ينعقد وانعقاده انما هو انعقاد ما فيه والماء لا يخلو من بعض القبول ولكن البعض لا ينعقد ما لم يكثر وزعم أصحاب الاعراض أن الهواء سريع الاستحالة الى الماء وكذلك الماء الى الهواء للمناسبة التى بينهما من الرطوبة الرقة وانما هما غير سيارين ويدل على ذلك اجتذاب الهواء للماء وملابسته له عند مس الانسان اليه فم الشرّابة ولذلك سرى الماء وجرى فى جوف قصب الخيزران إذا وضعت طرفه في الماء وكذلك الهواء فيه ظلام الليل وضياء النهار وما كان فيه من الاشباح والحدقة لا ترى من الضياء العارض فى الهواء ما تباعد منها والماء يرق فيكون له وهن يكون عمقه مقدار أعدل فيكون له لون فان بعد غوره

وأفرط عمقه رأيته أسود وكذلك يحكون عن الدردور ويزعمون أن عين حوارا ترى بمثل الزنوج فتجد الماء جنساً واحداً ثم تجد ذلك الجنس أبيض إذ قل عمقه وأخضر اذا كان وسطا وأسود اذا بعد غوره ويختلف منظره على قدر اختلاف إنائه وأرضه وما يقابله فدل ذلك على أنه ليس بذى لون وانما يعتريه فى التخييل لون ما يقابله ويحيط به ولعل هذه الامور اذا تقابلت ان تصنع فى العين اموراً فيظن الانسان مع قرب المجاورة والالتباس ان هذه الالوان المختلفة انما هي لهذا الماء الرائق الخالص الذي لم ينقلب فى نفسه ولاعرض له مايقابله وكيف يعترض له ويقابله وعين كل واحد منهما غير عين صاحبه وهو يرى الماء اسود كالبحر متي اخذ منه احد غرفة رآه كهيئته اذا رآه قليل العمق ويتشابها ايضاً لسرعة قبولهما الحر والبرد والطيب والنتن والفساد والصلاح قال ابو اسحق قال الله عز وجل ذكر انعامه على عباده وامتنانه على خلقه فذكر ما أعانهم به من الماعون (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم انشأتم شجرتها ام نحن المنشئون) وكيف قال شجرتها وليس في تلك الشجرة شيء وجوفها وجوف الطلق في ذلك سواء وقدرة الله على ان يخلق النار عند مس الطلق كقدرته على أن يخلقها عند حك العود وهو تعالى وعز لم يرد فى هذا الموضع الا التعجيز من اجتماع النار والماء وهل بين قولكم فى ذلك وبين من زعم أن البدن الجيد والردى والماء العذب والملح والسبخة والحرة الرخوة والزمان المخالف والموافق سواء وليس بينهما من الفرق الا ان الله شاء ان يخلق عند اجتماع هذه حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا دون تلك الاضداد ومن قال بذلك وقاده فى جميع مايلزم من ذلك قال كقول الجهمية فى جميع المقالات وصار الى الجهالات وقال بانكار الطبائع والحقائق وقال الله عز وجل (هو الذى جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون) ولو كان الامر فى ذلك على ان يخلقهما ابتداء لم يكن بين خلقها عند اخضرار الشجر اليابس الهشيم فرق ولم يكن لذكر الخضرة الدالة على الرطوبة معني وقد ذكرنا جملة من قولهم فى النار وفى ذلك بلاغ لمن أراد معرفة هذا الباب وهو مقدار قصد لاطويل ولا قصير (فاما القول فى نار جهنم وفي سوادها ودوامها وتسعرها وخبوّها) والقول فى خلق السماء من دخان

والجان من نار السموم وفى مفخر النار على الطين وفى احتجاج ابليس بذلك فإنا سنذكر من ذلك جملة فى موضعه ان شاء الله تعالى (ونحن راجعون فى القول فى النار) الى مثل ما كنا ابتدأنا به القول فى صدر هذ الكلام حتى نأتي من أصناف النيران على مايحضرنا إن شاء الله تعالى (قالوا) وليس فى العالم جسم صرف غير ممزوج ومرسل غير مركب ومطلق القوى غير محصور ولا مصور أحسن من النار قال والنار سماوية علوية لان النار فوق الارض والهواء فوق الماء والنار فوق الهواء ويقولون شراب كأنه النار وكأن لون وجهها النار واذا وصفوه بالذكاء قالوا ماهو الا نار واذا وصفوا حمرة العرض وحمرة الذهب قالوا ماهو الا نار قال وقالت هند هذا والله وأنا أحسن من النار الموقدة وأنا أقول لم يكن بها حاجة الى ذكر الموقدة وكان قولها أحسن من النار يكفيها وكذلك اتهمت هذه الرواية وقال قدامة حكيم المشرق في وصف الذهب شعاع مركوم ونسيم معقود ونور بصَّاص وهو النار الجامدة والكبريت الاحمر وربما قال العتابى وجمال كل مجلس بأن يكون سقفه أحمر وبساطه أحمر وقال بشار بن برد

هجان عليها حمرة فى بياضها * تروق بها العينين والحسن أحمر

وقال أعرابي

هجان عليها حمرة في بياضها * ولا لون أدنى للهجان من الحمر

قال ومما عظم الله به شأن النار أنها تنتقم في الآخرة من جميع أعدائه وليس يستوجبها بشرى من بشرى ولا جني من جنى بضغينة ولا ظلم ولا جناية ولا عدوان ولا تستوجب النار الا بعداوة الله عز وجل وحده وبها يشفى صدور أوليائه من أعدائهم في الآخرة وكل شيء أضافه الله الى نفسه فقد عظم شأنه وشدد أمره وقد فعل ذلك بالنار فقالوا بأجمعهم دعه في نار الله وفي سقره وفى غضب الله ولعنته وسخط الله وغضبه هما ناره أو الوعيد بناره كما يقال بيت الله وزوار الله وسماء الله وعرش الله ثم ذكرها فامتن بها على أهل الأرض من وجهين أحدهما قوله عز وجل (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون) فجعلها من أعظم الماعون معونة وأخفها مؤونة والماعون الأكبر الماء والنار ثم الكلأ والملح قال الشاعر فى الماعون بيتاً

جامعاً أحسن فيه التأدية حيث قال

لا تعدان أناويين قد نزلوا * وسط الفلات بآلات محلات

والمحلات هي الأشياء التي إذا كانت مع المسافرين حلوا حيث شاؤا وهي القداحة والقربة والمسحاة فقال إياك أن تعدل اذا أردت النزول من معه أصناف الماعون بأناويين يعنى واحداً أتى من هاهنا وآخر أتى من هاهنا كأنهم جماعة التقوا من غير تعريف بنسب ولا بلد واذا تجمعوا أفذاذاً لم يكمل كل واحد منهم خصال المحلات قال أبو النجم

يضمن بالقفر أتاويات * معترضات غير عرضات

وقالت امرأة من الكفار وهي تحرض الأوس والخزرج حين نزل فيهم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه

أطعتم أتاويَّ من غيركم * فلا من مراد ولا مذحج

ولم ترد أنها أشرف من قريش ومن الحيين كعب وعامر ولكنها أرادت أن تؤلب وتذكر العصبية وقالوا لا تبتنى المدن الا على الماء والكلإ والمحتطب فدخلت النار في المحتطب اذ كان كل عود يوري وأما الوجه الآخر من الامتنان بها فكقوله تعالى (يرسل عليكما شواظٌ من نار ونحاس فلا تنتصران) ثم قال على صلة الكلام (فبأيّ آلاء ربكما تكذبان) وليس يريد أن احراق الله عز وجل العبد بالنار من آلائه ونعمائه ولكنه رأى أن الوعيد الصادق اذاً في غاية الزجر عما يطغيه ويؤذيه فهو من النعم السابغة والآلاء العظام وكذلك تقول في خلق جهنم إنها نعمة عظيمة ومنة جليلة إذا كان زجراً عن نفسه ناهياً والى الجنة داعياً فأما الوقوع فيها فلا يشك أنه البلاء العظيم وكيف تكون النقم نعماً ولو كانت النقمة نعمة لكانت رحمة ولكان السخط رضى وليس يهلك على البينة الا هالك وقال الله عز وجل (ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة) وقال الحسن والله يابن آدم ماتوبقك إلا خطاياك قد أريد بك النجاة فأبيت إلا أن توقع نفسك وشهد الحسن بعض الأمراء وقد تعدى اقامة الحد وزاد في عدد الضرب فكلمه في ذلك فلما رآه لا يقبل النصح قال أما إنك لا تضرب الا نفسك

فان شئت فقال وان شئت فكثر وكان كثيراً ما يتلو عند ذلك فما أصبرهم على النار (والعقاب عقابان) فعقاب آخرة وعقاب دنيا فجميع عقاب الدنيا بلية من وجه ونعمة من وجه إذ كان يؤدى الى النعمة وان كان مؤلماً فهو عن المعاصى زاجر وان كان داخلا في باب الامتحان والتعبد مع دخوله في باب العقاب والنعمة اذ كان زجراً له وتنكيلا لغيره وقد كلفنا الصبر عليه والرضى به والتسليم لأمر الله فيه وعقاب الآخرة بلاء صرف وخزى بحت لأنه ليس بخروج منه ولا يحتمل وجهين وقال أبو اسحق الحر في الشمس أصهب وفى الفيء أشكل وفى ظل الأرض الذى هو الليل أحمر وأى صوت خالطته النار فهو أشد الأصوات كالصاعقة والاعصار الذي يخرج من شق البحر كصوت الحزم والجذوة من العود إذا كان فى طرفه نار ثم غمسه فى إناء فيه ماء نوي منقع ثم بالنار يعيش أهل الأرض من وجوه فمن ذلك صنيع الشمس في برد الماء والأرض لأنها صلاء جميع الحيوان عند حاجتها الى دفع عادية البرد ثم سراجهم الذى يستصبحون به والذى يميزون بضيائه بين الأمور وكل بخار يرتفع من البحار والمياه وأصول الجبال وكل ضباب يعلو وندى يرتفع ثم يعود بركة ممدودة على جميع النبات والحيوان فالماء الذى يحله ويلطفه ويفتح له الأبواب ويأخذ بضبعه من قعر البحر والأرض النار المخالطة لهما من تحت والشمس من فوق وفى الأرض عيون نار وعيون قطران وعيون نفط وكباريت وأصناف جميع الفلز من الذهب والفضة والرصاص والنحاس فلولا ما فى بطونها من أجزاء النار لما ذاب فى قعرها جامد ولما أنسبك فى أضعافها شيء من الجواهر ولما كان لقواها جامع ٢ ولجبتها مفرق قال وتقول العرب الشمس أرحم بنا وقيل لبعض العرب أي يوم أنفع قال يوم شمال وشمس وقال بعضهم لامرأته

تمنين الطلاق وأنت عندى * تعيشى مثل مشرقة الشمال

وقال عمر الشمس صلاء العرب وقال عمر العربي كالبعير حيث ما دارت الشمس استقبلها بهامته ووصف الراجز إبلاً فقال * تستقبل الشمس بجمجماتها *

وقال قطران العبسي

بستأسد القريان حو تلاعه ٭ فنواره ميل الى الشمس زاهره

والخيرى ينضم ورقه بالليل وينفتح بالنهار لاسماعيل بن غز وان فى هذا نادرة وهو أن سائلا سألنا من غير أهل الكلام فقال مابال ورق الخيرى ينضم بالليل وينتشر بالنهار فانبرأ له اسماعيل بن غزوان لان برد الليل وثقله من طباعهما الضم والقبض والتنويم وحر الشمس من طباعه الاذابة والنشر والبسط والخفة والايقاظ قال السائل فيما قلت دليل ولكنه قال اسماعيل وما عليك أن يكون هذا في يدك إلى أن تصيب شيئاً هو خير منه وكان اسماعيل أحمر حليما وكذلك كان الحرامي وكنت أظن بالحمر الالوان التسرع والحدة فوجدت الحلم فيهم أعم وكنت أظن بالسمان الجدال العظام ان الفالج اليهم أسرع فوجدته فى الذين يخالفون هذه الصفة أعم وقال إياس بن معاوية صحة الابدان مع الشمس ذهبت الى أهل العمد والوبر وقال مثنى بن بشير الحركة خير من الظل والسكون وقد رأينا من مدح خلاف ذلك وهو قليل وقيل لابنة إياس أيما أشد الشتاء أم الصيف قالت ومن يجعل الاذى كالزمانة وقال اعرابى لاتسب الشمال فانها تضع أنف الافعى وترفع أنف الرفقة وقال خاقان بن صبيح وذكر نبل الشتاء وفضله على نبل الصيف فقال تغيب فيه الهوام وتنجحر فيه الحشرات وتظهر الفرش والبزة ويكثر فيه الدخن وتطيب فيه حمرة البيت ويموت فيه الذبان والبعوض ويبرد الماء ويسخن الجوف ويطيب فيه العناق واذا ذكرت العرب بردالماء وسخونة الجوف قالت حرة تحت قرة ويجود فيه الاستمراء اطول الليل واتبطى الحر وقال بعضهم لاتسرن بكثرة الاخوان مالم يكونو أخياراً فإن الاخوان غير الخيار بمنزلة النار قليلها متاع وكثير هابوار قال(ومن النيران نار الزحفتين)وهى نار أبى سريع وأبو سريع هو العرفج وقال قتيبة بن مسلم لعمر بن عباد بن حصين والله للسؤدد أسرع اليك من النار فى يبيس العرفج وانما قيل لنار العرفج نار الزحفتين لان العرفج اذا التهبت فيه النار أسرعت وعظمت وشاعت واستفاضت فى أسرع من كل شئ فمن كان فى قربها يزحف عنها ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها في مثل تلك السرعة فيحتاج الذى يزحف عنها أن يزحف اليها من ساعته فلا تزال للمصطلي كذلك ولا يزال المصطلي بها كذلك فمن أجل

ذلك قيل نار الزحفتين قال وقيل لبعض الاعراب مابال نساءكم رشحاً قال أرشحهن عرفج الهلباة وهذا شرط الراعي فيما بينه وبين من استرعاه ماشيته فى النار والحال وذلك أن شرطهم عليه أن يقول المسترعي للراعى إن عليك ان ترد ضالتهاوتهنأ جرباها وتلوط حوضها ويدك مبسوطة في الرسل ما لم تنهك حلبا او تضر بنسل قال فيقول عند ذلك الراعي لرب الماشية بعدهذا الشرط ليس لك ان تذكر امي بخير ولا شرولك حذفة بالعصا عند غضبك اخطأت أو أصبت ولى مقعدى من النار وموضع يدى من الحار قال ووصف بعض الاوائل شبه مابين النار والانسان فجمل ذلك قرابة ومشاكلة قال وليس بين الارض وبين الانسان ولا بين الانسان والماء ولا بين الهواء والانسان مثل قرابة مابينه وبين النار لان الارض انما هى أم للنبات لانه مركب وهو لايغذو إلا مايعتده للطبخ وليس للهواء فيه الا النسيم والمتقلب وهذه الامور وان كانت زائدة وكانت النفوس تتلف مع فقد بعضها فطريق المشاكلة والقرابة غير طريق ادخال المرفق وجر المنفعة ودفع المضرة قال وانما قضيت لها بالقرابة لانى وجدت الانسان يحيي ويعيش فى حيث تحيي النار وتعيش وتموت وتتلف حيث يموت الانسان ويتلف وقد تدخل نار فى بعض المطامير والحباب والمغارات والمعادن فتجدها متى ماتت هناك علمنا ان الانسان متى صار فى ذلك الموضع مات ولذلك لايدخلها احد مادامت النار اذا صارت فيها ماتت ولذلك يعمد اصحاب المعادن والحفاير اذا هجموا على فتق فى بطن الارض أو مغارة في أعماقها أو اضعافها قدموا شمعة فى طرفها أو في رأسها نار فان ثبتت النار وعاشت دخلوا فى طلب الجواهر من الذهب وغير ذلك والا لم يتعرضوا له وانما يكون دخولهم بحياة النار وامتناعهم بموت النار وكذلك اذا وقعوا على رأس الجب الذى فيه الطعام لم يجسروا على النزول فيه حتى يرسلوا فى ذلك الجب قنديلا فيه مصباح أو شيئاً يقوم مقام القنديل فان مات لم يتعرضوا له وحركوا فى جوفه أكيسة وغيرها من أجزاء الهواء قال ومما يشبه النار فيه بالانسان انك ترى للمصباح قبل انطفائه ونفاد دهنه اضطراما وضياء ساطعاً وشعاعا طائراً وحركة سريعة وتنفضا شديداً وصوتا متداركا فعندها يخمد المصباح وكذلك الانسان له قبل حال الموت ودون انقضاء مدته باقرب الحالات حال مطمعة تزيد فى القوة على حاله قبل

ذلك اضعافا وهي التي يسمونها راحة الموت وليس له بعد تلك الحال لبث (وكان رئيس المتكلمين) وأحد الجلة المتقدمين يقول في النفس قولا بليغا عجيبا لولا شنعته لأظهرت اسمه وكان يقول الحول اسم لكل فتق وكذلك الحز والفتق لا يكون إلا بين الاجرام الغلاظ والا فانما هو الذي يسميه أصحاب الفلك اللج واذا هم سألوهم عن خضرة الماء قالوا هذا لج الهواء وقالوا لولا أنك في ذلك المكان لرأيت في اللج الذي فوق ذلك مثل هذه النظرة الا وهو أرق من كيفيته أو من الاجرام الخاضرة وهو اسم لكل محرق ومنقلب لكل شيء فيه الاجرام المركبة ويستقيم أن يكون من جنس النسيم ويكون محصوراً أما بحصر كثيف كالسفينة لما فيها من الهواء الذي به حملت مثل وزن جرمها الاضعاف الكثيرة وأما أن يكون محصوراً في شيء كهيئة البيضة المشتملة على ما فيها كالذي يقولون في الفلك الذي هو عندنا سماء قال والنسيم الذي فيه معنى آخر وهو الذي يجمله بعض الناس ترويحاً عن النفس يعطيها البرد والرقة والطيب ويدفع النفس ويخرج اليه البخار والغلظ والحرارات الفاضلة وكل مالا تقوى النفس على نفيه وطرده قال وليس الأمر كذلك بل أزعم أن النفس من جنس النسيم وهذه النفس القائمة في الهواء المحصور عرض لهذه النفس المتفرقة في اجرام جميع الحيوان وهذه الأجرام التي في هذه الأبدان من بدء النسيم في موضع الشعاع والأكثاف والفروع التي تكون من الأصول قال وضياء النفس كضياء دخل من كوة فلما سدت الكوة انقطع بالطفرة إلى عنصره من قرص الشمس وشعاعها المشرق فيها ولم يقم في البيت مع خلاف شكله من الحرق ومتى عم السد لم تقم النفس في الجرم فوق لأحكام النفس عند السد إذ كنا لا نجدها بعد ذلك كحكم الضياء بعد السد إذ كنا لا نجدها بعد ذلك فالنفس من جنس النسيم وبفساده تفسد الأبدان وبصلاحه تصلح وكان يعتمد على أن الهواء نفسه هو النفس والنسيم وأن الحر واللدونة وغير ذلك من الخلاف إنما هو من الفساد العارض قيل له فقد يفسد الماء فتفسد الأجرام من الحيوان بفساده ويصلح فيصلح بصلاحه وتمنع الماء وهي تنازع اليه فلا تدخل بعد المنازعة اذا تم المنع وتوصل بجرم الماء فتقيم في مكانها فلعل النفس عند

بطلانها في حسها قد انقطعت الى عنصر الماء بالطفرة وبعد فما علمك لعل الخنق هيج على النفس أضدادا لها كثيرة غمرتها حتى غرقت فيها وصارت مغمورة بها وكان هذا الرئيس يقول لولا أن تحت كل شعرة وزغبة مجرى نفس لكان المخنوق يموت مع أول حالات الخنق ولكن النفس قد كان لها اتصال بالنسيم من تلك المجاري على قدر لا قدار فكان نقطها جوف الانسان فالريح والبخار لما طاب المنفذ فلم يجده دار و كثف وقوى فامتد له الجلد فسد له المجاري فعند ذلك ينقطع النفس ولولا اعتصامها بهذا السبب لقد كانت انقطعت إلى أصلها من القرص مع أول حالات الخنق (وكان يقول ان لم تكن النفس غمرت بما هيج عليها من الافات ولم تنقطع الطفر الى أصلها جاز أن يكون الضياء الساقط على أرض البيت عند سد الكوة أن يكون لم ينقطع الى أصله ولكن السد هيج عليه من الظلام القائم فى الهواء ماغمره وقطعه عن أصله ولا فرق بين هذين وكان يعظم شأن الهواء ويخبر عن إحاطته بالأمور ودخوله فيها وتفضل قوته عليها وكان يزعم أن الذى فى الزق من الهواء لو لم يكن له مجار ومنافس ومنع من كل وجهة لأقل الجمل الضخم وكان يقول وما ظنك بالرطل من الحديد أو بالزيادة منه إنه متى أرسل فى الماء خرقه كما يخرق الهواء قال والحديد يسرع الى الارض اذا أرسلته فى الهواء بطبعه وقوته ولطلبه الأرض المشاكلة له ودفع الهواء له وتبريه منه ونفيه له بالمضادة ولحدادة له بالعداوة قال ثم تأخذ تلك الزيادة فتبسطها بالمطارق فتنزل نزولاً دون ذلك لأنها كلما اجتمعت فكان الذى يلاقيها من الماء أصغر جرماً كانت أقوى عليه ومتى ما أشخص لهذه الزيادة المطبوخة المبسوطة المسطوحة بفتق الحيطان فى مقدار غلظ الأصبع حمل مثل زنة المرار الكثيرة وليس إلا لما حصرت تلك الاصبع من الهواء وكلما كان نتو الحيطان أرفع كان للأثقال أحمل وكان الهواء أشد انحصاراً قال ولولا أن ذلك الهواء المحصور متصل بالهواء المحصور فى جرم الخشب والقار فرفع بذلك الاتصال السفينة علواً لما كان يبلغ من حصر ارتفاع إصبع للهواء مايحمله البغل ويدل على ذلك شأن السكانة . فانك تضع رأس السكانة التي تلي الماء فى الماء ثم تمصه من الطرف الآخر فلو كان الهواء المحصور فى تلك الانبوبة إنما هو مجاور لوجه الماء

ولم يكن متصلا لما لابس جرم الماء من الهواء ثم مصصته بأضعاف ذلك الجذب الى مالا يتناهى لما ارتفع اليك من الماشئ رأساً وكان يقول فى السبيكة التي تطيل عليها الأيقاد كيف لا تلوى فما هو إلا أن ينفخ عليها بالكير حتى تدخل النيران فى تلك المداخل وتعاونها الأجزاء التى فيها من الهواء وبمثل ذلك قام الماء فى جوف كوز المسقاة المنكس ولعلمهم بصنيع الهواء اذا احتصر واذا حصروا جعلوا سمك الصينية مثل طولها أعني المركب الصيني وكان يخبر عن صنيع الهواء بأعاجيب وكان يزعم أن الرجل اذا ضربت عنقه سقط على وجهه واذا انتفخ انتفخ غرموله وقام وعظم يقلبه عند ذلك على القفا فاذا جاءت الضبع الناً كله فراته على تلك الحال ورأت عز موله على تلك الهيئة استدخلته وقضت وطرها من تلك الجهة ثم أكلت الرجل بعد ان يقوم ذلك عندها أكثر من سفاد الذيخ والذيخ ذكر الضباع العرجاء وذكر بعض الاعراب انه عاينها عند ذلك وعند سفاد الضبع لها فوجدلها عند تلك الحال حركة وصياحا لم يجده عندها في وقت سفاد الذيخ لها ولذلك قال ابواسحق لاسماعيل ابن غزوان اشهد بالله انك لضبع لان اسماعيل شد جارية له على سلم وحلف ليضربنها مائة سوط دون الازار ليلتزق جلد السوط بجلدها فيكون اوجع لها فلما كشف عنها رطبة بضة جدلة وقع عليها فلما قضى حاجته منها وفرغ ضربها مائة سوط فعند ذلك قال ابو اسحق ماقال واذا غرقت المرأة رسبت فاذا انتفخت وصارت فى بطنها ريح وصارت في معنى الزق طفى بدنها وارتفع الا أنها تكون منكبة ويكون الرجل مستلقيا واذا ضربت عنق الرجل والقي فى الماء لم يرسب وقام فى جوف الماء وانتصب ولم يغرق ولم يلزم القعر ولم يظهر كذلك يكون اذا كان مضروب العنق كان الماء جاريا أو ساكنا حتى اذا خبث وصار فيه الهواء وصار فيه كالزق المنفوخ انقلب وظهر بدنه كله وصار مستلقيا كان الماء جاريا أو كان قائما فغرقه وهو مضروب العنق شبيه بالذي عليه طباع العقرب التي فيها الحياة إذا القيتها فى ماء غمر لم تطف ولم ترسب وبقيت فى وسط عمق الماء لا يحرك منها شئ والعقرب من الحيوان الذى لا يسبح فاما الحية فانها تكون جيدة السباحة اذا كانت من اللواتى تنساب وتذهب فأما أجناس الافاعي التى تسير على

جنب فليس عندها فى السباحة طائل , والسباحة المنعوتة انما هي للأوزة والبقرة والكلب فأما السمكة فهى الاصل فى السباحة وهي المثل واليها جميع النسبة , والمضروب المنق يكون في عمق الماء قائما والعقرب على خلاف ذلك (ثم رجع بنا القول الى ذكر النار) قال وللنار من الخصال المحمودة أن الطفل لايناغي شيئا كما يناغي المصباح وتلك المناغاة نافعة له فى تحريك النفس وتهييج الهمة والبعث على الخواطر فى فتق اللهاة وتشديد اللسان والسرور الذىله في النفس أكرم أثر , قال وكانت النار معظمة عند بنى اسرائيل حيث جعلها الله تعالى تأكل القربان وتدل على اخلاص المتقرب وفساد نية الدغل حيث قال الله عز وجل لا تطفؤا النار من بيوتى ولذلك لا تجد الكنائس والبيع أبداً الا وفيها مصابيح تزهر ليلا ونهاراً حتى نسخ الاسلام ذلك وأمر باطفاء النيران الا بقدر الحاجة , ذكر ابن جريج قال أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر ابن عبدالله يقول أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رقدت فأغلق بابك وخمر اناءك وأوك سقاءك واطفئ مصباحك فان الشيطان لا يفتح بابا ولا يكشف اناء ولا يحل وكاء وقال فان الفويسقة تحرق على أهل البيت , وذكر ابن خليفة عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غلقوا أبوابكم وأوكؤا أسقيتكم وخمروا آنيتكم وأطفؤا سراجكم فان الشيطان لا يفتح بابا ولا يحل وكاء ولا يكشف غطاء وأن الفويسقة تضرم البيت على أهله وكفوا فراشكم وأهليكم حتي تغرب الشمس حتى تذهب فحمة العشاء , قال ويدل على أنه صلى الله عليه وسلم أمر بحفظها الا على قدر الحاجة ولم يأمر باطفائها الا عند الاستغناء عنها ما حدث به حماد بن بكير قال حدثنى الحسن بن ذكوان عن شهر بن حوشب قال أمر صلى الله عليه وسلم أن تحبسوا صبيانكم عند فحمة العشاء وأن تطفؤا المصابيح وأن توكؤا الأسقية وأن تخمروا الآنية وأن تغلقوا الابواب قال فقام رجل فقال يارسول الله انه لابد لنا من المصابيح للمرأة النفساء وللمريض وللحاجة تكون قال فلا بأس اذا كان المصباح مطردة للشيطان مذبة للهوام مدلة على اللصوص , قال ونار أخرى وهى التي تذكر الاعراب أن الغول توقدها بالليل للعبث والتخييل واضلال

السابلة قال أبو المطراد عبيد بن أيوب العنبري

فلله در الغول أي رفيقـة * لصاحب قفر خائف يتنشر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت * حوالىَّ نيرانا تلوح وتزهر

قال وجمرات العرب عبس وضبة ونمير يقال لكل واحد منهم جمرة وقد ذكر أبو حية النميري قومه خاصة فقال

وهم جمرة مايصطلى الناس نارهم * توقَّد لا تطفى بزيت الرواهب

ثم ذكر هذه القبائل فعمهم بذلك لأنها كلها مضرية فقال

لنا جمرات ليس في الناس مثلها * ثلاث فقد جربن كل التجارب

نمير وعبس تتقى صفراتها * وضبة قوم بأسهم غير كاذب

الى كل قوم قد دلفنا بجمرة * لها عارض مزن قوى المناكب

وعلى ذلك المعنى قيل قد سقطت الجمرة اذا كان فى استقبال زمان من الدفء ويقولون قد سقطت الجمرة الاولى والثانية والجمار رمى الحصا قال الشاعر

ولم أر كالتجمير منظر ناظر * ولا كليالى الحج افترذا هوى

والتجمير أيضاً ان يرمى بالجند في ثغر من ثغور المسلمين ثم لا يؤذن لهم فى الرجوع وقال حميد الارقط

فاليوم لا ظلم ولا تتبير * ولا لغاز ان غزا تجمير

وقال بعض من جمر من الشعراء فى بعض الاجناد

معاوى اما ان تجمر أهلنا * الينا وإما ان نؤوب معاويا

أجمرتنا إجمار كسري جنوده * ومنيتنا حتى مللنا الامانيا

وقال الجعدى

بالخلايا أتاك من أهل غرسا * ن بجند مجمر بازال

ويقال أجمر الرجل اذا أسرع وأعجل مركبه وقال لبيد

واذا حركت غرزى أجمرت * أو قرابى عدو جون قد أبل

وقال الراجز * اجمرت إجمار الذى يهمهم * ويقال اجمر هو مأخوذ من الجمر ويقال

قد جمرت المرأة شعرها اذا ضفرته ويقال له الجمير وأنشد الأصمعي

* مضفورها يطوي على جميرها * ويقال قد تجمر القوم اذا هم اجتمعوا حتى لهم بأس

ويكونون كالنار على اعدائهم فكأنهم جمروا حتى كأنهم جمير من شعر مضفور أوحبل

موضع القوى وبه سميت تلك القبائل والبطون من تميم الجمار، والجمر مشدد الميم حيث

يقع حصا الجمار وقال الهذلي

لأدركهم شعث النواصي كأنهم * سوابق حجاج توافي المجمرا

ويقال خف مجمر اذا كان مجتمعاً شديداً ويقال عمد الى ابله وخيله أو رجاله فاجمر اذا

كان ذلك جملة واحدة وقال الأعشي * واعي بذلك بكراً جماراً * قال ويقال في النار

وما يسقط من الزند السقط والسقط ويقال هذا مسقط الرمل أي منقطع الرمل

ويقال أتاني مسقط النجم اذا جاء حين غاب ويقال وقع الغائب سقطته وقال الشاعر

حتى اذا ما أضاء الصبح وانبعثت * عنا نعامة ذي سقطين منعكر

ويروي معتكر أراد ناحيتي الليل ويقال شبت النار والحرب تشب شبا واشتبها شباً

وهو رجل مشبوب للحرب ويقال حسب ثاقب أى في معنى متوقد وكذلك يقال في

العلم ويقال هب لي ثقوبا وهو ما أثقبت به النار من حطبة أو من غيرها ويقال أثقب

النار اذا فتح عنها لتشتعل وهو الثقوب ويقال أيضاً ثقب الزند يثقب ثقوباً اذا ظهرت

ناره وكذلك النار والزند الثاقب الذى اذا قدح ظهرت النار منه , ويقال ذكت النار

تذكو ذكواً اذا اشتعلت ويقال ذكها اذا أريد اشتعالها وذكاء الشمس مضموم

الذال المعجمة وابن ذكاء الصبح مضموم الذال ممدوداً قال العجاج* وابن ذكاء كامن

في كفره * وقال ثعلبة بن صعير المازني وذكر ظليما ونعامة

فتذكرا ثقلا رثيداً بعد ما * ألقت ذكاء يمينها في كافر

واما الذكاء مفتوح الذال ممدود فحدة الفؤاد وسرعة اللقن وقالوا أضرمت النار

حتي اضطرمت وألهبتها حتي التهبت وهما واحد والضرام من الحطب ماضعف منه

ولان والجزل ما غلظ واشتد فالرمث ومافوقه جزل والعرفج وما دونه ضرام وللصب

وكل شيء ليس له جمر فهو ضرام وكل ماله جمر فهو جزل، ويقال مافيها نافخ ضرمة

أي مافيها أحد ينفخ ناراً ويقال صليت الشاة فانا أصليها صليا اذا شويتها فهي مصلية ويقال صلى الرجل النار فهو يصلاها وأصلاه الله حر النار إصلاء وتقول هو صال حر النار في يوم صال وصلاة، ويقال همدت النار تهمد هموداً وطفئت تطفأ طفواً اذا ماتت وخمدت تخمد خموداً اذا سكن لهبها وبقي جمرها حاراً وشبت تشب شبوبا اذا هاجت والتهبت وشب الفرس بيديه فهو يشب شبابا وشب الصبي يشب شبابا، ويقال ليس لك غضاض ولا شباب ويقال عشي الي النار يعشو اليها عشواً وعشواً وذلك يكون من أول الليل يرى ناراً فيمشو اليها يستضيء بها قال الحطيئة

متى تأته تعشو الى ضوء ناره * تجد خير نار عندها خير موقد

ويقال عشى الرجل يعشى عشاوة وهو رجل أعشى وهو الذي يبصر بالليل وعشي الرجل عن صاحبه يعشى عشاً شديداً (ويذكرون ناراً أخرى) وهي على طريق المثل لاعلى طريق الحقيقة كقولهم في نار الحرب قال ابن ميادة

يداه يد تنهل بالغيث والندا * وأخري شديد بالاعادى ضريرها

وناراه نار نار كل مدفع * وأخرى يصيب المجرمين سعيرها

وقال ابن كنانة

خلفها عارض يمد على الآفا * ق سترين من حديد ونار

نار حرب يشبها الحر والجـ * ـد وتغشى نوافذ الأبصار

وقال الراعي

وغارتنا أودت ببيداء انها * تصيب الصريح مرة والمواليا

وكانت لنا ناران نار بجاسم * ونار بمرخ يحرقان الاعاديا

جاسم بالشام ومرخ بالعالية (ونار أخرى) وهي مذكورة على الحقيقة لاعلى المثل وهي من أعظم مفاخر العرب وهي التي ترفع للسفر ولمن يلتمس القرى فكلما كان موضعها ارفع كان أفخر قال أمية بن الصلت

لا القبابات منتواك ولكـ * ـن في ذري مشرف القصور ذراك

وقال الطائي

وبوأت بيتك فى معلم * رفيع المباءة والمسرح *
كفيت العفاة ضياء القدو * رونبح الكلاب لمستنبح
ترى دعس آثار تلك المط * ى أخاديد كاللقم الافيح
ولو كنت فى نفق رائغ * لكنت على الشرك الاوضح

وأنشد أبو الزبرقان

له نار تشب بكل ريع * اذا الظلماء جللت القناعا
ومالن كان أكثرهم سواما * ولكن كان أرحبهم ذراعاً

وفى نار القري يقول الآخر

على مثل همام ولم أر مثله * تبكي البواكى أو لبشر بن عامر
غلامان كان استوردا كل مورد * من المجد ثم استوثقا بالمصادر
كان سنا ناريهما كل شتوة * سنا الفجر يبدو للعيون النواظر

وفى ذلك يقول عبيد بن الأبرص

ومستنبح يخشى العداة ودونه * من الليل بابا ظلمة وستورها
رفعت له نارا فلما اهتدى بها * زجرت كلابي أن يهر عقورها
فلاتسألنى واسألن عن خليقتى * اذارد مافي القدر من يستعيرها
تري أن قدري لا تزال كانها * لذي الفرث المقرور أم يزورها
مبرزة لا يجعل الشر دونها * اذا خمد النيران لاح بشيرها
اذا الشول راحت ثم لم يفد لحمها * بألبانها ان السنان عقيرها

أما ان ذكرنا جملة من القول فى النار من طريق الكلام وما يدخل فى الطب فسنذكر من ذلك جملة فى باب آخر قالوا مد الشعبى يده وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشراب فلم يدر صاحب الشراب اللبن أم العسل أم بعض الاشربة فقال له أى الاشربة أحب اليك قال أعزها مفقوداً وأهونها موجوداً قال قتيبة اسقه ماء وكان أبو العتاهية في جماعة من الشعراء عند بعض الملوك اذ شرب رجل منهم ماء ثم قال برد الماء وطاب فقال أبو العتاهية اجعله شعراً ثم قال من يجيز هذا البيت

فأطرق القوم مفكرين فقال أبو العتاهية سبحان الله وما هذا الاطراق ثم قال

برد الماء وطابا * حبذا الماء شرابا

وقال الله عز وجل وأنهار من ماء غير آسن ثم لم يذكره بأكثر من السلامة من التغير اذ كان الماء متي كان خالصا سالما لم يحتج الى أن يشرب بشئ غير ما فى خلقته من الصفاء والعذوبة والبرد والطيب والحسن والسلس فى الحلق وقد قال علي بن زيد

لو بغير الماء حلقي شرق * كنت كالغصان بالماء اعتصارى

قال أبو المطراد عبيد بن أيوب العنبرى

وأول خبث الماء خبث ترابه * وأول خبث النجل خبث الحلائل

وأوصي رجل من العرب ابنته ليلة زفافها بوصايا فكان مما قال لها احذرى مواقع أنفه واغتسلى بالماء القراح حتي كانك شن ممطور وأوصت امرأة ابنتها بوصايا فكان منها وليكن أطيب طيبك الماء وزعموا أنها القائلة لبنتها

بنى ان نام فنامى قبله * وأكرمى تابعه وأهله

ولا تكونى فى الخصام مثله * فتخصميه فتكونى بعله

ومن الامثال

فأصبحت مما كان بينى وبينها * سوى ذكرها كالقابض الماء باليد

وأخذ المسيح عليه السلام في يده اليمنى ماء وفي يده اليسري خبزاً فقال هذا أبى وهذا أمى فجعل الماء أبا لان الماء من الارض يقوم مقام النطفة من المرأة واذا طبخ الماء ثم برد لم تلقح عليه الاشجار وكذلك قضبان الشجرة والحبوب والبذور لو طبخت طبخة ثم بذرت لم تعلق، وقالوا فى النظار الى الماء الدائم الجرايان ما قالوا وجاء فى الاثر من كان به برص قديم فليأخذ درهما حلالا فليشتر به عسلا ثم يشربه بماء سماء فانه يبرأ باذن الله والنزيف هو الماء عند العرب وما ظنكم بشراب اذا خبث وملح فصار ملحاً زعافا وبحراً أجاجا ولد العنبر الورد فانسل الدر النفيس فهل سمعت بنجل أكرم من نجله ومن نتاج أشرف من نسله، ما أحسن ما قال أبو عباد كاتب ابن أبى خالد حيث يقول ما جلس بين يدىّ رجل قط الا تمثل لى أنني سأجلس بين يديه

وما سرني دهر قط الا شغلني عنه تذكر ما يليق بالدهور من الغير قال الله عز وجل قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها لان الزجاج أكثر ما يمدح به أن يقال كأنه الماء في الصفاء وقال الله عز وجل هذا عذب فرات سائغ شرابه وقال القطامي

وهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذى الغلة الصادي

وقال الله عز وجل والله خلق كل دابة من ماء فيقال انه ليس شيء الا وفيه ماء أو قد أصابه ماء أوخلق من ماء والنطفة ماء والماء يسمي نطفة وقال ابن عباس موج مكفوف وقال عز وجل وأنزلنا من السماء ماء مباركا وحين اجتهدوا في تسمية امرأة بالجمال والبركة والحسن والصفاء والبياض قالوا ماء السماء وقالوا المنذر بن ماء السماء ويقال صبغ له ماء ولون له ماء وفلان ليس في وجهه ماء وردني فلان ووجهي بمائه قال الشاعر

* ماء الحياء يجول فى وجناته *

وقالت أم فروة فى صفة الماء

وما ماء مزن أى ماء تقوله * تحدر من غر طوال الذوائب
بمنعرج أو بطن واد تحدبت * عليه رياح المزن من كل جانب
نفى نسم الريح القذا عن متونه * فما أن به عيب تراه لشارب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه * تقى الله واستحياء بعض العواقب

فالابل لا تحب من الماء الا الغليظ والحوافر تحب العذوبة وتكره الماء الصافي حتى ربما ضرب الفرس بيده الشريعة ليثور الماء ثم يشربه والبقر تعاف الماء الكدر ولا تشرب الا الصافى والظباء تكرع فى ماء البحر الاجاج وتخضم الحنظل والابيضان الماء واللبن والاسودان الماء والتمر وسواد العراق ماؤه الكثير والماء ان كان له عمق اشتد سواده فى العين وقال العكلى فى صفة الماء

عاده من ذكر سلمى عوده * والليل داج مطلخم أسوده
فبت ليلى ساهراً ما أرقده * حتى اذا الليل تولى كبده
وانكب للغور انكبابا فرقده * وحشه حاد كميش يطرده

أغر أجلي مغرب مجرده * أصبح بالقلب جوى مايبرده
ماء غمام في الرصاف مقلده * ذل به عن رأس نيق صلده
عن ظهر صفوان مزل مجسده * حتى اذا السيل تناهي مدده
وشكد الماء الذي يشكده * بين حوام ودبور تلهده
كل نسيم من صبا تستورده * كانما يشهده أو يفقده *
* فهو شفاء الصادي مما يعمده *

وقال آخر في الماء

ما كاس تعب رأس[1] شظبة * نزل امال عراصها شؤبوب
ضحيان شاهقة يرق بشامه * نديان يقصر دونه اليعقوب
بألذ منك مذاقة لحلاء * عطشان داعس ثم عاد يلوب

﴿ وقال جرير ﴾

لو شئت قد نقع الفؤاد بشربة * تدع الحوائم لايجدن غليلا
بالعذب من رصف الفلاة مقيله * قصر الاباطح لايزال ظليلا

قال وفي الماء ان أطيب شراب عمل وركب مثل السكنجبين والجلاب والبنفسج وغير ذلك مما يشرب من الاشربة فان لذ وطاب فان تمام لذته أن يجرع شاربه بعد شربه له جرعاً من الماء يغسل بها فيه ويطيب بها نفسه وهو في هـذا الموضع كالخلة والحمض جميعا وهو بتسويغ الطعام في المرئ والمركب والمعبر والمتوصل به الى الاعضاء فالماء يشرب صرفا وممزوجا والاشربة لاتشرب صرفا ولا ينتفع بها الا بممازجة الماء وهو بعد طهور الابدان وغسول الادران وقالوا هو كالماء الذي يطهر كل شئ ولاينجسه شئ وقال النبي صلى الله عليه وسلم في بئر رومة الماء لاينجسه شئ ومنه مايكون منه الملح والبرد والثلج فيجتمع الحسن في العين والكرم في البياض والصفا وحسن الموقع في النفس وبالماء يكون القسم كقول الشاعر

غضبي ولا والله يا أهلها * لاأشرب البارد أو ترضى

ويقولون لوعلم فلان أن شرب البارد يضع من مؤنة لذاذته وسمى الله عز وجل أصل

الماء غيثا بعد ان قال وكان عرشه على الماء ومن الماء ماء زمزم وهو لماشرب له ومنه يكون دواء وشفاء بنفسه كالحمى

قد ذكرنا جملة من القول فى النار وان ذلك وان كان لا يدخل فى باب القول فى أصناف الحيوان فقد ترجع اليها من وجوه لقارئ هذا الكتاب من باب القول فى الفيل والزنديل والقرد والخنزير وفى الدب والذئب والضب والضبع والسبع والسبار، وعلى ان الحكمة ربما كانت في الذبابة مع لطافة شخصها ونذالة قدرها وخساسة حالها أظهر منها على الفرس الرائع وان كان الفرس انفع في باب الجهاد وفي الجاموس مع عظم شخصه وفي دودة القز والعنكبوت أظهر منها فى الليث الهصور والعقاب القتول وربما كان ذكر العظيم الجثة أكثر فائدة وأظهر حكمة من الصغير الحقير ومن القليل القمى كالبعير والصؤابة والثعلب والقملة وشأن الأرضة أعجب من شأن البعير وشأن الكركي أعجب من شأن العنديل فان الكركى أعظم الطير والعنديل أصغر من ابن تمر ولذلك ذكر ابن يونس بعض لاطة الرواة فقال يضرب مابين الكركي الى العنديل يقول لايدع رجلا ولا صبيا الاعفجه ويشبه ذلك هجاء خلف الأحمر أبا عبيدة فقال

ويضرب الكركى الى القنبر * لا عانساً يبقى ولا محتلم

والعانس من الرجال مثله من النساء فلسنا نطنب في ذكر العظيم الجثة لعظم جثته وانما نلتمس ما كان أكثر اعجوبة وأبلغ فى الحكمة وأدل عند العامة على حكمة الرب وعلى انعام هذا السيد، ورب شئ الاعجوبة فيه انما هى فى صورته وصنعته وتركيب أعضائه وتأليف ريشه كالطاووس فى تعاريج ريشه وتهاويل ألوانه وكالزرافة فى عجيب تركيبها ومواضع اعضائها والقول فيها شبيه بالقول فى التدرج والنعامة، وقد يكون الحيوان عجيب صنعة البدن ثم لايذكر بعد حسن الخَلق بخُلق كريم ولا معرفة عجيبة ولا صنعة ومنه مايكون كالببغاء والنحلة والحمامة والثعلب والذرة ولا تكون الاعجوبة في تصويره وتركيب اعضائه وتنضيد ألوان ريشه في وزن تلك الاشياء التي ذكرناها ويكون العجيب فيما أعطى فى حنجرته من الاغانى العجيبة والاصوات

الشجية المطربة وفى الاخلاق الكريمة أو فى صنعة الكف اللطيفة والهداية الغريبة والمرفق النافع أو الى المضرة التى تدعو الى شدة الاحتراس ودقة الاحتيال فيقدم فى الذكر لذلك، وأى شئ أعجب من العقعق وصدق حسه وشدة حذره وحسن معرفته، ثم ليس فى الارض طائر تحوط بيضها أو فراخها أشد الحياطة وبأغمض معرفة مثله، قال عثمان بن عفان رضى الله عنه كل شئ يحب ولده حتى الحبارى يضرب بها المثل فى الموق ثم العقعق مع حذقه بالاسباب وبسرعة الخطف لا يستعمل ذلك فيما ينتفع به فكم من عقد ثمين خطير ومن قرط شريف نفيس قد اختطف من أيدى قوم فاما رمى به بعد تحلقه فى الهواء واما أحرزه ولم يلتفت اليه أبداً، وزعم الاصمعى أن عقعقا مرة استلب سخابا كريما لقوم فأخذ أهل السخاب اعرابية كانت عندهم فبينما هى تضرب وتسحب وتسب اذ مر العقعق والسخاب فى فمه فصاحوا به فرمى به فقالت الاعرابية تذكر السلامة بعد ان كانت قد ابتليت ببلية أخري فقالت

ويوم السخاب من تعاجيب ربنا * كانه من بلدة السوء نجانى

تعنى الذين كانت نزلت بهم من أهل الحاضرة، ولا بأس بذكر مايعرض مالم يكن من الابواب الطوال التى ليس فيها الا المقاييس المجردة والكلامية المحضة فان ذلك مما لا يخف سماعه ولا تهش النفوس لقراءته، وقد يحتمل ذلك صاحب الصناعة وملتمس الثواب والحسنة فتى وجدنا من ذلك بابا يحتمل أن يوشح بالاشعار الظريفة البليغة والاخبار الطريفة العجيبة تكلفنا ذلك ورويناه أجمع لما ينتفع به القارئ، ولذلك استجزنا أن نقول فى باب النار ماقلنا وانا كاتب لك بعد هذا اذ كنت قد امللتك بالتطويل وحملتك على أصعب المراكب وأوعر الطرق اذ قد ذكرنا فيه جملة صالحة من كلام المتكلمين ولا أري ان أزيد فى سآمتك وأحملك استفراغ طاقتك بأن ابتدأ القول في الابل والبقر والغنم والاسد والذئاب والحمير والظباء وأشباه ذلك مما أنا كاتبه لك ولكنى أبدأ بصغار الأبواب وقصارها ومحتقراتها وملاحها لئلا تخرج من الباب الأول الاوأنت نشط للباب الثانى وكذلك الباب الثالث والرابع الى آخر ما انا كاتبه لك ان شاء الله، ونبدأ بما فى العصفور ثم نأخذ فى ذكر الفار

والعقرب والذى بينهما من العداوة مع سائر خصالهما ثم القول فى العقرب والخنفساء والصداقة بينهما مع سائر خصالهما ثم القول في السنور والقول فى القنفذ ثم القول فى البعوض والبراغيث ثم القول فى القمل والصيبان ثم القول فى الورل والضب ثم القول في اليربوع والقنفذ ثم القول فى النسور والرخم ثم القول في العقاب وفي الارنب ثم القول فى القردان والضفادع ثم القول في الحباري وما أشبه ذلك , وسنذ كر قبل ذ كرنا لهذا الباب أبوابا من الشعر ظريفة تصلح للمذاكرة وتبعث على النشاط وتستحق معه قراءة ماطال من الكتب الطوال ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ويظهر اصطناع الكتب فى هذا الدهر لما احتجت فى مداراتهم واستمالتهم وتوفيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم مع كثرة فوائد هذا الكتاب الى هذه الرياضة الطويلة والي كثرة هذا الاعتذار حتي كأن الذى أفيده اياهم استفيده منهم وحتي كان رغبتى في صلاحهم رغبة من رغب فى دنياهم, هذا ولم اذ كر من الابواب الطوال شيئاً وقد صرت الى ذ كر فرق مابين الجن والانس وما بين الملائكة والانبياء وفرق مابين الأنثي والذ كر وفرق ما بينهما وبين ماليس بانثى ولا ذ كر حتى يمتد بنا القول فى فضيلة الانسان على جميع أصناف الحيوان وفى ذ كر الأمم والاعصار وفى ذكر القسم والاعمار وفى ذ كر مقادير العقول بالعلوم بالصناعات ثم القول في طباع الانسان منذ كان نطفة الى أن تفنيه الهموم,فان مللت الكتاب واستثقلت القراءة فأنت حينئذ أعذر وما عندى لك من الحيلة الا أن أصوره لك فى أحسن صورة وأقلبك منه فى الفنون المختلفة فأجملك لاتخرج من الاحتجاج بالقرآن الحكيم الا الى الحديث المأثور ولا تخرج من الحديث الا الى الشعر الصحيح ولا تخرج من الشعر الصحيح الظريف الا الى المثل السائر الواقع ولا تخرج من المثل السائر الواقع الا الى القول فى الفلسفة والغرائب التى صححتها التجربة وأبرزها الامتحان وكشف قناعها البرهان والاعاجيب التى للنفوس بها كلف كثير وللعقول الصحيحة اليها نزاع شديد ولذلك كتبته لك وسقته اليك واحتسبت الاجر فيك فانظر فيه نظر المنصف من الا كفاء والعلماء أو نظر المسترشد من المتعلمين والأتباع فان وجدت الكتاب الذى كتبته لك يخالف

ماوصفت فانقصنى من نشاطك له على قدر مانقصتك مما ينشـطك اليه لقراءته وان أنت وجدتنى اذا صح عقلك وانصافك قد وفيتك بما ضمنت لك فوجدت نشاطك بعد ذلك مدخولا وحـدك مفلولا فاعلم انا لم نؤت الا من فسولتك وفساد طبعك ومن ايثارك لما أضربك

باب مديح فى النصارى واليهود والمجوس والانذال وصغار الناس

من ذلك ما هو مديح رغبة ومن ذلك ماهو احماد، أنشدنا أبو صالح مسعود بن قنديل الفزاري فى ناس خالطهم من اليهود

وجدنا في اليهود رجال صدق * على ما كان من دين مريب
لعمرك انـني وابنى عريض * لمثـل المـاء خالطه الحليب
خليـلان اكتسبتهما وانى * لخـلة ماجـد أبداً كسوب

وقال أبو الطمحان الاسدي وكان نديما لناس من بنى الحداء وكانوا نصارى فأحمد ندامتهم فقال

كان لم يكن فى القصر قصر مقاتل * وزورة ظـل ناعم وصديق
ولم أرد البطحاء أمزج ماءه * بخمر من البروقتـين عتيق
معى كل فضفاض الثياب كأنه * اذا ما جرى فيه المدام فتيق
بنو الصلب والحداء كل سميدع * له فى العروق الصالحات عروق
وانى وان كانوا نصارى أحبهم * ويرتاح قلـبي نحوهم ويتوق

وقال ابن عبدل أو غيره فى مجوسى ساق عنه صداقا فقال

شـهدت عليك بطيب المشا * شوانك بحر جواد خضم
وانك سـيد أهـل الجحيم * اذا ما ترديت فيمن ظلم
نظـير لهـامان فى قعرها * وفرعون والمكتنى بالحـكم
كفـانى المجوسى مهر الربا * ب فدآً للمجوسي خال وعم

فقال المجوسى جعلتنى فى النار فقال أما ترضى أن تكون مع من سميت قال فمن تعنى بالحكم قال أبا جهل بن هشام، وأنشدنى أبو الردينى العكلي لبعض العكليين وكان قينا

لهم أخذ خلخاله فقال

يا سوديا أكرم قين فى مضر * لك المساعى كلها والمفتخر
على قيون الناس والوجه الاغر * كان أبوك رجلا لا يقتسر
ثبتا اذا ما هو بالكير ازبأر * حتى يطير حوله منه شرر
قد عطف الاكتاف حتي قد مهر * بالشعب ان شاء وان شاء سمر
ما زال مذ كان غلاما يستمر * له على العير إكاف وثفر
والكلبتان والعلاة والوتر * فانظر ثوابى والثواب ينتظر
* من حكمى وفي الاحاديث عبر *

باب من أراد أن يمدح فهجا

قال سعيد بن مسلم لما قال الاخطل بالكوفة أخطأ الفرزدق حين قال

أبنى غدانة انني حررتكم * فوهبتكم لعطية بن جمال
لولا عطية لاجتدعت أنوفكم * من بين أيسر أعين وسبال

كيف يكون قد وهبهم له وهو يهجوهم هذا الهجاء فانبري له فتى من بنى تيم فقال له أنت الذى قلت فى بنى سويد بن منحوق

وماجذع سوء رقق السوس جوفه * لما حملته وائل بمطيق *

أردت هجاءه فزعمت أن وائلا تعصب به الحاجات وقدر سويد لا يبلغ ذلك عندهم فأعطيته الكثير ومنعته القليل وأردت أن تهجو حاتم بن النعمان الباهلى وان تصغر شأنه وتضع منه فقلت

وسود حاتما أن ليس فيها * اذا ما أوقد النيران نار

فأعطيته السؤدد من قيس ومنعته مالا يضره وأردت أن تمدح سماك الحرنى فهجوته فقلت

نعم المجير سماك من بني أسد * بالطف اذ قتلت جيرانها مضر
قد كنت أحسبه قينا وأنبأه * فاليوم طير عن أثوابها الشرر

وقلت في زفر بن الحارث

بنى أمية انى ناصح لكم * فلا يبيتن فيكم آمنا زفر

مفرشاكافتراش الليث كلكله * لوقعة كائن فيها لكم جزر

فأردت أن تغري به بني أمية فوهنت أمرهم وتركتهم ضعفاء ممتهنين وأعطيت زفر عليهم من القوة مالم يكن في حسابه، قال ورجع أبو العطاف من عند عمرو بن هداب في يومين كانا لعمرو وأبو العطاف يضحك فسئل عن ذلك فقال أما أحد اليومين فانه جلس للشعراء فكان أول من أنشده المديح فيه طريف بن سوادة فمازال ينشده أرجوزة له طويلة حتى انتهي الى قوله

أبرص فياض اليدين أكلف * والبرص أندى بالامي وأعرف

قال عمرو مه البرص من مفاخر العرب أما سمعتم ابن حبناء يقول

انى امرؤ حنظلى حين تنسبنى * لامن عتيك ولا أخوالى العوق

لا تحسبن بياضا فى منقصة * ان اللهاميم في أقرانها البلق

أوما سمعتم قول الآخر

يا كأس لا تستكثرى تحويلى * ووضحا أوفى على خصيلى

فان نعت الفرس الرجيل * يكمل بالغرة والتحجيل

أو ما سمعتم قول الآخر

أيشتمني زيد بأن كنت أبرصا * فكل كريم لا أبالك أبرص

ثم أقبل على الراجز فقال ما تحفظ فى هذا قال أحفظ والله قوله

يا أخت سعد لا تغرى بالزرق * ليس يضر الطرف توليع البلق

* اذا جرى فى حلبة الخيل سبق *

ومحمد بن سلام يزعم أنه لم ير سابقا قط أبلق ولا بلقاء وقد سبق للمأمون اما أبلق واما بلقاء، وأنشدنى أبو نواس لبعض بنى نهشل

نفرت سودة عني أن رأت * صلع الرأس وفى الجلد وضح

قلت يا سودة هذاك الذي * يفرج الكربة منا والطلح

هو زين لى في الوجه كما * زين الطرف تحاسين القرح

وزعم يونس أنهم كانوا يشرفون به وان جذيمة الوضاح كان يفخر بذلك وزعم أصحابنا

أن بلعاء بن قيس لما شاع فى بلده البرص قال له قائل ما هذا يا بلعاء فقال هذا سيف الله حلانى به وكنى به يقول سيف الله حلاه ، ثم رجع الحديث الى ابن العطاف وضحكه قال وأما اليوم الآخر فان عمرا لما ذهب بصره ودخل عليه الناس يعزونه دخل عليه ابراهيم بن جامع وهو ابن عتاب من آل مصاد وكان كالجمل المحجوم فقام بين يدى عمرو فقال يا أبا أسيد لا تجزعن من ذهاب بصرك وان كانتا كريمتيك فانك لو رأيت ثوابهما في ميزانك تمنيت أن يكون الله عز وجل قطع يديك ورجليك ودق ظهرك وأدمى ضلعك قال فصاح به القوم وضحك بعضهم فقال عمرو معناه صحيح ونيته حسنة وان كان قد أخطأ فى اللفظ ، وقال لأبى عطاف بلغني أن عبد العزيز الغزال قال وددت أن الله لم يكن خلقنى وانى الساعة أعور قال أبو عتاب ليته ما قال وددت ان الله لم يكن خلقنى وأنا الساعة مقطوع اليدين والرجلين أعمى ، وأتى بعض الشعراء أبا الربيع وبنوه حوله فاستعفاه أبو الربيع من انشاد مديحه فلم يقبل حتى أذن له فلما انتهى الى قوله

فكيف تبقى وأنت اليوم رأسهم * وحولك الغر من أبنائك الصيد

قال أبو الربيع ليتك تركتهم رأسا برأس ، ومدح أبو عباد بن الممزق بشر بن أبي عمرو وليس هو بشر بن أبى عمرو بن العلاء فقال

من كان يزعم أن بشراً ملصق * فالله يجزيه وربك أعلم
تنبيك قامته وقلة لحمه * وتشاوق فيه ولون أسحم
ان الصريح المحض فيه دلالة * والعرق منكشف لمن يتوهم
أما لسانك واحتباؤك فى الملا * فزرارة العدسى عندك أعجم
انى لأرجو أن يكون مقالهم * زوراً وشانئك الحسود المرغم

ومن المديح الخطأ الذى لم أر قط أعجب منه قول الكميت بن زيد وهو يمدح النبي صلى الله عليه وسلم فلو كان مديحه لبنى أمية لجاز أن يعيبهم بذلك بعض بني العباس ولو مدح به بعض بني هاشم لجاز أن يعترض عليه بعض بنى أمية ولو مدح أبا بلال الخارجي لجاز أن تعيبه العامة أو مدح عمرو بن عبيد لجاز ان يعيبه المخالف ولو مدح

المهلب لجاز أن يعيبه الاحنف فأما مديح النبي صلى الله عليه وسلم فمن هذا الذي يسوءه ذلك حيث قال

فاعتتب الشوق من فؤادي * والشعر الى من اليه اعتتب
الى السراج المنير أحمد لا * يعدلني رغبة ولا رهب
عنه الى غيره ولو رفع النا * س الىّ العيون وارتقبوا
اليك ياخير من تضمنت الار * ض ولو عاب قولي العيب *
لج بتفضيلك اللسان ولو * أكثر فيك الضجاج واللجب
انك المصطفي المهذب فى النسبـ * ة ان نص قومك النسب *

ولو كان لم يقل فيه الامثل قوله

وبورك قبر أنت فيه وبوركت * به وله أهل بذلك يثرب
لقد غيبوا برا وحزما ونائلا * عشية واراه الصفيح المنصب

فلو كان لم يمدحه صلى الله عليه وسلم الا بهذه الاشعار التى لاتصلح فى عامة العرب لما كان ذلك بالمحمود فكيف مع الذى حكينا قبل • ومن الاشعار الغائظة لقبيلة الشاعر وهى الاشعار التي لو ظنت الشعراء أن مضرتها تعود بعشر ماعادت به لكان الخرس أهون عليها من ذلك القول فمن ذلك قول لبيد بن ربيعة

أبني كلاب كيف ينفي جعفر * وبنو ضبيعة حاضرو الاجباب
قتلوا ابن عروة ثم لطوا دونه * حتى تحاكمتم الى جواب
يرعون منحرق القديد كأنهم * فى العد أسوة حاجز وشهاب
متظاهرى حلق الحديد عليهم * كبني زرارة أو بنى عتاب
قوم لهم عرفت معد فضلها * والحق يعرفه ذوو الالباب

ومن هذا الباب قول زبان بن منظور فى يسار بن عمرو بن جابر الفزارى وهو أحد سادة غطفان

فجاؤا بجمع محزئل كأنهم * بنو دارم ان كان في الناس دارم

وذلك أن تميما لما طال افتخار قيس عليها بأن شعراء تميم تضرب المثل بقبائل قيس

ورجالها فغبرت تميم زمانا لا ترفع رأسها حتي أصابت هـذين الشعرين من هـذين الشاعرين العظيمي القدر فزال عنها الذل وانتصفت فلو علم هذان الشاعران الكريمان ماذا يصنعان بعشائرهما لكان الخرس أحب اليهما ، قال أبو عبيدة ومن ذلك قول الحارث ابن حلزة وأنشـدها الملك وكان به وضح وأنشـده من وراء ستر فبلغ من استحسانه القصيدة الى أن أمر برفع الستر ولكراهتهم لدنو الابرص منهم قال لبيد بن ربيعة للنعمان بن المنذر في الربيع بن زياد

مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه * ان استه من برص ملمعه

وانه يدخـل فيها أصبعه * يدخلها حتى يواري أشجعه

قال ابن الاعرابي فلما أنشـد الملك لبيد في الربيع بن زياد ما أنشـد قال الربيع أبيت اللعن والله لقد نكت أمـه قال فقال لبيد قد كانت لعمري يتيمة في حجرك وأنت ربيتها فان كنت فعلت فما أولاك بذلك وان لم تكن فعلت فما أولاك بالكذب وان كانت هي الفاعلة فانها من نسوة كذلك فعلهن ، يعني ان نساء عبس فواجر لأن امه كانت عبسية ، والعربي يعاف الشيء ويهجو به غيره فان ابتلى به فخر به ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ماهجا به صاحبه فافهم هذه فان الناس يغلطون على العرب ويزعمون انهم قد يمدحون الشيء الذى قد يهجون به وهذا باطل فانه ليس شيء الا وله وجهان وطريقان فاذا مدحوا ذكروا احسن الوجهين واذا ذموا ذكروا اقبح الوجهين والحارث بن حلزة فخر ببكر بن وائل على تغلب ثم عاتبهم عتابا دل على انهم لا ينتصفون منهم فقال

وأتانا عن الاراقم أنبا * ء وخطب نعنى به ونساء

يخلطون البريء منا بذي الذ * نب ولا ينفع الخلي الخلاء

زعموا ان كل من ضرب العـ * ير موال لنـا وأنا الولاء

ان اخواننـا الاراقم يغلو * ن علينـا في قولهم احفـاء

ثم قال

واتركوا الطيخ والتعاشي واما * تتعاشوا ففي التعاشي الداء

واتركوا حلف ذى المجاز وما * قدم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي وهل ينـ * قض ما فى المهارق الاهواء
واعلموا اننا واياكم فى * مااشترطنا يوم اختلفنا سواء
ام علينا جناح كندة اذ * يغنم غازيهم ومنا الجزاء
أم علينا جرا حنيفة أم ما * جمعت من محارب غبراء
ام علينا جرا قضاعة ام ليـ * س علينا فيما جنوا انداء
ام جنايا بنى عتيق فمن يغـ * در فانا من جرمهم براء *
* عنتا باطلا وظلما كما يعـ * تر عن حجرة الربيض الظباء

ومن المديح الذى يقبح قول ابن الخلال فى مرثية يزيد بن معاوية حيث يقول

يا أيها الميت بحوارينا * انك خير الناس أجمعينا

﴿ وقال الآخر ﴾

ان الذى أمسى يسمي كوزا * اسما نبيهاً لم يكن تنبيزا *
لما ابتدرنا القصب المركوزا * وجدته ذا وثبة أبوزا

ودخل بعض أغبياء شعراء البصريين على رجل من أشراف الوجوه وكان يطعن فى نسبه فقال انى مدحتك بشعر لم تمدح قط بشعر هو أنفع لك منه قال ما أحوجنى الى المنفعة ولا سيما كل شعر منه يخلد على الايام فهات ماعندك فقال

سألت عن أصلك فيما مضي * أبناء سبعين وقد نيفوا
* فكلهم يخبرنى أنه * مهذب جوهره يعرف

فقال له قم فى لعنة الله وسخطه لعنك الله ولعن من سألت ولعن من أجابك ، وسنذكر لك بابا من السخيف ربما يستخف عليك اذا كان الحق يثقل عليك ولا يخف الا ببعض الباطل ، أنشدنا أبو نواس فى التدليك

ان تبخلى بالركب المحلوق * فان عندي راحتى وريقى

وهذا الشعر مما يقال ان أبا نواس ولده ومما يظن أنه ولده قوله

لم أر كالليلة في التوفيق * حراً على قارعة الطريق * كان فيه لهب الحريق

﴿ وأنشدني ﴾ ابن الحاركي لبعض الاعراب في التدليك

لا بارك الاله في الاحراح * فان فيها عدم اللقاح
لاخير في السفاح واللقاح * الا مناجاة بطون الراح

وأنشدني محمد بن عباد

تسألني ما عتدتي وعتدي * فانني يابنت آل مرثد
* راحلتي رجلاي واصراتي يدي *

وأنشدني بعض أصحابنا المدنيين

أصني هوى النفس غير منتئب * حليلة لا تسو مني نفقه
تكون عوني على الزمان والكرب * اذا ما أخفقت مرتفقه

وشعراً في ذلك سمعناه وهو

اذا نزلت بواد لا أنيس به * فاجلد عميرة لاعار ولاحرج

وأنشدنا أبو عميرة النميري

لوانها رخصت تضيت من وطري * لكن جلدتها تربى على السفن
أشكو الى الله نعظاً قد منيت به * وما الاماني سوى الاملاق والحزن

وقال الذكواني يرد على الاول قوله

جلدى عميرة فيه العار والحوب * والعجز مطرح والفحش مسبوب
وبالعراق نساء كالمها نطف * بارخص السوم جذلات مناجيب
وما عميرة من ثدياء حالية * كالعاج صفرها الا كنان والطيب

قال مثل هذا الشعر كمثل رجل قيل له أبوك ذاك الذي مات من الجوع قال فوجد شيئاً فلم يأكله ، وقال الخزامي

عيال عالة وكساد سوق * واير لا ينام ولا ينيم

وقال ابن ميادة

أتظهر ما في الصدر أم أنت كاتمه * وكتمانه داء لمن هو كاتمه
واضماره في الصدر داء وعلة * واظهاره شنع لمن هو عالمه

وتقول العرب من ارتاد لسره فقد أشاعه، وأرى قد أذن في واحد وهو قوله

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفي

وقال الآخر فيما يوافق المثل

فلا تفش سرك الا اليـ * ـك فان لكل نصيح نصيحا

فاني رأيت غواة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيحا

وقال مسكين الدارامي

اذا ما خليلي خانني وائتمنته * فذاك وداعيه وذاك وداعها

رددت عليه وده وتركتها * مطلقة لا يستطاع رجاعها

واني امرؤ مني الحياء الذي ترى * أعيش بأخلاق قليل خداعها

أواخي رجالا لست أطلع بعضهم * على سر بعض غير أني جماعها

يظلون شتى في البلاد وسرهم * الى صخرة اعيا الرجال انصداعها

وقال أبو محجن الثقفي

وقد أكون وما مالي بذي قنع * وأكتم السر فيه ضربة العنق

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كتم سره كان الخيار في يده، وقال بعض الحكماء لا تطلع أخاك على سرك الا بقدر ما لا تجد فيه بداً من معاونتك وقال آخر ان سرك من دمك فانظر أين تريقه قال الشاعر

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت * مني الضلوع من الاسرار والخبر

لكنت أول من ينسى سرائره * اذ كنت من نشرها يوما على خطر

وقال قيس بن الخطيم

وان ضيع الاخوان سرا فانني * كتوم لأسرار العشير أمين

يكون له عندي اذا ما ائتمنته * مكان بسوداء الفؤاد مكين

وقيل لمزيد يا مزيد ما هذا الذي تحت حضنك فقال يا أحمق لم خبأته وقال أبو الشيص

ضع السر في صماء ليست بصخرة * صلود كما عاينت من سائر الصخر

ولكنها قلب امرئ ذي حفيظة * يرى ضيعة الاسرار من أكبر الشر

يموت وما ماتت كرائم فعـله * ويبلى وما يبلى ثناه على الدهر

وقال سحيم الفقعسي في افشائه ما يودع من الاسرار

ولا أكتم الاسرار لكن أذيعها * ولا أدع الاسرار تغلى على قلبي

وان ضعيف العقل من بات ليله * تقلبه الاسرار جنبا الى جنب

وقال العرار السلمي وهذا الشعر فى طريق شعر سحيم وان لم يكن فى معنى السر قوله

* وكتيبة لبستها بكتيبة * حتى اذا التبست نفضت بها يدى

ما كان ينفعنى مقال نسائهم * وقتلت بين رجالهم لا تبعد

وقيل لأسلم بن زرعة انك ان انهزمت من أصحاب مرادس بن ادية غضب عليك الامير عبيد الله بن زياد قال يغضب عليّ وأنا حى أحب الى من أن يرضى عنى وأنا ميت ، قال وولى تستر وخرج اليها فى أصحابه فلما شارفها عرضت له الخوارج وكان أكثر منهم عددا وعدة فقال والله لأصافنهم ولأعبين أصحابي فلعلهم ان رأوا كثرتهم انصرفوا ولا أزال كذلك قويا فى عملى هذا فلما رأت الخوارج كثرة القوم نزلوا عن خيولهم فعرقبوها وقطعوا أجفان سيوفهم ونبذوا كل دقيق كان معهم وصبوا أسقيتهم فلما رأي ذلك رأي الموت الاحمر فأقبل عليهم فقال عرقبتم دوابكم وقطعتم أجفان سيوفكم ونبذتم دقيقكم خار الله لنا ولكم ثم ضرب وجوه أصحابه وانصرف عنهم ، وكان أبو اسحق ابراهيم بن سيار النظام أضيق الناس صدرا بحمل سره وكان شر ما يكون اذا يؤكد عليه صاحب السر وكان اذا لم يؤكد عليه ربما نسي القصة فيسلم صاحب السر وقال له مرة قاسم التمار سبحان الله مافى الارض اعجب منك اودعتك سراً فلم تصبر عن افشائه يوما واحداً والله لأشكونك للناس فقال ياهؤلاء سلوه نممت عليه مرة واحدة أو مرتين او ثلاثا أو أربعا فلمن الذنب فلم يرض بأن يشاركه فى الذنب حتى صير الذنب كله لصاحب السر وقال بعض الشعراء فيه

ختمت الفؤاد على سرها * كختم الصحيفة بالخاتم

هوي بي الى حبها نظرة * هوىّ الفراشة للجاحم

﴿ وقال البعيث ﴾

فان تك ليلى حملتني لبانة * فلا وأبي ليلى اذاً لا أخونها
حفظت لها السر الذي كان بيننا * ولا يحفظ الاسرار الا أمينها

وقال رجل من بني سعد

اذا ما ضاق صدرك عن حديث * فأفشته الرجال فمن تلوم *
اذا عاتبت من افشى حديثى * وسرى عنده فأنا الظلوم *
وانى حين اسأم حمل سرى * وقد ضمنته صدرى سؤوم
ولست محدثا سري خليلا * ولا عرسى اذا خطرت هموم
واطوى السر دون الناس انى * لما استودعت من سر كتوم

قال وقيل لشيخ ويحك هاهنا ناس يسرق أحدهم خمسين سنة ويزنى خمسين سنة ويصنع المظالم خمسين سنة وهو فى ذلك كله مستور جيد الأمر وانت انما لطت منذ خمسة أشهر وقد شهرت به فى الآفاق قال بأبى أنت ومن يكون سره عند الصبيان أى شئ تكون حاله، أبو الحسن بن محمد بن القاسم الهاشمى قال قال أبو العباس ابن عبد المطلب لعبد الله ابنه يا بني أنت أفقه مني وأنا أعلم منك ان هذا الرجل يدنيك يعنى عمر بن الخطاب فاحفظ عني ثلاثا لا تفش له سراً ولا تغتابن عنده أحدا ولا يطلعن منك على كذبة

﴿ ما جاء فى ذم الامانى ﴾

قال سئل ابن أبى بكرة أى شئ أحرم متاعا قال المني، وقال يزيد ثلاث يخلقن العقل وفيها دليل على الضعف سرعة الجواب وطول التمني والاستغراب فى الضحك ,وقال عباية الجعفى ما سرني بنصيبي حمر النعم، وقال الاصمعى قال ابن أبى الزناد المني والحلم أخوان، وقال معمر بن عبادة الاماني للنفس مثل الترهات للسان وقال الشاعر

مني ان تكن حقا تكن أحسن المنى * والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

وقال بشار

كررنا أحاديث الزمان الذي مضي * فلذ لنا محمودها وذميمها

روى الاصمعى عن بعضهم أنه قال الاحتلام أطيب من الغشيان وتمنيك الشئ أوفر حظا في اللذة من قدرتك عليه قال كأنه ذهب الى أنه اذا ملك وجبت عليه فى ذلك الملك حقوق وخاف الزوال واحتاج الى الحفظ ، قال وفي الحديث المأثور ما عظمت نعمة على أحد الا عظمت عليه مؤنة الناس ، وقيل لمزيد أيسرك أن عندك قنينة شراب قال يا بن أم من يسره دخول النار بالمجاز ، قال وقدموا الى أبى الحارث حمير جام خبيص وقالوا له أهذا أطيب أم الفالوذج قال لا أقضى على غائب ،قال وقال مدني لرجل أيسرك أن هذه الدار لك قال نعم قال وليس الا هذا قال فما أقول قال تقول نعم واحبس سنة نعم وأنا أعور ،وقيل لمزيد أيسرك أن هذه الجبة لك قال نعم واضرب عشرين سوطا قال ولم تقول هذا قال لانه لا يكون شيء إلا بشئ ،قال وقال عبد الرحمن بن أبى بكرة من تمنى طول العمر فليوطن نفسه على المصائب يقول انه لا يخلو من موت أخ أو عم أو ابن عم أو صديق أو حميم وقال المجنون

أيا حرجات الحى حيث تحملوا * لدي سلم لاجادكن ربيع
وخيماتك اللاتى بمنعرج اللوي * بلين بلى لم يبلهن ربوع *
فقدتك من قلب شجاع فطالما * نهيتك عن هذا وأنت جميع
فقربت لى غير القريب وأشرفت * هناك ثنايا مالهن طلوع *

قال وقال عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث لولا أربع خصال ماأعطيت عربياً طاعة لو ماتت أم عمرو يعنى أمه ولو نسبت ولو قرأت القرآن ولو لم يكن رأسى صغيراً , وقال قدم عبد الملك وكان يحب الشعراء فبعثت الى الرواة فما أتت علىّ سنة حتى رويت الشاهد والمثل وفصولا بعد ذلك وقدم المصعب وكان يحب النسب فدعوت النسابين فتعلمته فى سنة وقدم الحجاج وكان يدين على القرآن فحفظته في سنة, قال وقال يزيد ابن المهلب لا أخرج حتى أحج وأحفظ القرآن وتموت أمى فخرج قبل ذلك كله ،وقال عبد الله بن يحيي كان من أصحابنا هو وجماعة فجلسنا ذات يوم نتمني فتمنيت أن اصير الى العراق من أيامى سالماً وان اتزوج سماع وألى كسكر قال فقدمت سالما وتزوجت سماع ووليت كسكر ، قال ووقف هشام بن عبد الملك على الفرات ومعه

عبد الرحمن بن رستم فقال هشام مافي الارض نهر خيراً من الفرات وقال عبدالرحمن ما فيها نهر شراً من الفرات أوله للمشركين وآخره للمنافقين ، وقال أبو الحسن الفرات ودجلة وافدان لاهل العراق قال الاصمعي وهما الرائدان وهما الرافدان وقال الفرزدق

امير المؤمنين وانت عف * عفيفا لست بالوالى الحريص
بعثت الى العراق ورافديه * فزاريا اخذ يد القميص
ولم يك قبلها راعى مخاض * لتأمنه على وركى قلوص
تفيهق بالعراق أبو المثنى * وعلم قومه اكل الخبيص

قال وبينا غيلان بن خرشة يسير مع ابن عامر اذ ورد على نهر ام عبد الله فقال ابن عامر ما أنفع هذا النهر لاهل هذا المصر قال أجل أيها الامير والله انهم يستعذبون ماءه وتفيض مياههم اليه ويتعلم صبيانهم فيه العوم وتأتيهم ميرتهم فيه فلما ان كان بعد ذلك ساير ذات يوم زياداً وكان زياد عدواً لابن عامر فقال زياد ما اضر هذا النهر بأهل هذا المصر فقال أجل والله أيها الامير تنز منه دورهم ويغرق فيه صبيانهم ويسترعبون ، وسنقول باسم الله وعونه فى العصفور بجملة من القول وعلى انا قد ذكرنا من شأنه اطرافا ومقطعات تفرقن فى تضاعيف تلك الاصناف فاذا طال الكلام وكثرت فنونه صار الباب القصير من القول فى غماره مستهلكا وفي حومته غرقا فلا بأس ان تكون تلك الفقر مجموعات وتلك المقطعات موصولات وتلك الاطراف مستقصيات مع الباقي من ذكرنا فيه ليكون الباقى مجتمعا في مكان واحد فبالاجتماع تجتمع القوة ومن الابعاض يلتئم الكل وبالنظام تظهر المحاسن ولست أدعى فى شيء من هذه الاشكال الاحاطة به والجمع به لكل شيء فيه ومن عجز عن نظم الكثير وعن وضعه فى مواضعه كان عن بلوغ آخره وعن استخراج كل شيء فيه أعجز وانه اهون من الاستنباط والحصد أهون من الحرث وهذا الباب لو ضمه على كتابه من هو أكثر مني رواية أضعافا وأجود مني حفظا بعيداً وكان أوسع علما وأتم عزما وألطف نظراً وأصدق حساً وأغوص على البعيد الغامض وأفهم للعويص الممتنع وأكثر

خاطراً وأحسن قريحة وأقل سآمة وأتم عناية وأحسن عادة مع افراط الشهوة وفراغ البال وبعد الامل وقوة الطمع فى تمامه والانتفاع بثمرته ثم مد له فى العمر ومكنته القدرة لكان قد ادعى معضلة وضمن أمراً معجزاً وقال قولا مرغوبا عنه ولكان ممن يفضل قوله على فعله ووعده على مقدار نجازه لان الانسان وان أضيف الى الكمال وعرف بالبلاغة وفاتش العلماء فانه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما فى جناح بعوضة أيام الدنيا ولو استمد بكل نظار عظيم واستعان بعلم كل بحاث واع وكل نقاب فى البلاد ودارسة للكتب ، وما أشك أن عند الوزراء فى ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء وعند الانبياء ما ليس عند الخلفاء وعند الملائكة ماليس عند الانبياء وما عند الله عز وجل أكثر والخلق في بلوغه أعجز ، وانما علم الله كل طبقة من خلقه بقدر احتمال فطرهم ومقدار مصلحتهم ، فان قلت فقد علم الله عز وجل آدم الاسماء كلها ولا يجوز تعريف الاسماء بغير المعانى ولوقلت ولو لا حاجة الناس الى المعاني والى التعاون والترافد لما احتاجوا الى الاسماء على أن المعانى تفضل على الاسماء والحاجات تجوز مقادير السمات وتفوت ذرع العلامات فما لا إسم له خاص الخاص والخاصيات كلها ليست لها أسماء قائمة وكذلك تراكيب الالوان والارابيح والطعوم ونتائجها ، وجوابى عن ذلك أن الله عز وجل لم يكن يخبرنا أنه قد كان علم آدم كل شئ يعلمه تعالى كما لا يجوز أن يقدره على كل شئ يقدر عليه واذا كان العبد المحدود الجسم المحدود القوى لا يبلغ صفة ربه الذي اخترعه وصفة خالقه الذى ابتدعه فمعلوم أنه انما عني بقوله وعلم آدم الاسماء كلها علم مصلحته في دنياه وآخرته وقال الله عز وجل وفوق كل ذى علم عليم وقال الله عز وجل ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله وقال الله تعالى يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وقال تقدست اسماؤه وما يعلم جنود ربك الا هو وقال عز وجل ويخلق مالا تعلمون ، وهذا الباب من المعلوم غير باب شئ منه والمخاطبة وقعت على جميع المتقدمين واشتملت على جميع اصناف الممتحنين ولم تقع على أهل عصر دون عصر ولا اهل بلد دون بلد ولا على جنس دون جنس ولا على تابع دون متبوع ولا آخر دون اول

اجناس الطير التي تألف دور الناس

العصافير والخطاطيف والزرازير والخفافيش فبين هذه مناسبة ومشاكلة وإلفة ومحبة والخطاطيف تقطع اليهم وتغرب عنهم والعصافير لا تفارقهم وان وجدت داراً مبنية لم تسكنها حتى يسكنها انسان ومتى ان سكنتها لم تقم فيها اذا خرج منها ذلك الانسان فبفراقه تفارق وبسكناه تسكن وهذه فضيلة لها على الخطاطيف ، والحمام لاتقيم معهم في دورهم الا بعد أن يثبتوه ويعلموه ويزينوا حاله ويدرجوه ، ومنها ماهو وحشي طواري وربما توحش بعد الانس ، والعصافير على خلاف ذلك فلها بذلك فضيلة على الحمام وعلى الخطاف وقد يدرب العصفور ويثبت فيستجيب من المكان البعيد ويثبت ويدجن فهو مما يثبت ويعايش الناس من تلقاء نفسه مرة وبالتثبيت مرة ، وليس كذلك شيء مما يأوي الى الناس من الطير ، وقد بلغني أن بعض ما يستجيب منها قد جرب فرجع من ميل ، فأما الهداية من تلقاء نفسه فمن الفراسخ الكثيرة وحدثني حمويه الحربي وأبو جرادة الهواردي قالا اذا كان زمان البيادر لم يبق بالبصرة عصفور الا طار الى البساتين الا ما أقام على بيضه وفراخه وكذلك العصافير اذا خرج أهل الدار من الدار فانه لا يقيم في تلك الدار عصفور الا على بيض أو فراخ فاذا لم يكن لها أهل استوحشت فالتمست لأنفسها الاوكار في الدور المعمورة ولذلك قال اسحاق

فتلك بغداد ما تبيت من الوحـ * ـشة في دورها عصافرها

قالا فعلى قدر قرب القبائل منها الى البساتين فوجدت عصافيرها ما قرب اليها منها قد سبقت نقلتها الى البساتين التي تليها وكذلك صنيع ما بقي من العصافير القبائل الباقية حتى تصير الى آخر البصرة والى آخر البساتين وذلك شبيه بعشرين فرسخا فاذا انقضت حاجاتها وانقضى أمر البيادر أقبلت من هناك على أمارات معروفة وعلامات قائمة حتي تصير الى أوكارها ، والطير كله على ثلاثة أضرب فضرب من بهائم الطير وضرب كسباع الطير وضرب كالمشترك المركب منهما جميعا فالبهيمة كالحمام واشباه الحمام مما يغتذي الحبوب والبزور والنبات ولا يغتذي بغير ذلك والسبع الذي لا يغتذي الا اللحم ، وقد يأكل الاسد الملح ليس على طريق التغذي ولكن

على طريق التملح والتحمض فما يشارك فيه العصفور بهائم الطير انه ليس بذى مخلب ولا منسر وهو مما اذا سقط على عود قدم أصابعه الثلاث وأخر الدابرة وسباع الطير تقدم اصبعين وتؤخر اصبعين ومما يشارك فيه السبع أن بهائم الطير تلقم فراخها والسباع تلقم جراها ، والفراخ على ثلاثة أصناف ففرخ كالفروج لا يزق ولا يطعم وفرخ كفرخ العقاب والبازى والزرق والشاهين والصقر وأشباهها من السباع فهو يلقم ولا يزق فأشبهها العصفور من هذا الوجه ، وفيه من السباع أنه يصيد الجرادة والنمل الطيار ويأكل اللحم ويلقم فراخه اللحم وليس في الارض رأس أشبه برأس الآدمى من رأس العصفور ،والاجناس التي تعايش الناس الكلب والسنور والفرس والبعير والحمار والبغل والحمام والخطاف والزنبور والخفاش والعصفور ، قالوا وليس فى جميعها أطول عمراً من البغل ولا أقصر عمراً من العصفور قالوا وما نظن ذلك كان الا لقلة سفاد البغل وكثرة سفاد العصفور ، ويزعمون أن محمد بن سليمان أنزى البغال على البغلات كما أنزى العتاق على الحجور والبراذين على الرمك والحمير على الأتن فوجد تلك الفحولة من البغال بأعيانها أقصر أعماراً من سائر الحافر حين سوى بينها في السفاد ووجد البغل يلقح إلقاحا فاسداً لا يتم ولا يعيش ، وذكروا ان قصر العمر لم يعرض لاناثها كما عرض لذكورتها وهذا شبيه بما ذكر صاحب المنطق في العصافير فانه ذكر أن إناثها أطول اعماراً وأن ذكورها لا تعيش الا سنة واحدة ، والمرأة تنقطع عن الحبل قبل ان ينقطع الرجل عن الاحبال بدهر وتفرط في السمن فتصير عاقراً ويكون الرجل أسمن منها فلا يصير عاقراً ، وكذلك الحجر والرمكة والاتان وكذلك النخلة المطعمة وتسقى اب الفحال فيكون أجود لالقاحه وهما يختلفان كما ترى ،وللعصفور فضيلة أخرى وذلك ان من فضل الجنس أن تتميز ذكورته فى العين من اناثه كالرجل والمرأة والديك والدجاجة والفحال والمطعمة والتيس والظبية والطاوس والتدرج والدراج واناثها وليس ذلك كالحجر والفرس والرمكة والبرذون والناقة والجمل والعير والأسد واللبوة فان هذه الاجناس تقبل نحوك ولا تنفصل فى العين الانثى من الذكر حتى تتفقد مواضع القنب والأطباء وموضع الضرع والسلى

وموضع نفر الكلبة من القضيب لان للعصفور الذكر لحية سوداء وليس اللحية الا للرجل والتيس والديك وأشباه ذلك فهذه أيضاً فضيلة للعصفور ، فاذا أصيبت بأولادها أو خافت عليها العطب فليس بين شيء من الأجناس من المساعدة مثل الذى مع العصافير لان العصفور يري الحية قد أقبلت نحو جحره وعشه ووكره لتأكل بيضه أو فراخه فيصيح ويوثق فلا يسمع صوته عصفور الا أقبل عليه وصنع مثل صنيعه بتحريق ولوعة وقلق واستغاثة وصراخ وربما أفلت الى الارض وسقط الى الارض وقد ذهبت الحية فيجتمعن عليه اذا كان قد نبت ريشه أدنى نبات فلا يزلن يهيجنه ويطرن حوله لعلمها ان ذلك يحدث للفرخ قوة على النهوض فاذا نهض طرن حواليه ودونه حتي يحتملنه بذلك العمل وكان الجريمي ينشد

واجتث كل باذل دفوق * حتى رفعن شرة اللحوق

وينشد

* واجتث مجتثاً بها المحذورا *

وتقول العاشية تهيج الآبية ولو ان انساناً أخذ فرخي عصفور من وكره ووضعهما بحيث يراهما أبواهما في منزله لوجد العصفور يقتحم فى ذلك المنزل حتى يدخل فى ذلك القفص فلا يزال فى تمهده بما يعيشه حتى يستغنى عنه ثم يحتملان في ذلك غاية التغرير والخطار وذلك من فرط الرقة على أولادهما ، وأجناس الحيوان التى لا تستطيع أن تسمح بالمشى ضروب منها الضبع لانها خلقت عرجاء فهى أبداً تخمع قال الشاعر

وجاءت جيأل وابنا أبيها * أحم المأقيين بها خماع

وقال مدرك بن الحصين

من العسر ما تدرى أرجل شمالها * من الظلع لما هرولت أم يمينها

والذئب أقزل شنج النسا وان أحث الى المشى فكأنه يتوجى ، وكذلك الظبي شنج النسا فهو لا يسمح بالمشى قال الشاعر

وقصرى شنج الانسا * ء نباح من الشعب

واذا أرادوا العدو فانما هو النقز والوثب ورفع القوائم معاً ، وكذلك الاسد فانما يمشي

كأنه رهيص واذا مشى تحلق قال أبو زبيد

اذا تبهنس يمشي خلته وعثا * وهت سواعده من بعد تكسير

وكذلك الفرس لا يسمح بالمشي وهو يوصف بشنج النسا ، ومن ذلك الغراب فانه يحجل كأنه مقيد قال الشاعر

كتارك يوم مشية من سجية * لأخرى ففاته فأصبح يحجل

وقال الطرماح

شنج النسا ادفا الجناح كأنه * في الدار بعد الظاعنين مقيد

والنسور والفهود وأشباهها فى طريق الاسد ، والحية تمشي ومنها ما يثب ومنها ما ينتصب ويقوم على ذنبه والافعى اذا انتهشت وانباعت للنهش لم تشتغل ببدنها كله ولكنها تستطر بدنها الذى يلى الرأس حركة وتسقط أسرع من اللمح ، والجرادة تطير وتمشي وتطمر فاذا صرت الى العصفور والبرغوث ذهب المشى فليس عند البرغوث الا الطمور والوثوب وقال الحسن بن هانئ يصف رجلا يفلى القمل والبرغوث

أو طامرى واثب * لم ينجه منه وثابه

لان البرغوث وثاب ، قال وقول الناس طامر وابن طامر اذا يريدون البرغوث وكذلك العصفور ليس يعرف الا أن يجمع رجليه ويثب فيضعهما معا ويرفعهما معا فليس عنده الا النقزان فلذلك يسمى العصفور نقازاً وهو العصفور والجمع عصافير ونقاز والجمع نقاقيز وهي الصغار أيضا فلا يسمح بالمشى ، وليس لشيء مثل جسم العصفور مراراً كثيرة من شدة الوطء وصلابة الوقع على الارض اذا مشى أو على السطح ما للعصفور فانك اذا كنت تحت السطح الذى يمشى عليه حسبت وقعه عليه وقعة حجر والكلب منعوت بشدة الوطء وكذلك الخصيان من كل شيء فالعصفور تأخذ بيضته من الأجزاء بأكثر من قسط جسمه من تلك الاجسام بالاصناف الكثيرة والذباب من الطير الذى يجيد المشي ويمشي مشيا سبطا حثيثا مستويا والقطاة مليحة المشى مقاربة الخطو وقد توصف مشية المرأة بمشى القطاة وقال الشاعر

يمشون مشي قطا البطاح تأوداً * قاب البطون رواجح الاكفال

وقال الشاعر

تمشين كما تمشي القطا * أو كما يمشي جلال البقرات

لان البقرة تتبختر في مشيتها، وقلت لابي دبوقا أي شئ أول المشي قال التباهر والقرمطة في المشي، وكل حيوان من ذوات الرجلين والاربع اذ انكسرت لها قائمة تحاملت بالصحيحة الا النعامة فانها تسقط البتة، قال فكثرة عدد السفاد والمبالغة في الابطاء والدوام في كثرة العدد لضروب من الحيوان فالانسان يغلب هذه الاجناس لان ذلك دائم فيه في جميع الازمنة فأما الابطاء في حال السفاد فللجمل والورل والدباب والخنازير فهذه فضيلة لذة لهذه الاجناس والاصناف، فأما كثرة العدد فللعصافير وقد زعم أبو عبد الله العتبي الابرص وكان قاطع الشهادة عند أصحابنا البصريين ان الذي يقال له المسراطي قرع في يوم واحد نيفا وثمانين قرعة الا أن ذلك منه ومن مثله يمحق حتى يعود حافراً في الايام القليلة، وبنو حمان يزعمون ان تيس بني حمان قرع وألقح بعد ان ذبح وفخروا بذلك فقال بعض من يهجوهم

وألهي بني حمان عسب عتودهم * عن المجد حتى احرزته الاكارم

وزعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر ان ثوراً سفد وألقح من ساعته بعد ان خصي فاذا افرط المادح في المديح وخرج من المقدار وافرط المتعجب في التعجب وخرج من المقدار احتاج صاحبه الى ان يثبته بالعيان أو بالخبر الذي لم يكذب مثله والا فقد تعرض للتكذيب ولو جعلوا حركتهم خبراً وحكاية وتبرؤا عن عينه ماضرهم ذلك فكان ذلك أصون لاقدارهم وأتم لمروآت كتبهم، قالوا وكل جيد الجناح يكون ضعيف الرجلين كالزرزور والخطاف وجناحاهما أجود من جناح العصفور ورجل العصفور قوية والجناحان هما يد الطائر لانهم يجعلون كل طائر وانسان ذا أربع فجناح الطائر يداه ويدا الانسان جناحاه ولذلك ان قطعت يد الانسان لم يجد العدو وكذلك ان قطعت رجل الطائر لم يجد الطيران، والدابة قد تقوم على رجليها دون يديها والانسان قد يمشي على قوائم أربع الا أن الآلة تكون في مكان ببعض الاعمال أليق وهي عليها أسهل فتجذبها طبائعها الى مافيها من ذلك كمشي الدابة على

يديها ويثقل ذلك على الانسان ، والحمام يضرب بجناحه الحمام ويقاتله به ويدفع عن نفسه به وقوائمه هي أصابعه وجناحاه يداه ورجله كالقدم وهي رجل وان سموها كفا حين وجدوها تكف به كما يصنع الانسان بكفه وكل مقطوع اليدين وكل من لم يخلق له يدان فهو يصنع برجله عامة ما يصنعه الوافر الخلق بيديه ، وكل سبع يكون شديد اليدين فانه يكون ضعيف الرجلين وكل شيء من ذوات البراثن والحوافر فان يديها أكبر من رجليها والناس أرجلهم أكبر من أيديهم وأقدامهم أكبر من أكفهم وجعلوا ركبهم في أرجلهم وجعلوا ركب الدواب في أيديها ، وللعصافير طباهجات وغلات تدعي العصافيرية ولها حواش يطعمها المفلوج والعوام تأكلها للقوة على الجماع وعظام سوقها وأفخاذها أحد واذرب من الابر وهي مخوفة على المعدة والامعاء وهي تخرب السقف تخريبا فاحشا وتجتلب الحيات الى منازل الناس لحرص الحيات على ابتلاع العصافير وفراخها وبيضها ، والذين زعموا أن ذكورتها لاتعيش الاسنة يحتاجون الى أن يعرفوا الناس ذلك وكيف يستطيعون تعريفهم ذلك وقد تكون القري بقرب المزارع والميازب مملوءة عصافير ومملوءة من بيضها وفراخها وهم مع ذلك لم يروا عصفوراً قط ميتا والذين زعموا أن البغل انما طال عمره لقلة السفاد والعصفور انما قصر عمره لكثرة السفاد وغلمته لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب لم يلمهم أحد من العلماء والامور المقربة غير الأمور الموجبة فينبغي ان يعرفوا فضل مابين الواجب والمقرب وفرق مابين الدليل ومشبه الدليل ولعل طول عمر البغل يكون للذي قالوا ولشيء آخر ، وليس ينبغي لنا أن نجزم على هذه العلة فقط والعصفور لايستقر ما كان خارجا من وكره حتي كانه في دوام الحركة صبي وله صوت حديد مؤذ وزعموا ان البلبل لايستقر أبداً وهذا غلط لان البلبل انما يقلق لانه محصور في قفص والذين عاينوا البلابل والعصافير في غير أوكارها وغير محصورة في الاقفاص يعلمون فضل العصفور على البلبل في الحركة ، فأما صدق الحس وشدة الحذر والازكان الذى ليس لحس الطواف ولا عند العراف فان عند العصفور منه ما ليس عند جميع ماذكرنا لو اجتمعت قواهم وركبوا في نصاب واحد من ذلك انه يغم بحدة صوته بعض

من يقرب منه فيصيح به ويهوي بيديه للارض كانه يريد ان يرميه بحجر فلا يراه يحفل بذلك فان وقعت يده على حصاة طار من قبل يتمكن من أخذها ، وزعم صاحب المنطق ان بين الحمار وعصفور الشوك عداوة وقال لان الحمار يدخل الشجر والشوك فربما زاحم الموضع الذى فيه وكره فيبدد عشه وربما نهق الحمار فسقط فرخ العصفور أو بيضه من جوف وكره قال ولذلك اذا رآه العصفور زرق فوق رأسه وعلى عنقه وآذاه بطيرانه وصياحه وربما كان العصفور أبلق ويصاب فيه الاصبغ والجرادى والاسود والفقيع فاذا أصابوه كذلك باعوه بالثمن الكثير ، وقال أبو زيد الاسدي قيل لعبد الاعلى القاص لم سمي العصفور عصفوراً قال لانه عصى وفر قيل ولم سمى الطفشيل طفشيلا قال لانه طفا وشال وقيل له لم سمي الكلب القلطى قلطيا قال لانه قلطى قال ولم سمى السلوقى سلوقيا قال لانه سلاويق وحدثنى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن صهيب مولى ابن عامر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من انسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها الا سأله الله عنها قيل يا رسول وما حقها قال أن تذبحها فتأكلها ولا تقطع رأسها فترمى بها ويقال للعصفور قد صر العصفور يصر صريراً قال ويقال فى المكاكى والقنابر والحرق والحمر قد صفر يصفر صفيراً قال طرفة بن العبد

يالك من قنبرة بمعمر * خلالك الجو فبيضى واصفرى

ويقال قد نطق العصفور وقال جرير

سوى ذكره منها ان الركب عرسوا * وهبت عصافير الصريم النواطق

ولذكر العصفور موضع آخر وذلك ان العصافير تصيح وقت الصبح وقال كلثوم ابن عمرو

ياليلة لى بحوارين ساهرة * حتى تكلم فى الصبح العصافير

وقال الوليد بن يزيد

فلما أصاتت عصافيره * ولاحت تباشير أرونه

غدا يقترى آنقا عاريا * ويلبس ناضر أوراقه

وقال أبو محرز فلما ان دنا الصبح * باصوات العصافير
ولها موضع آخر وذلك انهم يضربون المثل بأحلام العصافير لأحلام السخفاء وقال دريد بن الصمة

يا آل سفيان ما بالى وبالكم * أنتم كبير وفى الاحلام عصفور

وقال حسان بن ثابت

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم * جسم البغال وأحلام العصافير

وفي معني هذا الباب من التصغير والتحقير يقول لبيد

فان تسألينا فيم نحن فاننا * عصافير من هذا الانام المسحر

والمسحر المخدوع على قولهم * ونسحر بالطعام وبالشراب * وقال لبيد *عصافير وذبان ودود * فكانه يخبر عن ضعف طباع الانسان وقال قوم المسحر يعنى كل ذي سحر يذهب الى الرئة لقوله * ونسحر بالطعام وبالشراب * ولذكر السحر موضع آخر يقول الرجل لصاحبه صرمت سحري منك أى لست منك وقال خفاف بن ندبة

ولولا ابنا تماضران تساوى * وانى فيك غير صريم سحر

فكانه قال لست كذلك وقال قيس بن الخطيم

تقول ظعينتي لما استقلت * أتترك ما جمعت صريم سحر

أي قد تركته آيسا منه وأنشد الآخر

أيذهب ما جمعت صريم سحر * طليقا ان ذا لهو العجيب
كذبتم والذى رفع المعالى * ولما يخضب الاسل الخضيب

واذا وصفوا شدة الحر وصفوا كيف ترقى الحرباء على العود الجزل وكيف تلجأ العصافير الى جحر الضباب من شدة الحر وقال أبو زبيد

أى ساع سعى ليقطع شربي * حين لاحت للصابح الجوزاء
واستكن العصفور كرها مع الضب وأوفى فى عوده الحرباء
ونفى الجندب الحصى بكراعيه * وأذكت نيرانها المعزاء
من سموم كأنها نفخ نار * سجرتها الهجيرة العماء

وأنشدوا

تجاوزت والعصفور في الجحر لاجئ * مع الضب والشقران يسمو صريرها

قال والشقران الحرباء قوله يسمو أي يرتفع على رأس العود والواحد من الشقران شقران بتحريك القاف وفتح الشين وأكرم فحل كان للعرب من الابل كان يسمى عصفوراً وتسمى أولاده عصافيره النعمان ،وكانوا يقولون صنع به الملك كذا وكذا ووهب له مائة من عصافيره وعصفور وذاعر وعامر وذو الكيلين فحولة ابل النعمان وعصافير الطير واحدها عصفور والرحل يسمي عصفور القواس تضاف اليه القسي العصفورية وقد ذكره ابن بشير حين دعى على حمام له بالشواهين والصقور والسنانير والبنادق فقال

من كل أكاف بات يدجن ليله * فغدا بغدوة ساغب ممطور
ضرم يقلب كفه مستأنساً * مسا فكر له من التقدير
يأتي لهن ميامنا ومياسراً * صكا بكل مذلق مخطور
لا ينج منه شريدهن فان نجا * شيء فصار بجانيات الدور
بمشمرين من السواعد حسر * عنها لكل رشيقة التوتير
ليس الذى تشوى يداه برميه * فيهم بمعتذر ولا معذور
يتبوعون مع الشروق غدية * في كل مصطبة الحراب بتور
عطف الشبات موانع في بذلها * تعزي اذا نسبت الى عصفور
ينفين عن حرب الاكف سواسيا * متشابهات صفن بالتدوير
يجري لها مبهج النفوس وانها * لتواصل سلت من التخسير
ما ان بني متباين متباعد * في الجو يحسر طرف كل بصير
عن شبههن اذا قصدن لجمه * متقطراً متضمخا بعبير
فيؤب ناجيهن بين مخلص * دام ومجلوب الى منسور
عاري الجناح من القوادم والمري * كأس عليه بطائر الناهور

وقال ابن السري وهو معدان الاعمي الدينوري وهو يذكر ظهور الامام واشراط

خروجه فقال

في زمان تبيض فيه الخفافيـ * ـش وتسقى سلافة الجريال
ويقيم العصفور سلما مع الايـ * ـم وتحمى الذئاب لحم السخال

يقول اذا ظهر الامام فآية ذلك ان تبيض الخفافيش وهى اليوم تلد وتحـل لنا الخمر وتسالم الحيات العصافير والذئاب السخال، ورووا في طول سجود عيسى بن عقبة أنه كان يطيـل ذلك حتى يظن العصفور أنه كالشيء الذى لا يخاف جانبه وحتى يظن العصفور أنه سارية فيسقط عليه، وذكر عمران بن أبي الفضل عن الاعمش عن يزيد ابن حيان قال كان يزيد بن عقبـة اذا سـجد وقعت العصافـير على ظهره من طول سجوده ، وفى المثل ان شيخا نصب للعصافـير فخا فارتبق به وبالفخ فضربه البرد فكلما مشي الى الفخ وقد انضم الى العصفور وقبض على جناحه فالقاه في وعائه وقد دمعت عينه مما كان يصد وجهه من برد الشمال قال فتوامرت العصافير بأمره وقال لا بأس عليكم فانه شيخ صالح رحيم رقيق الدمعة قال فقال عصفور منها لا تنظروا الى دموع عينيه ولكن انظروا الى عمل يديه ، وفى امثال العامة فيمن يتصرف بغير مؤنة الحجر مجان والعصفور مجان، قال ويقال عصفور وعصفورة وأنشد قوله

ولو أنها عصفورة لحسبتها * مسومة تدعو عتيكا وأرتما

وقال في هذا المعني جرير وان لم يكن ذكر العصفور

مازلت تحسب كل شيء بعدهم * خيلا تشد عليهم ورجالا

قال يونس أخذ والله هذا المعنى من قول الله تعالى يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو وقال الشاعر

كأن بلاد الله وهي عريضة * على الخائف المطلوب كفة حابل
يؤدي اليـه أن كل ثنيـة * تيممها ترمى اليه بقاتل *

وقال بشار فى شبيه ذلك

كأن فؤاده كرة تنزّى * حذار البين لو نفع الحذار
جفت عيني عن التغميض حتى * كأن جفونها فيها قطار

يروعه السرار بكل أرض * مخافة أن يكون به السرار

وقال عبيد بن أيوب

لقد خفت حتى لو تمر حمامة * لقلت عدو أو طليعة معشر
فان قيل خير قلت هذا خديعة * وان قيل شر قلت حقا فشمر
وخفت خليلي ذا الصفاء ورابني * وقلت فلانا أو فلانة فاحذر

وقال ابان اللاحق

اخفض الصوت ان نطقت بليل * والتفت بالنهار قبل الكلام

ومن ملح أحاديث الاصمعي قال حدثني شيخ من أهل المدينة وكان عالي السن قال قال العاصري كانت هذه الارض لقوم ابتداؤها وساقوها وكانت الثمرة اذا أدركت قال قائلهم اثلم الحائط ليصيب المار مما فيه والمعتفي ثم يقول ارسل الى فلان بكذا و كذا والى فلان بكذا و كذا فاذا ييمت الثمرة فأرسل الى فلان بكذا وكذا من دينار والى فلان بكذا و كذا فيضج الوكيل فيقول ماأنت وهذا لا أم لك فلما عمرت الارض وأغنت اقتطعها قوم سواهم وان أحدهم ليسد حائطه ويصفر بابه ثم يدلج فيقول ما هذه النملة فأرسل يستطيف من وراء الحائط فهو أطول من معقل أبي كريز واذا دخل حائطه دخل معه بقذافة فاذا رأى العصفور رماه على القنا فيقع العصفور مشويا على قرص والقرص من هذا العصفور ، ويخص العصافير الهبيرية وهي تطعم على رفرف وتكون اسمن من السماني وأطيب من كل طيب وهي تهدي الى ملوكنا وهي قليلة هناك

وقال الراعي

ما زال يركب روقيه ويخلطه * حتى استناد سفاها دونها الثأد
حتى اذا نطق العصفور وانكشفت * عماية الليل عنه وهي تعتمد

وقال الراعي

وأصفر مجدول من المد مارق * ثلاث بعينيها فيلوى ويهرق
لدي ساعدى مهرية سدنية * تملى بليل والعصافير تنطق

قال وتصاد العصافير بأهون حيلة وذلك انهم يعملون لها مصيدة ويجملون لها بنية في

صورة المحبرة التى يقال لهـا اليهودية المنكوسة الانبوبة ثم ينزل فى جوفها عصفور واحد فتنقض عليه العصافير ويدخلن عليه وما دخل منها لم يجد سبيلا الى الخروج منها فيصيد الرجل منها فى اليوم المائتين وهو وادع ، وهي أسرع الى ذلك العصفور من الطير الى البر اذا جعلوه فى المصائد ومتى أخذ الرجل فراخ العصافير من أوكارها فوضعها في قفص حيث تراها الآباء والامهات فانها تأتيها بالطعم على الخطر الشديد والخوف من الناس والسنانير مع شدة حذرها ورقة حسها ليس ذلك الا لبرها بأولادها وحبها

القول فى الفار والجرذان والسنانير والعقارب

قال وانما ذكرنا العقارب مع ذكرنا للفار للعداوة التي بين الفار والعقارب كما رأينا ان نذكر السنانير في باب الفار للعداوة التى بينهما فان قلت قدعرفنا عداوة الفار للعقرب فكيف تعادى الفارة السنور والفارة لاتقاومه قيل لعمري ان جرذان انطاكية لتساجل السنانير فى الحرب التى بينهما وما تقوم لها وما تقدر عليها الا الواحد بعد الواحد وهى بخراسان قوية جداً وربما قطعت اذن النائم وفى الفار ما اذا عض قتل وخبرني أبو زيد يونس الشرطى أنه عاين ذلك وأنا رأيت سنوراً عندنا ساور جرذاً فى بيت الحطب فافلت الجرذ منه وقد فقأعين السنور والقتال يكون بين الديك والكباش والكلاب والسنانير وضروب مما يقبل التحريش ويواثب عند الاغراء ويزعمون أنهم لم يروا قتالا قط بين بهيمتين أشد من قتال يكون بين جرذين فاذا ربط أحدهما بطرف خيط وشد رجل الآخر بالطرف الآخر فلهما عند ذلك من الجاب والخمش والعض والتشبث والفقاس ما لا يوجد بين شيئين من ذوات المقار والهراش الا أن ذلك ماداما فى الرباط فاذا انحلا وانقطع ولى كل واحد منهما عن صاحبه فى الارض وهرب كل واحد خلاف جهة الآخر وان جعلا فى اناء من قوارير أعنى الجرذ والعقرب وانما ذكرت القوارير لانها لاتستر عن أعين الناس صنيعهما ولا يستطيعان الخروج لملاسة الحيطان فالفارة عند ذلك تختل العقرب فان قبضت على ابرتها قرصتها وان ضربتها العقرب ضربا كثيراً فاستنفدت منها كان من أسباب حتفها ، ودخلت انا مرة

وجدناه الصباح على عبيد الله ونيزى فاذا عنده برنية زجاج فيها عشرون عقربا وعشرون فاراً فاذا هى تقتتل فخيل لى أن تلك الفار قد اعتراها ورم من شدة وقع اللسع ورأيت العقارب قد كلت عنها وتاركتها ولم أر الا هذا المقدار الذى وصفت وحدثنا عنها عبيد باعاجيب ولو كان عبيد استاذ الخبرت عنه ولكن موضع البياض من هذا الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد، وللجرذ تدبير فى الشئ يأكله أو يحسوه فانه ليأتي القارورة الضيقة الرأس فيحتال حتى يدخل طرف ذنبه فى عنقها فكلما ابتل بالدهن أخرجه فلطمه ثم أعاده حتى لايدع فى القارورة شيئا ورأيت من الجرذان أعجوبة وذلك أن الصيادة لما سقطت على جرذ منها ضخم اجتمعت على اخراجه وسل عنقه من الصيادة فلما أعجزهم ذلك قرضوا الموضع المنضم عليه من جميع الجوانب ليتسع الخرق فيجذبنه فهجمت على محاله حيث يدخل طرف ذنبه فيه فلو اعتمدت بسكين على ذلك الموضع لظننت أنه لايمكن الاسبيه بذلك، وزعم بعض لأطباء ان السنور انما يدفن خرأه ثم يعود الي موضعه فيشمه فان كان يجد من ريحه بعد شيئاً زاد عليه من التراب لان الفأرة لطيفة الحس جيدة الشم فان وجدت تلك الريح عرفتها فأمعنت فى الهرب فلذلك يصنع السنور مايصنع ولا يشك الناس أن أرض بلد سبا وجنتيها انما خربتا حين دخلهما سيل العرم والعرم المسناة وان الذى خرالمسناة وسبب لدخول الماء الذى اذا دخل أخرب بقدر قوته وقوة الماء تكون من ثلاثة أوجه اما أن تدفعه ريح في مكان يفحش فيه الريح واما ان يكون وراءه وفوقه ماء كثير واما أن يصيب حدوراً عميقاً ،وأما حديث ثمامة فانه قال لم أر قط أعجب من قتال كنت فى الحبس وحدى وكان فى البيت الذي أنا فيه جحر فأر يقابله جحر آخر فكان الجرذ يخرج من أحد الجحرين فيرقص ويتوعد ويصوب بذنبه ويرفع صدره ويهز رأسه فلا يزال كذلك اذا عد أحدهما دخل فى جحره وصنع الآخر مثل ذلك فلا يزال كذلك فى الوعيد وفي الفرار وفى التحاجز وفى ترك التلاقي الا أني في كل مرة أظن الذي يظهر لى من حدهما واجتهادهما وشدة توعدهما أنهما سيلتقيان الشئ أهونه العض والخمش ولا والله ان التقيا قط فعجبت من وعيد دائم

لا ايقاع معه ومن فرار دائم لا ثبات معه ومن فرار لا يمنع من المودة ومن اقدام لا يوجب الا لتقاء ليس هو الا الصخب والتشبث فلم يعد كل واحد منهما حتى يدخل جحره وتقول العرب الضب أطول شيء ذماء ولا أعلم في الارض شيئاً أقصر ذماء ولا أضعف ميتة ولا أحذر ان يقتل الصغير من الفار وبلغ من تحرزه واحتياطه ان يسكن السقف فربما فاجأه السنور وهو يريد ان يعبر الى بيته والسنور في الارض والفارة في السقف ولو شاءت ان تدخل مبيتها لم يكن للسنور عليها سبيل فتتحير فيقول السنور بيده كالمشير ليساره ارجع فاذا رجعت أشار بيمينه ان عدفيعود وانما يطلب ان تعيا وتزلق أو يداريها ولا يفعل بها ذلك ثلاث مرات حتى تسقط الى الارض فيثب عليها فاذا وثب عليها لعب بها ساعة ثم أكلها وربما خلي سبيلها وأظهر التغافل فتمعن في الهرب فاذا ظنت انها قد نجت وثب عليها وثبة فأخذها فلا يزال كذلك كالذى يحب أن يسخر بصاحبه وان يخدعه وأن يأخذه أقوى ما كان طمعا في السلامة وان يورثه الحسرة والاسف وان يلذ بتنغيصه وتعذيبه وقد يفعل العقاب مثل ذلك بالأرنب ويفعل السنور مثل ذلك في العقرب، وقال أبو زيد دخلت على رؤبة فاذا هو يمل جرذنا فاذا نضجت أخرجها من النار فأكلها فقلت له أتأكل الجرذان قال هي خير من اليرابيع والضباب انها عندكم تأكل التمر والخبز والسويق وكان ناس من أهل سيف البحر من شق عمان يأكلون الفار والضفادع ممقورة ومملحة وكانوا يسمونها حية حية وأل وأل وقال أوس بن حجر

لحيتهم لحي العصا فطردتهم * الى سنة جرذانها لم تحلم

يقال تحلم الصبي اذا بدأ في السمن فاذا زاد على ذلك قيل قد صب ويقال أسرق من زبابة والزبابة الفارة ويقال أسرق من جرذ وقال أنس بن أبي إياس لحارثة بدر حين ولى أرض سرق

أحار بن بدر قد وليت ولاية * فكن جرذا فيها تخون وتسرق
وباه تميما بالغنى ان للغني * لسانا به المرء الهيوبة ينطق
فان جميع الناس اما مكذب * يقول بما تهوى واما مصدق

يقولون أقوالا ولا يعلمونها * وان قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

فلا تحقرن يا حار شيئاً وليته * فحظك من أرض العراقين سرّق

فلما بانت حارثة بن بدر قال لا يخفى عليك الرشد , قال ووقفت عجوز علي قيس بن سعد فقالت أشكو اليك قلة الجرذان قال ما ألطف ما سألت تذكر ان بيتها قفر من الأدم والمأدوم فأكثر لها يا غلام من ذلك ، قال وسمعت قاصا مدنيا يقول فى دعائه اللهم أكثر جرذاننا وأقل صبياننا ، وبين الفار وبين طباع كثير من الناس منافرة حتي ان بعضهم لو وطىء على ثعبان أورمى بثعبان لكان الذى يدخله من المكروه والوحشة والفزع أيسر مما يدخله من الفارة لو رمى بها أو وطئ عليها ، وخبرني رجال من آل زائدة بن مقسم أن سليمان الازرق دعا بحية شنعاء قد صارت فى دارهم فدخلت فى جحر وانه اغتصبها نفسها حتى قبض على مابقي منها ثم أدارها على رأسه كما يصنع بالمجداف وأهوي بها الى الارض ليضرب بها فابتدرت من حلقها فأرة كانت ازدردتها فلما رأي الفارة هرب وصرخ صرخة قالوا فأخذ مشايخنا الغلمان باخراج الفأرة وتلك الحية الشنعاء الى مجلس القوم ليعجبوهم من انسان قتل هذه وفر من هذه ، وسألت بعض الحوائين ممن يأكل الافاعى حية ونية مما دونها فقلت مابال الحيات منتنة الجلود والجذوم قال أما الافاعى فانها ليست منتنة لانها لا تأكل الفأرة فأما الحيات عامة فانها تطلب الفار طلبا شديداً وربما رأيت الحية وما يكون غلظها الا مثل الابهام الكبير ثم أجدها قد ابتلعت الجرذ أغلظ من الذراع وأنكر نتن الحيات الا من هذا الوجه ولم أر الذي قال قولا مثل قول أعرابي ودخل بعض الامصار فانى من الجرذان جهدا فوجد بها ودعا عليها فقال

يعجل الرحمن بالعقاب * لعامرات البيت بالخراب

حتي يعجان الى الثياب * كحل العيون قصر الرقاب

مستتبعات خلفة الأذناب * مثل مداري الحسن السلاب

ثم دعا عليها بالسنور فقال

أهوى لهن أنمر الأهاب * منهرت الشدق حديد الناب

* كانما يرش بالحراب *

ويوصف عضو الحفار والماتح الذى يعمل فى المعادن فيشبه بالجرذان اذا انفلق لحمه عن صلابة فصار ربما قال الراجز

اعددت للورد اذا الورد حفز * غرباً جروراً وجلالا خزخز

وما تحالا ينثني اذا احتجز * كان جوف جلده اذا احتجز

* فى كل عضو جرذان أو خزز *

والخززذكر اليرابيع والزباب والخلد واليرابيع أصم لا يزال كذلك وانشد

وهم زباب حائر * لا تسمع الآذان رعداً

هكذا أنشدونا وأنشد الاصمعي لمزرد بن بدر ضرار فى تشبيه الجرع فى خلق الابل بحثمان الزباب وهو الشكل الذى وصفناه فقال فى وصف وصيف له سقاه فوصف جرعه

فقلت له اشرب لو وجدت بهارزاً * طوال الذرى من مرهفات الخناجر

ولكنما صادفت دور منيحة * لمثلك يأتى للقرى غير غادر

قاهوى لها الكفين وامتدحلقه * بجرع كاثباج الرباب الدفائر

وقال اعرابي وهو يمكر بقوم ويذكر قرض الفار الصكاك عند فراره منه الزم الصك لا يقرضه الفار تهزؤابه

أهون عليّ بسيار وصفوته * اذا جعلت ضرارا دون سيار

البائعى ناشراً عندى صحيفته * فى السوق بين قطين غير ابرار

جاؤا اليّ عطافا يلفظون بها * تشف آذانهم اذغاب انصارى

لما أبوا جهرة الا ملازمتى * أجمعت مكراً بهم في غير انكار

وقلت ان بحساس غدا حلبي * وان موردكم دار ابن هبار

وما أواعدهم الا لأنبذهم * عنى فيخرجني نقضى وابرارى

وما جلبت اليهم غير راحلة * تخذى برحل وسيف جفنه عاري

ان القضاء سيأتى دونه زمن * فاطو الصحيفة واحفظها من الفار

والعرب تعيب الانسان اذا كان ضيق الفم أوكان دقيق الخطم وقال عبدة بن الطبيب

يادمع انك يوم الورد ذو لغط * ضخم الجزارة بالسلمين جرار
تلقى الوليدة فى النادى مؤتزراً * فاحلب فانك حلاب وصرار
ما كنت أول صب صاب تلمته * غيث فأمرع واستوحت به الدار
أنت الذى لا يرجى نيله أبداً * جلد الندى وغداة الروع فرار
تدعو بنيك عباداً وحذيمة * يافارة شجها فى الجحر محفار

وقال أبو الشمقمق فى الفار والسنور

ولقد قلت حين أقفر بيتي * من جراب الدقيق والفخاره
ولقد كان آهلا غير قفر * مخصبا خيره كثير العماره
فأري الفار قد تجنب بيتي * عائذات منه بدار الاماره
ودعا بالرحيل ذبان بيتى * بين مقصوصة الي طياره
وأقام السنور فى البيت حولا * ما يرى فى جوانب البيت فاره
ينفض الرأس منه من شدة الجو * ع وعيش فيه أذي ومراره
قلت لما رأيته ناكس الرأ * س كئيبا فى الجوف منه حراره
ويك صبراً فأنت من خير سنـ * ـور رأته عيناي قط بحاره
قال لا صبر لى وكيف مقامى وسط بيت قفر كجوف الحماره
قلت سر راشدا الي بيت خان * مخصب رحله كثير التجاره
واذا العنكبوت يغزل في دنى * وحتي في الكوز والقرقاره
وأصاب الجحام كلبي فأمسى * بين كلب وكلبة عياره

﴿ وقال أيضا ﴾

ولقد قلت حين أحجرنى البر * د كما تحجر الكلاب ثماله *
فى مبيت من الغضارة قفر * ليس فيه الا النوى والنخاله
عطلته الجرذان من قلة الخير * وطار الذباب نحو زباله *
هاربات منه الى كل خصب * حين لم يرتجين منه بلاله

* وأقام السنور فيه بشر * يسأل الله ذا العلا والجلاله
ان يري فارة فلم ير شيئاً * ناكسا رأسه لطول الملاله
قلت لما رأيته ناكس الرأ * س كئيبا يمشي على شر حاله
ويك صبراً فأنت رأس السنا * نير وعلته بحسن مقاله
قال لاصبر لى وكيف مقامى * فى قفار كمثل بيد تباله
قد أرانى أنفض الرأس جوعاً * ثم أمشى في البيت مشى خباله
قلت سر راشدا فخار لك الله ولا تعد مذبح البغاله
* واذا ما سمعت أنا بخير * من نعيم في عيشة ومناله
* فأتنا راشد ولا تعدونا * ان من جاز رحلنا فى ملاله
قال لى قولة عليك سلام * غير لعب منه ولا ببطاله
ثم ولى كأنه شيخ سوء * أخرجوه من مجلس بكفاله

﴿ وقال أيضا ﴾

نزل الفار بيتى * رفقة من بعد رفقه * خلفا بعد قطار *
نزلوا بالبيت صفقه * ابن عرس رأس بيتى * صاعداً فى رأس فتقه
سيفه سيف حديد * شقه من ضلع ساقه * جاءنا يطرق بالليل
فدق الباب دقه * دخل البيت جهاراً * لم يدع بالبيت فلقه
وأتى يصفق منى * عين باب الدبر صفقه * صفقة أبصرت منها
في سواد العين زرقه * زرقة مثل ابن عرس * أغبش يعلوه بلقه

﴿ وقال أيضا ﴾

أخذ الفار برجلى * جعلوا منها خفاف * وسراويلات سوء
وتبا بين ضعاف * درجوا حولى بزفن * وبضرب بالدفاف
قلت ما هذا فقالوا * انما هذا الزفاف
ساعة ثم تجازوا * عن هوائى فى لحاف * لعقوا أستى وقالوا
ريح مسك بسلاف * صفقوا عين ذوبه * فاستهلت بالرعاف

يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خمس يورثن النسيان أكل التفاح وسؤر الفار والحجامة فى النقرة ونبذ القملة والبول في الماء الراكد، ابن جريج قال اخبرنى أبو الزبير انه سمع جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا رقدت فأغلق بابك وخمر أناءك وأوك سقاءك وأطفئ مصباحك فان الشيطان لا يفتح غلقا ولا يكشف إناء ولا يحل وكاء وان الفارة الفويسقة تحرق على أهل البيت، قالوا في قول النبي صلى الله عليه وسلم فى السنانير إنهن من الطوافات عليكم وفى تفريقه بين سؤر السنور وسؤر الكلاب دليل على حثه لا تخاذهن وليس لا تخاذهن وجه الا افناء الفار وقتل الجرذان، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم كما أحب استحياء السنانير فقد أحب قتل الفار، عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم عذبت امرأة في هرة سجنتها وربطتها فلم تطعمها ولم تسقها ولم ترسلها تأكل من خشاش الارض وعن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال دخلت امرأة فى من قبلكم النار فى هرة ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هي تركتها تصيب من خشاش الارض حتى ماتت وأدخلت النار كلما أقبلت نهشتها وكلما أدبرت نهشتها، قال وذكر النبي صلى الله عليه وسلم صاحب المحجن يجر قصبه فى النار حتى قال وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تدعها تأكل من خشاش الارض، قال ابن يسير فى صفة السنور نوصفه بصفة الاسد الا ما وصفه به من الشبه فان السنور يوصف بصفة الاسد اذا أرادوا به الصورة والاعضاء والوثوب والتخلع فى المشى الا ان فى السنانير السود والنمر والبلق والخلنجية وليس فى ألوان الاسد من ذلك شئ الا كما ترون في النوادر من الفارة البيضاء والفاختة البيضاء والورشان الابيض والفرس الابيض وقال ابن يسير فى دعائه على حمام ذلك الجار حين انتهى الى ذكر السنور

وخبعثن فى مشيه متبهنس * خلف المؤخر كامل التصدير
ثما أعير مفر أغضف ضيغم * من كل أعضل كالسنان هصور
متسربل ثوب الدجا أوغبشة * سهب على سهميه بالتشمير
يختص كل سايل سابق غاية * محض النجار مهذب مجبور

واذا وصفوا الناقة بأنها رواغة شديدة التفزع لفرط نشاطها ومرحها وصفوا بأن هراً قد ثبت فى دفها وأكثر مايذكرون فى ذلك الهر لانه يجمع العض بالناب والخمش بالمخالب وليس كل سبع كذلك وقال ضابئ بن الحارث

بادماء حرجوج ترى تحت غرزها * تهاويل هر أو تهاويل اختلا

وقال أوس بن حجر

كأن هراً خبيثاً تحت محجرها * والتف ديك بساقيها وخنزير

وقال عنترة

وكأنما ينأى بجانب دفها اا * وحشي من هزج العشي مؤوم

هر جنيب كلما عطفت له * غضبى اتقاها باليدين وبالفم

والفيل يفزع من الهر فزعا شديداً ، ومما يقع فى الهجاء للسنور قول عمرو بن عبد الله ابن الوليد في أم سعد بنت خالد

وما السنور في نفسى * لعوبا بالخمائل والبراق

فطلقها فلست لها بأهل * ولو أعطيت هراً في الصداق

قال صاحب الكلاب قالوا ولما مات عمرو القصبى وكان من موالى ربيعة بن حنظلة ومات بالبصرة رجم بالسنانير الميتة وقالوا وقد صنعوا شبيها بذلك بخالد بن طليق حتى زعم أهله أن ذلك كان من تدبير محمد بن سليمان ، وقالوا لم نر الناس رموا أحداً بالكلاب الميتة والكلاب أكثر من السنانير حية وميتة وليس ذلك الا لان السنانير أحقر عندهم وأنتن ، قال ويقال للجرذان الفطلان ولأولاد الفار أدراص والواحد درص وكذلك أولاد اليرابيع يقال لها أدراص ودروص وقال أوس بن حجر

فما أم الدرين وقد أدلت * بعالمة بأخلاق الكرام

إذا الشيطان قصع فى قفاها * تنفقناه بالحبل التؤام

فاذا طلب من هذه الحفائر نافق فيخرج من النافقاء وان طلب من النافقاء قصع ويقال أنفقته انفاقا اذا صاح به حتي يخرج ونفق هو اذا خرج من النافقاء ، وفي احتيال اليرابيع بالنافقاء والقاصعاء والداماء والراهطاء وفى جمعها التراب على نفس باب

الجحر وفى تقدمها بالحيلة والحراسة وفى تغليطها لمن أرادها والتورية بشيء عن شيء وفى معرفتها ببيان الخديعة وكيف توهم عدوها خلاف ما هى عليه ثم في وطئها على زمعاتها ، فى السهولة وفى الارض اللينة لئلا يعرف أثرها الذي يقصه وفى استعمالها بعض مايقال له فى الحيلة التوتير والتوتير الوطء على مؤخر أنفها العجب العجيب ، وزعم أبو عقيل بن درست وشداد الحارثى وحسين الزهري أن الزباء انما عملت تلك الانفاق التي ذكرها فقال

أقام به على الانفاق عمرو * ولم يشعر بأن لها كمينا

على تدبير اليرابيع في محافيرها هذه ومخارجها التى أعدتها ومداخلها على قدر ما يفجأها وان أهل بيت الفرس والروم انما استخرجوا الاحتيال والمطامير والمخارق على تدبير اليرابيع ، وانما سمي الله عز وجل الكافر فى باطنه المورى بالايمان والمستتر بخلاف ما يسر بالمنافق على النافقاء والقاصعاء وعلى تدبير اليربوع فى التورية بشيء عن شيء قال الشاعر

اذا الشيطان قصع في قفاها * تنفقناه بالحبل التؤام

وهذا الاسم لم يكن فى الجاهلية بهذا العمل ولكن الله عز وجل اشتق لهم هذا الاسم من هذا الاصل وقد علمنا ان قولهم لمن لم يحج صرورة ولمن أدرك الجاهلية والاسلام مخضرم وقولهم لكتاب الله قرآن وتسميتهم للمسح بالتراب التيمم وتسميتهم للقاذف بفاسق ان ذلك لم يكن فى الجاهلية واذا كان للنابغة ان يبتديء الاسماء على الاشتقاق من أصل اللغة كقوله

* والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد *

وحتي اجتمعت العرب على تصويبه وعلى اتباع أثره وعلى أنها لغة عربية فالله الذى له أصل اللغة أحق بذلك ، وذكر شماخ بن ضرار اليربوع وكيف تطأ الارنب على زمعاتها لتغالط الكلاب وجميع ما يطالبها فذكر بدءا شأن العير والعانة فقال

اذا ما استافهن ضربن منه * مكان الرمح فى أنف القدوع

وقد جعلت ضغائنهن تبدو * بما قد كان نال بلا شفيع

مدلات يردن النأي منه * وهن بعين مرتقب تبوع

ثم أخذ في صفة العقاب وصار الى صفة الارانب فقال

* كأن متونهن موليات * عصي جناح طالبة لموع

قليل ماتريث اذا استفادت * غريض اللحم عن ضرم جزوع

ثم قال

فما تنفك بين عويرضات * تجر برأس عكرشة زموع

تطارد صيد صارات ويوما * على خزان فارات خموع

تلوذ ثعالب الشرفين منه * كما لاذ الغريم من التبيع

غذاها الغر فى قطن غذاها * الى فرخين فى وكر رفيع

ترى قطعا من الاحناش فيها * جماجهن كالحسل النزيع

والزموع التي تمشى على زمعاتها بمؤخر رجليها قال أبو الفضل توتر بيديها وتمشي على زمعاتها برجليها فهى مواضع الانس من الدواب والزمع المعلق خلف الظلف من الشاة والظبي قال وكل ذلك توتير وهو أن تطأ على مؤخر قوائمها كيلا يعرف أثرها انسان ولا كلب، وذكر أنها تطارد ذئبا مرة وخززا مرة وهو الذكر من الارانب والعكرشة الانثى والخرنق ولدها فاذا قلت أرنب أو عقاب فليس الا التأنيث وتقول هذه العقاب وهذه الارنب الا أن تقول خزز، وقطن جبل معروف والاحناش الحيات وأحناش الارض الضب والقنفذ واليربوع وهى أيضا حشرات الارض فجعل الحية حنشا على قولهم قد آذتنى دواب رأسي يعنون القمل وعلى قوله تعالى ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته، قال أبو الفضل ما أراد الا الحيات بأعيانها فى هذا الموضع فان العقبان أسرع الى أكل الحيات من الحيات الى أكل الفار ويدل على أنه إنما أراد رؤس الحيات بأعيانها قوله

تري قطعا من الاحناش فيها * جماجهن كالحسل النزيع

ولان أرؤس الحيات سخيفة قليلة اللحم والعظم فلذلك شبهها بالحسل النزيع والحسل المقل السخيف اليابس الخفيف قال خلف الاحمر

سقى حجا جنا نوء الثريا * على ما كان من مطل وبخل
هم جمعوا البغال واحرزوها * وسدوا دونها بابا بقفل
اذا اهديت فاكهة وشاة * وعشر دجائج بعثوا بنمل
وسوا كين طولها ذراع * وعشر من ردى المقل حسل
فان اهديت ذاك ليحملونى * على نعل أدق الله رجلي
اناس تائهون لهم رواء * تغيم سماؤهم من غير وبل
اذا انتسبوا ففرع من قريش * ولكن الفعال فعال عكل

والحتي هو المقل على وجهه وقال أبو ذؤيب

لادردري ان أطعمت نازلهم * قرف الحتي وعندي البر مكنون

باب آخر للسنور فيه فضيلته على جميع أصناف الحيوان ما خلا الانسان

واذا قال القائل فلان وضع كتابا فى أصناف الحيوان فليس يدخل فيها الملائكة والجن وعلى هذا كلام الناس، وللحيوان موضع آخر وهو قول الله عز وجل في كتابه وإن الدار الآخرة لهى الحيوان قد علمنا أن العجم من السباع والبهائم كلما قربت من مشاكلة الناس كان أشرف والانسان هو الفصيح وهو الناطق وقد يشتقون لسائر الحيوان التى تصوت وتصيح اسم الناطق اذا قرنوه في الذكر الى الصامت ولهذا الفرق أعطوه هذه المشاكلة وهذا الاشتقاق، فاذا تهيأ من لسان بعضها من الحروف مقدار ما تفضل به على مقادير الاصناف الباقية كان أولى بهذا الاسم عندهم فلما تهيأ للقطاة ثلاثة أحرف قاف وطاء وألف فكان ذلك هو صوتها سموها بصوتها ثم زعموا انها صادقة فى تسميتها نفسها قطا قال الكميت

كان الناطقات الصادقا * ت الواسقات من الذخائر

وقال الآخر في ذكر القطاة

وصادقة قد خبرت ما بعثتها * طروقا وباقى الليل فى الارض مسرف

فجعلها مخبرة وخبرها صدقا حين زعمت أنها قطا وان كانت القطاة لم ترم ذلك

والعرب تتوسع فى كلامها وبأى شئ تفاهم الناس فهو بيان الا أن بعضه أحسن من بعض والذى تهيأ للشاة قولها ما وقال ذوا لرمة

لا يرفع الصوت الا ما تخوفه * داع يناديه باسم الماء مبغوم

وقال أبو عباد النميرى لخوينق العمري وكان يتعسفه ورآه قد اشتري أضحية فقال

* ياذابح الماامات * فعلت فعل الجفاة

أما رحمت من المو * ت ياخوينق شاتى

والصبيان هم الذين يسمون الشاة ماما كأنهم سموها بالذي سمعوا منها حين جهلوا اسمها ، وقيل لصبي يلعب على بابهم من أبوك ياغلام وكان اسم أبيه كلبا فقال وَوْ وَوْ وزعم صاحب المنطق أن كل طائر عريض اللسان فالافصاح بحروف الكلام منه أوجه ولابن آوى صياح يشبه صياح الصبيان وكذلك الخنزير وقد تهيأ للكلب مثل عف عف ووو وو وأشباه ذلك وتهيأ للغراب القاف وتهيأ للببغاء من الحروف أكثر فاذا صرت الى السنانير وجدتها قد تهيالها من الحروف العدد الكثير ومتى أحببت ان تعرف ذلك فتسمع تجاوب السنانير وتوعد بعضها لبعض فى جوف الليل ثم احص ماتسمعه وتتبعه وتوقف عنده فانك ترى من عدد الحروف ما ان كان بها من الحاجات والعقول والاستطاعات ثم ألفتها صارت لغة صالحة الموضع متوسطة الحال واللغات انما تشتد وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله بأماكنها التى وضعت فيها وعلى قدر كثرة العدد وقلته وعلى قدر مخارجها وخفتها وسلسها وثقلها وتعقدها فى نفسها كفرق ما بين الزنجي والخوزي، ان الرجل يتنخس فى بيع الزنج وابتياعهم شهراً واحداً فيتكلم بعامة كلامهم ويبايع الخوز ويجاورهم زمانا فلا يتعلق منهم بطائل وبالجملة ان من أعون الاسباب على تعلم اللفظ فرط الحاجة الى ذلك ، والسنور يناسب الانسان باسباب منها أنه يعطس ومنها انه يتثاءب ومنها انه يتمطى ويغسل وجهه وعينيه بلعابه وتلطع الهرة وتبرق جلد ولدها بعد الكبر والصغر حتي يصير كان الدهان يجرى فى جلده، ويتهيأ لبعض الغربان من الحروف والحكاية مالا تفسره الببغاء، وزعمت الاطباء ان خرء الفار يسقاه صاحب الاسر فيطلق بوله والاسر هو حصر البول ولكن

لايسمى بذلك وهو الاسر بالالف دون الياء ويصيب الصبي الحصر فيحتمل من خرء الفارفيطلق عنه ، وقد تهيأ من خرء الفاردوآن لداءين قاتلين ولذلك قيل لأعرابى قد اجتمعت فيه أوجاع شداد أى شيء تشتكي قال أما الذي يقيدني فحصر وأسر ، يقال خثى الثور يخثي خثيا وواحد الاخثاء خثى كما ترى ويقال خريء الطائر وذرق ومرق وزرق , قال ابن الاعرابى لا يكون النجو رجعا حتى يكون يابسا ويقال ونم الذباب واسم نجوه الونيم وقال الشاعر

وقد ونم الذباب عليه حتى * كأن ونيمه نقط المداد

فهو ونيم الذباب وخرء الطائر وصوم النعام وروث الحمار وبعر البعير كالشاة والظبي وخثاء البقر ، وقال ابن الزبير من أهدى لنا مكتلا من تمر[1] قال العذرة اسم لجميع مايكون من جميع الحيوان ولذا قال ابن الزبير ماقال ، ويقال رمضت الدجاجة وذرقت وسلحت فاذا صاروا الى الانسان والفارة قالوا خرء الانسان وخرء الفارة ويقال خرءة الفارة أدخلوا فيها الهاء كما قالوا ذكورة الذكر وقد يستعار ذلك لغير الانسان والفار قالت دختنوس بنت لقيط بن زرارة في يوم شعب جبلة

فرت بنو أسد بخر * ء الطير عن أربابها

فلذلك يقال لبني أسد خرء الطير ويقال لهم عبيد العصا قاله صاحبهم بشر بن أبي خازم قالها لاوس بن حارثة

عبيد العصا لم يتقوك بذمة * سوي سب شعري ان سبك واسع

فيجب على العاقل بعد أن يعرف ميسم الشعر ومضرته أن يتقى لسان أخس الشعراء وأجهلهم شعراً بشطر ماله بل بما أمكن من ذلك ، وأما العربى والمولى الراوية فلوخرج الى الشعراء من جميع ماله لما عنفته والذى لايكترث لوقع نبال الشعراء كما قال الباخرزي

مالى أري الناس يأخذون ويعطو * ن ويستمتعون بالنشب

وأنت مثل الحمار انهم * شكوا جراحات ألسن العرب

ولأمر ما قال حذيفة لأخيه والرماح شوارع فى صدره اياك والكلام المأثور ، وهذا

---

(١) سقط من الاصل جواب من

مذهب فرعت فيه الشعراء من جميع الامم وهو مذهب جامع لاصناف الخير ، قال ويقال لموضع الغائط الخلاء والمذهب والمخرج والكنيف والمرحاض والمرفق وكل ذلك كناية واشتقاق ، وهذا أيضا يدلك على شدة هربهم من الدناءة والفسولة والفحش والقدح ، وعن اليزيدى رجع الرجل من الرجيع وخبرني أبو العاصى عن يونس قال ليس الرجيع الا رجيع القول والشعر والخبر فاما نجو الانسان فانه رجع قال الله تعالى والسماء ذات الرجع وقال الهذلى هو المنخل

أبيض كالرجع رسوب اذا * ما ناخ فى محتفل يختلى

وفي الحديث فلما قدمنا الشام وجدنا مرافقهم قد استقبل بها القبلة فكنا نحرف ونستغفر الله ، وقال ابن عبدل فى الفار والسنور

يا أبا طلحة الجواد أغثني * بسجال من سيبك المعتوم
احي نفسى فدتك نفسى فانى * مفلس قد علمت ذاك قديم
أوتطول لنا بسلف دقيق * أجره ان فعلت ذاك عظيم
قد علمتم فلا تقاعس عنى * ماقضى الله فى طعام اليتيم
ليس لى غير جرة وأحيص * وكتاب منمنم كالوشوم
وكساء أبيعه برغيف * قد رقعنا خروقه بأديم
وإكاف أعارنيه نشيط * ولحاف لكل ضيف كريم
ونبيذ مما يبيع صهيب * يذر الشيخ رمحه مايقوم
رث حبلى فقد ذكرت أصيصي * ولحافى حتي تغور النجوم
كل بيت عليه نصف رغيف * ذاك قسم عليهم معلوم
فر منه موليا فار بيتي * ولقد كان ساكنا مايريم
قلت هذا صوم النصاري فخلوا * لاتبيدوا شيوخكم فى السموم
ضحك الفار ثم قلن جميعا * أهو حق فى كل يوم تصوم
قلت ان النداء قد قام فى النا * س باذن وانت فينا ذميم
حملوا زادهم على خنفسات * وقراد مخيس مذموم

فاذا ضفدع عليه اكاف * علوه بعد النفاد الرسيم
خطموا انفه بقطعة حبل * يالقومى لأنفه المخطوم
نصبوا منجنيقهم حول بيتى * يالقومى لبيتى المهدوم
واذا في الفباء وصم برقص * قائم فوق بيتنا بقدوم
قلت بيت العرين بجمع صدق * هو قدماً بجمعكم معلوم
قلت لولا سنورناه احتفرنا * مسكنا تحت ثمرة المركوم
ان تلاق سنورناه قضاء * تذرانا وجمعنا كالهزيم
عشش العنكبوت فى قعر بيتى * ان ذا من رزيتى لعظيم
ليتنى قد عمرت دنى حتى * ابصر العنكبوت فيه يقوم
عرقا لا يميشه الدهر الا * زبد فوق رأسه مركوم
مخرجا كفه ينادى ذبابا * أن أغثنى فانني مظلوم
قال ذرني فلن أطيق دنوا * من نبيذ يشمه المزكوم

﴿ وقال في الفار والسنور ﴾

قد قال سنورنا واعهده * قد كان خصما مفوها لسنا
لو اصبحت عندنا جنازتها * لحنطت واشترى لها كفنا
ثم جمعنا صحابتي وغدوا * فيهم كذئب يبكي وقام لنا
كل عجوز حلو شمائلها * كانت لجرذان بيتنا شجنا
عن كل حدباء ذات خشخشة * او جرذ ذي شوارب ارنا
سقيا لسنورة فجعت بها * كانت كميت أخفيته سكنا

قال والفار ضروب منها الجرذان والفار المعروفان وهما كالجواميس والبقر وكالبخت والعراب ومنها الزباب ومنها الخلد واليرابيع شكل من الفار ، واسم ولد اليربوع درص مثل ولد الفار ومن الفار فارة المسك وهي دويبة تكون فى ناحية تبت تصاد لنوافجها وسرتها فاذا اصطادها عصب سرتها بعصاب شديد وسرتها مدلاة فيجتمع فيها الدم فاذا أحكم ذلك ذبحها وما أكثر من يأكلها فاذا ماتت قور السرة التي كان عصبها

له والفارة حية ثم دفنها فى الشعير حتى يستحيل ذلك الدم المحتقن هناك الجامد بعد موتها مسكا زكيا بعد أن كان ذلك الدم لا يرام نتنا ، قال وفى البيوت أيضاً قد يوجد فار مما يقال له فار المسك وهي جرذان سود ليس عندها الا تلك الرائحة اللازمة له قال وفى الجرذان جنس لها عبث بالعقود والشنوف والدراهم وخشخشة الحلى وذلك أنها تخرجها من جحرها فى بعض الزمان فتلعب عليها وحواليها ثم تنقله واحداً واحداً حتي تعيدها عن آخرها الى موضعها، نزعم الشرقي بن القطامى أن رجلا من أهل الشام اطلع على جرذ يخرج من جحر دينار فلما رآه قد أخرج مالا صالحا استخفه الحرص فهمّ بأن يأخذها ثم أدركه الحزم وفتح له الرزق المقسوم بابا من الفطنة فقال أنا أمسك أن آخذها ما دام يخرج فاذا رأيته يدخل فعند أول دينار يغيبه ويعيده الى مكانه أثب عليه فاجترف المال قال ففعلت وعدت الى موضعى الذى كنت أراه منه فأقبل يخرج ماشاء الله تعالى ثم أخذ ديناراً فأدخله فلما عاد ليأخذ ديناراً آخر فلم يجد الدينار أقبل يثب في الهواء ثم يضرب بنفسه الارض حتي مات وهذا الحديث من أحاديث النساء وأشباه النساء

﴿باب آخر يدعونه للفار﴾

وهو الذى ينظر فيه أصحاب الفراسة فى قرض الفار كما ينظر بعضهم فى الخيلان وفى الا كتاف وفى اسرار الكف ويزعمون ان أبا جعفر المنصور نزل فى بعض القرى فقرض الفار مسحاله كان يجلس عليه فبعث به ليرفأ فقال لهم الرفا ان هنا أهل بيت يعرفون بقرض الفار ما ينال صاحب المتاع من خير أو شر فما عليكم ان تعرضوه عليهم قبل ان تصلحوه فبعث المنصور الى شيخهم فلما وقعت عينه على موضع القرض وثب وقام قائما ثم قال من صاحب هذا المسح فقال المنصور انا فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته والله لتلين الخلافة أو أكون جاهلا أو كذابا ، وسألت بعض العطارين من أصحاب المعتزلة عن فارة المسك فقال ليس بالفارة وهو بالخشف أشبه ثم قص على شأن المسك وكيف يصطنع وقال لولا ان رسول الله صلى الله عليه

وسلم قد تطيب بالمسك لما تطيبت به ، وأما الزباب فليس مما يقرب منه في شيء قلت له وكيف يرتضع الجدى من لبن خنزيرة فلا يحرم لحمه لان ذلك اللبن استحال لحما وخرج من تلك الطبيعة ومن تلك الصورة ومن ذلك الاسم وكذلك لحوم الجلالة ، فالمسك غير الدم والخل غير الخمر والجوهر ليس يحرم بعينه وانما تحرم الاعراض فلا تقدر منه على تذكرك الدم الحقيقي فانه ليس [١] وقد تحول النار هواء والهواء ماء فيصير الشبه الذي بين الماء والنار بعيداً جداً ، والجرذان لا تحفر بيوتها على قارعة الطريق وتجتنب الخفض لمكان المطر وتجتنب الجواد لان الحوافر تهدم عليها بيوتها فاذا أخرجها وقع حافر فرس مع هذا الصنع دل ذلك على شدة الجرى والوقع وقال امرؤ القيس

فللسوط الهوب وللرجل درة * وللزجر منه وقع أهوج متعب
فادرك لم يعرق مناط عذاره * بدر كخذروف الوليد المنقب
ترى الفار في مستعكر الارض لاجئا * الى الجد والصحراء من شد ملهب
خفاهن من انفاقهن كأنما * خفاهن ودق من سحاب مركب

خفاهن أظهرهن وقرأ بعضهم ان الساعة آتية أكاد أخفيها بفتح أي أظهرها وقال ابن الاعرابي ان بني عامر جعلتني على خنزيرة أعينها تريد ان تخفي ذمتي ، وقال أبو عبيدة أربعة أحرف تهمزها عقيل من بين جميع العرب تقول فأرة ومؤسى وجؤنة [٢] فأكثر ما يقع عليها اسم الفارة فأرة البيش وفارة المسك وفارة الابل وفي فارة المسك يقول حميد الارقط

ممطورة خالط منها النشر * ذا أرج شقق عنه الفار

وفي فأرة الابل يقول الشاعر

كأن فأرة مسك في مبامنها * اذا بدا من ضياء الصبح ينتشر

---

(١) قوله فانه ليس أي عدم ومثل هذا التعبير من اصطلاح المتكلمين لا من عبارات البلغاء والمتأدبين

(٢) سقط ذكر الحرف الرابع

وهذا شبيه بالذي قال الراعي وليس به

تبيت بنات القفر عند لبانه * بأحقف من انقاء توضح هائل

كأن القطا ان خرقت فى مبيته * جدية مسك فى معرس قائل

قال الاصمعي قلت لابن مهدية كيف تقول لا طيب الا المسك فأين انت عن العنبر قال فقلت

لا طيب الا المسك والعنبر * وألبان وأدهان بحجر

قال قال الاصمعى وفارة البيش دويبة تغتذى السموم فلا تضرها والبيش سم وحكمه حكم الطائر الذي يقال له سمندل فانه يسقط في النار فلا يحترق ريشه ' وثبت عن المأمون انه قال لو أخذ الطحاب فجفف فى الظل ثم سقط فى النار لم يحترق ولولا ما عاينوا من شأن الطاق والعود الذى يجاء به من كرمان لاشتد انكارهم وزعم ابن أبى الحارث ان قساراهن على ان الصليب الذى في عنقه من خشب لا يحترق لأنه من العود الذي كان المسيح صلي الله تعالى على سيدنا محمد وعليه صلب عليه وانه كان يفتن بذلك ناساً من غير أهل النظر حتى فطن له بعض المتكلمين فأتاهم بقطعة عود تكون بكرمان فكان أبقى على النار من صليبه ' قال صاحب الكلب والسنور لص لئيم وشره خؤون فمن ذلك ان صاحب المنزل يرمى اليه ببعض الطعم فيحتمله احتمال المريب واللص المغير حتي يلج به خلف حب أوراقود أو عدل أو حطب ثم لا يأكله الا وهو يلتفت يمينا وشمالا كالذي يخاف أن يسلب ما أعطيه أو يعثر على سرقته فيعاقب ' ثم ليس فى الارض خبيثة الا وهو يأكلها مثل الخنافس والجعلان وبنات وردان والاوزاغ والحيات والعقارب والفار وكل نتن وكل حشة وكل مستقذر وهذه الانعام تدخل الفياض فتجتنب مواضع السموم بطبائعها وتتخطاها ولا تلتفت اليها ولما أشكل الشيء على اليقين بالشمة الواحدة فلا تغلط الابل فى الدفلي وحده ' والسنانير تموت من أكل الاوزاغ والحيات والعقارب وما لا يحصي عده من هذه الحشرات وهذا يدل على جهل بمصلحة المعاش وعلى حس غليظ وشره شديد ' قالوا وكل انثى من جميع الحيوان ماخلا المرأة فلا بد لها من هيج فى زمان معلوم ثم لا يعرف ذلك منها

وفيها الا بالدلائل والآثار أو ببعض المعاينة وإناث السنانير اذا هجن للسفاد آذين بصياحهن أهل القبائل ليلا ونهاراً بشيء ظاهر فعال لايعتريهن فترة ولا منامة فرب رجل حر شديد الغيرة جالس مع نسائه وهن يترددن على مثل هذه الهيئة ويصرخن فى طلب السفاد فكم من حرة قد خجلت وحر قد تنغصت طبيعته ، وليس لشيء من فحولة الاجناس مثل ماللجمل من الازباد وهجران الرعى وترك الماء حتى تنضم أياطله ويتورم رأسه ويكون كذلك الايام الكثيرة وهو فى ذلك الوقت لوحمل على ظهره مع امتناعه شهراً من الطعام ثلاثة أضعاف حمله لحملها ، ونظر المكى الى جمل قد أزبد وتلغم وطار على رأسه منه كشقق البرس وقد زم بأنفه وهو يهدر لايعقل الا ماهو فيه فقال لاسماعيل بن غزوان والله لوددت أن أهل البصرة رأونى يوما واحداً الى الليل على هذه الصفة وانى خرجت من قليل مالى و كثيره فقال له اسماعيل وأي شيء لك في ذلك قال كنت والله لا أصبح حتى يوافى دارى جميع نساء أهل البصرة فلا أبدأ الا بهن ، قال اسماعيل انك والله ماسبقتني الا الى القول وأما النية والأمنية فأنا والله أتمنى هذا منذ أنا صبى ، وللحمار والفرس عند معاينة الحجر والاتان تهيج وصياح وقلق وطلب والجمل يقيم على تلك الصفة عاين أولم يعاين ثم يدنى من هذه الذكورة اناثها ولا تسمح بامكانها الا بعد أن تساوى وتدارى ، قالوا والسنانير اذا انتقل أربابها من دار الى دار كان وطنها أحب اليها منهم وان أثبتت أعيانهم فان هم حولوها فأنكرت الدار لم تقم على معرفتهم فربما هربت من دارهم الحادثة ولم تعرف دارهم الاولى فتبقى مترددة اما وحشية واما مقتولة ، والكلب يخلى الدار ويذهب مع أهل الدار والحمام في ذلك كالسنور ، قال صاحب الكلب السنور يساوى فى صغره درهما فاذا كبر لم يساو شيئاً وقال المتنبى

كسنور عبد الله بيع بدرهم * صغيراً فلما شب بيع بقيراط

وصاحب هذا الشعر لو عبر مع أمرىء القيس بن حجر والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى ثم مع جرير والاخطل والفرزدق ثم مع بشار وابن هرمة وأبى يعقوب الاعور ألف سنة لما قال بيتا مرضيا أبداً وقد يضاف هذا البيت الى بشار وهو باطل

وزعم من لا أرد خبره ان الحلاق قد يعرض للسنانير كما يعرض للخنازير والحمير، وزعم بعض أهل النظر ان الزنج أشبهوا الحمير في كل شيء حتى في الحلاق فانه ليس على ظهر الارض زنجي إلا حالق وقد غلط ليس زنجي عليه مؤنة من ارتياد نياك وليس هذا تأويل الحلاق وتأويل الحلاق أن يكون هو الطالب، والنبيذ يهتك ستر الحاقي وينقض عزم المحتمل وهم يشربون النبيذ أبداً وسوء الاحتمال له وسرعة السكر اليهم عام فيهم وعندنا أمم فلو كان هذا المعنى حقا لكان عله ظاهراً وخبرني صاحبنا هذا أن في منزل أبي يوسف بن اسحاق الكندي هرين ذكرين عظيمين يكوم أحدهما الآخر وذلك كثيراً مايكون وان المنكوح لايمانع الناكح ولا يلتمس منه مثل الذي يبذله له، قالوا والهرة تأكل أولادها وكفاك بهذه الخصلة لؤماً وشرها وعقوقا وغلظ قلب وقال السيد الحميري وذكر مسير عائشة رضى الله تعالى عنها الى البصرة مع طلحة والزبير حين شهدت مالم يشهدا وأقامت علي مانكصا عنه

جاءت مع الاشقين في هودج * تزجي الى البصرة أجنادها
كأنها في فعلها هرة * تريد أن تأكل أولادها *

وليس ما قال في أم المؤمنين وقد كان قادراً على ان يوفر على علي رضي الله عنه فضله من غير ان يشتم الحواريين وأمهات المؤمنين ولو أراد الحق لسار فيها وفي ذكرها سيرة علي بن أبي طالب فلا هو جمل عليها قدرة ولا هو رعى للنبي صلى الله عليه وسلم حرمة، وذكورة سنانير الجيران تأكل أولاد الهرة مادمن صغاراً أو فوق الصغار سناوتقتلها وتطلبها أشد الطلب فالام تحرسها وتقاتل دونها مع عجزها عن الذكورة، ثم رجعنا الى قول زرادشت في الفار زعم زرادشت أن الفارة من خلق الله وأن السنور من خلق الشيطان فقيل للمجوسي على أصل قولكم أن يكون الشيء الذي خلق الله خيراً كله ونفعا كله وموفقا كله ويكون ما خلق الشيطان على خلاف ذلك ونحن نجد عيانا أن الذي قلتم به خطأ رأينا الناس كلهم يرون أن الفار بلاء ابتلوا به فلم يجدوا بدا من الاحتيال لصرف مضرته كالداء النازل يلتمس له الشفاء ثم وجدناهم قد أقاموا السنانير بنات عرس ثم نصبوا لها ألوان الصيادات وصنعوا لها ألوان السموم المعجونات

التي اذا أكلت منها ماتت واستفرهوا السنانير واختاروا الصيادات واختاروا السنور على ابن عرس لان ابن عرس يعمل فى الفار والطير عمل الذئب بالغنم فالأول أكثر ما يصنع بالفريسة أن يذبحها ثم لا يأكلها الا في الفرط والسنور يقتل ويأكل والفار أشد منه فزعا وهو الذي نوبل به طباعها وطباعه ، وكما أن الذي يأكل الدجاج كثير والذي جعل بازائه ابن آوي وكما أن الذى يأكل الغنم كثير والذى جعل بازائها الذئب والاسد على النعجة والنعجة من الذئب أشد فرقا والحيات تطالب الفار والجرذان وهى من السنور أشد فزعا وان كان فى الجرذان ما يساوى السنور فانها منه أشد فزعا فان كنتم انما جعلتموه من خلق الشيطان فالشيطان أكثر ، وزعم زرادشت أن السنور لو بال فى البحر لقتل عشرة آلاف سمكة فان كان انما استنصر فى ذمه فى قتل السمك فالسمك أحق أن يكون من خلق الشيطان فكل ما قذفت به التقمه وان غرق انسان فى الماء بحراً كان أو واديا أو بعض ذوات الاربع فالسمك أسرع الى أكله من الضباع والنسور الى الجيف ، وعلى أن اعتلاله على السنور وان بال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة فما يقول فيمن زعم أن الجرذ لو بال فى البحر لقتل مائة ألف سمكة وبأى شيء يتبين منه وهل يتبين لمن كسر هذا القول الظاهر الكسر المكشوف المرئى وهل تقر الجماعة والامم بأن فى الفار شيئاً من المرافق وهل يمازج مضرتها شيء من الخير وان قل ، أو ليست الفار والجرذان هي التي تأكل كتب الله تعالى وكتب العلم وكتب الحساب وتقرض الثياب الثمينة وتطالب كسر نوي القطن وتفسد بذلك اللحف والدوائج والقباب والاقبية والخفاف وتحسو الادهان فان عجزت أفواهها أخرجتها بأذنابها أو ليست التى تثقب الاوكية وتثقب السلال وتأكل الجرب حتى يعلق المتاع فى الهواء اذا أمكن تعليقه وتجلب الى البيوت الحيات للعداوة التى بينها وبين الحيات لحرص الحيات على أكلها فتكون سببا في اجتماعها فى منازلهم واذا كثرت قتلت النفوس ، وقال ابن أبي العجوز لو لا مكان الفار لما أقامت الحيات فى بيوت الناس الا ما لا بد له من الاقامة وتقتل النفس والنحل وتهلك العلف والزرع وربما أهلكن الفراخ كله وحملن شعير الكرس

وبره أو ليس من أخلاقها اجتذاب فتائل المصابيح رغبة في تلك الادهان حتى ربما جذبتها جهلا وفي طرفها الآخر السراج يستوقد فتحترق بذلك القبائل الكثيرة بما فيها من الناس والاموال والحيوان ، وهي بعد أكل البيض وأصناف الفراخ من الحيات لها فكيف لم تكن من هذه الجهة من خلق الشيطان ، هذا وبين طباعها وطباع الانسان منافرة شديدة ووحشة مفرطة وهي لا تأنس بالناس وان طالت معاشرتها لهم والسنور آنس الخلق بهم ! وكيف تأنس بهم وهم لا يغفلون عن قتلها ما لم تقلع عن مساءتهم فلو كانت مما يؤكل لكان في ذلك بعض المرافق فكيف وانها لتلقى في الطرق ميتة فما يعرض لها الكلب الجائع ، فالامم كلها على التأذى منها واتخاذ السنانير لها وزرادشت بهذا العقل دعي الناس الى نكاح الامهات والتوضي بالابوال والى التوكيل في نيك المغيبات والى اقامة سوارست وصاحب الحائض والنفساء ولو لا أنه صادف دهراً في غاية الفساد وأمة في غاية البعد من الحرية ومن الغيرة والانفة ومن التقزز والتنظف لما تم له هذا الامر ، وقد زعم ناس أن ذلك انما كان وانما تم لانه بدأ بدعاء الملك على قدر ما عرف من طباعه وشهوته وخلقه فكان الملك هو الذي حمل على ذلك رعيته ، والذي قال هذا القول ليس يعرف من الامور ما تأتى به العامة لانه لا يجوز أن الملك حمل العامة على ذلك الا بعد أن يكون زرادشت ألفي على ذلك الفساد أجناد الملك ولم يكن يقوى على العامة بأجناده وبعشرة أضعاف أجناده الا أن يكون في العامة عامة من الناس يكونون أعوانا للأجناد على سائر الرعية وعلى أن الملوك ليس لها في مثل هذه الامور علة تدعو الى المخاطرة بملكها وانما غاية الملوك كل شيء لا بد للملوك منه فأما ما فضل عن ذلك فانها لا تخاطر بأصول الملك تطلب الفضول الامن كان ملكه في نصاب امامة وامامته في نصاب نبوة فانه يتبع كل شيء توجبه الشريعة وان كان ذلك سبيل الرأى لان الذى يشرع الشريعة أعلم بغب تلك المصلحة وقد ينبغي أن يكون ذلك الزمان أفسد زمان وذلك الاهل كانوا شر أهل ولذلك لم تر احدا ذا دين تحول الى المجوسية عن دينه ولم يكن ذلك المذهب الا في ضعفة من أهل فارس والجبال وخراسان كلها فارسية فان عجبت من استسقاطي لعقل كسرى

ابرويز وآبائه واحبابه وقرابته وكتابه وأطبائه وحكمائه واساورته فانى أقول فى ذلك قولا يعرف به انى ليس الى العصبية ذهبت، إعلم انى لم أعن بذلك القول الذين ولدوا بعد على هذه المقالة ونشؤا على هذه الديانة وغذوا بهذه النحلة وربوا بهذه الملة فقد علمنا جميعا أن عقول اليونانية فوق عقول الديانة بالدهرية والاستبصار فى عبادة الكواكب وعقول الهند فوق العادة بطاعة البد وعبادة البدة وعقول العرب فوق الديانة بعبادة الاصنام والخشب المنجورة والحجر المنصوب والصخرة المنحوتة فداء المنشأ والتقليد داء لايحسن علاجه جالينوس وتعظيم الكبراء وتقليد الاسلاف وإلف دين الآباء والانس بما لا يعرفون غيره يحتاج الى علاج شديد ، والكلام في هذا يطول فان آثرت أن تتعجب حتى دعاك التعجب الى ذكر ابرويز فاذكر سادات قريش فانهم فوق كسرى وآل كسري قال المحتج للسنانير قد قالوا أبر من هرة وأعق من ضب وهذا قول الذين عاينوها تأكل أولادها وزعموا أن ذلك من شدة الحب لها وقال بعضهم انما يعتريها ذلك من جنون يعتريها عند الولادة وجوع يذهب معه علمها بفرق مابين اجرائها واجراء غيرها من الاجناس ولانها لو أشبعت وأطعمت شطر شبعها لم تعرض لاولادها فالرد على الامم أمثالها عمل مسخوط ،والعرب لاتتعصب للسنور على الضب فيتوهم عليها فى ذلك خلاف الحق وانما هذا منكم على جهة قولكم فى السنور اذا بحث لنجوه ثم ستره ثم عاود ذلك المكان بالشم فان وجد رائحة زاد عليه بالتراب فقلتم ليس الكرم وستر القبيح أراد وانما أراد تأنيس الفار فنحن لاندع ظاهر صنيعه الذي لاحكم له الا الجميل ونقضى بمايدعى مدع من تصاريف الضمير وعلى أن الذي قلتموه ان كان حقا فالذى أعطيتموه من فضيلة التدبير أكثر مما سلبتموه من فضيلة الجميل ، قال والعيون التى تسرج بالليل عيون الاسد والافاعي والسنانير والنمور والاسد سحر العيون وعيون منها زرق ومنها ذهبية كعيون أحرار الطير وعتاقها وعيون الافاعي بين الزرق والذهبية وقال حسان بن ثابت

ترى كأن الشمس فى حجراته * نجوم الثريا أو عيون الضياون

الضيون السنور واذا قال الناس ثوب أزرق فانهم يذهبون الى لون واحد واذاوصفوا

بذلك العين وقع على لونين لان البازى ليس أزرق وكذلك العقاب والزارق وكل شيء ذهبي العين فاذا قالوا سنور أزرق ذهبوا الى الوان الثياب والى الوان عيون البزاة وقال صحار العبدى حين قال له معاوية يا أزرق قال البازى أزرق وأنشد

ولا عيب فيها غير شكلة عينها * كذاك عتاق الطير شكل عيونها

والذهب قد يقال له أصفر ويقال له أحمر، وقال بعض بني مروان لبعض ولد متمم بن نويرة يا أحمر قال الذهب أحمر فلذلك زعم ان عتاق الطير شكل عيونها وقال الاخطل

وما زالت القتلى تمار دماؤهم * بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

فالشكلة عندهم تقع على الصفرة والحمرة اذا خالطها غيرها فمن الزرق صحار العبدي وعبد الرحمن ابنه وداود بن متمم بن نويرة والعباس بن الوليد بن عبد الملك ومروان ابن محمد بن مروان وسعيد بن قيس الهمداني وزرقاء اليمامة وهي عنز من بنات لقمان ابن عاديا، ومن الزرق ممن كانوا يتشاءمون به قيس بن زهير وكان بكراً وابن بكرين وكانت البسوس زرقاء بكرا بنت بكرين ولهما حديث لا أحقه وكانت الزرقاء بكرا والزرق العيون من بنى قيس بن ثعلبة منهم المرقشان وغيرهما والحمر الحماليق من بني شيبان وكان النعمان أحمر العينين أحمر وفيه يقول أبو قردودة حين نهى ابن عمار عن منادمته

انى نهيت ابن عمار وقلت له * لا تأمنن أحمر العينين والشعره
ان الملوك متى تنزل بساحتهم * تطر بنارك من نيرانهم شرره
ياجفنة كازاء الحوض قد هدموا * ومنطقا مثل وشي اليمنة الحبره

وقال عبد الله بن همام السلولى

ولا يكونن مال الله مأكلة * لكل أزرق من همدان مكتحل

﴿وقال آخر﴾

لقد زرقت عيناك يا بن مكعبر * كما كل ضبى من اللؤم أزرق

وفى باب آخر يقول زهير

فلما وردن الماء زرقا جمامه * وضعن عصى الحاضر المتخيم

وقال يونس لم أر قرشياً قطاً أحمر عروق العينين الا كان سيداً شجاعاً ، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أشهل العينين ضليع الفم ، قال ونزل أبو الرعل الحربى على بعض قرى انطاكية فلقي من جرذانها شراً فدعا عليهم بالسنانير فقال

يارب شعب يرى الاستار وجههم * ومنزل الحكم فى طه وطسم
أتح لشيخ ثوى بالشام مغتربا * نائى النصير بعيد الدار مهموم
تكنفته قريبات الخطى ذكر * وقص الرقاب لطيفات الخراطيم
حجن المخالب والانياب شابكة * غلب الرقاب رحيبات الحيازيم
ثاروا لهن فما ينفك من قنص * لكل ذيالة مقاء علجوم *
حتي أبيت وزادي غير منمكم * على النزيل ولا كوري بمكوم

وأنشدنى ابن أبى كريمة ليزيد بن ناجية السعدي سعد بن بكر وكان لتى من الفار جهداً فدعا عليهم بالسنانير فقال

أزهير مالك لا يهمك ما بي * أخزى اله محمد أصحابى *
كحل العيون صغيرة آذانها * خنس الحنادس يجتوون جرابى
شم الانوف كريح كل بغية * يلحظن لحظ مروع مرتاب
وكز الجباه تدرعت أبدانها * صمل الرؤس طويلة الاذناب
شخت المخالب والانايب والشوى * حل الحصون رحيبة الاقراب
أسقى الاله بلادهن سحائبا * غر البشام بعيدة الاطناب
ترمى بعرس كالليوث تسربلت * منها الجلود مدارع السنجاب
غلب الرقاب لطيفة أعجازها * فطح الجباه رهيفة الانياب
* متهيآت للطراد كأنها * آساد بيشة أدمجت بخضاب

ونحن نظن ان هذه القصيدة من توليد ابن كريمة والسنور ثاقب البصر بالليل وكذلك الفارة سوداء العينين وهي مع ذلك ثاقبة البصر والسنور ضعيف الهامة وهامته من مقاتله ولا يستطيع ان يذوق الطعام الحار ولا الحامض ، قال وللسنور فضيلة أخرى انه كثير الاسماء القائمة بأنفسها غير المشتقات لانها تجمع الصفات والاعمال بل هي

أسماء قائمة من ذلك القط والهر والضيون والسنور وليس للكلب اسم سوى الكلب ولا للديك اسم الا الديك وليس للأسد اسم الا الاسد والليث والباقي ليست بأسماء مقطوعة ولا تطلع في كل مكان وكذلك الخمر فاذا قالوا قهوة ومدامة وسلاف وأشباه ذلك فانما تلك أسماء مشتركة وكذلك الضيف وليس هذه الاسماء عند العامة كذلك ، قال وعلى السنور من المحبة ولا سيما من محبة النساء ومعه من الالف والأنس والدنو والمضاجعة والنوم فى اللحاف الواحد ما ليس مع الكلب ولا مع الحمام ولا الدجاج ولا مع شئ مما يعايش الناس ، هذا ومنها الوحشي والاهلي فلو لا قوة حبه للناس لما كان في هذا المعني أكثر من الكلاب والكلاب كلها أهلية ، قالوا وليس بعجيب أن يكون الكلب طيب الفم لكثرة ريقه ولبعد قرابته ومشاكلته للأسد وانما العجب فى طيب فم السنور وكأنه في الشبه من اشبال الاسد ، ومن يقبل أفواه السنانير واجرائها من الحرائر وربات الحجال والمخدرات والمطهمات أكثر من أن يحصى لهن عددوا الكل يخبرن عن أفواههن بالطيب والسلامة مما عليه أفواه السباع وأفواه ذي الجرة من الانعام وما رأينا وضيعة قط ولا رفيعة قبلت فم كلب أو ديك وما كان ذلك من حارس قط ولا من راع ولا من كلاّب ولا من مكاب ولا من مهارش والسنور يخضب وتصاغ له الشنوف والاقرطة ويتحف ويدلل ومن رأى السنور كيف يختل العصفور مع حذر العصفور وسرعة طيرانه علم أن جهته في الصيد جهة الفهد والاسد ومن رآه كيف يرتفع بوثبته الى الجرادة فى حال طيرانها علم أنه أسرع من الجرادة وله اهاب فضفاض وقميص من جلده واسع يموج فيه بدنه وهو مما يضع لسعة ابطيه ولو شاء أن يعقد صلبه ويثني أوله على آخره كما يثني المخراق أو يثني قضيب الخيزران ويوصف الفرس بأنه رهل اللبان رحيب الاهاب واسع الآباط وعيب الحمار للكزازة التى فى منكبيه وانضمامها الى إبطيه وضيق جلده وانما يعدو بعنقه، قالوا وللسنور تجار وباعة ودلالون وناس يعرفون بذلك ولها راضة وقال السندى بن شاهك ما أعيانى أحد من أهل الاسواق ومن التجار والباعة والصناع كما اعيانى أصحاب السنانير يأخذون السنور الذى يأكل الفراخ والحمام ويواثب اقفاص الفواخيت

والوراشين والدباس ويدخلونه فى دن ويسدون رأسه ثم يدحرجونه على الارض حتى يشغله الدوار ثم يدخلونه فى قفص فيه الفراخ والحمام فاذا رآه المشتري رأى شيئاً عجيبا وظن أنه قد ظفر بحاجته فاذا مضى به الى البيت مضى بشيطان فيجتمع فيه بليتان احداهما أكل طيوره وطيور الجيران والثانية أنه اذا ضرى عليها لم يطلب سواها ومررت يوما وانا أريد منزل البكاء بالاساورة واذا امرأة قد تعلقت برجل وهي تقول بيني وبينك صاحب المسلحة فانك دللتني على السنور وأعطيتك على دلالتك دانقا فلما مضيت الى البيت مضيت بشيطان قد والله أهلك الجيران بعد أن فرغ منا ونحن منذ خمسة أيام نحتال فى أخذه وهاهو قد جئتك به فرد على دانقي وخذ ثمنه من الذى باعه ولا والله ان تبصر من السنانير قليلا ولا كثيراً قال الدلال انظروا بأى شئ تستقبلني ولا والله ان فى ناحيتنا فتي هو أبصر بسنور مني وذلك من منّ سيدى ومولاى فقلت للدلال ولا والله ان فى هذه الناحية فتى هو أشكر لله منك وناس يأكلون السنانير ويستطيبونها وليس يأكل الكلب واحد الا فى الفرط ، والعامة تزعم ان من اكل السنور الأسود لم يعمل فيه السحر والكلب لايؤكل والديك خبيث اللحم عضله الا أن يخصي وتلك حيلة لاهل حمص وليست عندنا فيه قالوا ، وزعم بعض أهل الكتاب وبعض أهل التفسير ان السكينة التي كانت فى تابوت موسي رأس هر قالوا وقلتم فى الاشتقاق من اسم الكلب كليب وكلاب ومكلبة ومكالب وأصاب القوم كلبة الزمان مثل هلبة وهي الشدة والكلاب واحدها كلب وكلاب وكليب كما يجمع النجب نجيب والكلاب بتثقيل اللام صاحب الكلاب والمكلب بتثقيل اللام وضم الميم الذي يعلم الكلاب الصيد وقال طفيل الغنوى

تبارى مراحيها الزجاج كانه * ضراء أحست نبأة من مكلب

﴿ وقال آخر ﴾

خوص تراح الى الصداح اذا غدت * فعل الظباء تراح بالكلاب *

والكلب داء يقع فى الابل فيقال كلبت الابل تكلب كلبا وأكلب القوم اذا وقع فى ابلهم الكلب ويقال كلب الكلب واستكلب اذا ضري وتعوّد أكل الناس ويقال

للرجل اذا عضه الكلب الكلب قد كلب الرجل ويقال ان الرجل الكلب يعض انسانا آخر فيأتون رجلا شريفا فيقطر لهم من دم اصبعه فيسقون ذلك الكلب فيبرأ وقال الكميت

أحلامكم لسقام الجهل شافية * كما دماؤكم تشفي من الكلب

قالوا فقد يقولون للسنور هر وللانثى هرة ويقال من ذلك هر الكلب يهر هريراً وتسمي المرأة بهرة ويكني الرجل أبا هر وأبا هريرة وقال الاعشى

ودع هريرة ان الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل

﴿ وقال امرؤ القيس ﴾

دار لهر والرباب وفرتنى * ولميس قبل تفرق الايام

﴿ وقال ابن أحمر ﴾

ان امرأ القيس على عهده * في إرث ما كان بناه حجر
بنت عليه الملك اطنابها * كأس رويناه وطرف طمر
يلهو بهند فوق انماطها * وفرتني تسعى اليه وهر

قال وللهرة ثمانية اطباء تقابل أربعة أو لهن بين الابط والصدر وآخرهن عند الرفغ وتحمل خمسين يوما وتضع جراها عميا وليس بين تفتيحها وتفتيح الكلاب الا اليسير، والهرة من الخلق الذى يؤثر على نفسه ولها فضيلة في ذلك على جميع الحيوان الا الديك الا ان الديك لا يفعل ذلك الا ما دام شاباً ولا يفعل ذلك بأولاده ولا يعرفهم وانما يفعل ذلك بالدجاج على غير الرواج وعلى غير القصد لواحدة يقصد اليها بالهوى، والهرة تاتي اليها الشيء الطيب وهى جائعة فتدعو أولادها وقد استغنين عن اللبن وأطقن الاكل والتقمم والتكسب، ثم حتي ربما فعلت ذلك بهن وهم في العين يشبهنها في العظم فلا تزال ممسكة عن الشحمة مع جوعها ومع شره السنانير حتي يقبل ولدها فيأكلها، ورجل من أصحابنا اتمنوه على مال فشد عليه فأخذه فلما لامه بعض نصحائه قال يطرحون اللحم قدام السنور فاذا أكله ضربوه يضرب بشره السنور مثلا لنفسه، وربما رموا اليها بقطعة اللحم فتقصد نحوها حتى تقف عليها فاذا أقبل ولدها تجافت عنها

وربما قبضت عليها بأسنانها فرمت بها اليه بغير شم الرائحة وذوق الطعم ، والهرة تنقل أولادها فى المواضع من الخوف عليها ولا سبيل لها في حملها الا بفيها وهى تعرف دقة أطراف أنيابها وذرب أسنانها فلها بتلك الانياب الحداد ضرب من القبض عليها والعض لها بمقدار تبلغ به حاجتها ولا تؤثر فيها ولا تؤذيها ، فأما كفها والمخالب المعقفة الحداد التى فيها فانها مصونة فى اكمامها فى وقعت كفها على وجه الارض صارت في صون ومتى أرادت استعمالها نشرتها وافرة غير مكلومة ولا مأثومة كما وصف أبو زبيد كف الاسد

بحجن كالمحاجن فى فتوح * تقيها قصة الارض الدخيس

كذلك مخالبها ومخالب الاسد وأنياب الافاعي وقال الراجز وهو جاهلى

حتي دنا من رأس فضفاض أصم * مخاضه بين الشراك والقدم

مذرب أخرجه من جوف كم

وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الاسد وان الخنزير خلق من عطسة الفيل لان أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا سأل ربه الفرج فأمره أن يأمر الاسد فيعطس فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى خرج الذكر من المنخر الايمن والانثى من المنخر الايسر فكفاهم مؤنة الجرذان ولما تأذوا برائحة نجوهم شكوا ذلك الى نوح فشكي الى الله تبارك وتعالى فأمره أن يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير فكفوهم مؤنة رائحة ذلك النجو ، وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص وقد أنكرنا أن يكون الفار تخلق الا فى أرحام اناثها من أصلاب ذكورها ومن أرحام بعض الارضين كطينة القاطول فان أهلها يزعمون أنهم رأوا الفارة لم يتم خلقها بعد وان عينيها لتبصان ثم لا يريمون حتى يتم خلقها وتشتد حركتها ، وقالوا لا يجوز لشئ خلق من الحيوان يخلق من غير الحيوان ولا يجوز أن يكون شيء له فى العالم أصل أن يؤلف الناس أشياء تستحيل الى مثل هذا الاصل ، فانكروا فى هذا الوجه تحويل الشب ذهبا والزيبق فضة ، وقد علمنا ان للنوشادر فى العالم أصلا موجوداً وقد يصعدون الشب ويدبرونه

حتى يستحيل لحجر النوشادر ولايغادر منه شيئاً في عمل ولا بدن ويدبرون الرماد والبليا فتستحيل حجارة سوداء اذا عمل منها أرحاء كان لها في الربيع فضيلة ، قالوا وللمرد اسنج في العالم أصل قائم والرصاص يدبر فيستحيل مرداسنجا وللتوتيا أصل قائم فيدبرون أقليميا النماء فتستحيل توتيا وكذلك المسالة أصل قائم وقد عمله الناس وكذلك الحجارة السود للطحين وغير ذلك فأما قولهم لايجوز ان يكون شيء من الحيوان يخلق من ذكر وأنثى فيجيء من غير ذكر وأنثى فقد قلنا في جميع ذلك في صدر كتابنا هذا بما أمكننا ، وقال الحيات كلها تعوم الا الافاعى فانها لايعوم منها الا الجبليات قال والحية ان رأت حية ميتة لم تأكلها ولا تأكل الفار ولا الجرذان الميتة ولا العصافير الميتة مع حرص الحية عليها ولا تأكل الا لحم الشيء الحي الا أن يدخله الحواء في حلوقها ادخالا فأما هي من تلقاء نفسها فان وجدته وهى جائعة لم تأكله فينبغي ان يكون صاحب المنطق انما عنى بقوله أخبث ما يكون ذات السموم اذا أكل بعضها بعضاً الافاعى دون كل شيء وهم لايعرفون ذلك في الحيات الا للاسود فانه اذا كان مع الافاعي في جونة فيجوع فيبتلعها وذلك اذا أخذها من قبل رأسها ومتى رام ذلك من غير جهة الرأس فعضته الافعي قتلته ،وزعموا ان الحية لاتصاعد في الحائط الاملس وغير الاملس فانما يقول ذلك أصحاب المخارق والذين يستخرجون الحيات بزعمهم ويشمون أراييح أبدانها من أطراف القصب اذا مسحوها في ترابيع البيوت وقالوا وقد تصعد في الدرج وتحاى السقف

القول في العقرب

وسنذكر تمام القول في العقرب اذ كنا قد ذكرنا من شأنها في باب الفار ولما قيل ليحيي بن خالد النازل في مربعة الاحنف وزعموا أنهم لم يروا رجلا لم يختلف الى السياسات ولا رجلا مسلما أو نصرانيا ولا رجلا لم ينصب نفسه للتكسب بالطب كان أطب منه فلما قيل ان القس قال أنا مثل العقرب أضر ولا انفع قال ما أقل علمه بالله عز وجل لعمري انها لتنفع اذا شق بطنها ثم شد على موضع اللسعة فانها

حينئذ تنفع منفعة بينة ، والعقرب تجعل فى جوف فخار مشدود الرأس مطين الجوانب ثم يوضع الفخار فى تنور فاذا صارت العقرب رماداً سقي من ذلك الرماد من به الحصاة مقدار نصف دانق وقال حنين وقد يسقى منه الدانق وأكثر فيفتت الحصاة من غير أن يضر بشيء من الاعضاء الصحيحة ، وقال يحيي وقد تلسع أصحاب ضروب من الحيات العقارب فيفيقون وتلسع الافاعى فتموت ومما يلسع بعضها بعضاً فيموت الملسوع وهي من هذا الوجه تكفي الناس مؤنة عظيمة وتلقى العقرب فى الدهن وتترك فيه حتي يأخذ الدهن منها ويعتص ويجتذب قواها كلها بعد الموت فيكون ذلك الدهن يفرق الاورام الغلاظ وقد عرف ذلك حنين وأنها لا تسبح ولا تتحرك اذا ألقيت فى الماء كان الماء ساكنا أو جاريا والعقرب تطلب الانسان وتقصد نحوه فاذا قصد نحوها فرت وهربت وتقصد أيضا نحو الانسان فاذا ضربته هربت هرب من قد أساء وتعلم أنها مطلوبة والزنابير تطلب من يعرض لها ويقصد نحوها بعينه ولا تكاد تعرض للكاف عنها وبين العقارب والخنافس مودة والمودة غير المسالمة والمسالمة أن يكون كل واحد من الجنس لا يعرض للآخر بخير ولا شر بعد أن يكون كل واحد منهما مقربا لصاحبه والعداوة أن يعرض كل واحد منهما لصاحبه بالشر والاذي والقتل ليس من جهة أن أحدهما طعام لصاحبه والاسد ليس يثب على الانسان كالحمار والبقرة والشاة من جهة العداوة وانما يثب عليه من طريق طلب المطعم ولو مر به وهو غير جائع لم يعرض له والاسد والنمر على غير ذلك ولكن يقال ان بين النمر والاسد مسالمة والمودة تكون كما بين العقارب والخنافس فان بعضها يتألف بعضا وليست تلك بمسالمة وكما بين الحيات والوزغ فانها تتساقي السم وتتزاق كما بين ضرب من العقارب وأسود سالخ والاسود ربما جاع فى جونة الحواء فيأكل الافعى وربما عضته الافعى فقتلته ، وريح العقارب اذا شويت مثل ريح الجراد وما زلت أظن أن الطعم أبداً يتبع الرائحة حتى حقق ذلك عندى بعض من يأكلها مشوية ونية أنه ليس بينها وبين الجراد الأعرابى السمين فرق ، وزعم بختيشوع بن جبريل أنه عاين الخرق الذي فى ابرة العقرب وان كان كما قال فما فى الارض أحد أبصر منه وفى

العقارب أعجوبة أخرى لانه يقال انها مائية الطباع وانها من ذوات الدر والنسل كما يعتري ذلك السمك والخنزير والضب في كثرة الخنابيص ، قال ومع ذلك ان حتفها في أولادها اذا بلغن وحان وقت الولادة يأكلن جلد بطنها حتى اذا خرقنه خرجن منه وماتت الام وقد يطأ الانسان على العقرب وهي ميتة فتغترز ابرتها في رجله فيلقى الجهد وربما أمرضت وربما قتلت قال وفي أشعار اللغز قيل في أكل أولاد العقرب بطن الام

وحاملة لا تحمل الدهر حملها * تموت ويحيى حملها حين تعطب

والعقارب القاتلة تكون في موضعين شهرزور وقرى الاهواز الا أن القواتل التى بالاهواز ولم نذكر عقارب نصيبين لان أصلها فيما لا يشكون فيه من شهرزور حين حوصر أهلها ورموا بالمجانيق وبكيزان محشوة من عقارب شهرزور حتى توالدت هناك فأعطى القوم بأيديهم ، قال والعقارب تستخرج من بيوتها بالجراد تشد الجرادة في طرف عود ثم تدخل الجحر فاذا عاينتها تعلقت بها فاذا أخرج العود خرجت العقرب وهي متعلقة بالجرادة ، فأما ابراهيم بن هانئ فأخبرني انه كان يدخل في جحرها عود كراث فلا تبقى فيه عقرب الا تبعته ، وألسنة الحيات كلها سود وألسنة الافاعى حمر الا انها مشقوقة وسنذكر عقارب الشتاء وعقارب الحر وكل شيء من هذا الباب ولكنا نبدأ بذكر حيات الاهواز ، ذكرتم ان أقتلها عقارب عسكر مكرم وانها متى ضربت رجلا فظن ان تلك العضة عضة نملة أو وخز شوكة فنال من اللحم تضاعف ما به وربما باتت مع الرجل في ازاره فلم تضربه وهي لا تدب على شيء له عفن ولا تدب على المسوح وما أكثر ما تأوي في أصول الآجر الذى قد أخرج من الاساس وكان أهل العسكر يرون ان من أصلح ما تعالج به اللسعة ان يحجم وكان الحجام لا يرضى الا بدنانير لان ثناياه ربما نصلت وجلدة وجهه ربما تنطف من السم الذي يرتفع الى فيه بمصته وجذبته من أجناب المحاجم حتى عمدوا بعد ذلك الى شيء من قطن فحشوا به تلك الانبوبة فاذا جذب بمصه فارتفع اليه من بخار الدم أجزاء من ذلك السم تعلقت بالقطن ولم تنفذ الى فيه والقطن ليس يمنع من قوة المص ، ثم وقعوا بعد ذلك على حشيشة فوجدوا فيها الشفاء ، ومن أعاجيب ما في العقرب أنا وجدنا عقارب القاطول يموت

بعضها عن لسع بعض ثم لا يموت عن لسعها شيء غير العقارب ونجد العقرب تلسع انسانا فيموت الانسان وتلسع آخر فتموت هي فدل ذلك على أنها كما تعطى تأخذ وان للناس أيضاً سموما غريبة، ولذلك صار بعضها اذا عض قتل ، ومن أعاجيبها أنها تضرب الطشت والقمقم فتخرقه وربما ضربته فتثبت فيه ابرتها ثم تنصل حتى تبين منها والعنبر يقذفه البحر الى عبريه فلا يأكل منه شيء ولا ينقره طائر بمنقار الا نصل فيه منقاره فاذا وضع عليه رجليه نصلت أظفاره فان كان قد أكل منه قتله ما أكل وان لم يكن أكل فانه ميت لا محالة لانه اذا بقي بغير منقار ولم يكن للطائر شيء يأكل به مات، والبحريون والعطارون يخبروننا أنهم ربما وجدوا فيه المنقار والظفر وان البال يأكل منه اليسير فيموت والبال سمكة طولها أكثر من خمسين ذراعا ، ومن أعاجيب العقارب انها تلسع الافعى ولا تموت وهي تلسع بعض الناس فتموت هي ولا ينال الملسوع منها من المكروه قليل ولا كثير ويزعم العوام ان ذلك يكون لمن لسعت أمه العقرب وهو حمل في بطنها وقد لسعت عقرب رجلا مفلوجا فذهب عنه الفالج وقصة هذا المفلوج معروفة وقد عرفها طبيبنا وغيره من الاطباء وتختلف سموم العقارب بأسباب منها اختلاف أجناسها كالجرارة وغيرها ومنها اختلاف الترب كفرق ما بين جرارات عقارب شهرزور وعسكر مكرم وتختلف مضرة سمومها على قدر مواضع اللسعة وعلى قدر اختلاف ما بين النهار وعلى قدر ما صادف عليه الملسوع من غذائه فهي تفتح منافسه وعلى قدر ما يصادف عليه الملسوع من الحبل وغير الحبل وعلى قدر لسعها في أول الليل عند خروجها من جحرها ، وأشد من ذلك أن تلسع أول ما تخرج من جحرها بعد أن أقامت فيه يومها فان ماسرجويه قال فلذلك اختلفت وجوه العلاج فصار ضرب من العلاج يفيق عنه انسان ولا يصلح لآخر ، وخبرني ثمامة عن أمير المؤمنين أنه قال لبختيشوع بن جبريل وسلمويه وابن ماسويه أن الذباب اذا دلك على موضع لسعة الزنبور سكن فلسعني زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن الا في قدر الزمان الذي كان يسكن فيه من غير علاج فلم يبق في يدي منهم الا أن يقولوا ان هذا الزنبور كان حنقا غاضبا ولولا هذا العلاج لقتلك ، وكذلك هم اذا سقوا دواء

فصر أو قطعوا عرقا فصر قالوا أنت مع هذا الملاج الصواب تجد ما تجد فلولا ذلك الملاج كنت الساعة فى نار جهنم ، وقيل لى وقرأت فى كتاب الحيوان أن ريح السذاب يشتد على الحيات فألقيت على الافاعى نور السذاب فما كان عندها الا كسائر البقل فلو قلت لهم فى هذا شيئاً لقالوا الحيات غير الافاعى وهذا باطل الافاعى نوع من الحيات وكلهم قد عم ولم يخص، وجميع الحشرات والاحناش والعقارب وهذه الذبابات التي تعض وتلسع تكمن فى الشتاء الا النمل والذر والنحل فانها قد ادخرت ما يكفيها وليست كغيرها مما تثبت حياته مع ترك الطعم وللعقرب ثمانى أرجل وهي حريصة على أكل الجراد وكذلك الحيات وما أكثر ما تلدغ وتنهش صاحب الجراد ، ومن عجيب سم الافاعى ما أخبرنى بعض من يخبر بشأن الافاعي قال كنت بالبادية ورأيت ناقة وفصيلها يرتضع من أخلافها اذ نهشت الناقة على مشافرها أفعى فبقيت واقفة سادرة والفصيل يرتضع فبيناهو يرتضع اذ خرميتا فكان موته قبل موت أمه من العجيب وكان مرور السم في تلك الساعة القصيرة أعجب وكان ما صار من فضول سمها فى لبن الضرع حتي قتل الفصيل قبل أمه عجب آخر والمرأة المرضع تشرب النبيذ ويسكر عن لبنها الرضيع وتشرب دواء يمشى فيمتري الرضيع الخلفة فلذلك تختار الحكماء لاولادهم الظئر البرية من الادواء فى عقلها وفى بدنها وتوهموا ان اللبن انما نجع في الفصيل لقرابة ما بين اللبن والدم فصار ذلك السم أسرع اليه منه الى أمه ولعل ضعف الفصيل قد أعان أيضا على ذلك , قال أبو عبيدة لسعت اعرابيا عقرب بالبصرة فخيف عليه واشتد جزعه فقال بعض الناس ليس شئ خير له من أن تغسل له خصية زنجي عرق وكانت ليلة عميقة فلما سقوه قطب فقيل طعم ما ذا تجد قال طعم قربة جديدة ، وخبرنى محمد وعلى ابنا بشير ان ظئرا لسليمان بن دباس لسعتها عقرب فملأت الدنيا صراخا فقال سليمان أطلبوا لها هذه العقرب فان دواءها ان تلسعها لسعة أخري فى ذلك المكان فقالت العجوز قد برئت وقد سكن وجعي لا حاجة لي فى هذا الملاج قال فأتوه بعقرب لا والله ما ندرى أهي تلك أم غيرها فأمر بها فأمسكت فقالت نشدتك بالله وبالابن فأرسلها عليها فلسعتها فغشي عليها ومرضت وتساقط شعر

رأسها فقيل لسليمان في ذلك فقال يامجانين لا والله ان ردعليها روحها الا اللسعة الثانية ولولا هي لقد كانت ماتت

باب القول في القمل والصؤاب

وسنقول في القمل والصؤاب ماوجدنا تمكينا من القول ان شاء الله تعالى، ذكروا عن اياس بن معاوية أنه زعم أن الصئبان ذكورة القمل والقمل اناثها وأن القمل من الشكل الذي يكون اناثه أعظم من ذكورته وذكروا عنه أنه قال وكذلك الزرارق والبزاة جمل البزاة في الاناث وليس فيما قال شيء من الصواب والتسديد وقد خبرنا عن حكايته في الشبوط حين جعله كالبغل وجعله مخلوقا من منى البني، والقمل يعتري من العرق والوسخ اذا علاهما ثوب أو ريش أو شعر حتي يكون لذلك المكان عفن وخموم، والقملة تكون في رأس الاسود الشعر سوداء فاذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة كانت حمراء وان كان الخاضب ناصل الخضاب كان لونها شكلة الا أن يستولى على الشعر النصول فتكون بيضاء وهذا شيء يعترى القمل كما تعتر الخضرة دود البقل وجراده وذبابه وكل شيء يعيش فيه وليس ذلك بأعجب من حرة بنى سليم فان من طباع تلك الحرة أن يسود كل شيء يكون فيها من انسان أو فرس أو حمار أو شاة أو بعير أو طائر أو حية ولم نسمع ببلدة أقوي في ذلك المعنى من بلاد الترك فانها تصور ابلهم وخيلهم وجميع ما يعيش فيها على صورة الترك، والقمل يعرض لثياب كل انسان اذا عرض لها الوسخ والعرق والخموم الاثياب المجذمين فانهم لا يقملون واذا قمل انسان وأفرط عليه ذلك زأبق رأسه وان كان في رأسه أو جسده وان كان في ثيابه فينتشر، وقال أبو قطيفة لأصحابه أتدرون ما بذرأ القمل قالوا لا قال ذاك والله من قلة عنايتكم بما يصلح أبدانكم بذرأ القمل الفا، فأما ثمامة فحدثني عن يحي بن خالد البرمكي ان شيئين يورثان القمل أحدهما الاكثار في اللبس والآخر بخار اللبان اذا القي على الجمر وربما كان الانسان قمل الطباع وان تنظف وتعطر وأبدل الثياب كما عرض لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام حتي

استأذنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى لباس الحرير فأذن لهما فيه ولولا أنهما كانا فى حد ضرورة لما أذن لهما فيه مع ما قد جاء في ذلك من التشديد فلما كان فى خلافة عمر رضي الله تعالى عنه رأى عمر على بعض بنى المغيرة من أخواله قميص حرير فعلاه بالدرة فقال المغيري أوليس عبد الرحمن بن عوف يلبس الحرير قال وأنت مثل عبد الرحمن لا أم لك واحتاج أصحابنا الى التسليم من عض البراغيث أيام كنا بدمشق ودخلنا انطاكية فاحتالوا لبراغيثها بالأسرة فلم ينتفعوا بذلك لان براغيثهم تمشى ، وبراغيثهم نوعان الابجل والبرد ، انما سموا ذلك الجنس على شبيه بما حكى لى ثمامة عن يحيي بن خالد البرمكي فان يحيي زعم ان البراغيث من الخلق الذي يعرض له الطيران فيستحيل بقاً كما يعرض الطيران للنمل وكما يعرض الطيران للدعاميص فان الدعاميص اذا انسلخت صارت فراشا ، فكان أصحابنا قد لقوا من تلك البراغيث جهداً ، وكانت له بلية أخرى وذلك ان الذي تسهره البراغيث لا يستريح الا أن يقتلها بالعرك والقتل والى أن يقبض عليها فيرمى بها من فوق السرير فيرى أنهن اذا صرن عشرين كان أهون عليه من أن تكون أحداً وعشرين وكان الرجل اذا رام ذلك من واحد منها انتنت يده وكانوا ملوكا ومثل هذا شديد على مثلهم فمازالوا فى جهد منها حتى لبسوا قمص الحرير الصيني وجعلوها طويلة الابدان والاردان فناموا مستريحين ، والقمل يسرع الى الدجاج والحمام اذا لم يغسل ويكون نظيف البيت ويعرض للقرد ويتولد من وسخ جلد الأسير وما في رأسه من الوسخ ولذلك كانوا يضجون ويقولون أكلني القد والقمل وكانوا يلبدون شعورهم وذلك العمل هو التلبيد والحاج الملبد هو هذا وقال الشاعر

يارب رب الراقصات عشية * بالقوم بين منى وبين ثبير
وخف الرواح تراقصت تمشي بهم * يحملن كل ملبد مأجور

وقال عبد الله بن العجلان النهدى

انى وما مار بالفريق وما * قرقر بالجلهتين من شرب
من شعر كالليل ينبذ بالقمل * وما مار من دم سرب

والمترعتر النسيك يخفر بالبد * ن مجلى الاحزان والنصب

وقال أمية بن أبي الصلت

ساحي أياطلهم لم ينزعوا تفثا * ولم يسلوا لهم قملا وصئبانا

ويروى لم يقربوا تفثا قال الله عز وجل ثم ليقضوا تفثهم وما أقل ما ذكروا النفث في الاشعار والتلبيد ان تأخذ شيئا من خطمى وآس وسرو وشيئا من صمغ فتجعله في أصول شعره وعلى رأسه كي يتلبد شعره ولا يفرق ويدخله الغبار ويخم فيقمل، وكانوا يكرهون تسريح الشعر وقتل القمل وكان ذلك القتل يقل معه القمل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لكعب بن عجرة هل آذاك هوام رأسك وقال ابن الكلبي عيرت هوازن وأسد بأكل الهرة وهو سويق القمل وذلك ان أهل اليمن كانوا اذا حلقوا رؤسهم سيط ذلك الشعر بدرمك الدقيق ويجعلون الدقيق صدقة فكان ناس من الصوكاء وفيهم ناس من قيس وأسد يأخذون ذلك الشعر بدقيقه فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق وأنشد لمعاوية بن أبي معاوية الجرمى فى هجائهم

ألم تر جرما أنجدت وابن بجرة * مع الشعر فى قص الملبد شارع

اذا امرأة جاءت لقول أصب بها * سوى القمل انى من هوازن ضارع

وقال بعض العقيليين ومر بأبي العلاء وهو يتفلى فقال

واذا مررت به مررت بقانص * متصيد فى شرفه مغرور

للقمل حول أبي العلاء مصارع * ما بين مقتول وبين عقير

وكأنهن لدى جيوب قميصه * فذوتوأم سمسم مقشور

ضرج الانامل من دماء قتيلها * حنق على أخرى بعدو مغير

وقال الحسن بن هانئ في أيوب وقد ذهب عنى نسبه وطالما رأيته فى المسجد

من ينأ عنه مصاده * فمصاد أيوب ثيابه

تكفيه فيها نظرة * فتعل من علق حرابه

يا رب محترز بجيب * الردن تكنفه صؤابه

فاشي النكاية غير معلو * م اذا دب انسيابه

أوطامري واثب * لم يجبه عنه وثابه
أهوى له بزاق * مابين أصبعه نصابه
لله درك من أبي * قنص أصابعه كلابه

وفى الحديث ان أكل التفاح وسؤر الفارة ونبذ القملة يورث النسيان وفى حديث آخر ان الذي ينبذ القملة لايكفي الهم ، والعامة تزعم أن لبس النعال السود يورث النسيان وتناول اعرابى قملة دبت على عنقه فنزعها ثم فتل باطن ابهامه وسبابته فقيل له ماتصنع ويلك فقال بأبي أنت وأمى وهل بقى منها الا الاخر شاؤها يعنى جلدتها وقشرتها وكل وعاء خرشاء ، وحدثني سعيد بن جابر قال لما كادت الاجناد تحيط ببغداد من جوانبها قال لنا المخلوع لو خرجنا هكذا الى قطربل على دوابنا ثم رجعنا من فورنا كان لنا فى ذلك تنزه قال فلما صرنا هناك هجمنا على موضع خمارين فرأينا ناساً قد تظافروا فى بعض تلك الحانات فسأل عنهم فاذا هم أصحاب قمار ونرد فبعث في آثارهم وقال لنا أشتهي أن أسمع حديثهم وأرى مجالسهم وقمارهم قال فدخلنا الى موضعهم فاذا تحت النرد قطعة لبد واذا فصوص النرد من طين بعضه مسود وبعضه متروك واذا الكعبان من عروة كوز محككة واذا بعضهم متكئ على دن حان وتحتهم بوارى قد نشرت قال فبينا هو يضحك منهم اذ رأيت قملة تدب على ذيله فتلقتها فأخذتها فرآنى وقد تناولت شيئاً فقال أى شيء تناولت فقلت دويبة دبت على ذيلك من ثياب هؤلاء قال وأى دابة هي قلت قملة قال أرنيها فقد والله سمعت بها قال فتعجبت يومئذ من الأيام كيف ترفع رجلا في السماء وتحط آخر فى الثرى ، قال والقرد يتفلى واذا أصاب قملة رمى بها فى فمه ونساء العوام يعجبهن وضع القمل على الاظفار ورأيت مرة أنا وجعفر بن سعيد بقالا فى العتيقة واذا امرأته جالسة بين يديه وزوجها يحدثها وهى تفلى ثوبها وقد جمعت بين باطن ابهامها وسبابتها عدة قمل فوضعتها على ظهر ابهامها الايسر ثم قلبت لها ظفرها الايمن فشدختها به فسمعت لها فرقعة فقلت لجعفر ثامنعها أن تضعها بين حجرين قال لها لذة في هذه الفرقعة والمباشرة أبلغ عندها فى اللذة قلت فما تكره مكان زوجها قال لولا ان زوجها يعجب بذلك لنهاها وقال ابن ميادة

سقتني سقاة المجد من آل ظالم * بارشية أطرافها في الكواكب
وان بأعلى ذي النخيل أسنة * فعشرين أعياراً شدد المناكب
يشلن باستاه عليهن دسمة * كما شال بالاذناب سم العقارب

باب والبرغوث أسود أحدب نزاء من الخلق الذي لا يمشي وربما قال بعضهم دبيبها من تحتي أشد على من عضها وليس ذلك بدبيب وكيف يمكنه الدبيب وهو ملزق على النطع بجنب جلد النائم ولكن البرغوث خبيث فمتى أراد الانسان ان ينقلب من جنب الى جنب انقلب البرغوث واستلقى على ظهره ورفع قوائمه فدغدغه فيظن من لا علم عنده أنها تمشي تحت جنبه وقد ذكرنا من شأنه في مواضع ولو كان الباب يكبر حتى يكون لك مجموعا ولم تعرفه تكلفت لك جمعه وقال بعض الاعراب

ليل البراغيث أعياني وأنصبني * لا بارك الله في ليل البراغيث
كانهن وجلدي اذ خلون به * قضاة سوء أغاثوا في المواريث

وقال محمد بن أبي القاسم النهشلي

لروضة من رياض الحزن أو طرق * من القرية جود غير محدوث
للنور فيه اذا مج الندي أرج * يشفي الصداع وينفي كل مبعوث
أحلى وأملى لعيني ان مررت به * من كرخ بغداد ذي الرمان والتوث
الليل نصفان نصف للهموم فما * أقضى الرقاد ونصف للبراغيث
أبيت حتى تساميني أوائلها * ارود اخلط تسبيحا بتغويث
سود مداليج في الظلماء مؤذية * وليس ملتمس منها بمشبوث

وقد جعل التوث بالثاء ووجه الكلام بالتاء وتعجيمها نقطتان

﴿ وقال آخر ﴾

لقد علم البرغوث حين يعضني * ببغداد اني بالبلاد غريب

﴿ وقال آخر ﴾

وان امرأ تؤذي البراغيث جلده * وتخرجه من بيته لذليل
الا رب برغوث تركت مجدلا * بأبيض ماضي الشفرتين صقيل

﴿ وقال آخر ﴾

لقيت من البرغوث جهداً ولا أرى * أميراً على البرغوث يقضى ولا يعدى

يقلبني فوق الفراش وبينه * وتصبح آثار تبين فى جلدى

﴿ وقال آخر ﴾

الا يا عباد الله أى قبيلة * اذا ظهرت فى الارض شد مغيرها

فلا الدين ينهاها ولا هي تنتهى * ولا ذو سلاح من معد يضيرها

وقال يزيد بن شيبة الكلابى

وأصبحت سالمت البراغيث بعدما * مضت ليلة مني قليل رقودها

فياليت شعرى هل أزورن بلدة * قليل بها أوباشها وسيدها

وهل أسمعن الدهر أصوات ضمر * تطالع بالركبان صعراً خدودها

وهل أرين الدهر ناراً بارضها * بنفسي وأهلى أرضها ووقودها

تراطن حولى كما ذرشارق * ببغداد انباط القرى وعبيدها

﴿ وقال آخر ﴾

لا بارك الله فى البرغوث إن له * لذعا شديداً كلذع الكى بالنار

أقول والنجم قد غارت أوائله * وغاس المدلج السارى بأسحار

لبرقة من براق الحزن أعمدها * فيها الظباء تراعى نبت أمطار

أشفي لدائي من درب بها نبط * ومنزل بين حجام وجزار

من ينحر الشول لا يخطئ قوائمها * بمدية كشرار النار بتار

﴿ وقال آخر ﴾

ان هذا المصلوب لا شك فيه * هو من بعد صلبه مبعوث

حل فى حيث ليس يأكله البق * ولا يهتدى له البرغوث

بين حنوى مطية إن يسقها * سائقاها فذاك سير حثيث

فعليه الدمار والخزى لما * قلت من ذا فقيل لص خبيث

وقال أبو الرياح الاسدي

تطاول بالفسطاط ليلى ولم يكن * بحنو الغضى ليل علي يطول
يؤرقني حدب صغار أذلة * وان الذى يؤذينه لذليل
اذا جال حول الناس فيهن جولة * تعلقن بى أو جلن حيث أجول
اذا ما قتلناهن أضعفن كثرة * علينا ولا ينمى لهن قتيل
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة * وليس لبرغوث علي سبيل

وقال أبو الشمقمق

يا طول يومي وطول ليلته * ان البراغيث قد عبثن بيه
فيهن برغوثة مجوعة * قد عقدت كفها بفقحتيه

﴿ وقال آخر ﴾

هنيئاً لأهل الريف طيب بلادهم * وان أمير الرى يحيي بن خالد
بلاد اذا جن الظلام تناثرت * براغيثها من بين مثنى وواحد
زيارحة سود الجلود كأنها * بغال بريد أرسلت فى موارد

﴿ وقال آخر ﴾

أرقنى الاسيود الأسك * ليلة حك ليس فيها شك
أحك حتى ماله محك * أحك حتى مرفقى منفك

﴿ وقال آخر ﴾

ياأم مثواى عدمت وجهك * أنقذني رب العلا من مصرك
ولذع برغوث أراه مهلكي * أبيت ليلي دائم التحكك
* تحكك الاجرب عند المبرك *

﴿ وقال آخر ﴾

الحمد لله برغوث يؤرقني * أحيلك الجلد لاسمع ولا بصر

﴿ وقال آخر ﴾

* قبيلة فى طولها وعرضها * لم يطعموا عينا لهم بغمضها
خوف البراغيث وخوف عضها * كأن فى جلودها من مضها

عقاربا ترنص من صرفضها * ان دام هذا هربت من أرضها
* يارب فاقتل بعضها ببعضها *

﴿ حدثني ﴾ ابراهيم السندي قال لما كان أبى بالشام واليا أحب أن يسوي بين القحطاني والعدناني وقال لسنا نقدمكم الا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء وكلكم اخوة وليس للنزاري شيء ليس لليماني مثله قال وكان يتغدى مع جلة من جلة الفريقين ويسوى بينهم في الاذن والمجلس وكان شيخ اليمانية يدخل عليه معتما وقد جذب كور عمامته حتى غطى بها حاجبه وكان لا ينزعها في حر ولا برد فأراد فتى من قيس وكان أبى يستخليه ويقربه ان يسقطه من عين أبي ويوحشه منه فقال له ذات يوم ووجه المجلس خال انى أريد ان أقول شيئا ليس يخرجه مني الا الشكر والحرية والا المودة والنصيحة والا ما أعرف من تعززك وتنشطك وأنت متى انتهيت الى ما أنا ملقيه اليك لم آمن ان تستغشنى وان لم تظهره لى ان هذا اليمانى انما يعتم أبداً ويعد صرة العمامة حتى يغطي بها حاجبيه لان به داء لو علمت به لم تؤاكله قال فقال أبى فرماني والله بمنى كاد ينقض جميع ما بيدى وقلت والله لئن أكلت معه وبه الذي به ان هذا لهو البلاء ولئن منعت الجميع مؤاكلتى لأوحشنهم جميعا بعد المباسطة والملاينة والملابسة والمؤاكلة ولئن خصصته بالمنع وأقعدته على غير ما يرى ليغضبن ولئن غضب ليغضبن معه كل قحطانى بالشام فبت بليلة طويلة فلما كان الغد وجلست ودخلوا للسلام أجرى شيء من ذكر السموم وغرائب أعمالها فأقبل على الشيخ فقال عندي بالمعاينة ما ليس عند أحد خرجت مع ابن عمى هذا ومع ابنى هذا أريد قريتى الفلانية فاذا بقرب الجادة بعير قد نهشته أفعي واذا هو وافر اللحم وكل شيء حواليه من الطير والسباع ميت فقمنا على قاب أرماحنا واذا عليه بعوض كثير فبينا أقول لأصحابى هؤلاء انكم لترون العجب أول ذلك ان بعيراً مثل هذا يتفسخ من عضة شيء لعله ان يكون في جسم عرق من عروقه أو عصبة من عصبه فما هذا الذى مجه فيه وقذفه اليه ثم لم يرض بأن قتله وفسخه حتى قتل كل طائر ذاق منه وكل سبع عض عليه وأعجب من هذا قتله لا كابر السباع والطير وتركه قتل البعوضة مع ضعفها ومهانتها فبينا انا كذلك اذا هبت ريح

من تلقاء الجيفة فطيرت البعوض الى شقنا وسقطت بعوضة على جبهتي فما هو الا أن عضتني اذ قد أسود وجهي وتورم رأسي فكنت لا أضرب بيدي الى شيء أحكه من رأسي وحاجبي الا انتثر في يدي فحملت الى منزلي في محمل وعولجت بأنواع العلاج فبرأت بعد دهر طويل على أنه بقي علي من الشين أنه تركني أقرع الرأس أمرط الحاجبين قال والقوم يخوضون معه في ذلك الحديث خوض قوم قد قبلوا تلك القصة قال فتبسمت ونكس القيسي رأسه فظن الشيخ أنه قد جرى بيننا في ذلك دور من القول فقال ان هذا القيسي خبيث ولعله ان يكون قد احتال بحيلة قال ابراهيم فلم أسمع في السموم بأعجب من هذا الحديث, وزعم أهل انطاكية أنهم لا يتبعضون لطلسم هناك ولو ادعى أهل عقو الدير المتوسطة لاجمة مابين البصرة وكسكر لكان طلسمهم أعجب ويزعم أهل حمص ان فيها طلسما من أجله لا تعيش فيها العقارب وان طرحت فيها عقرب غريبة ماتت من ساعتها ولعمري إنه ليجوز أن تكون تضاد ضربا من الحيوان فلا يعيش فيها ذلك الجنس فيدعى كذابو أهلها ان ذلك لرقية أو دعوة أو طلسم والبرغوث اذا عض وكذا القملة فليس هناك من الحرقة والألم ماله مدة قصيرة ولا طويلة واما البعوض فاشهدان بعوضة عضت ظهر قدمي وأنا بقرب جادة العرجاء وذلك بعد ان صلى الناس المغرب فلم أزل منها في أكال وحرقة وأنا أسير في السفينة الى أن سمعت أذان العشاء وكذلك يقال إن البعوضة لو ألحقت بمقدارجرم الجرادة فانها أصغر العقارب ثم زادت من تضاعيف مامعها من السم على حسب ذلك لكانت شراً من الدويبة التي تسمي بالفارسية ذروه وهي أكبر من القملة شيئا وتكون بمهرجان فوق فانها مع صغر جسمها تفسخ الانسان في أسرع من الاشارة باليد وهي تمض وتلسع وهي من ذوات الافواه وهي التي بزعمهم يقال انها قملة استحالت هذه الدابة الخبيثة والبعوضة من ذوات الخراطيم، وحدثني محمد بن هاشم السدري قال كنت بالزاط فكنت والله أرى البعوضة تطير من على ظهر الثور فتسقط على غصن من الاغصان فتقلس ما في بطنها ثم تعود البعوضة فتغمس خرطومها في جلد الجاموس كما يغمس الرجل أصابعه في الثريد، وحدثني ابراهيم بن سيار

النظام قال وردنا زقاق الهبة في أجمة البصرة فأردنا النفوذ فمنعنا صاحب المسلحة فأردنا التأخر الى الجوز الذى خرجنا منه فأبى علينا ووردنا عليه وهو سكران وأصحابه سكارى فغضب على ملاح نبطي فشده قماطا ثم رمى به في الاجمة على موضع أرض يتصل بموضع اخراج صاحب المسلحة فصاح الملاح اقتلني أي قتلة شئت وأرحني فأبى وطرحه فصاح ثم عاد صياحه الى الانين ثم سكت وناموا كلهم سكارى فجئت الى المقموط وما جاء وقت العتمة واذا هو أشد سوادا من الزنجي وأشد انتفاخا من الزق المنفوخ وذلك كله مابين العشاء والمغرب فقلت انها لسبته ولسعته من كل جانب لسعا على لسع ان اجتماع سمومها أربت على لسعة أفعى، هذا وهي ضر ومحنة ليس فيها شئ من المرافق والعقارب يأكلها مشوية من بعينيه ريح السبل فيجدها صالحة ويرمى بها في الزيت حتى اذا تفسخت وامتص الزيت ما فيها من قواها فطلوا بذلك الدهن الخصى الذى فيه النفخ فرق تلك الريح وتمحص الجلدة ويذهب الوجع فاذا سمعت بدهن العقارب فانما يعنون هذا الدهن

باب في البق والحرجس والسرار والفراش والأذي

وقال الله عز وجل ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها قال يزيد فما دونها وهو كقول القائل للرجل يقال فلان أسفل الناس وأنذلهم فتقول هو فوق ذلك تضع قوله في موضع هو شر من ذلك، قال وضروب من الطير لا تلتمس الا بالليل منها الخفاش والبومة والصدي والضوع وغراب الليل والبعوض بالنهار تؤذي بعض الاذى وانما سلطانها بالليل وكذلك البراغيث، وأما القمل فأمره في الحالات مستو وليس للذباب بالليل عمل الا أني متى باتت معي في المنزل ما صار اليه يسكن من الذباب ولم أطردها بالمشي بعد العصر فاني لا أجد فيها بعوضة واحدة قال في خرطوم البعوضة

مثل السفاة دائم طنينها * ركب في خرطومها سكينها

قال الهذلي

كان وغى الخنوش بجانبيه * وغي ركب أميم ذى هباط

والخنوش أصناف البعوضة والوغي الاصوات الملتفة التى لا يبين واحدها عن معنى صاحبه وهو كما تسمع من أصوات الجيشين اذا التقيا على الحرب وكما تسمع من ضجة السوق ، وقال الكميت يذكر قانصاً وصاحب قترة لانه لا يبني بيته الا عند شريعة يغنى بها الوحش فقال ووصف البعوض

به حاضر من كل جن يروعه * ولا انس الا ذوزبان وذوزجل

فالحاضر لا يبرحه البعوض لان البعوض من الماء يخلق وكيف يفارقه والماء الراكد لا يزال يولده فان صار نطافا أو ضحضحا استحال دعاميص وانسلخت الدعاميص فصارت حواساً وبعوضا وقال ذو الرمة

وأيقن أن النقع صارت نطافه * فراشا وأن البقل ذاو ويابس

وصف الصيف وقال أبو وجزة وهو يصف القانص والشريعة والبعوض

يبيت جارته الافعى وسامره * ربد به غادر منهن كالجرب

ربد فى لونها يعني البعوض وهي التى تنبه القانص وتسهره والغادر الأثر يقول هى غوادر وآثار كآثار الجرب من لسع البعوض وهو مع ذلك وسط الافاعى وقال الراجز يصف البعوض

* وليلة لم أدر ماطواها * أمارس البعوض فى دجاها

كل زمول خفق حشاها * بست أيد هابها سواها

لا يطرب السامع من غناها * جنانه أعظمها أذاها *

وكذلك قوائم الجرادة هي ست يدان ورجلان والحشاون وبهما تعتمد اذا تدب فأما العقرب فلها ثمان أرجل وللنملة ستة أرجل وللسرطان ثمان أرجل وهو فى ذلك يستعين بأسنانه فكأنه يمشى على عشر وعيناه في ظهره وما أكثر من يشويه ويأكله للشهوة لا للحاجة ولا للعلاج وقال الراجز ووصف حاله وحال البعوض

لم أر كاليوم ولا مذ قط * أطول من ليلي بنهر لط

كأنما نجومه فى ربط * أبيت بين خطتي مشتط

من البعوض ومن التقطى * اذا تغنين غناء الزط *
وهن منى بمكان القرط * توقع منى مثل وقع الشرط

وقال أيضاً

أرى البعوض زجلت أصواتها * وأخذ اللحن مغنياتها
* كل زجول تتقى حداتها * صغيرة عظيمة أذاتها
* تنقص عن تنميتها نماتها * ولا تصاب أبداً رماتها
* راحة خرطومها قناتها *

وأنشدنى جعفر بن سعيد

ظللت في البصرة فى هراش * و فى براغيث اذ هافاشي
من نافر منها وذي احتماش * يرفع جنبيَّ عن الفراش
فانا في جد وفى تحراش * تترك فى جنبيّ كالخداش
وزوجة دائمة الهراش * تغلى كغلي المرجل النشاش
تأكل ماجمعت من تهشاش * بأم معروف خموش ناش

وقال رجل من حمان وقع في جند الثغور

أأنصر أهل الشام ممن يكيدهم * وأهلي بنجد ذاك حرص على النصر
براغيث تؤذيني اذا الناس نوموا * وبق اقاسيه على جانب البحر
فان يك فرصاً بعده لانعده * وان بذلوا حمر الدنانير كالجمر

باب فى العنكبوت

قال الله عز وجل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون ثم قال على أثر ذلك وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون يريد ذكره بالوهن وكذلك هو لم يرد احكام الصنعة فى الرقة والصفاقة واستواء الرقعة وطول البقاء اذ كان لا يعمل فيه الا تعاور الايام وسلم من جناة الأيدى وقال الجذامى

يزهدني في ود هارون انه * غذته بأطباء ملمنة عكل

كان قفا هارون إذ قام مدبراً * قفاعنكبوت سل من دبرها غزل
الا ليت هارونا يسافر حافيا * وليس على هارون خف ولا نعل

وقال مزرد بن ضرار

ولو ان شيخا ذا بنين كأنما * على رأسه من شامل الشيب قونس
ولم يبق من اضراسه غير واحد * اذا مسه يدمى مراراً ويضرس
* تبيّت فيه العنكبوت بناتها * نواشئ حتى شبن أو هنّ عنس
* لظل اليها رانيا وكأنه * اذا كش نور من كريس منمس

فذلك من أجناس العناكب جنس رديء التدبير لانه ينسج شركه فى الارض والصخور ويجعله خارجا وتكون الاطراف داخلة فاذا وقع عليه شيء مما يغتذيه من شكل الذباب وما أشبه ذلك أكله ، وأما الدقيق الصنعة فانه يصعد بيته ويمد الشعر ناحية العروق والاوتاد ثم يسدي من الوسط ثم يهيئ اللحمة ويهيء مصيدته فى الوسط فاذا وقع عليها ذباب وتحرك ماهناك ارتبط وتنشب فيه فيتركه على حاله حتى اذا وثق بوهنه وضعفه غله وأدخله الى خزانته وان كان جائعا مص من رطوبته ورمي به فاذا فرغ رمّ ما تشعث من نسجه وأكثر ما يقع على تلك المصيدة من الصيد عند غيبوبة الشمس وانما تنسج الانثى فأما الذكر فانه ينقض ويفسد وولد العنكبوت أعجب من الفروج الذى يظهر الى الدنيا كاسيا محتالا مكتفيا ، قال وولد العنكبوت يقوم على النسج ساعة يولد قال والذى ينسج به لا يخرج من جوفه بل من خارج جسده وقال الجذامي

كان قفا هارون اذ قام مدبراً * قفا عنكبوت سل من دبرها غزل

فالنحل والعنكبوت ودود القز تختلف فى جهاتها يقال انها تخرج منها ومن العناكب جنس يصيد الذباب صيد الفهود وهو الذي يسمى الليث وليست بعيون واذا رأى الذباب لطئ بالارض وسكن أطرافه واذا وثب لم يخطئ وهو من آفات الذباب ولا يصيد الا ذباب الناس وذباب الاسد على حدة وليس يقوم لها شئ وهي أشد من الزنابير وأضر من العقارب الكبار وفيها من الاعاجيب أنها تمض الاسد كما يمض

الاسد ذباب الكلب وكذلك ذباب الكلأ لما يغشى الكلأ من بعد وغير ذلك ولها عض منكر ولا يبلغ مبلغ ذباب الاسد فمن أعاجيبها سوى شدة عضها وسمها وانها مقصورة على الاسد وانها متى رأت بالاسد دما من خراج أو جرح ولو في مقدار الخدش فانها تستجمع عليه ولا تقلع عنه حتى تقتله وهذا شبيه بما يروى ويخبر عن الدرفان الذرمتي رأت بحية خدشا لم تقلع عنه حتى تقتله وحتى تأكله ولقد أردت أن أغرس في داري اراكة فقالوا لى ان الأراك انما تنبت من حب الأراك يغرس في جوف طين في قواصر ويسقي الماء أياما فاذا نبت الحب وظهر نباته فوق الطين وضعت القوصرة كما هي في جوف الارض وتمكن الى أن تصير في جوف الارض فان الذر تطلبه مطالبة شديدة وان لم تحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها فعمدت الى منارات من صفر من هذه المسارح وهي في غاية الملاسة واللين فكنت أضع القوصرة على الترس الذى فيه الاملس فأجد فيه الذر الكثير فكنت أنقل المنارة من مكان الى مكان فما أفلح ذلك الحب، قال والعناكيب ضروب فمنها هذا الذي يقال له الليث وهو الذى يصيد الذباب صيد الفهود وقد ذكرنا في صدر هذا الكتاب حذقه ورفقه وتأتيه وختله ومنها جنس اذا مشى على جلد الانسان سم ويقال ان العنكبوت الطوال الارجل اذا اتخذت بيتا وأعدت فيه المصايد والحبائل والخيوط التي تلتف على مايدخل بيتها من أصناف الذباب وصغار الزنابير لانها حين علمت أنها لا بد لها من القوت وعرفت ضعف قوائمها وانما تعجز عما يقوي عليه الليث احتالت بتلك الحيل فالعنكبوت والفأر والنحل والنمل من الاجناس التي تتقدم في إحكام شأن المعيشة واناث العناكيب هى العوامل والذكر ينقض ولا ينسج وان كان على النسج على التقدم في احكام شأن المعاش حين يولد، وقالوا وأشياء من أولاد الحيوان تكون عالمة بصناعتها عارفة بما يعيشها ويصلحها حتى تكون في ذلك كامهاتها وآبائها حين تخرج الى الدنيا كالفروج من ولد الدجاج والحسل من ولد الضباب وفرخ العنكبوت وهذه الاجناس مع الفأر والجرذان التي من بين جميع الخلق يدخر فيه مايعيشه من الطعم

باب في النحل

زعم صاحب المنطق أن خلية من خلايا النحل فيما سلف من الزمان اعتلت ومرض ما كان فيها من النحل وجاء نحل من خلية أخرى يقاتل هذا النحل حتى أخرجت العسل فأقبل القيم على الخلايا يقاتل ذلك النحل الذى جاء الى غير خليته قال فخرج النحل من الخلية يقاتل النحل الغريب والرجل بينهما يطرد الغريب فلم تلسعه نحلة الخلية التى هو حافظها لدفعه المكروه عنها ، قال فأجود العسل ما كان لونه لون الذهب قال والنحل يجتمع فتقسم الاعمال بينها فبعضها يعمل الشمع وبعضها يعمل العسل وبعضها يبنى البيوت وبعضها يستقى الماء ويصبه في الثقب ويلطخه بالعسل ومنه مايبكر الى العمل ومن النحل مايكف حتى اذا نهضت واحدة طارت كلها يقال بكر بكور اليعسوب يريد أمير النحل لانها تتبعه غدوة الى عملها ومنها ماينقل العسل من الاطراف ومنها ماينقل الشمع الذى تبني به فلا تزال في عملها حتي اذا كان الليل أتت الى مأويها قال والارى عمل العسل يقال أرت تأري أريا والاري في غير هذا الموضع الفنا وقال أبو ذؤيب

فباتت بجمع ثم تم الى منى * فأصبح ذاراً يبتغي المرخ بالسخل[(١)]

المرخ العسل والسخل المنفرد قال ومن الحيوان مايكون لكل جماعة منها رأس وأمير ومنها مالا يكون ذلك له فأما الحيوان الذى لا تجد بداً ولا مصاحبة لشأنه الا باتخاذ رئيس ورئيب مثل مايصنع الناس ومثل ماتخذ النحل والغرانيق والكراكى فأما الابل والحمير والبقر فان الرياسة لفحل الهجمة ولعير العانة ولثور الربرب وذكورتها الا تتخذ

---

(١) في لسان العرب ج ١٣ ص٣٥٠ فى مادة س ح ل والسحل النقد من الدراهم وسحل الدراهم يسحلها سحلاانتقدها وسحله مائة درهم سحلا نقده قال أبو ذؤيب

فبات بجمع ثم آب الى منى فأصبح راداً يبتغي المزج بالسحل

فجاء بمزج لم ير الناس مثله هو الضحك الا انه عمل النحل

قوله يبتغي المزج بالسحل أي النقد اه

الرقباء من الذكورة وزعم ناس ان الكراكي لا ترى أبداً الا فرادى وكان الذى يجمعها الذكر ولا يجمعها أزواجاً ولا أدرى كيف هذا القول والفحل رئيس يسير بسيره الابل والبقر والحمير لان الرئيس هو الذي يوردها ويصدرها وتنهض بنهوضه ويقعن بوقوعه واليعسوب هو خلافترى كما ترى جميع الحيوان الذى تتخذ رئيسا انما هي إناث الاجناس فانهم يعلمون ان صلاحهم فى اتخاذ أمير وسيد ورئيس وزعم بعضهم ان رياسة اليعسوب وفحل الهجمة والثور والعير لاحد أمرين لاقتدار الذكر على الاناث والآخر لما فى طباع الاناث من حب ذكورتها ولو لم تتأمر الفحول لكانت هي لحبها للفحول تغدو بغدوها وتروح برواحها ، قالوا وكذلك الغرانيق والكراكي فأماماذكروا من رؤساء الابل والبقر والجواميس والحمير والنحل فما أبعدهم فى ذلك عن الصواب، واما الغرانيق والكراكى بهذه المنزلة فليس على ماقالوا وعلى أنالا نجد بداً من أن نعلم ان ذكورتها أقوي على قسر الاناث وجمعها اليه من الاناث وعلى أنه لا بد من أن يكون بعض طاعة الاناث لها من جهة مافى طباعها من حب ذكورتها ولو كان اتخاذ الكراكى والغرانيق والرقباء الرؤساء انما علته المعرفة لم يكن للغرانيق والكراكي فى المعرفة فضل على الذر والنمل وعلى الذئب والثعلب والحمام أما الغنم فهي أغر وأموق من أن تجري فى باب هذا القول، وقد تخضع الحيات للحية والكلاب للكلب والديوك للديك حتي لا ترومه ولا تحاول مدافعته، ولقدخرجت فى بعض الاسحار فى طلب الحديث فلماصرت في شريعة المحلة ثارالى من الدار عدة كلاب من ضخامها وممايختاره الحراس فبينما أنا فى الاحتيال لهن اذ سكتوا سكتة واحدة معاثم أخذ كل واحد في شق كالخائف المستخفي وسمعت نفخة انسان فانتهزت تلك الفرصة من امساكهن عن النباح اذ أقبل رجلان ومعهما كلب أزب ضخم وهو في ساجور لم أر قط كلبا أضخم منه فعلمت أنهن انما سكتن عن النباح واستترن من الهيبة له وهي مع ذلك لا تتخذ رئيسا ، وروى عن عباد بن صهيب عن عوف بن أبى جميلة عن قسامة بن زهير قال قال أبو موسى ان لكل شئ سادة وقال بعضهم سادة النمل المتقدمات وهذا يخرج ولا يدرى ما معنى ما قال أبو موسى فى هذا

ولو كان اتخاذ الرئيس من النحل والكراكي والغرانيق والابل والحمير والبقر لكثرة ما معها من المعرفة لكانت القرود والذر والثعالب أولي بذلك فلا بد من معرفة ولا بد من طباع وصنعة والحمام يؤجل من لؤلؤة ومن بصريات وبغداديات ومن جماع من هاهنا ومن هاهنا فلا تتخذ رئيسا، وقد طعن ناس من الملحدين وبعض من لا علم له بوجوه اللغة وتوسع العرب في لغتها وفهم بعضها عن بعض بالاشارة والوحي فقالوا قد علمنا ان الشمع شيء ينقله النحل مما يسقط على الشجر فيبني بيوت النحل منه ثم ينقل من الأشجار العسل الساقط عليها كما يسقط الترنجبين والمن وغير ذلك الا أن مواضع الشمع وآثاره أخفي وأقل فليس العسل بقيء ولا رجيع ولا دخل للنحلة في بطن قط وفي القرآن قول الله عز وجل وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون ولو كان انما ذهب الى أنه شيء يلتقط من الأشجار كالصموغ وما يتولد من طباع الانداء والاهواء والاشجار انما تمازجت لما كان في ذلك عجب الا بقدر ما نجده في أمور كثيرة، قلنا فقد زعم ابن حائك وناس من جهال الصوفية ان في النحل أنبياء لقوله عز وجل وأوحى ربك الى النحل وزعموا ان الحواريين كانوا أنبياء لقوله عز وجل واذ أوحيت الى الحواريين وما خالف ان يكون في النحل أنبياء بل يجب ان تكون النحل كلها أنبياء لقوله عز وجل على المخرج العام وأوحي ربك الى النحل ولم يخص الامهات والملوك واليعاسيب بل أطلق القول اطلاقا وبعد فان كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد من المسلمين وإلا تكونوا مسلمين فلم تجعلوا الحجة على نبوة النحل كلاما هو عندكم باطل، وأما قوله عز وجل يخرج من بطونها شراب فالعسل ليس بشراب وانما يحول بالماء شرابا أو بالماء نبيذاً فسماه كما ترى شرابا اذ كان مما يجيء منه الشراب وقد جاز في كلام العرب أن يقولوا جاءت السماء اليوم بأمر عظيم وقد قال الشاعر

اذا سقط السماء بأرض قوم * رعيناه وان كانوا غضابا

فزعموا أنهم يرعون السماء وان السماء تسقط ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها ومتي حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيراً وهذا الباب هو مفخر العرب فى لغتهم وبه قال وبأسبابه اتسعت وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة وهذيل وضواحى نجد هؤلاء أصحاب العسل والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة وعسلة ساقطة فهل سمعتم بأحد أنكر هذا البيان أو طعن عليه من هذه الحجة ،سفيان الثورى قال حدثني أبو طعمة عن بكر بن ماعز عن ربيع بن خيثم قال ليس للمريض عندي دواء الا العسل وهشام بن حسان انه كان يعجبه اذا استمشى الرجل أن يشرب اللبن والعسل ، ابراهيم بن أبى يحيي قال بلغنى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الشراب أفضل قال الحلو البارد ، والثورى عن أبى اسحاق عن ابي الاحوص قال مضي رجل الى ابن مسعود قال ان أخى يشتكي بطنه وقد نعتت له الخمر قال سبحان الله ما كان الله ليجعل شفاء فى رجس وانما جعل الشفاء فى اثنين فى القرآن والعسل ، سعيد بن أبى عروبة عن أبى المتوكل الناجي عن أبى سعيد الخدري أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال ان أخي يشتكي بطنه فقال اسقه عسلا ثم أتاه فقال قد فعلت فقال اسقه عسلا ثم أتاه فقال قد فعلت فقال اسقه عسلا ثم أتاه الرابعة فقال صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا فسقاه فبرئ الرجل ،قال والذى يدل على صحة تأويلنا لقول الله عزوجل يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس أن المعجونات كلها انما تكون بالعسل وكذلك الانبجات ومتى ألقي فى العسل اللحم الغريض فاحتاج صاحبه اليه أخرجه بعد شهر طريا لم يتغير وانما قطرت منه قطرة على وجه الارض فان استدار كما يستدير الزئبق ولم يتفش ولم يختلط بالارض فهو الصحيح وأجوده الذهبى ، ويزعم أصحاب الشراب أنهم لم يروا شرابا قط ألذ ولا أحسن ولا أجمع لما يريدون من شراب العسل الذي ينتبذ بمصر وليس في الارض تجار شراب ولا غير ذلك أيسر منهم وفيه أعجوبة وذلك انهم لا يعملونه الا بماء النيل أكدر مايكون وكلما كان أكدر كان أصفى وان عملوه بالصافى فسد وقد يلقي العسل على الزبيب وعلى عصير الخمر فيجودهما وبه

يضربون المثل في الامور المرتفعة فيقولون ماء كأنه العسل ويصفون كل شيء حلو فيقولون كانه العسل ويقال هو معسول اللسان وقال الشاعر

لسانك معسول ونفسك شحة * ودون الثريا من صديقك مالكا

وقال الله عزوجل في كتابه وذكر انهار الجنة فقال مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفي واستفتح الكلام بذكر الماء وختمه بذكر العسل وذكر الماء واللبن فلم يذكرهما في نعتهما ووصفهما الا بالسلامة من الاسن والتغير وذكر الخمر والعسل فقال من خمر لذة للشاربين ومن عسل مصفي فكان هذا ضرب من التفضيل وذكرهما في مواضع أخر فنفى عنهما عيوب خمر الدنيا فقال عز وجل اسمه لا يصدعون عنها ولا ينزفون فكان هذا القول الاول أظهر دليل على التفضيل

باب القول في القراد

يقال أسمع من قراد وألزق من قراد وما هو الا قراد وقال الشاعر

هم السمن بالسنوت لا ألس فيهم * وهم يمنعون الجار أن يتقردا

وقال الحطيئة

لعمرك ماقراد بني كلاب * اذا نزع القراد بمستطاع

قال وذلك أن الفحل يمنع أن يخطم فاذا نزع من قراداته شيئاً لذ لذلك وسكن اليه ولان لصاحبه حتي يلقي الخطام في رأسه، قال وأخبرني فراس بن خندف وأبو بزرة قال كان يملل اذا نزلت رفقة قريبا منه أخذ شنة فجعل فيها قردانا فنثرها بقرب الابل فاذا وجدت الابل مسها نهضت وشد الشنة في ذنب بعض الابل فاذا سمعت صوت الشنة وعملت فيها القردان نفرت ثم تبيت في ذروة وما ند منها ويقول أرحم العلة الضعاف يعني القردان قال أبو قردة لم تكن همته تجاوز بعيراً قال أسيد ابن رميص

لنا عز ومأوانا قريب * ومولى لايدب مع القراد

وهجاهم الاعشى فقال

فلسنا بناعى المهملات بعرفة * اذا ما طما بالليل منتشراتها
أبا مسمع أقصر فان قصيدة * متى تأتكم تلحق بها أخواتها

وهجاهم حصين بن المنذر فقال

تنازعنى ضبيعة أمر قومي * وما كانت ضبيعة للامور
وهل كانت ضبيعة غير عبد * ضممناه الى نسب شكير
وأوصانى أبى تحفظت عنه * بفك الغل عن عنق الاسير
وأوصى جحدر فوفى بنيه * بارسال القراد على البعير

قال وفى القراد يقول الآخر قال بعضهم يجعلها فى البراغيث وهذا باطل

ألا يا عباد الله من لقبيلة * اذا ظهرت فى الارض شد مغيرها
فلا الدين ينهاها ولا هي تنتهى * ولا ذو سلاح من معد يضيرها

فمن أصناف القردان الحمنان والحلم والفرمان والقمل والطلح وقال الطرماح

لماوردت الطوى والحوض كالـ * ـصرم دفين الاذاء ملتبده
وقد لوى انفه بمشفرها * طلح قراشيم شاحب جسده
ساقت قليلا على نصائبه * ثم استمرت في طامس تجده
على طويل الطوى كصالية الشفـ * ـع مع الملوتين تصطعده

وفى لزوق القراد يقول الراعى

نبتت مرافقهن فوق مزلة * لا يستطيع بها القراد مقيلا

والعرب تقول ألزم من البؤام كما تقول ألزق من القراد وهما واحد وذكر أمية ابن أبى الصلت خلق السماء وأنه ذكر من ملامستها أن القراد لا يعلق بهافقال

والارض معقلنا وكانت أمنا * فيها معاقلنا وفيها نولد *
فيها تلامذة على قدماتها * حسراً قياما فالفرائص ترعد
فبني الاله عليهم محصوفة * خلقا فلا تبلي ولا تتأود
فلو أنه يحدو البؤام بمتنها * لبني وألفاها التي لا تقرد

قال القراد أول مايكون وهو الذى لايكاد يرى من صغر قمقامه ثم يصير حمنانة ثم يصير قراداً ثم يصير حلمة ، قال ويقال للقراد القمل والطلح والقتير والبؤام والقرشام قال والقمل ثملة وهى من جنس القردان وهى أصغر منها قال والقردان يخلق من عرق البعير ومن الوسخ والتلطخ بالثلوط والابوال كما تخلق القمل من درن الانسان ووسخه اذا انطبق عليه ثوب أو شعر أو ريش ، والحلم يعرض لأذنى الكلب أكثر من ذلك قال ويقال أقطف من حلمة وألزق من بؤام وأذل من قراد وقال الشاعر

يكاد خليلي من تقارب شخصه * يعض القراد باسته وهو قائم

وقال أبو الحسن لقيس بن زهير والله لانت بها أذل من قراد فقدمه وضرب عنقه وقال الراجز

قردانه فى المعطن الحول * يعض عب الحنظل المقل

* من الخلاء ومن الحول *

ويقال لحلمة الثدى القراد وقال ابن الرقاع

كان قرادى صدره طبعتهما * بطين من الجولان كتاب أعجم

والقراد يعرض لاست الجمل والقمل يعرض للخصي وقال الشاعر

رأيت مكانك من وائل * مكان القراد من است الجمل

وقال الممزق

تناجي طليحى ما تراح من الشذا * ولو ظل في أوطانها القمل يرتقى

يصف شدة جزعها من القراد وقال بشار بن برد

أعاد الهم منفرداً بشوق * على كبدى كما لزق القراد

وكانوا اذا خافوا الجدب والازمة تقدموا في عمل العلهز والعلهز قردان تعالج بدم الفصد مع شيء من وبر فيدخرون ذلك كما يدخرون حافر الحمار والأكارع والجاورس ، والشعوبية تهجو العرب بأكل العلهز والعب والزعاع والهبيد والبرير وأشباه ذلك وقال حسان بن ثابت

لم يعللن بالمغافير والصمـ * ـغ ولا شري حنظل الخطبان

وقال الطرماح

لم تأكل القت والرعاع ولم * تنقف هبيداً بجنب مهتبد

وقال الاصمعي قال رجل من أهل البادية لرجل أيسرك أن تعيش حتى تجيء من افريقية مشيا قال فأنت يسرك ذلك قال أخاف أن يقول انسان انها مخيص فيغشى على ومخيص على رأس بريد من المدينة

باب في الحبارى

ونقول في الحبارى بقول موجزان شاء الله تعالى قال ابن الاعرابي قال اعرابي أنه ليقتل الحباري ظلم الناس بعضهم لبعض يقول اذا كثرت الخطايا منع الله عز وجل در السحاب وانما تصيب الطير من الحب ومن التمر على قدر المطر وقال الشاعر

يسقط الطير حيث ينتثر الحب * وتغشى منازل الكرماء

وهذا مثل قوله

اما رأيت الألسن الملاطا * والاذرع الواسعة السباطا

* ان الندي حيث ترى الضغاطا *

وقالوا في المثل مات فلان كمد الحباري اذا نتفت أو تحسرت أبطأ نبات ريشها فاذا طار صواحباتها ماتت كمدا واما قوله أو تسلم يقول يقارب ان تطمن وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه كل يحب ولده حتى الحبارى يضرب بها المثل في الموق ، قال وللحبارى خزانة بين دبره وأمعائه له أبداً فيها سلح رقيق فمتى الح عليها الصقر وقد علمت ان سلاحه أجود من سلاحها وأنه اذا زرقه به بقى كالمكتوف أو المربوق فعند ذلك تجتمع الحباريات على الصقر فينتفن ريشه كله كافة وفي ذلك هلاك الصقر ، قال وانما الحباري في سلاحها كالظرابي في فسائها وكالثعلب في بوله وكالعقرب في ابرتها والزنبور في شعرتها والثور في قرنيه والديك في صنصئه والافعي في نابها والتمساح في ذنبه وكل شيء معه سلاح فهو أعلم بمكانه واذا عدم سلاحه صار يهرب بوجوه الهرب

وكالارنب في ايثارها الصعداء لقصر يديها وكاستعمال الارنب للتوبين والوطء على الزممات واتخاذ اليرابيع القاصعاء والنافقاء والراهطاء والداماء وقال الشاعر

وهم تركوك أسلح من حبارى * وهم تركوك أشرد من نعام

يريد نعامة وقال قيس بن زهير

متى يتحرك للمناطق ظالما * ويجري الى شأو بعيد ومسمح

يكن كالحبارى ان أصيبت فثلها * أصيب فان تفلت من الصقر تسلح

وقال ابن قيس يصف ناسا من الكتاب في قصيدة ذكر فيها خيانتهم فقال

رأوا مال الامام لهم حلالا * فقالوا الدين دين بني صهاري

ولو حتى يحاسبهم أمير * لقد سلحوا كما سلح الحبارى

والحرب ذكر الحبارى والنهار فرخ الحباري وفرخها حارف ساقط لاخير فيه وقال متمم بن نويرة

وضيف اذا نادى طروقا بقرة * وعان ثماه القد حتى تكنعا

وأرملة تمشي باشعث محثل * كفرخ الحبارى ريشه قد تصدعا

وقال أبو الحسن المدائني قال سعيد النوا قدمت المدينة فلقيت على بن الحسين فقلت يا بن رسول الله متي يبعث أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال اذا بعث الناس قال ثم تذاكرنا أيام الجمل فقال ليته كان ممتوعا قبل ذلك بعشرين سنة أو كلمة غير هذه قال فأتيت حسن بن حسين فذكرت له ما قال فقال لو ددت والله انه كان يقاتلهم الى اليوم قال فخرجت من فورى ذلك الى على بن الحسين فأخبرته بما قال فقال انه لقليل الابقاء على أبيه قال وبلغ الخبر المختار فقال أيضرب بين ابنى رسول الله صلي الله عليه وسلم لأقتلنه فتواريت ما شاء الله ثم لم أشعر الا وانا بين يديه فقال الحمد لله الذي أمكنني منك فقلت أنت استمكنت منى أما والله لولا رؤيا رأيتها لما قدرت على قال وما رأيت فقلت رأيت عثمان بن عفان فقلت انت عثمان بن عفان فقال أنا حباري تركت أصحابي حياري لا يهود ولا نصاري فقال يا أهل الكوفة انظروا الى ما أرى الله عدوكم ثم خلى سبيلى ووجه كلام على بن الحسين الذي رواه عنه سعيد

النوا ان كان صادقا فانه للذى كان يسمع من الغالية من الافراط والغلو والفحش فكانه انما أراد كسرهم وان يحطهم عن الغلو الى القصد فان دين الله عز وجل بين القصد والافعلى بن الحسين افقه في الدين وأعلم بمواضع الامامة من أن يخفى عليه ما بين على وطلحة والزبير وقال الكميت

وعيد الحبارى من بعيد تنفست * لازرق مملول الاظافير بالخضب

والحبازى طائر حسن وقد يتخذ فى الدور وناس كثير من العرب وقريش يستطيبون محشو الحبارى جداً قال والحبارى أشد الطير طيرانا وأبعدها سقطا وأطولها شوطاً وأقلها عرجة وذلك أنها تصاد بظهر البصرة عندنا فيشق عن حواصلها فيوجد فيها الحبة الخضراء غضة لم تتغير ولم تفسد وأشجار البطم وهي حبة الخضراء بعيدة المنابت وهي علوية أوعودية أو جبلية قال الشاعر

ترتعى الشرى من براقش أوهيلا * ن أو تابعا من الغنم *

والشرى شجرة البطم وهي حبة الخضراء بالجبال شجرتها وقال الكوذن العجلى البطم لا يعرفه أهل الجلس وبلاد نجد والجلس هو مارتفع والغور هو ماانخفض وبراقش وادباليمن كان لقوم عاد وبراقش كلبة كانت تتشاءم بها العرب وقال حمدة بن بيض

هل جناها أخ على كريم * وعلى أهلها براقش تجنى

القول فى الضأن والمعز

قال صاحب الضأن قال الله تبارك وتعالى ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين فقدم ذكر الضأن وقال عز وجل وفديناه بذبح عظيم وقد أجمعوا على أنه كبش ولا شئ أعظم مما عظم الله عز وجل وقال تعالى ان أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ولم يقل ان أخي له تسع وتسعون عنزاً ولى عنز واحد لان الناس يقولون كيف النعجة يريدون الزوجة وتسمى المهامن بقر الوحش نعجة ونعاجا ولم تسم بعنوز وجعل الله عز وجل السنة فى الاضاحي الكبش وللعقيقة وهدية العرس وجعل الجذع من الضأن كالثني من المعز في الاضحية فهذا مافضل الله عز وجل به الضأن فى الكتاب

والسنة تلد الضأن مرة في السنة وتفرد ولا تتئم والماعزة تلد مرتين وقد تضع الثلاث وأكثر وأقل والبركة والنماء والعدد في الضأن، والخنزيرة كثيرة الخنانيص يقال انها تلد عشرين خنوصاً ولا نماء لها، قال وفضل الضأن على المعزان الصوف أغلى وأثمن وأكثر قدراً من الشعر والمثل السائر انما فلان كبش من الكباش واذا هجوه قالوا انما هو تيس اذا أرادوا الغباوة واذا أرادوا النتن فاذا أرادوا الغاية في الغباوة قالوا ماهو الاتيس في سفينة، والحملان يلعب بها الصبيان والجداء لا يلعب بها وابن الضأن أطيب وأخثر وأدسم وزبده أكثر ورؤس الضأن المشوية هي الطيبة المفضلة ورؤس المعز ليس عندها طائل ويقال رؤس الحملان ولا يقال رؤس العرضان ويقال للزطى الذي يلعب بالحرب من أولاد الناس هو يأكل رؤس الحملان لمكان ألية الحمل ولأنه أجزل وأرطب ولم يقولوا في الكناية والتعريض هو يأكل لحوم العرضان والشواء المنعوت شواء الضأن وشحمه يصير كله اهالة واحدة أوله وآخره والمعز يبقي شحمه على حاله وكذلك لحمه ولذلك صار الخبازون الحذاق قد تركوا الضأن لان المعز يبقى شحمه ولحمه فيصلح ان يسمن مرات فيكون أربح لاصحاب العرس والكباش للهدايا والنكاح فتلك فضيلة في النجدة والثقافة، ومن الملوك من براهن عليها ويضع السبق عليها كما يراهن على الخيل والكبش الكراز يحمل الراعي وأداة الراعى وهو له كالحمار في الرفق ويعيش عشرين سنة فاذا شبق الراعى واغتلم اختار النعجة على المعز واذا نعتوا شكلا من أشكال مشي البرازين قالوا هو يمشي مشى النعاج وقال الله عز وجل ومن أصوافها وأوبارها فقدم الصوف، والبخت هي ضأن الابل منها الجمازات والجواميس هي ضأن البقر يقال للجاموس بالفارسية كاوماش ولا يذكر الماعز بفضيلة الا بانتفاخ ثمن جلده وغزارة لبنه فاذا صرت الي عدد كثرة النعاج وجلود النعاج والضأن كلها أربى ذلك على ما يفضل به الماعز الضأن في ثمن الجلد والغزر في اللبن، وقيل لابنة الخس ما تقولين في مائة من المعز قالت قنا قيل فمائة من الابل قالت غني قيل فمائة من الضأن قالت منى وسئل عيل بن حنظلة عن بنى مخزوم فقال معزى مطيرة عليها قشعريرة الا بني المغيرة فان فيهم تشادق الكلام ومصاهرة الكرام

وتقول العرب لهو أصرد من عين حرباء وتقول العرب المعز تهدم ولا تبنى لان المعز تصعد على ظهور الاخبية فتقطعها بأظلافها والنعجة لا تفعل ذلك ، هذا وبيوت الاعراب انما تعمل من الصوف والوبر فليس للماعز فيها معونة وهى تخرقها وقال الاول

لو نزل الغيث لأبنى امرأ * كانت له قبة سحق بجاد

انما أراد لجعل له بناء وأبنية العرب خيامهم ولذلك يقولون بني فلان على امرأته البارحة ، وقال جشمون الطبيب يا أبا عثمان اياك ولحم الماعز فانه يورث الهم ويحرك السوداء ويورث النسيان ويفسد الدم وهو والله يخبل الاولاد ، وقال الكلانى العنوق بعد النوق ولم يقل الحمل بعد الجمل وقال عمرو بن العاصي للشيخ الجهني المعترض عليه فى شأن الحكمين وما أنت والحكمين يا تيس جهينة لان الكبش مدح والتيس ذم وأما قوله ان الظلف لا يرى مع الخف فالبقر والجواميس والضأن والمعز فى ذلك سواء ، وأتي عبد الملك بن مروان فى دخوله الكوفة على موائد بالجداء فقال أين أنتم عن العماريس فقيل له عماريس الشام أطيب وفى المثل لهو أذل من النقد والنقد هى المعز وقال الكذاب الحرمازى

لو كنتم قولا لكنتم فندا * أو كنتم ماء لكنتم زبدا

أو كنتم شاء لكنتم نقدا

قال والمرأة تسمى كبشة وكبيشة والرجل يكنى أبا كبشة وقال أبو قردودة

كبيشة اذ حاولت تستبـ * ـين تستبق الدمع منى استباقا

وقامت تريك غداة الفراق * كشحا لطيفا وفخذا وساقا

ومنسدلا كمثانى الحبـ * ـال توشفه زنبقا أو حلاقا

وقال بعض القصاص ومما فضل الله عز وجل به الكبش أن جعله مستور العورة من قبل ومن دبر ومما أهان الله تعالى به التيس أن جعله مهتوك الستر مكشوف الدبر والقبل وقال حسان بن ثابت الانصارى

سألت قريشا كلها فشرارها * بنو عائذ شاهت وجوه الأعائد

اذا جلسوا وسط الندي تجاوبوا * تجاوب عتدان الربيع السوافد

﴿ وقال آخر ﴾

أعثمان بن حيان بن أدم * عتود في مفارقه يبول
ولو أني أشافهه لشالت * نعامته ويعلم ما أقول

﴿ وقال الشاعر ﴾

تسمي يزيد كي يزيد فلم يزد * ففألك المسمى فسماك بالفجر
وما الى الا التيس يمبر بوله * عليه ويهذي في لبان وفي نحر

فالتيس كالكلب يفرح ببوله فيرد حاق خيشومه وبول التيس أخثر البول وأنتنه وريح أبدان التيوس اليها ينتهى المثل ولوكان هذا فى الكبش كان أعذر له لان الخموم والعفن والنتن لو عرض لجلد ذى الصوف المتراكم الصفيق الدقيق والملتف المستكثف لأن الريح لاتخلله والنسيم لاتخرقه لكان ذلك أشبه فقد علمنا الآن أن للتيس مع تخلل شعره وبروق جلده وجفوف عرقه وتقطع بخار بدنه فضلا فى النتن ولعل ذلك أن يجده من وضع أنفه على جلودها ، وجلود آباط الزنج منتنة العرق وسائر ذلك سليم والتيس إبط كله ونتنه فى الشتاء كنتنه فى الصيف وإنا لندخل السكة وفي أقصاها تيوس فنجد نتنها من أدناها حتي لايكاد أحدمنا يقطع تلك السكة الا وهو مخمر الأنف الاما كان مما طبع الله عز وجل عليه البلوي وعليا الاسوارى [1] فان بعضهما صادق بعضاً على استطابة ريح التيوس وكانا ربما جلسا على باب التياس ليستنشقا تلك الرائحة واذا مربهما من ينكرها وأنكر مكانهما ادعوا انهما منتظران بعض من يخرج اليهما من بعض تلك الدور ، فأما المكى فانه تعشق جارية يقال لها سندوة ثم تزوجها نهارية وقد دعاني الى منزلها غير مرة وخبرنى أنها كانت ذاصنان وأنه كان معجبا بذلك منها وانها كانت تعالجه بالمرتك وانه نهاها مراراً حتى غضب عليها فى ذلك قال فلما عرفت شهوتي كانت اذا سألتني حاجة ولم أقضها قالت والله لاتمر تكن ثم والله لاتمر تكن ثم والله لاتمر تكن فلا أجد بداً من قضاء حاجتها ، وحدثنى مويس بن عمران وكان هو والكذب لايأخذان فى طريق ولم يكن عليه فى الصدق مؤنة لايثاره له

(١) هكذا في الاصل وفيه اضطراب

حتى كان يستوي عنده مايضر وماينفع قال كان عندنا رجل يشتهى ريح الكرياس لايشفيه دونه شئ وكان قدا تخذ وتداً أوسكة من حديد في صورة المبرد فيأتي الكراييس التى تكون فى الازقة القليلة المارة فيخرق الكرياس كان من خزف أومن خشب ثم يضع منخريه عليه حتى يقضي وطره قال فلقى الناس من سيلان كراييسهم شراً حتى عثروا عليه فما منعهم من حبسه الا الرحمة من تلك البلية مع الذى رأوا من حسن هيئته، قالوا وهذا شأن التيس وهو أبو العنز وهل تلد الحية الاحية ولابد لذلك النتن عن ميراث أو باطن وأنشد لابن أحمر

انى وجدت بنى اعيان حاملهم * كالعنز تعطف روقيها فترتضع

وهذا عيب لا يكون فى النعاج والعنز هى التى ترضع من خلفها وهى مخالفة حتي تأتى على لبنها وهي التي تنزع الوتد وتقلب المعلف وتثير مافيه واذا رتعت الضائنة والماعزة فهى فى فضل نبت ماتأكله الضائنة ولا ينبت ماتأكله الماعزة لان الضائنة تقرض بأسنانها وتقطع والماعزة تقبض عليه فتثيره وتجذبه وهى فى ذلك تأكله وقال الفرزدق

وكانت كعنز السوء قامت بظلفها * الى مدية تحت التراب تثيرها

﴿ وقال الشاعر ﴾

لعمرك ماتدرى فوارس منقر * أفى الأست أم في الرأس تلقى الشكائم

وألهى بنى حمان عسب عتودهم * عن المجد حتي أحرزته الأكارم

وذلك أن حمان تزعم أن تيسهم قرع شاة بعد ماذبح وانه ألقحها، وقالوا فى الضأن أعجوبة وذلك أن النعجة ربما عظمت أليتها حتى تسقط على الأرض ويمنعها ذلك المشي فعند الكبش رفق فى السفاد وحذق لم يسمع بأعجب منه وذلك أنه يدنو منها ويقف موقفا ثم يصد احدى ناحيتى الالية بصدره بمقدار من الصد يعرفه فينفرج عن جانبها المقدار الذى لا يراه غيره ثم يسفدها فى أسرع من اللمح، قالوا والضأن أحمل للبرد والريح والمطر ومن مفاخر الضأن على المعز أن التمثيل الذى كان عند كسرى والتخيير انما كان بين النعجة والنحلة ولم يكن هناك للعنز ذكر وعلى ذلك الناس الى اليوم والموت الى المعزى أسرع وأمراضها أكثر وانما معادن الغنم الكثير الذي عليه يعتمد الناس الجبال

والمعز لا تعيش هناك وأصواف الكباش أمنع للكباش من غلظ جلود المعز ولولا أن أجواف الماعز أبرد وكذلك كلاها لما احتشت من الشحم كما تحتشى وذكورة كل جنس أتم حسناً من اناثها وربما لم يكن للاناث شيء من الحسن وتكون الذكورة في غاية الحسن كالطواويس والتداريج واناثها وربما كن دون الذكورة ولهن من الحسن مقدار كاناث الدراريج والقبج والدجاج والحمام والوراشين وأشباه ذلك والتيوس قبيحة جداً وزاد في قبحها حسن الصفايا واذا وصفوا أعناق النخل العظام قالوا كأنها كباش وقال الشاعر

كان الكباش الساجسية علقت * دون أجير أوغدائر تاجر

وما ذموا فيه العنز دون النعجة قول أبي الاسود الدؤلي

ولست بمعراض اذا ماالقيته * يعبس كالغضبان حين يقول
ولا بسبش كالعنز أطول رسلها * ورعاتها يومان ثم يزول

وقال أبو الاسود أيضا

ومن خير ما يتعاطى الرجال * نصيحة ذي الرأي للمجتليها
فلا تك مثل الذي استخرجت * بأظلافها مدية أو بفيها
* فقام اليها بها ذابح * ومن يدع يوما شعوبا يجيها
فظلت بأوصالها قدرها * يحش الوليدة ان تحتويها

وقال مسكين الدارمي

اذا صحبتني من اناس ثعالب * ليرفع ما قالوا منحتهم حقراً
فكانوا كعنز السوء تبغي لحينها * وتحفر بالاظلاف عن حتفها حفراً

وقال رمضان لأبي شعيب القلال وأبو الهذيل حاضر أي شيء تشتهي وذلك في يوم من الصيف بالبصرة قال أبو شعيب أشتهي أن أجيء الي باب صاحب سقط وله على باب حانوته ألية معلقة من تلك المبزرة المشرحة وقد اصفرت وودكها يقطر من جانبي السمن فآخذ بخصيها ثم أفتح فمي فلا أزال كدماً ونهشا وودكها يسيل على شدقي حتى أبلغ عجب الذنب قال أبو الهذيل ويلك قتلتني قتلتني يعني من الشهوة

باب في الماعز

قال صاحب الماعز فى أسماء الماعز وصفاتها ومنافعها وأعمالها دليل على فضلها فمن ذلك أن الصفية أفضل من النعجة وفى أسمائها دليل على فضلها فلبنها أكثر أضعافا وزبدها أكثر وأطيب وزعم أبو عبد الله العتبي أن التيس السراطى قرع فى يوم واحد نيفا وثمانين قرعة وكان قاطع الشهادة وقد يباع من نسل السراطى وغيره الجدى بثمانين درهما والشاة بنحو من ذلك وتحلب خمسة مكاكى وأكثر وربما بيع جلد الماعز بثمانين درهما وأكثر والشاة اذا كانت كذلك فلها غلة نافعة تقوم بأهل البيت والنعال البقرية من السبت وغير السبت مقسوم نفعها بين الماعز والبقر لان للشرط من جلودها خطراً وبذلك القبال والشسع ووصف حميد بن ثور جلداً من جلودها فقال

تتابع أعوام علينا لطيبها * واقبل عام أصلح الناس واحد

وجاءت بذى لونين ما زال شاته * تعمر حتى قيل قد مات خالد

وقال وأنشد ابن شهاب

ترى زائرات الخيل حول بيوتها * كمعزى الفجار أعوزتها الزرائب

ومن منافعها الانتفاع بشحم الثرب والكلية وهما فوق شحم الالية واذا مدحوا اللحم قالوا لحم الماعز الخصى الثني وقال الشاعر

كان القوم عشوا لحم ضأن * فهم يعجون قد مالت طلاهم

والممرورون الذين يصرعون اذا أكلوا لحم الضأن اشتد ما بهم حتى يصرعهم ذلك فى أوان الصرع وأوان الصرع الاهلة وانتصاف الشهور وهذان الوقتان وقت مد البحر وزيادة الماء ولزيادة القمر حتى يصير بدراً أثر بين فى زيادة الدماء والادمغة وجميع الرطوبات ويقال هو والله ماعز من الرجال وفلان أمعز من فلان والعتاق معز الخيل والبراذين ضأنها واذا وصفوا الرجل بالضعف والموق قالوا ما هو الا نعجة من النعاج ويقولون فى التقديم والتأخير ما له سبد ولا لبد وقال الشاعر

نشي وما جمعت من صفد * وحويت من سبد ومن لبد

همم تقاذفت الهموم بهـا * فنزعن من بلد الى بلد
يا روح من حسنت قناعته * سبب المطامع من غد وغد
من لم يكن لله متهما * لم يمس محتاجا الى أحد *

وهذا الشعر رويته على وجه الدهر وزعم لى حسن بن الضحاك انه له وما كان يدعى ما ليس له وقال لى سعد ان المكفوف لا يكون فنزعن من بلد الى بلد بل كان ينبغي ان يقول فنازعن، وقال والماعزة قد تلد مرتين الا ما ألقي منها فى الرماس ويقع موقعه كبير وربما باعوا عندنا بطن الماعز بثمن شاة من الضان، قال والاقط للمعز وهو المنتفع بها قال والجدى أطيب من الحمل وأكرم وربما قدموا على المائدة الحمل مقطوع الالية من أصل الذنب ليوهموا انه جدى وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعقول الخلفاء فوق عقول الرعيـة وهم أبصر بالعيش استعملوا ذلك أو تركوه أترون انى لا أعرف الطيبات لباب البر وصـغار المعزى ولو كنا نحمل معهم في أسفارهم البعيدة الصفايا الحوامل المعروفات ازمان الحمل والوضـع ليكون لهـا في كل منزل جداء معدة وهم يقدرون على الحملان السمان بلا مؤنة، والعناق والجداء هى المثل فى المعز والطيب ويقولون جداء البصرة وجداء كسكر وسلخ الماعز على القصاب أهون والنجار يركز فى خصال الساج سلسلة تحت القدوم والمثقب والمنشار وقيل لاعرابى بأى شيء تعرف حمل شاتك قال اذا تورم حياها وخرجت واستفاضت خاصرتها , والداجى يقال قد كان ذلك وثوب الاسلام قد دجا وكان ذلك وثوب الاسلام داج قال وللماعز المرعز وليس الصوف للنعاج والكساء كلها صوف ووبر وريش وشعر وليس الصوف الا للضان وذوات الوبر كالابل والثعالب والخزز والارانب وكلاب الماء والسمور والفنك والقماقم والسنجاب والذى كلها شعر كالبقر والجواميس والماعز والظباء والاسد والنمور والذئاب والببور والكلاب والفهود والضباع والعتاق والبراذين والبغال والحمير وما أشبه ذلك والانسان الذي جعله الله تعالى فوق جميع الحيوان فى الجمال والاعتدال والعقل والكرم ذو شعر والماعزة لقرابتها من الناس بهذا المعنى أغزر وأكرم , وزعم الاصمعي أن لبنى عقيل ماعزا لا ترد فأحسب واديهم أخصب وادوارطبه أليس هـذا من أعجب العجب

ومن جلودها تكون القرب والزقاق والمنا كل وكل خرج وثفر ووطب وشكية وسقاء ومزادة مسطوحة كانت أو مثلوثة ومنها مايكون الخوان ولكم السلف والبطائن والجرب ومن الماعزة يكون انطاع البسط وجلال الانقال فى الاسفار وجلال قباب الملوك وبقباب الادم يتفاخر العرب وللقباب الحمر قيل مضر الحمراء وقال عبيد بن الابرص

فاذهب اليك فاني من بنى أسد * أهل القباب وأهل الجود والنادى

قال وفخرتم بكبشة وكبيشة وأبي كبشة فمنا عنز اليمامة وعنز وائل ومنا ماعز بن مالك صاحب التوبة النصوح وقالوا والنعجة حزب واتخاذها خسران الا أن تكون فى نعاج سائمة لانها لاترفع رأسها من الا كل والنعجة آكل من الكبش والحجر آكل من الفحل والرمكة آكل من البرذون والنعجة لايقوم نفعها بمؤنتها والعنز تمنع الحي الخلا فان العرب تقول ان العلوم تمنع الحى الخلا والصفية من العراب أغزر من نجيبة أو يقال أحمق من راعى ضأن ثمانين وأصناف أجناس الاظلاف وكرامها بالمعز أشبه لان الظباء والبقر من ذوات الاوبار والشعر وليست من ذوات الاوبار والصوف والشمل والتماويذ والقلائد انما تتخذ للصفايا ولا تتخذ للنعاج ولا يخاف علي ضروعه العين والنفس والاشعار التي قيلت فى الشاء اذا تأملتها وجدت أكثرها فى المعز فى صفاياها وفي حورها وفى تيوسها وفى عنوقها وفي جدائها وقال مخارق بن شهاب المازنى وكان سيداً كريماً وكان شاعراً فقال يصف تيس غنمه

وراحت أصيلاناً كأن ضروعها * دلاء وفيها واتد القرن لباب

له رعثات كالشنوف وغرة * شديخ ولون كالوديلة مذهب

وعينا أحم المقلتين وعصمة * يواصلها دان من الظلف أهدب

اذا دوحة في محذف الضال أرجلت * عضاها كما يعطو ذرى الضال قرهب

تلاد رفيق الحدان عد بحره * فصردان سمى النجر منه وأسغب

أبو القرز الحو المواتى كأنها * من الحسن فى الاعناق جزع مثقب

اذا طاف فيها الحالبات تقاذفت * عقائل فى الاعناق منها تحلب

ترى ضيفها فيها يبيت بغبطة * وضيف ابن قيس جائع يتحوب

قال فوفد ابن قيس هذا على النعمان فقال له كيف الخارق عندكم قال سيد شريف يمدح نفسه ويهجوا بن عمه وقال الراجز

* أنعت ضانا أمجرت عيانا *

والمجران تشرب فلا تروى وذلك من مثالبها ، وقال رجل لبعض ولد سليمان بن عبد الملك ماتت أمك مجراً وأبوك بشما وقال اعرابى

أمولى بنى تيم ألست مؤديا * منيحتنا كيما تؤدي المنائح

فانك لو أديت صمدة لم تزل * بعلياء عندي ماابتغي الربح رابح

لها شعر داج وجيد مقلص * وخلق رخاوي وضرع مجالح

ولو أشليت في ليلة رجبية * لاروى بها هطل من الماء سافح

لجاءت امام الحالبين وضرعها * امام صفاقيها وجيد مطارح

وما أمها كانت منيحة واحد * ترامي بهاتيك الاكام القوادح

ليس سبيل أصناف الظلف في التشابه سبيل أصناف الحافر ، والخف تشتمل على الابل والبقر والجواميس والظباء والخنازير وبقر الوحش وليس بين هذه الاجناس من تسافد ولا تلاقح ولا الغنم من الضان والماعز ولا الغنم فى سائر الظفر ولاشئ من سائر تلك الاجناس من تسافد غيرها وتلاقحها فهى تختلف فى الصوف والشعر وفى الانس والوحشة وفى عدم التلاقح والتسافد وليس كذلك الحافر والخف وقال الراجز

لهفى على عنزين لاأنساهما * كان ظل حجر صغراهما

* وصالغ معطرة كبراهما *

قوله صالغ يريد أنهاء السن والمعطرة الحمراء مأخوذة من العطرة وقوله كان ظل حجر صغراهما يريد انها كانت سوداء لان ظل الحجر يكون أسود وكل ما كان القائم أشد اكتنازاً كان الظل أشد سواداً وتقول العرب ليس شئ أظل من حجر ولا أدفأ من شجر وليس يكون ظل أبرد ولا أشد سواداً من ظل جبل وكل ما كان أرفع سمكا وكان مسقط الشمس أبعد وكان أكثر عرضا وأشد اكتنازا كان أشد لسواد محله

ويزعم المنجمون ان الليل ظل الارض وانما اشتد جداً لانه ظل كرة الارض وبقدر ما زاد جرمها في العظم ازداد سواد ظلها وقال حميد بن ثور

الى شجر ألمي الظلال كأنها * رواهب أجرين السراب غروب

والشفة الحسناء يقول لها لمياء يصفون بذلك اللثة فجعل ظل الاشجار الملتفة المي وقال امرؤ القيس بن حجر

* لنا غنم نسوقها غزارا * كأن قرون جلتها العصي

قوله يصف القرون انها كانت ما عزة فقال

فتملأ بيتنا أقطا وسمنا * وحسبك من غنى شبع وري

فدل ان الاقط منها يكون قال ويقال لذوات الاظلاف قد ولدت السيلة والبقرة مضمومة الواو مكسورة اللام مشددة يقال هذه شاة تحاب قفيزاً ولا تحاب والصواب ضم التاء وفتح اللام ويقال أيضاً وضعت في موضع ولدت وهي شاة ربى من حين تضع الى خمسة عشر يوما وقال أبو زيد الى شهرين من غنم رباب مضمومة الراء على فعال كما قالوا رخل ورخال وظئر وظؤار وهي ربى بينة الرباب والربة بكسر الراء ويقال هي في ربابها وأنشد

* حنين أم البرق في ربابها *

والرباب مصدر وفي الربى حديث عمر دع الربى والماخض والا كولة وقال أبو زيد ومثل الربي من الضأن الرغوث قال طرفة

فليت لنا مكان الملك عمرو * رغوثا حول قبتنا تخور

وقال اذا وضعت العنز ما في بطنها قيل سليل ومليط وقال أبو زيد هي ماتضعه من الضأن والمعز جميعاً ذكراً كان أو سخلة وجمعها سخل وسخال فلا يزال كذلك اسمه مارضع اللبن ثم هي البهمة للذكر والانثى وجمعها بهم وقال الشاعر

وليس يزجركم ما توعظون به * والبهم يزجرها الراعي فتنزجر

واذا بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمهاتها وأكلت من البقل واجترت فما كان من أولاد المعز فهو جفر والانثى جفرة والجمع جفار ومنه حديث عمر رضي الله عنه

حين تقضي في الارنب يصيبها المحرم بجفرفاذا رعى وقوى وأتى عليه حول فهوعرض وجمعها عرضان والعتود نحو منه وجمعه اعتد وعتدان وقال يونس جمعه اعتد وعتد وهو فى ذلك جدي والانثي عناق وقال الاخطل

واذكر عتاده عتاداً ربـة * من العناق ساءحولها الصبر

ويقال اذا تبع أمه وفطم تلو والانثى تلوة لانه يتلو أمه ويقال للجدي أمر والانثى أمرة وقالوا هلع وهلعة والبدرة العناق أيضا والمطمط الجدى فاذا أتى عليه الحول فالذكر تيس والانثي عنزة ثم يكون جذعا في السنة الثانية والانثى جذعة ثم ثنيا فى الثالثة والانثي ثنية ثم يكون رباعيا فى الرابعة والانثى رباعية ثم يكون سديسا والانثي سديس أيضا مثل الذكر بغير هاء ثم ضالعا والانثى كذلك والضالع بمنزلة البازل من الابل والقارح من الخيل ويقال قد ضلع يضلع ضلوعا والجمع الضلع وليس بعد الضالع شئ ، وقال الاصمعى الجلام والحلاق من أولاد المعز خاصة وجاء فى الحديث فى الارنب يصيبها المحرم جُلام قال ابن أحمر

تهدى اليه ذراع الجدى تكرمة * اما ذكيا واما كان جـلاما

ويروى ذبحا والذبيح هو الذي أدرك أن يضحى به وقال مهلهل

كل قتيل في كليب جـلاّم * حتي ينال القتل آل همام

وقالوا فى الضأن كما قالوا في المعزى الا فى مواضع ،قال الكسائى هو خروف فى الارض والانثى خروفة ويقـال له حمل والانثى من الحملان رخل والجمع رخال كما يقال ظئر وظؤار وتوم وتؤام والبهمة الضأن والمعز جميعا فلا يزال كذلك حتي يصيف فاذا أكل واجتر فهو فرفر وفرقار وفرفور وعمـارس وهذا كله حين يسمن ويجتر والجـلام بكسر الجيم وتعجيم نقطة من تحت الجيم قال الاعشى

سواهم جذعانها كالجلام * أقرع منها القتاد السيورا

واليعر الجدي باسكان العين وقال البريق الهذلى

* مقيما بامـلاح كما رَبط اليعر *

والبذخ من أولاد الضأن خاصة وقال الراجز

قد هلكت جارتنا من البذخ * فان تجع تأكل عتوداً أو بذخ

والجمع بذخان وقال اعرابى اللهم ميتة كميتة أبي خارجة قالوا وما ميتة أبى خارجة قال أكل بذخا وشرب عسلا ونام في الشمس فأتته المنية شبعان ريان وفى المثل أغلم من تيس بنى حمان وحمان تزعم أنه قفط سبعين عنزاً وقد فريت أوداجه فهذا من الكذب الذى يدخل فى باب الخرافة، وقد ذكر صاحب المنطق أنه قد أبصر ثوراً وثب بعد ان خصى فنزا على بقرة فأحبلها ولم نجد هذا من معاينة والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر وتضيق بتصديق هذا الشكل، قال وحدثنى سعيد بن طريف عن الاصبغ بن نباتة قال سمعت علياً يقول مامن أهل بيت لهم شاة الا يقدسون كل ليلة, وعنبسة القطان قال حدثنى عبد الله بن عبد الأعلى القرشي عن رجل من الانصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أوصيكم بالشاء خيراً فنقوا مرابضها من الحجارة والشوك فانها في الجنة, حدثنى محمد بن عجلان عن وهب بن كيسان عن عمرو بن عطاء من بنى عامر بن لؤى ان رجلا مر على أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وهو بالعقيق فقال أين تريد قال أريد غنيمة قال أمسح رعامها واطيب مراحها واصلى في جانب مراحها فانها من دواب الجنة، وفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن رجل من أصحاب أبى الدرداء أنه جعل طعاما اجتهد فيه ثم دعاه فأكل فلما أكل قال الحمد لله الذي أطعمنا الخبز وألبسنا الحبر بعد الاسودين الماء والتمر وعنزة ضائنة له قال هذه لك قال نعم أطيب مراحها وأغسل رعامها فانها من دواب الله وهي صفوة الله من البهائم، ابراهيم بن يحيي عن رجل عن عطاء بن أبى رباح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله عز وجل خلق الجنة بيضاء قال وبعث الى الرعيان من كانت له غنم سود فليخلطها بعفر فان دم عفراء أرجى من دم سوداوين، وحدثنا أبو المقدام قال حدثنا عبد الرحمن بن حبيب عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بالرعاه فجمعوا فقال من كان منكم يرعى غنما سودا فليخلط فيها بيضا، قال وجاءت امرأة فقالت يارسول الله انى اتخذت عنزة رجوت رسلها ونسلها واني لا أراها سواء قال فما ألوانها قالت سود قال عفرى أي اخلطي فيها، قال وحدثنا

طلحة عن عمرو الحضرمى عن عطاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الغنم بركة موضوعة والابل جمال لاهلها والخير معقود فى نواصي الخيل الى يوم القيامة، وحنظلة ابن أبى سفيان المكى قال سمعت طاووسا يقول من هاهنا اطلع الشيطان قرنيه من مطلع الشمس والجفاء والكبر فى أهل الخيل والابل والفداد فى أهل الوبر والسكينة فى أهل الغنم ، وحدثنا بكر بن جيش عن يحيى بن عبد الله عن وهب عن ابيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الكفر قبل المشرق والفخر والخيلاء فى أهل الابل والخيل والفداد فى أهل الوبر والسكينة فى أهل الغنم والايمان يمان والحكمة يمانية، وعوف بن أبى جميلة عن الحسن ان رسول الله صلي الله عليه وسلم قال الفخر في اهل الخيل والجفاء في أهل الابل والسكينة في أهل الغنم والفداد الجافى الصوت والكلام وأنشدنا أبو الرديني العكلى

* جاءت سليم ولها فديد *

وكان من الانبياء عليهم السلام من رعى الغنم ولم يرع أحد منهم الابل وكان منهم شعيب وداود وموسى قال الله عز وجل وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخري وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرعى غنيمات خديجة والمعزبون بنزولهم البعد من الناس فى طباع الوحش ، وجاء فى الحديث من بدا جفا ورعاء الغنم وأربابها أرق قلوبا وأبعد من الغلظ والجفا وراعي الغنم انما يرعاها بقرب الناس لا يعزب ولا يبيد ولا ينتجع وقالوا فى الغنم اذا أقبلت أقبلت واذا أدبرت أقبلت وكان لأصحاب الابل مما يحرمون على أنفسهم الحامى والسائبة ولأصحاب الشاء الوصيلة والعتيرة أيضاً كان أحدهم اذا نذر أن يذبح من العتائر والرجبية كذا وكذا شاة فبلغ الذى كان يتمني فى ندره وشح على الشاء قال الظباء أيضا شاء وهي تجزى اذا كانت شاء فيجعل عتائره من صيد الظباء وقال الحارث بن حلزة

عنتا باطلا وظلما كما تعـ * تر عن حجرة الربيض الظباء

وقال الرماح

كأن النوي الفرد أجسد رأسه * عتائر مظلوم الهدىّ المذبح

ومنها العدوى قال الفرزدق

ومهور نسوتهم اذا ما أنكحوا * عدوى بكل هبنقع مثقال

قال أبو عتاب ليس فى الارض شاة ولا بعير ولا أسد ولا كلب يريد الربوض الا مال على شقه الايسر ابقاء على ناحية كبده قال ومتى تفقدتم الصفايا التى فى البيت والنعاج والجداء والحملان وجدتموها كذلك، قال والعقاب تستعمل كفها اليمنى اذا أصعدت بالارانب والثعالب في الهواء واذا ضربت بمخالبها فى بطون الظباء والذئاب واشتكت كبدها وأحست بذلك فلا تزال اذا اصطادت شيئاً تأكل من كبده، قال وليس فى الارض هارب من حرب أو غيرها فاستعمل الحضر الا أخذ عن يساره اذا ترك عزمه وسوم طبيعته وأنشد

تخامص عن وحشيه وهو ذاهل * وفي الجوف نار ليس يخبو ضرامها

وأنشد الاصمعى للأعشي

ولبس سهما ذا عذار يسوقه * أمين القوي في حالة المترنم

فمر بني‌ء السهم تحت عذاره * وحال على وحشيه لم يعيم

قال ووضع على موضع عن، وفى باب آخر يقول أوس ابن حجر وذلك انه ليس فى الارض جمل هاج فأخرج شقشقته الاعدل بها الى أحد شقي حنكه والثور اذا عدل عدل بلسانه عن شق شماله قال عبدة بن الطبيب

مستقبل الريح يهفو وهو مبترك * لسانه عن شمال الشرق معدول

وقال أوس بن حجر

أو سركم فى جمادى ان نصالحكم * اذ الشقاشق معدول بها الجنبا

قال واذا كر الكلب أو الثور صنع خلاف صنيعه عند العدو قال الاعشي

* فلما أضاء الصبح قام مبادراً * وحان انطلاق الشاء من حيث يما

فصبحه عند الشروق غدية * كلاب الفتي البكري عوف بن أرقما

فأطرق عن مجنوبها فاتبعنه * كما هيج السامى المعسل حشرما *

فأضحي على شؤبي يديه فزادها * بأضماء من فرع الذؤابة أسحما

ثم قال

وأبرز كالشعري وضوحا ونقبة * يداعس من حر الصريمة معظما

قال ولعلم العرب بأن طباع الانسان داعية الى الحرب من شق الشمال يحبون أن يأتوا أعداءهم من شق اليمين قال ولذا قال شتيم بن خويلد

فجئناهم من أيمن الشق غدوة * ويأتى الشقى الحين من حيث لا يدري

وأما رواية أصحابنا فجئناهم من أيمن الشق عندهم، واذا كان أكثر عمل الرجل بيساره كان أعسر وهو عندهم اذا كان كذلك فليس بميمون الخلق ويشتقون من اليد العسرى العسر والعسرة فلما سموها بالشمال أجروها فى الشؤم والمشؤم على ذلك المعني وسموها اليد اليسار واليد اليسرى على نفي العسر والنكد ومما قالوا فى الشمال قول أبى ذؤيب

أبا الصرم من أسماء حدثك الذي * جرى بيننا يوم استقلت ركابها

زجرت لها طير الشمال فان يكن * هواك الذي تهوي يصبك اجتنابها

وقال شتيم بن خويلد

وقلت لسيدنا يا حليم * انك لم تأس أسواً رفيقا

اعنت عديا على شأوها * تعادى فريقا وتبقي فريقا

أطعت غريب ابط الشمال * تحى بحد المواسى الحلوقا

وقال آخر

وهون وجدي انني لم أكن لهم * غراب الشمال ينفض الريش جاثما

واذا مال شقه قالوا حول شقه وقال الاشتر بن عمارة

عشية يدعو معسر يال جعفر * جريح صريع أحول الشق مائله

وقال آخر أي أخ كان لي وكنت له * أشفق من والد على ولد

حتى اذا قارب الحوادث من * خطوى وشد الزمان من عقدى

حول عني وكان ينظر من * عيني ويرمى بساعدى ويدى

قال الأصمعي الوقت الجيد في الحمل على الشاء ان تخلي سبعة أشهر بعد ولادتها ويكون حملها خمسة أشهر فتلد في كل سنة مرة فان حمل عليها فى كل سنة مرتين فذلك

الامفال يقال أمفل بنو فلان فهم ممفلون والشاة ممفل واذا ولدت الشاة ومضى لها أربعة أشهر فهي لحبة والجميع اللحاب واللحبات وذلك حين يأخذ لبنها في النقصان قال والايرمن البعير المقلم ومن الحافر الجردان ومن الظلف كله القضيب ومن الفرس العتيق المضا ، وزعم أبو عبيد وما أراد من الحافر فهو الوداق وهو من الابل الضبعة ومن الضأن الحنو وقال حنت تحنو وهي نعجة حان كما ترى وما كان من المعز فهو الحزمة وقال عنز حزمي وأنكر بعضهم قولهم شاء صارف وزعم أنه مولد قال وهو من السباع الاجمال يقال كلبة مجمل واذا عظم بطنها قيل أحجت فهي محج وما كان من الخف فهو مشفر وما كان من الفم فهو مرمة وما كان من الحافر فهو جحفلة واذا قلت لكل ذات حمل وضعت جاز فاذا ميزت قلت للخف نتجت وللظلف ولدت والبقرة تجرى هذا المجرى وقلت للحافر نتجت ويقال للحافر من بين هذا كله اذا كان في بطنها ولد نتوج واذا عظم بطن الحافر قيل قد أعقت فهي عقوق والجمع عقق وبعضهم يقول عقائق ويقال للبقرة الوحشية نعجة والبقرة تجري مجري الضائنة في حالها وما كان من الخف فصوته بغام فاذا ضجت فهو الرغاء فاذا طربت في أثر ولدها قيل حنت فاذا مدت الحنين قيل سجرت قال والالماع من السباع ومن الخيل دون البهائم وهو أن تشرق ضروعها ويقال للطير قد قمطها يقمطها ويقال للتيس والكلب قد سفد يسفد سفادا ويقال في الخيل كامها يكومها كوما وكذلك في الحافر كله والحافر وحده نا كها ينيكها نيكا وتقول العرب ماله عندى سبد ولا لبد ومنها ذا المعنى قدموا الشعر على الصوف فان قال قائل فقدموا في مواضع كثيرة ذكر ماهو احسن فقالوا ماله عندى كثير ولا قليل وقالوا ربيعة ومضر وسليم وعامر والاوس والخزرج والعير والنفير والذى يدل على ان ذلك الذى قلنا كما قلنا قول الراعى

حتى اذا هبط الغيطان وانقطعت * عنه سلاسل رمل بينها عقد

لاقى أطيلس مشاء بأكلته * أمر الأوابد ما ينمى له سبد

لقدم السبد ثم قال

يشلى سلوقية ولى جواعرها * مثل اليعاسيب فى اصلابها اود

وقال الراعى

أما الفقير الذي كانت حلوبته * وفق العيال فلم يترك له سبد

وهو لو قال لم يترك له لبد وقال ما يخي له لبد لقام الوزن ولكان له معني فدل على أنه انما أراد تقديم المقدم، قال صاحب الضأن فخرتم على الضأن بأن الانسان ذو شعر وانه بالماعز أشبه فالانسان ذو ألية وليس بذى ذنب فهو من هذا الوجه بالضأن أشبه

القول فى الضفادع

اعلم رحمك الله تعالى ان الله عزوجل قد اضاف ست سور من كتابه الى اشكال من أجناس الحيوان الثلاثة منها مما يسمونها باسم البهيمة وهى سورة البقرة وسورة الانعام وسورة الفيل وثلاثة مما يعدون اثنتين منها من الهمج وواحدة من الحشرات فلو كان موقع ذكر هذه البهائم وهذه الحشرات والهمج من الحكمة والتدبير موقعها من قلوب الذين لا يعتبرون ولا يفكرون ولا يميزون ولا يحصلون الامور ولا يفهمون الاقدار لما أضاف هذه السور العظام الخطيرة الشريفة الجليلة الى هذه الامور المحقورة السخيفة والمغمورة المقهورة ولأمر ما وضعها فى هذا المكان ونوه بأسمائها هذا التنويه وانا ذاكر من شأن الضفدع من القول ما يحضر مثلى وهو قليل فى جنب ما عند علمائنا والذى عند علمائنا لا يحسن في جنب ما عند الله تبارك وتعالى، من ذلك الضفدع لا يصيح ولا يمكنه الصياح حتى يدخل حنكه الاسفل الماء فاذا صار فيه بعض الماء صاح ولذلك لا تسمع للضفادع نقيقا اذا كن خارجات الماء، والضفادع من الحيوان الذى يعيش فى الماء ويستوطن فى الشط مثل الزق والسلحفاة وأشباه ذلك، والضفادع تنق فاذا أبصرت النار أمسكت والضفادع من الحيوان الذى يخلق في أرحام الحيوان وفي أرحام الارضين اذا ألقحها المياه لان البح بخراسان يكبس فى الابراج ويحال بينه وبين الريح والهواء والشمس بأحكم ما يقدرون عليه وأوثق ومتى انخرق فى الخزانة خرق فى مقدار منخر الثور حتى تدخله الريح استحال ذلك البح كله ضفادع ولم نعرف حتى هذا وصدقه من حديث الرجل والرجلين بل نجد الخبر عنه كالاطباق وكالخبر

المستفيض الذى لامعارض له وفيها أعجوبة أخرى وذلك أنا نجد من كبارها وصغارها الذي لايحصي في غب المطر اذا كان المطر ديمة ولم نجدها في المواضع التى ليس بقربها بحر ولا نهر ولا حوض ولاغدير ولاواد ولابير وتجدها فى الضحاضح الامالس وفوق ظهور مساجد الجماعة حتى زعم كثير من المتكلمين ومن أهل الجسارة وممن لايحتفل بسوء الحال عند العلماء ولايكترث للشك انها كانت فى السحاب ولذلك طمع أكثر الكذابين ممن نكره اسمه فذكر ان أهل أيذخ مطروا أكبر شبابيط في الارض وأسمنها وأعظمها وانما تلك الضفادع شيء يخلق فى تلك الحال بمزاوجة الزمان وتلك المطرة وتلك الارض وذلك الهواء والضفادع من الخلق الذي لاعظام له ويزعم أصحاب الغرائب ان العلاجيم منها الذكورة السود ويقال أرشح من ضفدع وتزعم الاعراب ان الضفدع كان ذاذنب وان الضب سلبه اياه وذلك فى خرافة من خرافات الاعراب ، ولايكون ذلك حتي يجمع بين الاروي والنعام وحتى يجمع بين الماء والنار وحتى يشيب الغراب وحتى يبيض القار وحتى تقع السماء على الارض ، ومن حديث الامثال حتى يجىء نشيط من مرو وهو لاهل البصرة وحتى يجيء مصقلة من سجستان وهو لاهل الكوفة وقال الله عز وجل لا يدخلون الجنة حتي يلج الجمل في سم الخياط وتقول العرب لايكون ذلك حتى يجمع بين الضب والنون وحتى يجمع بين الضفدع والضب وقال الكميت

يؤلف بين ضفدعة وضب * ويعجب أن نبرني أبينا

وقال فى النون والضب

ولو أنهم جاؤا بشيء مقارب * لشيء وبالشكل الموافق للشكل
ولكنهم جاؤا بحيتان لجة * أو امس والمكنى فينا أبو حسل

وهو من الخلق الذي لايصاب له عظام والضفدع أجحظ الخلق عينا والاسد تتنابها فى الشرائع وفى مناقع المياه والآجام والغياض فتأكلها أكلا شديداً وهي من الخلق المائى الذي يصبر عن الماء أياما صالحة والضفادع تعظم ولا تسمن كالدراج والارنب فانهما لا يحملان لحما وفي سواحل فارس يأكلونها ، ولا أدرى ما هيج مسيلمة على

ذكرها ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه يا ضفدع كم تنقين نصفك فى الماء ونصفك فى الطين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين والضفادع من الخلق الذي يعيش مع السمك فى الماء وليس كل شئ يعيش فى الماء فهو سمك وقد قال الصلتان العبدي فى الفرق بينهما

فان يك بحر الحنظليين زاخرا * فما تستوى حيتانه والضفادع

والحيات فى منافع الماء تطلب الضفادع والفار يكون بقرب المياه كثيراً فلذلك تأتي الحيات تلك المواضع ولان صيدها من أسهل الصيد وهي تعرف صيدها الا تراها تحيد عن ابن عرس وان رأى جرذا أكبر منه لم تنهنهه دون أن تبتلعه وترى الورل فتفر منه وترى الوكرة فتشد عليها وتري القنفذ وان صفر فلا تجتري ان تمر به خاطفة وتري الوبرة وهى مثل ذلك القنفذ مرتين فتأكلها ولطلبها الضفادع فى الليل فى الشرائع يقول الاخطل

ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت * فدل عليها صوتها حية البحر

وقال زهير

وقائل يتغني كلما قدرت * على العراقي يداه قائما دفقا
يظل فى جدول تحبو ضفادعه * حبو الجوارى تري فى مائه نطقا
يخرجن من شربات ماؤها طحل * على الجذوع يخفن الغم والغرقا

وقال أوس بن حجر

فباكرن جوبا للعلاجيم فوقه * مجالس غرقى لا يحلأ ناهله

جوب يريد غديراً كثير الماء ولكثرة عمقه اسود فى العين والعلاجيم الضفادع السود وجعلها غرقي يقول هي فيما شاءت من الماء كقولك فلان فى غم غامر من قبل فلان وجعل لها مجالس حول الماء وفوقه لان هذه الاجناس التي تعيش مع السمك في الماء وليس بسمك أكثر حالاتهن اذا لم يكن سمكا خالصا ان تظهر على شطوط المياه وفى المواضع التى تبيض فيها من الدغل وذلك كالسرطان والسلحفاة والزق والضفادع وكلب الماء وأشباه ذلك وقال نق الضفدع ينق نقيقا وانقض ينقض انقاضا وقال رؤبة

اذا دنا منهن انقاض النقق * في الماء والساحل ضحضاح اليقق

وقد زعم ناس أن أبا الاخرز الحماني حيث يقول تستمع النقنق فانما أراد الضفدع قالوا وكذلك الطرماح حيث يقول

تجافين بعض المضغ من خشية الردى * وينصبن للصوت انتصاب النقانق

قالوا لان الضفدع جيد السمع اذا ترك النقيق وكان خارجا من الماء وهو في ذلك الوقت أحذر من الغراب والعصفور والعقعق وأسمع من عقاب وبكل هذا جاء الشعر

ذكر ما جاء في الضفادع من الآثار

ابراهيم بن يحيي عن سعيد بن أبي خالد بن فارض عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن قتل الضفادع قال وحدثنا سعيد عن قتادة قال سمعت زرارة يحدث أنه سمع عبد الله بن محمد يقول لا تسبوا الضفادع فان أصواتها تسبيح ، قال وحدثنا هشام صاحب الدستوائي عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن عمر انه قال لا تقتلوا الضفادع فان نقيقهن تسبيح وقال لا تقتلوا الخفاش فانه اذا خرب بيت المقدس قال يا رب سلطني على البحر حتى أغرقهم وعن حماد بن سلمة عن قتادة عن زرارة قال قال عبد الله بن عمر لا تقتلوا الخفاش فانه استأذن البحر أن يأخذ من مائه فيطفيء بيت المقدس حيث احترق ولا تقتلوا الضفادع فان نقيقها تسبيح وعن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذؤيب في اسناد له أن طبيبا ذكر الضفدع عند النبي صلى الله عليه وسلم ليجعل في الدواء فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفادع *العرب تصف هذه الاصناف التي ذكرنا بجودة الحراسة وشدة الحذر وأعطوا الثعلب والذئب أموراً لا يبلغها كثير من الناس ، وقال صاحب المنطق في الغرانيق قولا عجيبا فزعم أن الغرانيق من الطيور القواطع وليست من الأوابد وأنها اذا أحست بتغير الزمان اعترضت على الرجوع الى بلادها وأوكارها وذكر أنها بعيدة سحيقة قال فعند ذلك تتخذ قائداً وتصعد في الهواء جداً حتي لا يعرض لها شيء من سباع الطير أو يبلغها سهم أو بندق وان عاينت غيما وخافت

مطراً أو سقطت لطلب مالا بد لها منه من طعم أو هجم عليها الليل أمسكت عن الصياح وضمت اليها أجنحتها فان رأت النوم أدخل كل واحد منهم رأسه تحت جناحه لانه يرى أن الجناح أحمل لما يرد عليه من المكروه أو بعض ما في رأسه من العين وغير ذلك ويعلم أنه ليس بعد ذهاب الرأس حياة لانه ينام كل واحد منها قائما على احدى رجليه لانه يظن أنه ان مكنهما نام وان كان لا يحب النوم أو نام نوما ثقيلا وان كان يحب أن يكون نومه غراراً فأما قائدها وسائقها وحارسها فانه لا ينام الا مكشوف الرأس وان نام فان نومه يكون أقل من العشاش وينظر في جميع النواحي فان أحس شيئا صاح بأعلى صوته، وسألت بعض من اصطاد في يوم واحد مائة طير من طير الماء فقلت له كيف تصنعون قال ان هذا الذي ترى ليس من صيد يوم واحد وان كان صيد ساعة واحدة وذلك أنا نأتي مناقع الماء ومواضع الطير فنأخذ قرعة يابسة صحيحة فنرمي بها في ذلك الماء فاذا أبصرها الطائر تدنو منه يدفع الريح لها في جهته مرة ومرتين فزع فاذا كثر ذلك عليها أنس وانما ذلك الطير طير الماء والسمك فهي أبداً على وجه الماء فلا تزال الريح تقربها وتبعدها وتزداد بها أنسا حتى ربما سقط الطائر عليها والقرعة في ذلك اما واقفة في مكان واما ذاهبة وجائية فاذا لم نرها تنفر منها أخذنا قرعة أخرى أو أخذناها بعينها وقطعنا موضع الأباريق منها وخرقنا فيها موضع عينين ثم أخذها فأدخل رأسه فيها ثم دخل الماء ومشى فيها بينها مشيا رويداً وكلما أتى الى طائر قبض على رجليه ثم غمسه في الماء ودق جناحه وخلاه فبقى طافيا بين الماء يسبح برجليه ولا يطيق الطيران وسائر الطير لا ينكر انغماسه ولا يزال كذلك حتى يأتي على آخر الطير فاذا لم يبق منها شيء رمى بالقرعة عن رأسه ثم لقطها وجمعها وحملها، قال ومن جيد ما يعالج به الملسوع ان يشق بطن الضفدع ثم يرفد به موضع اللسعة ولسنا نعني لسعة الحية وانما نعني لسعة العقرب قال ويقال للضفادع تنق وتهدر وقال الراعي

فأوردهن قبيل الصباح * عينا ضفادعها تهدر *

وأما قول صاحب المنطق في ان الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الاسفل في الماء

لان الصوت لا يجيئها حتى يكون في فيها ماء فقد قال ذلك ووافقه عليه ناس من العلماء وادعوا في ذلك العيان واذا زعموا بان السمكة لاتبتلع شيئاً من الطعم الا ببعض الماء فأى عيان دل على هذا وهذا عسير

الفرق بين الانسان والبهيمة والانسان والسبع

والذى صير الانسان الى استحقاق قول الله عز وجل وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه ليس هو الصورة وانه خلق من نطفة وان أباه خلق من تراب وأنه يمشى على رجليه ويتناول حوائجه بيديه لان هذه الخصال كلها مجموعة في البله والمجانين والاطفال والمنقوصين ، والفرق الذى هو الفرق انما هو الاستطاعة والتمكين في وجود الاستطاعة وجودة العقل والمعرفة وليس يوجب وجودهما وجود الاستطاعة وقد شرف الله تعالى الجان وفضله على السبع والبهيمة من الذي أعطاه من الاستطاعة الدالة على الوجود والمعرفة وقد شرف الملائكة وفضلهم على الجان وقدمهم على الانسان وألزمهم من التكليف على قدر ما خولهم من النعمة وليست لهما صورة الانسان ولم يخلقا من النطف ولا خلق أبوهم من التراب فأشبها الانسان في العقل والمعرفة والاستطاعة ، أفتظن أن الله عز وجل يخص بهذه الخصال بعض خلقه دون بعض ثم لا يطالبهم الا كما يطالب بعض من أعدمه ذلك وأعراه منه فلم أعطاه العقل الا للاعتبار والتفكير ولم أعطاه المعرفة الا ليؤثر الحق على هواه ولم أعطاه الاستطاعة الا لالزام الحجة فهل فكرت قط في فضل ما بينك وبين المسخر لك وهل فكرت قط في فضل ما بين ما جعل عليك عاديا وما جعل لك عاديا وبين ما آنسه لك وبين ما أوحشه منك وبين ما صغره في عينك وما عظمه في عينك وصغره في نفسك وكيف لم تفكر في النحلة والعنكبوت والنملة وأنت ترى الله تبارك وتعالى كيف نوه بذكرها وجعل الاخبار عنها قرآنا وكيف اضاف اليها السور الطوال وكيف عظمها في عقلك بعد ان صغرها في عينك وخبرني عن الله تعالى أما كان يقدر أن يعذب الكنعانيين والجبابرة والفراعنة وأبناء العمالقة من نسل عاد وثمود وأهل العتو

والمتود بالشياطين ثم بالمردة والعفاريت ثم بالملائكة الذين وكلهم الله تعالى بسوق السحاب وبالمد والجزر وقبض ارواح الخلق وتقليب الارضين والماء والريح وبالكواكب والنيران وبالاسد والنمور والفيلة والابل والافاعى والثعابين والعقبان والجرذان والتماسيح والرخم فلم عذبهم بالجراد والقمل والضفادع وهل تاقي عقلك قبل التفكير الا انه اراد ان يعرفهم عجزهم ويذكرهم صغر أقدارهم ويدلهم على ذلك بأذل خلقه ويعرفهم أن له فى كل شئ جندا وأن القوى من قواه والضعيف من ضعفه والمنصور من نصره والمقتول من خلاه وخذله وانه متى شاء أن يقتل بالعسل الماذى والماء الزلال قتل ولم كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا رأى على جسده البثرة ابتهل فى الدعاء وقال ان الله تعالى اذا أراد ان يعظم صغيرا عظمه ولم قال لنا فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فهل وقفت على هذه الآيات وهل توهمت قوله هذا وهل وقفت على فضل مابين الآية وغير الآية واذا كانت مفصلات كان ماذا واذا لم تكن مفصلات كان ماذا فافهم قوله فأرسلنا عليهم ومافى الارض أنقص معرفة وعلما ولا أضعف قوة وبطشا ولا أوهن ركنا وعظما من ضفدع وقد قال الله عز وجل ولما جاء أمرنا وفار التنور فاظهر الماء من أبعد المواضع من ظنونهم وخبرنا بذلك كيلا نخلى أنفسنا من الحذر والاشفاق وكان السيل الذى سلطه الله تعالى على العرم وهو مسناة جنتي بلاد سباجرذا وهو الذى خرقه وبدل نعمتهم بؤسا وملكهم ان عادوا فقراء وقال الله عز وجل وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل هذا بعد أن قال لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم وقال الاعشى

في ذاك للمؤتسى أسوة * ومأرب أعفى عليه العرم
رخام بنته له حمير * اذا جاء ماؤهم لم يرم

وأنشد أبو عمرو بن العلاء

من سبأ الحاضرين مارب اذ * يبنون من دون سيله العرما

قال وأول ما يبد والجراد اذا باض يكون سروا وسروه بيضه يقال سرأت تسرأ سرءا

فانظر الآن كم في الجرادة من أعجوبة فأول ذلك التماسها لبيضها الموضع الصلب والصخور الملس ثقة بانها اذا ضربت بأذنابها فيها انفجرت لها ومعلوم أن ذنب الجرادة ليس في خلقة المسمار ولا طرف ذنبه كحد السنان ولا لها من قوة الاسود ولا لذنبها من الصلابة ما اذا اعتمدت به في الكدية والكداية خرق فيها وكيف وهى تتعدى الى ماهو أصلب من ذلك وليس فى طرف ذنبها كابرة العقرب وعلى أن العقرب ليست تخرق اللحم من جهة الايد فى قوة البدن بل انما ينفرج بطبع مجعول هناك وكذلك انفراج الصخور لاذناب الجراد ولو ان عقابا أرادت أن تخرق في جلدة الجاموس لما انخرق لها الابالتكلف الشديد والعقاب هي التي تحدر على الذئب فتقد بدائرتها ما بين صلاه الى موضع الكاهل فاذا غرزت الجرادة والقت بيضها وانضمت عليها تلك الاخاديد التي هي أحدثتها وصارت كالافاحيص لها وصارت حافظة لها ومربية وصائنة وواقية حتى اذا كان وقت دبيب الروح فيها حدث عجب آخر وقال الاصمعى فاذا خرج من بيضه فهو دبا والواحدة دباة ويخرج أصهب الى البياض فاذا اصفر وتلوت فيه خطوط فأسود فهو برقان يقال رأيت دبا برقانا والواحدة برقانة فاذا صار فيه خطوط صفر وبيض وسود فهو السلح فاذا بدأ حجم جناحه فذلك الكتفان لانه حينئذ يكتف المشي والواحدة كتفانة قال ابن كناسة

يكتف المشى كالذى يتخطى * طنبا أو يشتد للمتباري

يصف فرسا فاذا ظهرت أجنحته وصار أحمر الى الغبرة فهو الغوغاء ولذلك يستقل ويموج بعضه فى بعضه ولا يتوجه جهة ولذلك يقال لرعاع الناس غوغاء فاذا بدت فى لونه الحمرة والصفرة وبقى بعض الحمرة واختلف في ألوانه فهو الخيفان والواحدة خيفانة ومن ثمة قيل للفرس خيفانة فاذا أصفرت الذكورة واسودت الاناث ذهبت عنه أسماء الجراد فاذا باض قيل قد غرز الجراد وقد رزّ فاذا كثر الجراد فى السماء وكثف فذلك السد ويقال رأيت سداً من جراد ورأيت رجلا من جراد للكثير منه وقال العجاج

* سير الجراد السد يرتاد الخضر *

وتقول العرب أصرد من جرادة وانما تصاد الجراد بالسحر اذا وقع عليها الندا تطلب مكانا أرفع من موضعها فان كان مع الندا برد لبد فى موضعه ولذلك قال الشاعر

وكتيبة لبستها بكتيبة * كالثائر الحيران أشرف للندى

الثائر الجراد أشرف أى على شرف للندى أى من أجل الندي ويقال سبحت تسبح تسبيحا ورزّت وارزت وجراد راز ومرز اذا غمزت ذنبها فى الارض واذا ألقت بيضها قيل سرأت تسرأ سرءاً ويقال قد بشر الجراد الارض فهو يبشرها بشراً اذا خلفها فأكل ما عليها وأنشد ابن لاعرابى

كما جرد الجارود بكر بن وائل

ولهذا البيت سمى الجارود ومنه قيل ثوب جرد باسكان الراء اذا كان قد انجرد واخلق وقالت سعدى بنت الشمردل

شماء عالية وهاد مشرف * ومقاتل بطل وليث يلسع

اجعلت سعدي للرماح دريئة * هبلتك امك اي جرد ترقع

ويدخل فى هذا الباب ماحدثنا به الاصمعي قال تجهز النابغة الذبيانى مع زبان بن سيار الفزاري للغزو فلما اراد الرحيل نظر الى جرادة قد سقطت عليه فقال جرادة تجرد وذات لونين غيرى من خرج فى هذا الوجه ولم يلتفت زبان الى طيرته وزجره ونفذ لوجهه فلما رجع الى موضعه الذى كان النابغة فارقه فيه وذكر ما نال من السلامة والغنيمة أنشأ يذكر شأن النابغة فقال

تخبر طيرة فيها زياد * لتخبره وما فيها خبير

أقام كأن لقمان بن عاد * اشار له بحكمته مشير

تعلم انه لاطير الا * على متطير وهو الثبور

بلى شيء يوافق بعض شيء * احايينا وباطله كثير

واسم النابغة زياد بن عمرو وأنشد أبو عبيدة

وقائلة من امها واهتدي لها * زياد بن عمرو امها واهتدى لها

قال ويقال انشرت الارض انشاراً اذا بذرت فخرج منها بذرها فعند ذلك يقال ما احسن بشرة الارض وقال الكميت وكنية الجراد عندهم ام عوف وجناحاها برداها ولذا قال

تنفض بردي ام عمرو ولم تطر * لنا نار ويح للوعيد المذهب

وانشدني ابو زيد

كان رجليه رجلا مقطف عجل * اذا تجاوب من برديه ترنيم

يقول كان رجلي الجندب حين يضرب بهما الارض من شدة الحر والرمضاء رجلا رجل مقطف والمقطف الذى تحته دابة قطوف فهو يهمزها برجليه وقال ابو زبيد الطائي يصف الحر

أى ساع سعى ليقطع شربى * حين لاحت للصابح الجوزاء

واستكن العصفور كرها مع الضب وأوفي فى عوده الحرباء *

ونفى الجندب الحصى بكراعيه وأذكت نيرانها المعزاء

وأنشد أبو زيد لعوف بن ذروة في صفة الجراد

قد خفت أن يحدث لى بالمصرين * وتترك الدين على والدين

زحف من الخيفين بعد الزحفين * من كل سفعاء القفا والخدين

ملمونة تسلخ لونا لونين * كانها ملتفة فى بردين

تنحي على الشمراخ مثل الفاسين * أو مثل منشار غليظ الحرفين

* أنصبه منصبة في قحفين *

على معنى قوله

تنحي على الشمراخ مثل الفاسين * أو مثل منشار غليظ الحرفين

ال حماد لابي العطاء

فما صفراء تكنى أم عوف * كان رجيليتها منجلان

يوصف الفرس فيشبه بالجرادة ولذا قال الشاعر

فاذا رفعت عنانها فجرادة * واذا وضعت عنانها لا تفشل

فاذا أبيت الردف فاسترسلتها * ان الرداف عن الاحبة يشغل

ولم يرض بشر بن أبي خازم بأن شبهه بالجرادة حتى جعله ذكراً حيث يقول

فكل قياد مسبقة عتود * أضر بها المسالح والغوار

مهارشة العنان كأن فيها * جرادة هبوة فيها اصفرار

فوصفها بالصفرة لان الصفر الذكورة أخف أبدانا وتكون لخفة الابدان أشد طيرانا

ويوصف قتير الدرع ومساميرها بحدق الجراد وقال قيس بن الخطيم

ولما رأيت الحرب حربا تجردت * لبست من البردين ثوب المحارب

مضاعفة يغشى الانامل فضلها * كأن قتيراها عيون الجنادب

وقال المقنع الكندى

ولى نثرة ما أبصرت عين ناظر * كصنع لها صنعا ولا سردها سردا

تلاحم منها سردها فكأنما * عيون الدبا فى الارض تجرها جردا

وقال عمرو بن معدي كرب

* تمنانى ليلقاني أبي * وددت وأينما منى ودادى

تمنانى وسابغتى دلاص * خروس الحس محكمة السراد

مضاعفة تخيرها سليم * كأن قتيرها حدق الجراد

ويوصف حباب الشراب بحدق الجراد قال المتلمس

كأني شارب يوم استبدوا * وحثهم وراء البيد حادي

عقارا عتقت فى الدن حتي * كأن حبابها حدق الجراد

واذا صفا الشراب وراق شبهوه بلعاب الجندب ولذا قال

صفراء من حلب الكروم كأنها * ماء المفاصل أو لعاب الجندب

ولعاب الجندب سم على الاشجار لا يقع على شئ الا أحرقه ولا يزال بعض من يدعى العلم يزعم ان الدبا يريد الخضرة ودونها النهر الجارى فيصير بعضه جسرا لبعض حتي يعبر الى الخضرة وان تلك حيلة منها وليس كما قال ولكن الزحف الأول من الدبا يريد الخضرة فلا يستطيعها الا بالعبور اليها فاذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافية صارت تلك لعمرى أرضاً للزحف الثاني الذى يريد الخضرة فاذا سموا ذلك جسراً

استقام فأما ان يكون الزحف الاول مهد للثانى له وآثره بالكفاية فهذا ما لا يعرف ولو ان الزحفين جميعاً أشرفا على النهر وأمسك أحدهما عن تكلف العبور الى ان يمهد له الآخر كان ذلك قولا ، ويقال فى الجراد هذه خرقة من جراد والجمع خرق وقال الشاعر

وكأنها خرق الجرا * د يثور يوم غبار

ويقال للقطعة الكثيرة منها رجل جراد ورجلة من جراد والثور القطعة من النحل وتوصف كثرة السهام ومرورها وسرعة ذلك بالجراد وقال المفضل البكرى

كأن النبل بينهم جراد * تهيجه شآمية خريق

والمرتجل الذى أصاب رجل جراد فهو يشويه وقال بعض الرجاز وهو يصف خيلا مقبلة الى الحى

حتى رأينا كدخان المرتجل * أوشبه الحفان فى سفح الجبل

والحفان أنها أبدانا وقال ابن الزبعرى

ليت أشياخى ببدر شهدوا * جزع الخزرج من وقع الاسل
* حين ألقت بقناء بركها * واستحر القتل فى عبد الاشل
* ساعة ثم استخفوا رقصا * رقص الحفان فى سفح الجبل
وقتلنا الصعب من ساداتهم * وعدلنا ميل بدر فاعتدل *

والجراد الاعرابي لا يتقدمه فى الطيب شئ وما أحصى كم سمعت من الاعراب من يقول ماشبعت منه قط وما أدعه الا خوفا من عاقبته أولانى أعيا فأتركه ، والجراد يطيب حاراً وبارداً ومشويا ومطبوخا ومنظوما فى خيط ومجمولا فى أكلة والبيض الذى يتقدم فى الطيب ثلاثة أجناس وبيض الاشبور فوق بيض الدجاج ،وجاء فى الاثر ان الجراد ذكر عند عمر فقال ليت لنا منه قفعة أو قفعتين وهو يوكل يابسا وغير يابس ويجعل أدما ونقلا ، والجراد المأكول ضروب منه الاهوازى وهو المذنب وأطيبه الاعرابي وأهل خراسان لا يأكلونه ، وحدثني زبيل بن عمرو بن زبيل قال والله انى جالس على باب دارى فى بنى صبير اذ أقبلت امرأة لم أر قط أتم

حسنا وملحا وجسما منها ورأيت في مشيها تأوداً ورأيتها تتلفت فلم ألبث أن طلعت أخرى فلا أدري أيتهما أقدم اذ قالت التي رأيتها بدءً للاخرى مالك لا تلحقين قالت أنا منذ أيام أكثر أكل هـذا الجراد فقد أضعفني فقالت وانك لتحبينه حبا تحتملين له مثل ما أرى بك من الضعف قالت والله انه لأحب اليّ من الحبل ، وقال الاسمعي قال رجل من أهل المدينة لامرأته لا جزاك الله خيرا فانك غير مرعية ولا مبقية قالت والله انى لأرعى وأبقى من التى كانت قبلي قال فأنت طالق ان لم أكن كنت آتيها بجرادة فتطبخ منها أربعة ألوان وتشوى جنبها فرفعت الى القاضى فجعل القاضى يفكر ويطلب له المخرج فقال للقاضى أصلحك الله أأشكلت عليك فهى طالق عشرين ، ووصف الراجز حربا فوصف دنو الرجالة من الرجالة فقال

* أتوا كالدباذب ضحى الى الدبا *

وقرأ بعض أصحابنا بحضرة أبى اسحاق وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فقال رجل لأبي اسحاق انظر كيف قرن الضفادع مع ضعفها الى الطوفان مع قوة الطوفان وغلبته ، قال أبو اسحاق الضفادع أعجب في هذا الموضع من الطوفان فاذا أراد الله تعالى أن يصير الضفادع أضر من الطوفان فعل وقال أبو الهندى

لما سمعت الديك صاح بسحرة * وتوسط النسران بطن العقرب
وتتابعت عصب النجوم كأنها * عفر الظباء على فروع المرقب
وبدا سهيل فى السماء كأنه * ثور وعارضه هجان الربرب
نبهت ندمانى فقلت له اصطبح * يابن الكرام مع الشراب الاصهب
صفراء تنزو فى الاناء كأنها * عين الجرادة أو لعاب الجندب
نزو الدبا من حر كل ظهيرة * وقادة حرباؤها تتقلب *

وقال أبو الهندى أيضاً

فان هـذا الوطب لى ضائر * فى ظاهر الامر وفى العارض
ان كنت ساقينا فمن قهوة * صفراء مثل المهرة الناهض

وقال الافوه

بعناب بيض كأن وجوهها * زهر قبيل ترجل الشمس
رفوا كمنتشر الجراد هوت * للبطن فى درع وفى برس
* وكأنها الجبال غادية * حطت الى جبل من الحبس

وروى الاصمعي وأبو الحسن عن بعض المشايخ قال ثلاثة أشياء ربما صرعت أهل البيت عن آخرهم أكل الجراد ولحوم الابل والفطر من الكمأة وقال غيرهما وأما الفطر الذي يخلق في ظل شجر الزيتون فربما قتل وان كان مما اجتنوه من أوسط الصحارى ، قالوا ومما يقتل الحمام على الملية والجماع على البطنة والقديد اليابس ، وقال الآخر شرب الماء البارد على الريق قالوا وثلاث تورث الهزال شرب الماء على الريق والنوم على غير وطاء وكثرة الكلام برفع الصوت قالوا وأربعة أشياء تقصد الى العقل بالافساد الاكثار من أكل البصل والباقلا والجماع والخمار ، وأما مايذكرون في هذا الباب من الهم والوحدة والفكرة فجميع الناس يعرفون ذلك واما الذي لايعرفه الا الخاصة بالكفاية التامة والتعظيم الدائم واهمال الفكر والأنف من التعلم هذا قول أبي اسحاق ثلاثة أشياء تخلق العقل وتفسد الذهن طول النظر فى المرآة والاستغراب فى الضحك وطول النظر الى البحر ، وقال معمر تطمت فى ثلاثة مجالس لم أجد لذلك علة الا أنى أكثرت فى تلك الايام من أكل الباذنجان وفي يوم آخر من الزيتون وفي يوم آخر من الباقلاء وزعم أنه كلم رجلا من الملحدين فى بعض العشايا وأنه علاه علواً ظاهراً قاهرا وأنه بكر على بقية مافي مسئلته من التخريج فاجبل وأصفى فقال له خصمه ما أحدثت بعدى قال قلت ما أتهم الا اكثاري البارحة من الباذنجان فقال وما خالف الى التهمة وما أشك انك لم تؤت الامنه وقال لى من أثق به ماأخذت قط شيئا من البلادر فنازعت فيه أحدا الا ظهرت عليه ، وقال أبو ناظرة ما أعرف وجه انتفاع الناس بالبلادر الا أن يؤخذ للعصب قلت فأى شيء بقي بعد صلاح العصب وأنتم باجمعكم تزعمون ان الحس للعصب خاصة

القول فى القطا

تقول العرب أصدق من قطا وأهدى من قطاة وفى القطاة أعجوبة وذلك أنها لا تضع بيضها أبدا الا أفراداً ولا يكون بيضها أزواجا أبداً وقال أبو وجزة

ما زلن ينسبن وهنا كل صادقة * باتت تباشر عُرْما غير أزواج

والعرم بيض القطا لانها منقطة وقال الاخطل

شفى النفس فى قتلى سليم وعامر * ولم يشفها قتلى غنى ولا جسر

ولا جشم شر القبائل انهم * كبيض القطاليسوا باسود ولا حمر

وقال مقبل بن خويلد

أبا معقل لا توطئنكم بغاضتي * رؤس الافاعى في مراصدها العرم

يريد الافاعى العرم في مراصدها وهي منقطة الظهور وأن أكثر ما تبيض العقاب ثلاث بيضات الا أن واحدة تفسد لا محالة وقال الآخر فى صفة البيض

وبيضاء لا نحاش منها وانها * اذا ما رأتنا زال منها زويلها

نتوج ولم تقرب لما تمتنى له * اذا أنتجت ماتت وعاش نتيجها

يعنى البيضة نتوج ولم تقرب أى لم تمتن للضراب والامتناء انتظارك الناقة اذا ضربت ألاقح هى أم لا وقال ابن أحمر

فبتنا بقفر والمطى كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

وذلك أنها كانت قبل ذلك تشرب من الغدر وكلما أفرخت صافت فاحتاجت الى طلب الماء من مكان بعيد فذلك أسرع لها ويشبه مشى المرأة اذا كانت سمينة غير خراجة طوافة بمشى القطاة فى القرمطة والدل وقال ابن ميادة

اذا الطوال شررن المشى فى خطل * قامت تريك قواما غير ذى أود

تمشي ككدرية فى الجو واردة * تهدي سروب قطا يشربن بالثمد

وقال جران العود

فلما رأين الصبح بادرن ضوءه * رسيم قطا البطحاء أو هن أقطف

وقال الكميت

يمشين مشى قطا البطاح تأودا * قب البطون رواجح الاكفال

وقال الآخر فى غير هذا المعنى

كان القلب ليلة قيل يغدي * بليلى العامرية أو يراح

قطاة عزها شرك فباتت * تجاذبه وقد عاق الجناح

وقال آخر

وكنا كزوج من قطا بمفازة * لدى خفض عيش مونق حسن رغد

فخانهما ريب الزمان فأفردا * ولم ترعيني قط أقبح من فرد

وفي صدق القطا يقول الشاعر

وصادقة ما أخبرت بعد بعثها * طروقا وباقي الليل فى الارض مشرف

ولو تركت نامت ولكن أعشها * أذى من قلاص كالحنى المعطف

وتقول العرب لو ترك القطا لنام ويقول أعششت القوم إعشاشاً اذا نزلت بهم وهم كارهون فتحولوا عن منزلهم وقال الكميت

لا تكذب القول ان قالت وان صدقت * اذ كل ذي نسبة لا بد منتحل

وقال مزاحم العقيلى فى تجاوب القطاة وفرخها

فنادت وناداها وما اعوج صدرها * بمثل الذى قالت له لم يبدل

والقطاة لم ترد اسم نفسها ولكن الناس سموها بالحروف التي خرجت من فمها وزاد في ذلك أنها علي أبنية كلام العرب فجعلوها صادقة ومخبرة ومريدة ويقال سرب نساء وسرب ظباء كل ذلك بكسر السين واسكان الراء فاذا كان من الطريق والمذهب فهو بفتح السين وهذا عن يونس بن حبيب وقال الشاعر

اما القطاة فانى سوف انعتها * نعتاً يوافق نعتى بعض ما فيها

وقال مزاحم العقيلى

شكاء مخطومة فى ريشها طرق * سود قوادمها صهب خوافيها

ويقال فى ريشها فتح زهر اللبن ويقال فى جناحه طراق اذا غطى الريش الأعلى

الأسفل وقال ذو الرمة

طراق الخوافي واقع فوق ربعة * لدى ليلة في ريشه يترقرق

ويقال أطرقت الارض اذا ركب التراب بعضه بعضاً فصار كطراق النعال طبقا طبقا وقال العجاج

فاطرقت الا ثلثا دخسا

والطرق باسكان الراء الضرب بالحصا وهو من عمل أهل الزجر وقال البعيث

لعمرك ماتدرى الطوارق بالحصى * ولازاجرات الطير ما الله صانع

قال ويقال طرقت القطاة ببيضها اذا حان خروجه وتعطلت به شيئاً قال ويقال طرقت القطاة ونحوه وقال العبدى

وقد تخذت رجلي الى جنب غرزها * نسيفاً كافحوص القطاة المطرق

وهذا الشاعر لم يقل ان التطريق لايكون الا للقطاة بل يكون لكل بياضة ولكل ذات ولد وكيف يقول ذلك وهم يروون عن قابلة البادية انها قالت لجارية تسمى سحابة وقد ضربها المخاض وهى تطلق على يدها

ايا سحاب طرقى بخير * وطرقى بخصية وأير

* ولاتريني طرف البظير *

وقال أوس بن حجر

بكل مكان ترى شطبة * مولية ربها مسبطر

وأحمر جعد عليه النسو * روفى صلبه ثملب منكسر

وفى صدره مثل جنب القنا * يشهق حيناوحينا يهر

وأنى واخوتنا عاضرا * على مثل ماييننا نأتمر

لها صرخة ثم اسكاتة * كماطرقت بنفاس بكر

فهذا كما ترى يرد عليه وانما ذكر أوس بن حجر البكر دون غيرها لان الولادة على البكر أشد وخروج الولد أعسر والمخرج أكز وأضيق ولولا أن البكر أكثر ماتلد اصغر جثة والطف جسما الى أن يتسع الرحم بتطر الاولاد فيها لكان أعسر وأضيق

وقال الثعالبي وهي أجود قصيدة قيلت في القطا

ثلاث مرورات يجاذبها القطا * ترى الفرخ في حافاتها يتحرق
يظل بها فرخ القطاة كأنه * يتيم يناجيه مواليه مطرق
بديمومة قد بات فيها وعينه * على موته تغضي مراراً وترمق
شبيه بلاشئ هنالك شخصه * يواريه فنك حوله متفلق
له محجر ناب وعين مريضة * وشدق بمثل الزعفران مخلق
تناجيه كحلاء المدامع حرة * لها ذنب ساج وجيد مطوق
سماكية كدرية عرعرية * شكالية عفراء سمراء سملق
اذا غادرته تبتغي مايعيشه * كفاها رزاياها النجاء الهبنق
غدت تستقي من منهل ليس دونه * مسيرة شهر للقطا متعلق
لازغب مطروح بجوز تنوفة * تلظى سموماقيظه فهو أورق
تراه اذا أمسى وقد كاد جلده * من الحر عن أوصاله يتمزق
غدت فاستقلت ثم ولت مغيرة * بها حين تزهاها الجناحان أولق
تيمم ضحضاحاً من الماء قد بدت * دعاميصه في الماء أطحل أطرق
فلما أتته مقدحراً تقربت * تقرب مجنون فتطفو وتغرق
تجر وتلقي في سقاء كأنه * من الحنظل العامي جزء مفلق
فلما ارتوت من مائها لم يكن لها * أناة وقد كادت من الري تبصق
طمت طموة صعداً ومدت جرانها * وطارت كما طار السحاب المحلق

قال البعيث

تحث طوالات كان نجاءها * هوى القطا يعلو المناهل جونها
طوين سقاء الخمس ثمة قلصت * لورد المياه واستتبت قرونها
اذاما وردن الماء في رونق الضحى * بلان اداوى لبس خرز يشينها
اداوى خفيفات الحامل أسقمت * الى ثغر اللبات منها حصينها
حملن حباب الماء حين حملنه * الى غصص قد ضاق عنها وتينها

اذا شئن أن يسمن والليل واضح ✽ هدي ليله والريح تجرى فنونها
تناوم سرب فى أفاحيصه السفا ✽ ومنبته الحرشاء حن حنينها
يروين زغبانا قطاة سقاؤها ✽ فلا تعكم الأ (١) ولا تستعينها

ذكر نوادر من أشعار وأحاديث وكلام تم به هذا الجزء

قالوا خرف النمر بن تولب فكان هجيراه أصبحوا الراكب أغبقوا الراكب وخرفت امرأة من العرب فكان هجيراها زوجونى فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما لهج به اخو عكل خير مما لهجت به صاحبتكم ، وحدثنى عبد الله بن ابراهيم بن قدامة الجمحى قال كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا رأى أحداً يضرب فى كلامه قال أشهد أن الذى خلقك وخلق عمرو بن العاص واحد وقال علي بن أبى طالب رضى الله عنه لصعصعة بن صوحان فى المنذر بن الجارود ماوجدنا عند صاحبك قال ان قلت ذاك انه لنظار فى عطفيه مفال فى شراكيه يعجبه حمرة برديه ، قال وحدثنا جرير بن حازم المطفي قال قال الحسن لوكان الرجل كلما أصاب وكلما تجمل أحسن أوشك أن يتزيد من العجب ، قال سمعت أبا بلال في جنازة وهو يقول في كل ميتة ظنون الا ميتة السجا قالوا وما ميتة السجا قال أخذها زياد فقطع يديها ورجليها فقيل لها كيف ترين ياسجا فقالت قد شغلني هول المطلع عن برد حديثكم هذا ، قال وقيل لرابعة القيسية لو أذنت لنا كلمنا قومك فجمعوا لك ثمن خادم وكان لك فيه اصرفق وكفتك المؤنة وتفرغت للعبادة فقالت والله انى لاستحى ان أسأل الدنيا ممن يملك الدنيا فكيف أسأل الدنيا ممن لا يملكها ، والناسكات المتزهدات من النساء المذكورات فى الزهد والرياسة من نساء الجماعة أم الدرداء ومعاذة العدوية ورابعة القيسية ومن نساء الخوارج السجا وحمادة الصفرية وغزالة الشيبانية قتلن جميعا وصلبت السجا وحمادة وقتل خالد بن عتاب غزالة وكانت امرأة صالح بن نوح ومن نساء الغالية الميلاء وحميدة وليلى الناعظية ، محمد بن سلام عن أبى جمعدة قال ما أبرم عمر بن الخطاب أمراً قط الا تمثل به ببيت شعر ، وعن أبان بن عثمان قال عبد الملك لقد كنت أمشى في الزرع فأتقى الجندب أن أقتله وا

الحجاج ليكتب الى بقتل فئام من الناس فما أحفل بذلك، قالوا ومات يونس النحوى سنة اثنتين وثمانين وهو ابن ثمان وثمانين سنة قال يونس ما أكلت شيئاً قط في الشتاء الا وقد برد ولا فى الصيف الا وقد سخن ،وحدثني محمد بن بشير قال قال أبو عمرو المدائني لو كانت البلايا بالحصص ما نالني كل ما نالني اختلفت جاريتي بالشاة الى التياس فرجعت الشاة حائلا والجارية حاملا ، محمد بن القاسم قال قال جرير أنا لا أبتدى ولكن أعتدي وقال العتبى أنا مثل العقرب أضر ولا أنفع وقال الحجاج أنا حديد حقود حسود ، وخبرني نفيع قال قال لى العتبى أنا لا أصدق ما دام كذبي يخفى قال وذكر شبيب بن شِيبة عن خالد بن صفوان فقال خله ليس له صديق في السر ولا عدو فى العلانية وقال أبو بجيلة فى شبيب بن شيبة

اذا غدت سعد على شبيبها * على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس الى مغيبها * عجبت من كثرتها وطيبها

وقال يحيي بن أبى على الكرخي أنا انسان ما أبالى ما استقبلت به الاحرار وقال عمرو ابن القاسم انما خصمونى لاني لم أستتر قط بشيء من القبيح وقال الفرزدق

وكان يجير الناس من سيف مالك * فأصبح يبغى نفسه من يجيرها

ومن هذا الباب قول اليمانى

على أى باب أطلب الاذن بعد ما * حجبت عن الباب الذى أنا حاجبه

ومن هذا الشكل قول عدي بن زيد

لو بغير الماء حلقي شرق * كنت كالغصان بالماء اعتصارى

وقال زهير

فلما وردن الماء زرقا جمامه * وضعن عصي الحاضر المتخيم

وكتب سويد بن منجوف الى مصعب بن الزبير

فأبلغ مصعبا عنى رسولا * وهل يلفي النصيح بكل واد
تعلم ان أكثر من تواخى * وان ضحكوا اليك هم الاعادى

حدثني ابراهيم بن عبد الوهاب قال كتب شيخ من أهل الرى على باب داره جزى

الله من لا يعرفنا ولا نعرفه خيراً فأما أصدقاؤنا الخاصة فلا جزاهم الله عنا خيرا فانا لم نؤت قط الا منهم وأنشدنا النهشلي لاعرابي يصف بخلا

ومن يعرى حلوبته ويشكل * عن الاعداء يمنقه القراح
رأيت معاشرا يثني عليهم * اذا شبعوا وأوجههم قباح
يظل المصرمون لهم سجودا * وان لم يسق عندهم صباح

وقال الشاعر

النائمون قريبا من بيوتهم * ولو يشاؤن أى الحي اذ طرقوا

يقول لرغبته فى القرى واطعام الناس يبيت عندى ويدع أهله ولو شاء ان يبيت عندهم لفعل وقال آخر يمدح ضد هؤلاء

تقري قدودهم مراء ليلهم * ولا يبيتون دون الحى أضيافا

وقال جرير

واني لاستحيي أخى أن أرى له * على من الحق الذى لا يرى ليا

قال استحى ان تكون له عندى يد ولا يرى لى عنده مثلها وقال امرؤ القيس

* وهل يعمن الا خلى منعم * قليل الهموم مايبيت بأوجال

قال وهو كقوله استراح من لا عقل له وأنشد مع هذا البيت

وأعجبها من عيشها كل غرفة * وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شيء يهمها * فليست لشيء آخر الدهر تسهر

وأنشد

اذا ابتدر الناس المعالى رأيتهم * وقوفا بأيديهم مسوك الارانب

هجاهم بأنهم انما يعيشون من الصيد وأنشد

اذا ابتدر الناس المكارم والعلى * أقاموا وقوفا فى النهوج اللهاجم

يخبر أنهم يسألون الناس والنهج والهجم الطريق الواسع وقال الشاعر

لنا إبل يروين يوما عيالنا * ثلاث وان يكثرن يوما فاربع
نعدهم بالماء لامن هواهم * ولكن اذا ماقل شيء يوسع

وقال الآخر

وداع دعا والليل مرخ سدوله * رجاء القرى يامسلم بن حمار
دعا جمل لا يهتدي لمبيته * من اللوم حتى يهتدي ابن وبار

وقال الحسن بن هانئ

أضمرت للنيل هجرانا ومقلية * اذ قيل لى انما التمساح فى النيل
فمن رأى النيل رأى العين من كثب * فما أرى النيل الا فى البواقيل

وقال ابن أحمر

أتيت ابن حمراء العجان فلم أجد * لدى بابه اذنى يسيرا ولا نزلا
فان الذى ولاه أمر جماعة * لانقص من يمشي على قدم عقلا

ومن هذا الباب قوله

انى رأيت ابا العوراء مرتفعاً * بشط دجلة يشرى التمر والسمكا
كشرة الخيل تبغي عند مذودها * والموت أعلم من يدنى بمن تركا
هذى مساعيك فى آثار سادتنا * ومن تكن أنت ساعيه فقد هلكا

ومن هذا الباب قوله

ورثنا المجد عن آباء صدق * أسأنا فى ديارهم الصنيعا
اذ المجد الرفيع تعاورته * بنات السوء يوشك ان يضيعا

وقال جران العود

ولم أجد الموفور يرجى جنابه * اذا لم يرعه الماء ساعة ينضح

وكان أبو عباد النميري أتى باب بعض العمال يسئله شيئا من عمل السلطان فتبعه أسفار فسرقوا كل شئ فى البيدر وهو لايشعر فعاتبه فى ذلك فكتب اليه أبو عباد

كنت بازا أضرب الكركى والطير العظاما * فتقنصت بنى الصقر فأوهنت القداما
* واذا ما أرسل البازى على الصقر تعامى *

أراد قول أبى النجم فى الراعى

يمر بين القانيات الجهل * كالصقر تجفو عن طراد الدخل

وبات أبو عباد مع أبي بكر الغفارى في ليالى رمضان فى المسجد الاعظم فدب اليه وأنشأ يقول

يا ليـلة لى بت الهوبها * مع الغفاري أبى بكر
ثمت اليه بعدما قد مضى * ثلث من الليل على قدر
ما قام حمدان أبو بكر * الا وقد أفرغه نحري

وقال فى قلبان صديقته

ان قلبان قد بغت * لشقائى وقد صفت
واذا لم تنـك باير * عظيم القوي بكت

وقال مسكين الدارمى

اليك أمير المؤمنين رحلتها * تثير القطا ليلا وهن هجود
لدي كل قرموص كان فراخه * كلى غير ان كانت لهن جلود

وقال أبو الاسود الدؤلى وهو ظالم بن عمرو بن سفيان

أمنت على السر امرأ حازم * ولكنه فى النصح غير مريب
اذاع به فى الناس حتى كانه * بعلياء نار أو قدت لثقوب
وكنت متى لم ترع سرك ينتشر * قوارعه من مخطئ ومصيب
وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه * وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند واحد * فحق له من ساعـة بنصيب

وقال أيضاً

اذا كنت مظلوما فلا تلف راضيا * عن القوم حتى تأخذ النصف واغضب
فان كنت أنت الظالم القوم فاطرح * مقالتهم واشغب على كل مشغب
وقارب بذى جهـل وباعـد بعالم * جلوب عليك الحق من كل مجلب
فان حدبوا فاقعس وان هم تقاعسوا * ليستمسكوا مما وراءك فاحدب
ولا تدعنى للحق واصـبر على التى * بها كنت أقضي للبعيـد على أبي

وقال أبو الاسود لزياد

لعمرك ما حشاك الله نفسا * بها جشع ولا نفسا شريره
ولكن أنت لاشرس غليظ * ولا هش تنازعه خؤوره
كأنا اذ أتيناه نزلنا * بجانب روضة ريا مطيره

﴿ تم الجزء الخامس من كتاب الحيوان ﴾

﴿ ويليه الجزء السادس أوله باب ﴾

فهرس

﴿ الجزء السادس من كتاب الحيوان ﴾

صحيفه

صحيفه

﴿ تم الفهرس ﴾

﴿ الجزء السادس من كتاب ﴾

الحيوان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

البصري المتوفى سنة ٢٥٥ هجريه

وهذا الكتاب هو

﴿ البارع في الأدب والجامع في حكم العرب ﴾

عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي

الحاج محمد افندي ساسي المغربي التونسي

سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م

(مطبعة السعاده بجوار محافظة مصر)

لصاحبها محمد اسمعيل

بسم الله الرحمن الرحيم

باب

بسم الله والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم اللهم جنبنا فضول القول والثقة بما عندنا ولا تجعلنا من المتكلفين ، قد قلنا فى الخطوط ومرافقها وفي عموم منافعها وكيف كانت الحاجة الى استخراجها وكيف اختلفت صورها على قدر اختلاف طبائع أهلها وكيف صار ضرورتهم الى وضعها وكيف كانت تكون الخلة عند فقدها وقلنا فى العقد ولم تكلفوها وفى الاشارة ولم اجتلبوها ولم شبهوا جميع ذلك ببيان اللسان حتى سموه بالبيان ولم قالوا القلم أحد اللسانين والعين أنم من اللسان وقلنا فى الحاجة الى المنطق وكيف صار أعم نفعا وصار هو الاصل المشتق منه والمحتمل عليه وكيف جعلنا دلالة الاجسام الصامتة نطقا والبرهان الذي في الاجرام الجامدة بيانا وذكرنا جملة القول فى الكلاب والديك فى الجزءين الاولين وذكرنا جملة القول فى الحمام وفي الذباب والغربان والخنافس والجعلان الا ما بقى من فضول القول فيها فانا قد أخرنا ذلك لدخوله فى باب الحشرات وصواب موقعهما فى باب القول فى الهمج فى الجزء الثالث واذا سمعت ما أودعها الله تعالى من عظيم الصنعة ومافطرها الله تعالى عليه من غريب المعرفة وما أجرى باسبابها من المنافع الكثيرة والمحن العظيمة وماجعل فيهمامن الداء والدواء أجللتهما ان تسميهاهمجا وأكبرت الصنف الآخر أن تسميه حشرة وعلمت أن اقدار الحيوان ليست على قدر الاستحسان ولا على اقدار الأثمان وذكرنا جملة القول فى الذرة والنملة وفى القرد والخنزير وفى الحيات والنعام وبعض القول فى النار فى الجزء الرابع والنار حفظك الله وان لم تكن من الحيوان فقد كان جرى من السبب المتصل بذكرها ومن القول

المضمر بما فيها ما أوجب ذكرها والأخبار عن جملة القول فيها وقد ذكرنا بقية القول في الفار ثم جملة القول في العصافير ثم جملة القول في الجرذان والسنانير والعقارب وجميع هذه الأجناس في باب لسبب سيعرفه من قرأه ويتبينه من رآه ثم القول في القمل والبراغيث والبعوض ثم القول في العنكبوت والنحل ثم القول في الحباري ثم القول في الضأن والمعز ثم القول في الضفادع والجراد ثم القول في القطا وقد بقيت ابقاك الله تعالى أبواب توجب الاطالة وتخرج الى الاطناب وليست باطالة مالم تجاوز مقدار الحاجة ووقف عند منتهى البغية وانما الالفاظ على اقدار المعاني فكثيرها لكثيرها وقليلها لقليلها وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الالفاظ الى أقل مما تحتاج اليه المعاني المشتركة والجهات الملتبسة ولو جهد جميع أهل البلاغة ان يخبروا من دونهم عن هذه المعاني بكلام وجيز يغني عن التفسير باللسان والاشارة باليد والرأس لماقدروا عليه ، وقد قال الأول اذا لم يكن ماتريد فرد مايكون وليس ينبغي ان يسوم اللغات مما ليس في طاقتها ويسوم النفس ماليس في جبلتها ولذلك صار يحتاج صاحب كتاب المنطق الى ان يفسره لمن طلب من قبله علم المنطق وان كان المتعلم رقيق اللسان حسن البيان الا أني لاأشك على حال ان النفوس اذا كانت الى الطرائف أحن وبالنوادر أشغف والي قصار الاحاديث أميل وبها أصب أنها خليقة لاستثقال الكثير وان استحقت تلك المعاني الكثيرة وان كان ذلك الطويل أنفع وذلك الكثير أود ، وسنبدأ بعون الله تعالى وتأييده بالقول في الحشرات والهمج وصغار السباع والمجهولات الخاملة الذكر من البهائم ونجعل ذلك كله بابا واحداً ونتكل بعد صنع الله تعالى على ان ذلك الباب اذا كان أبوابا كثيرة باسماء مختلفة ان القارئ لها لا يمل بابا حتى يخرجه الثاني الى خلافه وكذلك يكون مقام الثالث من الرابع والرابع من الخامس والخامس من السادس وليس الذي يعتمد عليه من شأن الحيوان عظم الجثة ولا كثرة العدد ولاثقل الوزن والغاية التي يجري اليها والغرض الذي يومي اليه غير ذلك لان خلق البعوضة ومافيهامن عجيب التركيب ومن غريب العمل كخلق الذرة وما فيها من عجيب التركيب ومن الاحساس

الصادقة والتدابير الحسنة ومن الروية والنظر فى العاقبة والاختيار لكل مافيه صلاح المعيشة ومع مافيها من البرهانات النيرة والحجج الظاهرة وكذلك خلق السرفة وعجيب تركيبها وصنعة كفها ونظرها فى عواقب أمرها وكذا خلق النحلة مع مافيها من غرائب الحكم وعجائب التدبير ومن التقدم فيما يعيشها والادخار ليوم العجز عن كسبها وشمها مالا يشم ورؤيتها لمالا يرى وحسن هدايتها والتدبير فى التأمير عليها وطاعة ساداتها وتقسيط أجناس الاعمال بينها على اقدار معارفها وقوة أبدانها فهذه النحلة وان كانت ذبابة فانظر قبل كل شئ فى ضروب انتفاع ضروب الناس فيها فانك تجدها أكبر من الجبل الشامخ والفضاء الواسع وكل شئ وان كان فيه من العجب العاجب ومن البرهان الناصع مايوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر فان بعض الأمور أكثر أعجوبة وأظهر علامة وكما تختلف برهاناتها في الغموض والظهور فكذلك تختلف فى طبقات الكثرة وان شملتها الكثرة ووقع عليها اسم البرهان ولعل هذا الجزء الذى نبتدئ فيه بذكرها في الحشرات والهمج أن يفضل من ورقه شئ فنرفعه ونتمه بجملة القول فى الظباء والذئاب فانهما بابان يقصران عن الطوال ويزيدان على القصار وقد بقى من الابواب المتوسطة المقتصدة المعتدلة التى قد أخذت من القصر لمن طلب القصر بحظ ومن الطول لمن طلب الطول بحظ وهو القول في البقر والقول فى الحمير والقول في كبار السباع وأشرافها ورؤسائها وذوى النباهة منها كالاسد والنمر والببر وأشباه ذلك مما يجمع قوة أصل الباب والذرب وشجر الفم والسعة وحدة البرثن وتمكنه في العصب وشدة القلب وصرامته عند الحاجة ووثاقة خلق البدن وقوته على الوثب وسنذكر تسالم المتسالمة منها وتعادى المتعادية منها وما الذى أصلح منها على السبعية الصرف واستواء حالها في اقتيات اللحمان حتى ربما استوت فريستها في الجنس وقد شاهدنا غير هذه الاجناس يكون تعاديها من قبل هذه الامور التي ذكرناها وليس فيما بين هذه السباع بأعيانها تفاوت فى الشدة فتكون كالأسد الذي يطلب الفهد ليأكله والفهد لايطمع فيه ولايأكله فوجدنا التكافؤ فى القوة والآلة من أسباب التفاسد وان ذلك ليعمل في طباع عقلاء الانس حتى يخرجوا الى تهارش السباع فما بالها لم تعمل هذا

العمل في أنفس السباع وسنذكر علة التسالم وعلة التعادي ولم طبعت رؤساء السباع على الغفلة وبعض ما يدخل في باب الكرم دون صغار السباع وسفلتها وحاشيتها وحشوها وكذلك أوساطها والمعتدلة الآلة والاسر ولم نذكر بحمد الله تعالى شيئاً من هذه الغرائب وطريفة من هذه الطرائف الا ومعها شاهد من كتاب منزل أو حديث مأثور أو خبر مستفيض أو شعر معروف أو مثل مضروب أو يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب أو من أكثر من قراءة الكتب أو بعض من قد دارس الاسفار وركب البحار وسكن الصحاري واستذرى الهضاب ودخل في الغياض ومشي في بطون الاودية وقد رأينا أقواما يدعون في كتبهم الغرائب الكثيرة والامور البديعة ويخاطرون من أجل ذلك بمروءتهم ويعرضون بأقدارهم ويسلطون السفهاء على أعراضهم ويجرون سوء الظن الي أخبارهم ويحكمون حساد النعم في كتبهم ويمكنون لهم من مقاليدهم وبعضهم ينظر على حسن الظن بهم أو على التسليم لهم والتقليد لدعواهم وأحسنهم حالا من يجب أن يتفضل عليه ببسط العذر له ويتكلف الاحتجاج عنه ولا ينافي أن يمن بذلك على عقبه أو من دان بدينيه أو اقتبس ذلك العلم من قبل كتبه ونحن حفظك الله تعالى اذا استنطقنا الشاهد وأحلنا على المثل فالخصومة حينئذ انما هي بينهم وبينها اذ كنا نحن لم نستشهد الا بما ذكرنا وفيما ذكرنا مقنع عند علمائنا الا أن يكون شيء يثبت بالقياس أو يبطل بالقياس فواضع الكتاب ضامن لتخليصه وتلخيصه وتبيينه واظهار خفيه فأما الابواب الكبار فمثل القول فى الابل والقول في فضيلة الانسان على جميع الحيوان كفضل الحيوان على جميع النامى وفضل النامى على جميع الجماد وليس يدخل فى هذا الباب القول فيما قسم الله لبعض البقاع من التعظيم دون بعض ولا لما قسم من الساعة والليالى والايام والشهور وأشباه ذلك لانه معني يرجع الى المخبرين بذلك من الملائكة والجن والآدميين فمن الابواب الكبار القول فى فضل ما بين الذكورة والاناث وفى فضل ما بين الرجل والمرأة خاصة وقد يدخل فى القول فى الانسان ذكر اختلاف الناس فى الاعمار وفى طول الاجسام وفى مقادير العقول وفى تفاضل الصناعات وكيف قال من قال في تقديم الاول وكيف قال

من قال فى تقديم الآخر فأما الابواب الأخر كفضل الملك على الانسان وفضل الانسان على الجان وهي جملة القول فى اختلاف جواهرهم وفى أى موضع يتشا كلون وفى أي موضع يختلفون فان هذه الابواب من الابواب المعتدلة فى القصر والطول وليس من هذه الابواب باب الا وقد يدخله نتف من ابواب أخر على قدرما يتعلق به من الاسباب ويعرض فيها من التضمير ولعلك ان تكون بها أشد انتفاعا، وعلى أنى ربما وشحت وفصلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام وطرف أخبار وغرر أشعار مع طرف مضاحك ولولا الذى نحاول من استعطافك على استمتاع انتفاعكم لقد كنا سجفنا وسجمنا شأن كتابنا، هذا واذا علم الله تعالى موقع النية وجهة القصد أعان على السلامة من كل تخوف ولم نجعل لما يسكن الملح والعذوبة والانهار والاودية والمنافع والمياه الجارية من السمك ومما يخالف السمك مما يعيش مع السمك بابا مجرد لانى لم أجد فى أكثره شعرا يجمع الشاهد ويوثق منه بحسن الوصف وينشطه بما فيه من غير ذلك للقراءة ولم يكن الشاهد عليه الا أخبار البحريين وهم قوم لا يعدون القول في باب العمل وكلما كان الخبر أغرب كانوا به أشد عجبا مع عبارة غثة ومخارج سمجة وفيه عيب آخر وهو ان معه من الطول والكثرة مالا تحتملونه ولو غناكم بجميعه مخارق وضرب عليه زلزل وزمر عليه برصوما فلذلك لم أتعرض له وقد أكثر في هذا الباب أرسطاطاليس ولم أجد فى كتابه وقد قلت لرجل من البحريين زعم أرسطاطاليس ان السمكة لا تبتلع الطعم أبداً الا ومعه شيء من ماء مع سعة المدخل وشره النفس فكان من جوابه ان قال لي ماعلم هذا الا من كان سمكة أو اخبرته به سمكة أوحدثه بذلك الحواريون أصحاب عيسى فانهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح وهذا البحري صاحب كلام وهو يتكلف معرفة العلل وهذا كله جوابه ولكني لم أقنع بذكر بعض ماوجدته فى الأشعار والاخبار اذا كان مشهوراً عند من ينزل الاسياف وشطوط الاودية والأنهار ويعرفه السماكون ويقربه الاطباء بقدر ما أمكن من القول وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الاخبار أن اياس بن معاوية زعم ان الشبوط كالبغل وأن أمها بُنية وأباها بحري وان من الدليل على ذلك أن الناس لم يجدوا

في بطن شبوطة قط بيضا وأنا أخبرك أني قد وجدته فيها مراراً ولكني وجدتها أصفر جثة وأبعد من الطيب ولم أجده عاما كما أجده في بطون جميع السمك فهذا قول أبي واثلة اياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي وصاحب الازكان وافوق من كور بن علقمة وداهية مضر في زمانه ومفخر من مفاخر العرب فكيف أسكن بعد هذا الى أخبار البحريين وأحاديث السماكين والى ما في كتاب رجل لعله ان لو وجد هذا المترجم ان يقيمه على المصطبة ويبرأ الى الناس من كذبه عليه ومن افساد معانيه بسوء ترجمته، والذى حضرنى من أسماء الحشرات مما يرجع عمود صورها الى قالب واحد وان اختلفت بعد ذلك في أمور فأول مايذكر من ذلك الضب والاجناس التي ترجع الى صورة الضب والورل والحرباء والوحوة والحلكة وشحمة الأرض والعيلم والتمساح وما أشبه ذلك ونحن قائلون في شأنه من الخضرات الظربان والعث والخفات والعرقد والعطرفوط والوبر وأم حنين والجعل والقرنبا والدساس والخنفساء والحية والعقرب والشيت والترتيلا والطبوع والحرقوص والدلم وقملة النسر والمثل والضمخ والقنفذ والنمل والذر والدساس تتشاكل في وجوه وتختلف من وجوه كالفارة والجرذان والرمك والخلد واليربوع وابن عرس وابن مقرض والنبر وهو دويبة اذا دب على جلد البعير تورم ولذلك يقول الشاعر وهو يصف ابله بالسمن

كأنها من بدن واستيشار * دبت عليها ذربات الانبار

ومنها العقر الذى يقال له متونه وهي شرمتي الجرارة والسمخ وسنقول في الاجناس التى يكون في الجنس منها الوحشي والاهلي كالفيلة والخنازير والبقر والحمير والسنانير والظباء قد تدجن وتولد على صعوبة فيها وليس في أجناس الابل جنس وحشى الا في قول الاعراب ومما يكون أهليا ولا يكون وحشيا فهى كالكلاب ولا يتوحش منها الا الكلب وأما الضباع والذئاب والاسد والنمور والببور والثعالب وبنات آوي فوحشية كلها وقد يعلم الاسد وينزع نابه ويطول ثواؤه مع الناس حتى يهرم مع ذلك ويحس بعجزه عن الصيد ثم هو في ذلك لا يؤمن عرامه ولا شروده ان انفرد عن سواسه وأبصر غيضة قدامها صخر صار فيها وقد كان بعض الاعراب ربى جرو ذئب حتى

شب وظن أنه يكون أغنى غناء من الكلب وأقوى على الذب عن الماشية فلما قوى شيئا وثب على شاة فذبحها وكذلك يصنع الذئب ثم أكل منها فلما أبصر الرجل أمره قال

أكلت شويهتي وربيت فينا * فمن أنباك أن أباك ذيب

وقد أنكر ناس من أصحابنا هذا الحديث وقال لم يكن ليألفه ويقيم معه بعد أن اشتد عظمه ولم يذهب مع الذئاب والضباع ولم تكن البادية أحب اليه من الحاضرة والقفار أحب اليه من المواضع المأنوسة وليس يصير السبع من هذه الاجناس أو الوحشى من البهائم أهليا بالمقام فيهم وهو لا يقدر على الصحاري وانما يصير أهليا اذا ترك منازل الوحوش وهي له معرضة وقد تتسافد وتتوالد فى الدور وهى بعد وحشية وليس ذلك فيها بعام، ومن الوحش ما اذا صار الى الناس وفى دورهم ترك السفاد ومنها ما لا يطعم ولا يشرب البتة بوجه من الوجوه، ومنها ما يكره على الطعم ويدخل فى حلقه كالحية ومنها ما لا يسفد ولا يدجن ولا يطعم ولا يشرب ولا يصيح حتى يموت وهذا المعنى فى وحشى الطير أكثر، والذى يحكى عن السوراني القناص الجبلي ليس بناقض لما قلنا لان الشئ الغريب والنادر الخارجى لا يقاس عليه وقد زعموا أنه بلغ من حذقه بتدريب الجوارح وتضريتها أنه ضرى ذئبا حتي اصطاد به الظباء وما دونها صيداً ذريعا وأنه ألفه حتي رجع اليه من ثلاثين فرسخا وقد كان بعض العمال سرقه منه وقد ذكروا أن هذا الذئب صار الى العسكر وأن هذا السورانى ضرى أسداً حتى اصطاد له الحمير فما دونها صيداً ذريعا وانه ضرى الزنابير فاصطاد بها الذبان وكل هذا عجب وهو غريب نادر بديع خارجى وذكر أنه من قيس عيلان وأن حليمة ظئر النبى صلى الله عليه وسلم قد ولدته وليس عندى فى الحمار الهندى شئ وقد ذكره صاحب المنطق، فأما الذئاب وفارة المسك والفنافذ والسنجاب والسمور وهذه الدواب دواب الفراء والوبر الكثيف الناعم والمرغوب فيه والمنتفع به فهي عجيبة وانما نذكر مايعرفه أصحابنا وعلماؤنا وأهل باديتنا ألا ترى أنى لم أذكر الجريش والرجس ولا هذه السباع المشتركة الخلق المتولدة فيما بين السباع المختلفة الاعضاء المتشابهة الارحام التى اذا صار بعضها فى أيدي القرادين والمكتسبين الطوافين وضعوا لها أسماء فقالوا

مقلاس وكلاس وسلقطير وحلفطير وأشباه ذلك حين لم يكن من السباع الاصلية المشهورة النسب والمعروفة بالنفع والضرر وقد ذكرنا منها ما كان مثل الضبع والسبع والعسبار اذ كانت معروفة عند الاعراب مشهورة فى الاخبار منوها بها فى الاشعار وانما اعتمد فى مثل هذا على ماعند الاعراب وان كانوا لم يعرفوا شكل مااحتيج اليه منها من جهة العلابة والفلابة ولا من جهة التذاكر والتكسب ولكن هذه الاجناس الكثيرة ما كان منها سبعا أو بهيمة أو مشترك الخلق فانما هي مبثوثة فى بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط أو غيضة أو رملة أو رأس جبل وهي في منازلهم وماشيتهم فقد نزلوا كما ترى بينها وأقاموا معها وهم أيضا من بين الناس وحش وأشباه الوحش وربما بل كثيراً مايبتلون بالناب والمخلب واللدغ واللسع والعض والأكل فخرجت بهم الحاجة الى تعرف حال الجاني والجارح والقاتل وحال المجني عليه والمجروح والمقتول وكيف الطلب والهرب وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر مع مايتوارثون من المعرفة بالداء والدواء ومن هذه الجهة عرفوا الآثار في الارض والرمل وعرفوا الانواء ونجوم الاهتداء لان كل من كان بالصحاصح الامالس حيث لا أمارة ولا هادى مع حاجته الى بعد المشقة مضطرا الى التماس ماينجيه ويؤديه ولحاجته الى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة اضطرته الحال الى تعرف شأن الغيث ولانه فى كل حال يري السماء وما يجرى فيها من كوكب ويري التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يصير منها مجتمعا ومايصير مفترقا ومايصير منها بارداً وما يكون منها راجعا ومستقيما ، وسئلت اعرابية فقيل لها أتعرفين النجوم قالت سبحان الله اما أعرف أشباحا وقوفا عليّ كل ليلة وقال اليقطري وصفت اعرابية لبعض أهل الحاضرة نجوم الانواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس فقال قائل لشيخ عبادي كان حاضراً أما ترى هذا الاعرابي يعرف من النجوم مالا نعرف قال ويل أمك من لايعرف أجزاع بيته قال وقلت لشيخ من الأعراب قد خرف وكان من دهاتهم انى لااراك عارفا بالنجوم قال أما انها لو كانت أكثر لكنت بشأنها أبصر ولو كانت أقل لكنت لها أذكر وأكثر سبب ذلك كله بعد فرط

الحاجة وطول المداومة رقة الاذهان وجودة الحفظ ولذلك قال مجنون من الاعراب لما قال له أبو الاصبع بن ربعى أما تعرف النجوم قال ومالى لا أعرف من لايعرفنى فلو كان لهـذا الاعرابي المجنون مثـل عقول أصحابه لعرف مثـل ماعرفوا ولو كان عندى فى أبدان السمور والفنك والقاقم ماعندي في أبدان الارانب والثعالب دون فرائها لذكرتها بما قل أو كثر لكنه لاينبغى لمن قل علمه أن يدع تعليم من هو أقل منه علما ولوكانت الدساس من أصـناف الحيات لم نخصها من بينها بالذكر ولكنها وان كانت على قالب الحيات وخرطها وأفرغت كافـراغها وعلى عمود صورها دون خصائصها كما يناسبها فى ذلك الخفات والعربد وليسا من الحيات كما ان هذا ليس من الحيات لان الدساس ممسوحة الاذن وهى مع ذلك مما يلد ولا يبيض والمعروف فى ذلك ان الولادة هي في الاشراف والبيض فى الممسوح وقـد زعم ناس ان الولادة لاتخرج الدساس من اسم الحيـة كما ان الولادة لاتخرج الخفاش من اسم الطير وكل ولد يخرج من بيضـه فهو فرخ الاولد بيض الدجاج فانه فروج والاصـناف التي ذكرناها مـع ذكر الضب تبيض كلها أو يسمي ولدها بالاعم فرخا وزعم لى ابن أبى العجوز ان الدساس تلد وكذلك خبرنى به محمد بن أيوب بن جعفر عن أبيه وخبرنى به الفضل عن اسحاق بن سليمان فان كان خبرهما عن اسحاق فقد كان اسحاق في معادن العلم ، وقد زعموا بهذا الاسناد ان الاروية تضع مع كل ولد وضعته أفعى فى مشيمة واحـدة وقال الآخرون الأروية لاتعرف بهـذا المعني ولكنه ليس فى الارض ثمرة الاوهي تضع ولدها وفى عنقها أفعى في مكان الطوق وذكروا أنهـا تنهش وتعض ولاتقتل ولم اكتب هذه للتقوية ولكنها آية أحببت أن تسمعها ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لايعجبني الانكارله ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل وبعـد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بهامواضع اليقين والحالات الموجبة له وتعلم الشك فى المشكوك فيـه تعلما فلو لم يكن ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت لقـد كان ذلك مما يحتاج اليـه ثم أعلم ان الشك فى طبقات عنـد جميعهم ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات فى القوة والضعف ولما قال أبو الجهم للمكى أنا لا أكاد

أشك قال المكي وأنا لا أكاد أوقن نفخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين وقال أبو اسحاق نازعت الملحدين والشكاك فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود وقال أبو اسحاق الشاك أقرب اليك من الجاحد ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم ينتقل أحد عن اعتقاد الي اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك وقال أبو الجهم ما أطمعني في أوبة المتحير لان كل من اقتطعته عن اليقين الحيرة فضالته اليقين ومن وجد ضالته فرح بها وقال عمرو بن عبيد تقرير لسان الجاحد أشد من تعريف قلب الجاهل وقال أبو اسحاق اذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم وفي أي طبقة هو وأردت أن تدخله الكير وتنفخ عليه ليظهر لك فيه الصحة من الفساد أو مقداره من الصحة والفساد فكن عالما في صورة متعلم ثم أسأله سؤال من يطمع في بلوغ حاجته منه، والعوام أقل شكوكا من الخواص لانهم لا يتوقفون في التصديق ولا يرتابون بأنفسهم فليس عندهم الا الاقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد وألغوا الحال الثالثة من حال الشك التي تشتمل على طبقات الشك وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك وعلى مقادير الاغلب وسمع رجل ممن قد نظر بعض النظر تصويب العلماء لبعض الشكاك باجراء ذلك في جميع الامور حتى زعم أن الامور كلها يعرف حقها وباطلها بالاغلب وقد مات ولم يخلف عقبا ولا واحداً يدين بدينه فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكن أسأت ولكني على حال أكره التنويه بذكر من تحرم بحرمة الكلام وشارك المتكلمين في أسماء الصناعة ولا سيما ان كان ممن ينتحل تقديم الاستطاعة فأما القول في الاوعال والتباتل والايايل وأشباه ذلك فلم يحضرنا فيها ما نجعل لذكرها بابا مبوبا ولكننا سنذكرها في مواضع ذكرها من تضاعيف هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

الضب

وأنا مبتدئ على اسم الله تعالى في القول في الضب على أني اذم هذا الكتاب في الجملة لان الشواهد على كل شيء وقعت متفرقة غير مجتمعة ولو قدرت على جمعها لكان

ذلك أبلغ في تزكية الشاهد وأنور للبرهان وأسلاً للنفس وأمتعها بحسن الوصف وأحمده لان جملة الكتاب على حال مشتملة على جميع الحجج ومحيطة بجميع تلك البرهانات وان وقع بعضه في مكان بعض وتأخر متقدم وتقدم متأخر، قالوا من كيس الضب أن لا يتخذ جحره الا في كدية وهو الموضع الصلب أو في الارتفاع عن المسيل والبسيط ولذلك توجد براثنه ناقصة كليلة لانه يحفر في الصلابة ويعمق الحفر ولذلك قال خالد بن الصيفان

وولى كولى الزبرقان حملته * كما حملت ساق تهاض بها كسر
اذا ما أحالت والجبائر فوقها * مضى الحول لا برء مبين ولا جبر
تراه كأن الله يجدع أنفه * وأذنيه ان مولاه ثاب له وفر
ترى الشر قد أفنى دوائر وجهه * كضب القرى أفنى براثنه الحفر

﴿ وقال كثير ﴾

فان شئت قلت له صادقا * وجدتك بالقف ضبا جحولا
من اللائى يحفرن تحت الكدي * ولا يبتغين الدماث السهولا

﴿ وقال دريد بن الصمة ﴾

وجدنا أبا الجبار ضبا مورشاً * له في الصفاة برثن ومعاول
له كدية أعيت على كل قانص * ولو كان منهم حارشان وحابل
ظللت أراعي الشمس لولا ملالتي * تزلع جلدي عنده وهو قائل

وأنشد أيضا لدريد بن الصمة

وعوراء من قيل امرئ قد رددتها * بسالمة العينين طالبة عذرا
ولو انني اذ قالها قلت مثلها * وأكثر منها اورثت بيننا غمرا
فأعرضت عنها وانتظرت به غداً * لعل غداً يبدى لمنتظر أمرا
لأخرج ضبا كان تحت ضلوعه * وأقلم أظفاراً أطال بها الحفرا

وقال أوس بن حجر في اكل الصخر للاظفار

فأشرط فيها نفسه وهو معصم * وألقى بأسباب له وتوكلا

وقد اكلت اظفاره الصخر كلما * تعايا عليه طول مرقا توصلا

وقد وصفوا الضب كما ترى بأنه لا يحفر الا فى كدية ويطيل الحفر حتى تفني براثنه ويتوخي به الارتفاع عن مجارى المياه وعن مدق الحوافر لكيلا ينهار عليه بيته ولما علم أنه نساء سيئ الهداية لم يحفر وجاره الا عند أكمة أو صخرة أو شجرة ليكون متى تباعد من جحره لطلب الطعم أو لبعض الخوف رآه فأحسن الاهتداء الى جحره ولانه اذا لم يقم علما فلعله أن يلح عليه ظربان أوورل فلا يكون دونا كله له شيء فقالت العرب خب ضب وأخب من ضب وأخدع من ضب وكل ضب عند مرداته واذا خدع فى زوايا حفيرته فقد توثق لنفسه عند نفسه ولهذه العلة اتخذ اليربوع القاصعاء والنافقاء والداماء والراهطاء وهى أبواب قد اتخذها لحفيرته فمتى أحس بشيء خالف تلك الجهة الى الباب ولهذا وشبهه من الحذر كان التوبير من الارانب وأشباهها والتوبير أن تطأ على زمعاتها فيعرف الكلب والقائف من أصحاب القنص آثارقوائمها ولما أشبه هذا التدبير صار هذا الظبي لايدخل كناسه الا وهو مستدبر يستقبل بعينيه مايخافه على نفسه وخشفه وقد جمع يحيي بن منصور الذهلى أبوابا من حزم الضب وخبثه وتدبيره الا أنه لم يرد تفضيل الضب فى ذلك ولكنه بعد ان قدمه على حمقاء الرجال قال فكيف لو فكرتم فى حزم اليربوع والذئب وأنشدنى فقال

وبعض الناس أنقص رأى حزم * من اليربوع والضب المكون
يرى مرداته من رأس ميل * ويأمن سيل بارقة هتون
ويحفر فى الكدى خوف انهيار * ويجعل مكره رأس الوجين
ويخدع ان أردت له احتيالا * رواغ الفهد من أسد كمين
ويدخل عقربا تحت الذنابي * ويعمل كيد ذى خدع طبين
فهذا الضب ليس بذي حريم * مع اليربوع والذئب اللعين

وقد ذكر يحيي جميع ما ذكرنا الا احتياله باعداد العقارب لكف المحترش وانه لم يذكر هذه الحيلة من عمله وسنذكر ذلك فى موضعه والشعر الذى يكتب له ذلك كثير فهذا شأن الضب فى الحفر واحكام شأن منزله، ومن كلام العرب أن الورل انما يمنعه من

اتخاذ البيوت لان اتخاذها لا يكون الا بالحفر والورل يبقى براثنه ويعلم أنها سلاحه التي
بها يقوى على ما هو أشد بدنا منه وله ذنب يؤكل ويستطاب كثير الشحم والاعراب لا
يصيدون يربوعا ولا قنفذا ولا ورلا من أول الليل وكذلك كل شيء يكون عندهم من
مطايا الجن كالنعام والظباء ، ولا تكون الارنب والضبع من مراكب الجن لان الارنب
تحيض ولا تغتسل من الحيض والضباع تركب أيور القتلى والموتى اذا جيفت أبدانهم
وانتفخوا وأنعظوا ثم لا تغتسل عندهم من الجنابة ولا جنابة الا ما كان للانسان فيه
شرك ولا تمتطى القرد لان القرد زان ولا يغتسل من جنابة فان قتل الاعرابي قنفذا
أو ورلا من أول الليل أو بعض هذه المراكب لم يأمن على فحل ابله ومتى اعتراه
شيء حكم بأنه عقوبة من قبلهم ، قالوا ويسمعون الهاتف عند ذلك بالنعى وبضروب
الوعيد وكذلك يقولون فى الجان من الحيات وقتل الجان عندهم عظيم ولذلك رأى
رجل منهم جانا في قعر بئر لا يستطيع الخروج منها فنزل على خطر عظيم حتى
أخرجها ثم أرسلها من يده فانسابت وغمض عينيه لكي لا يرى مدخلها كأنه يريد
الاخلاص في التقرب الى الجن قال المازنى فأقبل عليه رجل فقال له كيف يقدر على
أذاك من لم ينقذه من الاذى غيرك ، وقال ثلاثة أشياء لا يتم بها التدبير اذا دخلت
الاسراب والأنفاق والمكا والمولج حتي يغص بها الخرق فمن ذلك أن الظرباء اذا
أراد أن يأكل حسل الضب أو الضب نفسه اقتحم جحر الضب مستدبراً ثم التمس
أضيق موضع فيه فاذا وجده قد غص به وأيقن أنه قد حال بينه وبين النسيم فسا
عليه فليس يجاوز ثلاث فسيات حتي يغشى على الضب فيأكله والآخر الرجل اذا دخل
وجار الضبع ومعه حبل فاذا لم يسد ببدنه وبثوبه جميع المخارق والمنافذ ثم وصل الى الضبع
بمقدار سم الابرة وثبت عليه فقطعته ولو كان أشد من الاسد والثالث أن الضب اذا
أراد أن يأكل حسوله وقف لها من جحرها فى أضيق موضع من منفذه الى خارج
فاذا أحكم ذلك بدأ فأكل منها فاذا امتلأ جوفه انحط عن ذلك المكان شيئا قليلا فلا
يفلت منه شيء من ولده الا بعد أن يشبع ويزول عن موضعه فيجد منفذاً ، وقد قال

بعض الأعراب

ينشب في المسالك عند سلنه * تزاحم الضب عصافي كديه

قال والدليل على أن الضب يأكل ولده قول عملس بن عقيل لابيه

أكلت بنيك أكل الضب حتي * وجدت مرارة الكلأ الوبيل
فلو أن الاؤلى كانوا شهوداً * منعت فناء بيتك من بجيل

﴿ وأنشد لغيره ﴾

أكلت بنيك أكل الضب حتى * تركت بنيك ليس لهم عديد

وقال عمرو بن مسافر عتبت على أبي يوما في بعض الامر فقلت

كيف ألوم أبي طيشا ليرحمني * وجده الضب لم يترك له ولدا

﴿ وقال خداش بن زهير ﴾

فان سمعتم بجيش سالكا شرفا * أوبطن قو فاخفوا الحس واكتتموا
ثم ارجعوا فاكبوا في بيوتكم * كما أكب على ذى بطنه الهرم

جعله هرما لطول عمره وذى بطنه ولده وقال أبو بكر بن أبى قحافة رضي الله تعالى عنه انى كنت نحلتك سبعين وسقاً من مالى بالعالية وانك لم تحوزيه وانما هو مال الوارث وانما هو أخوك وأختك قالت ما أعرف لى أختا غير أسماء قال انه قد ألقى فى روعى أن ذا بطن خارجة جارية قال آخرون ولم يعن بذي بطنه ولده ولكن الضب يرمي ما أكل أى بقيء ثم يرجع فيأكله فذلك هو ذو بطنه فشبهوه فى ذلك بالكلب والسنور، وقال عمرو بن مسافر ما عنى الا أولاده فكان خداشا قال ارجعوا عن الحرب التى لاتستطيعونها الى أكل الذرية والعيال قال وقال أبو سليمان الغنوي ابرأ الى الله تعالى من أن تكون الضبة تأكل أولادها ولكنها تدفنهم وتضع عليهم التراب وتتعهدهن في كل يوم حتى يخرجن وذلك فى ثلاثة أسابيع غير ان الثعالب والظربان والطير تحفر عنهن فتأكلهن ولو أفلت منهن كل فراخ الضباب لملأن الارض جميعا، ولو أن انسانا نحل أم الدرداء أو معاذة العدوية أو رابعة القيسية أنهن يأكلن أولادهن لما كان عند أحد من الناس من انكار ذلك ومن التكذيب عنهن ومن استعظام هذا القول أكثر مما قاله أبو سليمان فى التكذيب على الضباب أن تكون تأكل أولادها، قال

أبو سليمان ولكن الضب يأكل بعره وهو طيب عنده وأنشد

يعود في تيمه حدثان مولده * فان أسن تغذى نجوه كلفا

قال وقال ابان بن لقيط التيم التى ء ولكن ماروينا هكذا انما قال يعود فى رجعه وكذلك الضب يأكل رجعه وزعم أصحابنا أن أبا المنجوف السدوسى روى عن أبى الوجيه العكلى قوله

وأفطن من ضب اذا خاف حارشا * أعد له عند التلمس عقربا

جملة القول في نصيب الضباب من الاعاجيب والغرائب

أول ذلك طول الذماء وهو بقية النفس وشدة انعقاد الحياة والروح بعد الذبح وهشم الرأس والطعن الجائف النافذ حتى يكون في ذلك أعجب من الخنزير ومن الكلب ومن الخنفساء وهذه الاشياء التى قد تفردت بطول الذماء ثم شارك الضب الوزغة والحية فان الحية تقطع من ثلث جسمها فتعيش ان سلمت من الذر فجمع الضب الخصلتين جميعاً الا ما رأيت فى دخال الاذن من هذه الخصلة الواحدة فاني كنت اقطعه بنصفين فيمضى أحد نصفيه يمنة والآخر يسرة الا انى لا أعرف مقدار بقائهما بعد ان فاتا بصرى، ومن أعاجيبه طول العمر وذلك مشهور في الاشعار والأخبار ومضروب به المثل فشارك الحيات في هذه الفضيلة وشارك الافعى الرملية والصخرية فى أنها لا تموت حتف أنفها وليس الا أن تقتل أو تصطاد فتبقي فى جون الحوائين تذلها الايدى وتكره على الطعم فى غير أرضها وهوائها حتى تموت أو تحملها السيول فى الشتاء وزمان الزمهرير فما أسرع موتها حينئذ لأنها صردة وتقول العرب أصرد من حية كما تقول أعدى من حية وقال القشيرى والله لهي أصرد من حية حرباء وحتوفها التى تسرع اليها ثلاثة أشياء أحدها مرور أقاطيع الأبل والشاء وهي منبسطة على وجه الارض اما للتشرق نهاراً في أوائل البرد وأما للتبرد ليلا في ليالى الصيف وإما لخروجها في طلب الطعم والخصلة الثانية ما سلط عليها من القنافذ والأوعال والورل فانها تطالبها مطالبة شديدة وتقوى عليها قوة ظاهرة والخنازير تأكلها وقد ذكرنا ذلك في باب

القول فى الحيات والخصلة الثالثة تكسب الحوائين بصيدها وهى تموت عندهم سريعاً والضب يشاركها في طول العمر ثم بالا كتفاء بالنسيم والتعيش ببرد الهواء وذلك عند الهرم وفناء الرطوبات وتقصر الحرارات وهذه كلها عجب ثم اتخاذ الجحر فى الصلابة وفى بعض الارتفاع خوفا من الانهدام وسيل المياه ثم لا يكون ذلك الا عند علم يرجع اليه ان هو أضل جحره ولو رأى بالقرب ترابا متراكبا بقدر تلك المزادة والصخرة لم يحفل بذلك فهذا كله كيس وحزم وقال الشاعر

سقي الله أرضا يعلم الله أنها * غذية بطن القاع طيبة البقل
يذود بها بيتا على رأس كدية * وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل

وقال البطين

وكل شيء مصيب في تعيشه * الضب كالنون والانسان كالسبع

ومن أعاجيبه ان له ايرين وللضبة حرين وهذا شيء لايعرف الا لهما فهذا قول الأعراب وأما قول كثير من العلماء ومن نقب فى البلاد وقرأ الكتب فانهم يزعمون ان للسقنقور أيرين وهو الذي يتداوي به العاجزعن النكاح ليورثه تلك القوة ، قال وللحرذون أيضا أيرين وانهم عاينوا ذلك معاينة وآخر من زعم لى ذلك موسى بن ابراهيم والحرذون دويبة تشبه الحرباء تكون بناحية مصر وما والاها وهي دويبة مليحة موشاة بالوان ونقط وقال جالينوس الضب الذى له لسانان يصلح لحمه لكذا وكذا فهذه أيضاً أعجوبة أخري فى الضب وان يكون بعضه ذا لسانان وذا ايرين ومن أعاجيب الضبة أنها تأكل أولادها وتجاوز فى ذلك خلق الهرة حتى قالت الأعراب أعق من ضب، وزعمت العرب انه يعد العقرب فى جحره فاذا سمع صوت الحرش استثفرها فألصقها بأصل عجب الذنب من تحت وضم عليها فاذا أدخل الحارش يده ليقبض على أصل ذنبه لسعته العقرب وقال علماؤهم بل هى تهيء العقارب فى جحرها لتلسع المحترش اذا أدخل يده ، وقال أبو المنجد بن رويشد رأيت الضب احرز دابة فى الارض على الحر تراه أبداً في شهرناجر بباب جحره متداخلا لا يخاف ان يقبض قابض بذنبه فربما أتاه الجاهل ليستخرجه وقد أتي بعقرب فوضعها تحت ذنبه

بينه وبين الارض يحبسها بعجب الذنب فاذا قبض الجاهل على أصل ذنبه لسعته فيشتغل بنفسه ، فأما اهل المعرفة فان معه عويداً يحركه هناك فاذا زالت العقرب قبض عليه ، وقال أبو الوجيه كذب والله من زعم ان الضبة تستثفر عقربا ولكن العقارب مسالمة للضباب لانها لا تعرض لبيضها وفراخها والضب يأكل الجراد ولا يأكل العقارب وأنشد قول التميمي الذى كان ينزل به الازدى أنه ليس الى الطعام بقصد وليس به الا أنه قد صار به إلفا وأنيسا فقال

أتأنس بى ونجرك غير نجرى * كما بين العقارب والضباب

﴿ وأنشد ﴾

تجمعن عند الضب حتى كأنه * على كل حال اسود الجلد خنفس

لان العقارب تألف الخنافس وأنشدوا للحكم بن عمرو البهراني

والوزغ الرقط على ذلها * تطاعم الحيات فى الجحر

والخنفس الاسود من نجره * مودة العقرب فى السر

لانك لا تراهما أبداً الا ظاهرتين يطاعمان أو يتسايران ومتى رأيت مكنة أو اطلعت على جحر فرأيت احدهما رأيت الاخرى قال ومما يؤكد القول الاول قوله

ومستثفر دون الثوبة عقربا * لقد جئت مجريا من الدهر اعوجا

ويقول حين لم يرض من الدهر أعوجا والمكر الابعد تخالف عند الناس وتجوزهم وأنشدني ابن داحة ابن جزيمة بن دادعم عيسي بن زيد الذي يقال له ابن داد فى حديث طويل من احاديث العشاق

لئن خدعت حبا بسب مزعفر * فقد يخدع الضب المخادع بالتمر

لان الضب شديد العجب بالتمر فضرب مثلا فى الخبث والخديعة والذي يدل على ان الضب والعقرب يعجبان بالتمر عجباً شديداً ماجاء فى الأشعار من ذلك وأنشدنى ابن الاعرابى لابن دعمى العجلي

سوى أنكم دربتم فجريتم * على دربة والضب يختل بالتمر

فجعل صيده بالتمر كصيده بالحبالة وانشدني القشيري

وما كنت ممن يخرج الثمر ضغنه * ولا أنا ممن يزدهيه وعيد

وقال بشر بن المعتمر فى قصيدته التى ذكر فيها آيات الله تعالى فى صنوف خلقه مع ذكر الأباضية والرفضة والحشوية والنابتة فقال فيها

وهقلة ترتاع من ظلها * لها عرار ولها زمر
وضبة تأكل أولادها * وعترفان بطنه صفر
فلو ترى الضب وتأذينه * منجم ليس له فكر
وظبية تخضم فى حنظل * وعقرب يعجبها التمر

﴿ وقال أيضا بشر فى قصيدة له اخرى ﴾

اما ترى الهقل وامعاءه * يجمع بين الصخر والجمر
وفارة البيش على بيشها * احرص من ضب علي تمر

﴿ وقال ابو دارة وقد رأيته أنا وكان صاحب قنص ﴾

* وما التمر الا آفة وبلية * على جل هذا الخلق من ساكنى البحر
وفي البر من ذئب وسمع وعقرب * وتدملة تسعى وخنفسة تسري
وقد قيل فى الامثال ان كنت راعيا * عذيرك ان الضب يختل بالتمر

وسنفسر معانى هذه الابيات اذا كتبنا القصيدتين على وجوهها بما يشتملان عليه من ذكر الغرائب والحكم والتدبير والاعاجيب التي أودع الله تعالى أصناف هذا الخلق ليعتبر معتبر ويفكر مفكر فيصير بذلك عاقلا عالماً وموحداً مخلصا والدليل على ماذكرنا من تفسير قولهم الضب أطول شيء ذماء قولهم انه لأحيا من ضب لان حارشه ربما ذبحه فاستقصى فرى الاوداج ثم يدعه فربما تحرك بعد ثلاثة أيام وقال أبو ذؤيب الهذلى

ذكر الورود بها وأجمع أمره * شوقا واقبل حيه يتتبع
فأبرهن حتوفهن فهارب * بذمائه اوساقط متجعجع

وكان الناس يرون فهارب بدمائه يريدون من الدم وكانوا يكسرون الدال حتى قال الاصمعي بذمائه معجمة الذال مفتوحة وقال كثير

ولقد شهدت الخيل يحمل شكتي * متلمظ خذم العثار يريم *

باقي الدماء اذا ملكت مناقل * واذا جمعت به أجش مريم

والضب اذا خدع في جحره وصف عند ذلك بالخبث والمكر ولذلك قال الشاعر

وان لنا شيخين لاينفعاننا * غنيين لا يجدي علينا غناهما

كأنهما ضبان ضبا مغارة * كبيران غيداقان صفر كشاهما

فان يختلا لايؤخذا في حبالة * وان يرصدا يوما يخب راصداهما

ولذلك شبهوا الحقد الكامن في القلب الذي يسري ضرره وتدب عقاربه بالضب فسموا ذلك الحقد ضبا قال معن بن أوس

* ألا من لمولى لايزال كأنه * صفا فيه صدع لايدانيه شاعب

تدب ضباب الغش تحت ضلوعه * لاهل الندى من قومه بالعقارب

﴿وقال أبو دهبل الجمحي﴾

واعلم باني لمن عاديت مضطغن * ضبا واني عليه اليوم محسود

وأنشد ابن الاعرابي

يارب مولى جاهد مباغض * عليّ ذي ضغن وضب فارض

له قروء كقروء الحائض

كأنه ذهب الى ان حقده يخبو تارة ثم يستعر ثم يخبو ثم يستعر وقال ابن ميادة وضرب المثل بنفخ الضب وثبته

فان لقيس من بغيض أقاصياً * اذا أسد كشت لعجز ضبابها

وقال الآخر

فلا يقطع الله اليمين التي طشت * حجاجي منيع بالفنا من دم سجلا

ولو كنت أعلى ذي رميث حبلتها * إذا ظل يمطو من حبالكم حبلا

والضب يوصف بشدة الكبر ولاسيما إذا اخصب وأمن وصار كما قال عبدة بن الطبيب فانه ضرب به المثل حيث يقول ليحيى بن هزال :

لا أعرفنك يوم الورد ذا لغط * ضخم الجزارة بالسلمين وكار

يكفي الوليدة ذا الرعيان مؤتزراً * فاحلب فانك حلاب وصرار
ما كنت أول ضب صاب تلعته * غيث فامرع واسترخت به الداز

وقال ابن ميادة

ترى الضب ان لم يرهب الضب غيره * يكش له مستكثراً ويطاوله

وقال دعلج بن عبد المجاب

اذا كان بيت الضب وسط مضبة * تطاول للشخص الذي هو جاهله

المضبة مكان ذا ضباب كثيرة ولاتكثر الا وقربها حية أو ورل أو ظربان ولا يكون ذلك الا في موضع بعيد من الناس فاذا أمن وخلاله جوه وأخصب نفخ وكش نحو كل شيء يريده ومما يوصف بالكبر الثور في حال تشرقه وفي حال مشيته الخيلاء في الرياض عند غب ديمة ولذلك قال الكميت

كشبوب ذي كبرياء من الوحـ * ـدة لا يبتغي عليها ظهيرا

وهذا كثير وسيقع في موضعه من القول في البقر، ومما يوصف بالكبر الجمل الفحل اذا أطافت به نوق الهجمة ومر نحو ماء وكلاء فتبعته وقال الراجز

فان تشردن حواليه وقف * قالب حملا فيه في مثل الجرف
يوزد لحد عينه لما طرف * كبراً واعجابا وعزاً وترف

والناقة يشتد كبرها اذا لقحت وتزم بأنفها وتزم على صحابتها وأنشد الاصمعي

وهو اذا أراد منها عرسا * دهماء مرباع اللقاح جلسا
عاينها بعد السيان أنسا * حتى تلاقيه مخاضا قمسا
حتى احتشت في كل نفس نفسا * على الدوامي ضامرات خرسا
جوط مسرات لقاحا ملسا

وأما قول الشماخ

جمالية لو يجعل السيف عرضها * على حدة لاستكبرت أن تصونها

فليس من الاول في شيء والمذكورن من الناس بالكبر ثم من قريش بنو مخزوم وبنو أمية ومن العرب بنو جعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عدس خاصة، فأما الا كاسرة

من الفرس فكانوا لا يعدون الناس الا عبيداً وأنفسهم الا أربابا ولسنا نخبر الا عن دهماء الناس وجمهورهم وكيف كانوا من ملوك وسوقة، والكبر في الاجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم فصار لا يعرف ذلك الا أهل المعرفة كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود، والجملة أن كل من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ظهر من كبره على من تحت قدرته على مراتب القدرة ما لا خفاء به فان كان ذميا وأحس بماله في صدور الناس تزيد في ذلك واستظهرت به طبيعته بما يظن أن فيه رقع ذلك الخرق وحياض ذلك الفتق وسد تلك الثلمة فتفقد ما أقول لك فانك ستجده فاشياً وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكا من الحر، وشيء قد قتلته علما وهو انى لم أر ذا كبر قط على من دونه الا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه فأما بنو مخزوم وبنو أمية وبنو جعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عدس فابطرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة ولو كان في قوى عقولهم ودياناتهم فضل على قوى دواعى الحمية فيهم لكانوا كبنى هاشم في تواضعهم وفي انصافهم لمن دونهم وقد قال في شبيه بهذا المعنى عبدة بن الطبيب حيث يقول

ان الذين ترونهم خلانكم * يشفي صداع رؤسهم ان تصدعوا
فضلت عداوتهم على أحلامهم * وأبت ضباب صدورهم لاتنزع

فأما ماذكروا ان للضب ايرين وللضبة حرين فهذا من العجب ولم نجدهم يشكون وقد يختلفون ثم يرجعون الى هذا العموم وقال الفزاري

جبا المال عمال الخراج وجبوتى * محذفة الاذناب صفر الشوا كل
رعين الدبا والبقل حتى كانما * كساهن سلطان ثياب المراجل
سبحل له نز كأن كان نضله * علي كل حاف في البلاد وناعل
ترى كل ذيال اذا الشمس عارضت * سما بين عرسيه سمو المخاتل

واسم ايره النزك معجمة الزاي والنون من فوق بواحدة وساكنة الزاى فهذا قول الفزاري وانشد الكسائي

تفـرقتم لازلتم قـرن واحـد * تفرق اير الضب والاصل واحد

فهذا يؤ كد ما رواه ابو خلة النميرى عن أبي حية النميرى قال ابو خلة سئل ابو حية عن ذلك فزعم ان اير الضب كلسان الحية الأصل واحد والفرع اثنان وبعض أهل التفسير يزعم ان الله تعالى عاقب الحية حين أدخلت ابليس في جوفها حتي كلم آدم على لسانها بعشر خصال منها شق اللسان قالوا فلذلك ترى الحية أبداً اذا طابت لتقتل كيف تخرج لسانها تلويه كما يصنع المسترحم من الناس باصبعه اذا ترحم أو دعا لتري الظالم عقوبة الله تعالى لها ، قال أبو خالد قال أبو حية الاصل واحد والفرع اثنان وللانثى مدخلان وأنشد لحبي المدنية

وددت بانه ضب واني * كضبة كدية وجدت خلاء

قال قالت هذا البيت لابنها حين عذلها لانها تزوجت ابن أم كلاب وهو حـدث وكانت هي قد زادت على النصف فتمنت ان يكون لهـا حران ولزوجها أيران ، وقال ابن الاعرابى للأنثي سبيلان ولرحمها قرنتان وهما زاويتا الرحم فاذا امتلأت الزاويتان أتأمت واذا لم تمتلئ أفردت وقال غيره من العلماء هذا لا يكون لذوات البيض والفراخ وانما هذا من صـفة أرحام اللواتى يحبلن بالأولاد ويضعن خلقاً كخلقهن ويرضعن وكيف تفرد الضبة وهي لم تتئم قط وهي تبيض سبعين بيضة في كل بيضة حسـل قال ولهذه الحشرات أيور معروفة الا ان بعضها أحقر من بعض فأما الحصى فشئ ظاهر لمن شق عنها وجسر أبو خالد فزعم أنه قـد أبصر أير ذباب وهو يكوم ذبابة وزعم ان اسم أيره المتك وأنشد لعبد الله بن همام السلولى

لما رأيت القصر أغلق بابه * وتعلقت همدان بالأسباب

أيقنت ان امارة ابن مضارب * لم يبق منها قيس أير ذباب

وهذا شـعر لا يدل على ماقال وقال أصحابنا انمـا المتك البظر ولذلك يقال للعاج يابن المتكاء كما يقال له يابن البظراء

القول فيمن استطاب له لحم الضب ومن عافه

روي أنه أتي على خوان النبي صلى الله عليه وسلم فلم يأكله وقال ليس من طعام قومي وأكله خالد بن الوليد فلم ينكر عليه ورووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا أحله ولا أحرمه وأنكر ذلك ابن عباس وقال ما بعثه الله تعالى الا ليحل ويحرم وحرمه قوم ورأوا ان أمتين مسختا احداهما في البر وهي الضباب وأخذت الأخرى في طريق البحر فهي الجرى ورووا عن بعض الفقهاء انه رأي رجلا أكل لحم ضب فقال اعلم أنك قد أكلت شيخاً من مشيخة بني اسرائيل وقال بعض من يعافه الذي يدل على أنه مسخ شبه كفه بكف الانسان، وقال العوام الأبرص نديم أيوب بن جعفر وكان أيوب لا يعيب أكل الكلاب في زمانه ولها في المربد سوق يقوم في ظل دار جعفر ولذلك قال أبو فرعون في كلمة له طويلة

سوق الضباب خير سوق في العرب

وكان هو وابراهيم النظام اذا كانا عند أيوب قاما عن خوانه اذا وضع عليه ضب ومما قال فيها العرار قوله

له كف انسان وخلق عظاية ﴿ وكالقرد والخنزير في المسخ والعصب

والعوام تقول وناس يزعمون أن الحية مسخ والضب مسخ والكلب مسخ والاربال مسخ والفار مسخ ولم أر أهل الكتاب يقرون ان الله تعالى قط مسخ انسانا خنزيراً ولا قرداً الا أنهم أجمعوا ان الله تعالى قد مسخ أمرأة لوط حجراً حين التفتت وتقول الاعراب ان الله قد مسخ كل صاحب مكس وجابي خراج واتاوة اذا كان ظالما وانه مسخ ما كسين أحدهما ذئباً والآخر ضبعاً وأنشد محمد بن السكن المعلم النحوي للحكم بن عمرو البهراني في ذلك وفي غيره شعراً عجيبا وقد ذكر فيه ضروبا كلها ظريف غريب وكلها باطل والاعراب تؤمن بها أجمع وكان الحكم هذا أتى بني العنبر بالبادية على أن العنبر من بهراء فنفوه من البادية الى الحاضرة وكان يتفقه ويفتي فتيا الاعراب وكان مكفوفا دهريا مليأ وهو الذي يقول

ان ربى لما يشاء قدير * ما لشئ اراده من مفر
مسخ الماكسين ضبعا وذئباً * فلهذا تناجلا أم عمرو
بعث النمل والجراد وقفي * بنجيع الرعاف في حى بكر
خرقت فارة بأنف ضئيل * عرما محكم الاساس وصخر
فجرته وكان غيلان عنه * عاجزا لو يرومه بعد دهر
مسخ الضب فى الحبالة قدما * وسهيل السماء عمداً بصقر
والذي كان يكتني برغال * جعل الله قبره شر قبر
وكذا كل ذي سفين وخرج * ومكوس وكان صاحب عشر
منكب كافر وأشراط سوء * وعريف جزاؤه حر جمر
وتزوجت فى الشبيبة غولا * كغزال وصدقتى زق خمر
ثيب ان هويت ذلك منها * ومتي شئت لم أجد غير بكر
بنت عمرو وخالها مستحل الخ * ير وخالى حميم صاحب عمرو
ولها خطة بأرض وبار * مسحوهاوكان لى نصف شطر
أرض حوش وكامن عكفان * وعروج من المؤمل دثر
سادة الجن ليس فيها من الج * ن سوي تاجر وآخر مكر
ونفوا عن حريمها كل عفر * يسرق السمع كل ليلة بدر
في فتومن الشنقبات غر * ونساء من الروائم زهر
تأكل الفول ذا السياطة مسياً * بعدروث الحمار فى كل فجر
جعل الله ذلك الروث بيضاً * من أنوق ومن طروقة نسر
ضربت قردة فصارت حصبا * فى محاق القمير آخر شهر
تركت عبدلاً ثمال اليتامى * وأخوه مزاحم كان بكر
وضمت تسعة وكانت نذوراً * من نساء فى أهلها غير نذر
غلبتنى على النجابة عرسى * بعدماطار في النجابة ذكرى
وأرى فيهم شمائل أنس * غير أن النجار صورة عفر

وبها كنت راكبا حشرات * ملجما قنفذا ومسرج وبر
كنت لا أركب الارانب للحيـ * ـض ولا الضبع أنها ذات نكر
تركب المقمص المجيف ذا النفـ * ـط وتدعو الضباع من كل جحر
جائيا للبحار أهدى لعرسي * فلفلا مجتنا وهضبة عطر
وأحلي هرير من صدف البحـ * ـر وأسقى العيال من نيل مصر
وبيّ المعقود نفثي وحلي * ثم يخفي على السواحر سحري
وأجوب البلاد تحتى ظبي * ضاحك سنه كثير التمري
مولج دبره جوانة بكر * وهو بالليل فى العفاريت يسري
يحسب الناظرون اني ابن ماء * ذاكر عشه بضفة نهر
رب يوم أكلت من كبد الليث * وأعقبت بين ذئب ونمر
ليس ذا كم كمن يبيت بطينا * من شواء ومن قلية جزر
ثم لاحظت خالتي فى غدو * بين عيني وعينها السم يجرى
ثم أصبحت بعد خفض ولهو * مدنفا مفرداً محالف عسر
أترانى مقت من ذبحى الديـ * ـك وعاديت من أهاب بصقر
وسمعت النقيق في ظلم الليل * فجاوبته بسر وجهر *
ثم يرمي بى الجحيم جهاراً * فى خنزير وفى دراهم قمر
* فلعل الاله يرحم ضعفى * ويرى كبرتى ويقبل عذرى

وسنقول في الذين استحلوه واستطابوه وقدموه، قالوا الشئ لا يحرم الا من جهة كتاب أو اجماع أو حجة عقل أو من جهة القياس على أصل فى كتاب أو اجماع ولم نجد فى تحريمه شيئاً من هذه الخصال وان كان انما يترك من قبل التقزز فقد أكل الناس الدجاج والشبابيط ولحوم الجلالة وأكلوا السراطين وفراخ الزنابير والصحناء والدشا فكان التقزز مما يتغذى العذرة رطبة ويابسة أولى وأحق من كل شئ يأكل الضروب التى قد ذكرناها وذكرها الراجز حيث يقول

يا رب ضب بين أكناف اللوى * رعى المرار والكباث والدبا

حتى اذا ما ناضل البهمى ارتمى * وأجفلت فى الارض أعراف السفا
وظل يلوي هبصا وسط الملا * وهو بعينى قانص بالمرتبا
كان اذا أخفق من غير الرعا * رازم بالا كبار منها والكشا

فان عفتموه لأكل الدبا فلا تأكلوا الجراد ولا تستطيبوا بيضه وقد قال أبو حجين المنقرى

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة * بأسفل واد ليس فيه أذان
وهل آكلن ضبا بأسفل تلعة * وعريج أكماع المديد خوان
أقوم الى وقت الصلاة وريحه * بكفي لم أغسلهما بشنان
وهل أشربن من ماء لينة شربة * على عطش من سوم ران أبان

﴿ وقال آخر ﴾

لعمرى لضب بالعنيزة ضائف * يضحي عراراً فهو ينفخ بالقرم
أحب الينا أن يجاور أرضنا * من السمك البني والسلجم الرخم

وقال آخر فى تفضيل أكل الضب

أقول له يوما وقد راح صحبتى * وبالله أبغى صيده وأخاتله
فلما التقت كفي على فضل ذيله * وشالت شمالى زايل الضب باطله
فأصبح مجنوزاً نضيجاً وأصبحت * تمشى على القيزان حولا حلائله
شديداً اصفرار الكشتين كأنما * يطل بورس بطنه وشواكله
فذلك أشهى عندنا من نتاجكم * لحى الله شاربه وقبح آكله

وقال أبو الهندى من ولد سيب بن ربعى

أكلت الضباب فما عفتها * وانى لأهوى قديد الغنم
وركبت زبداً على تمرة * فنعم الطعام ونعم الأدم
وسمن السلا وكماء القصيص * وزين السديف كبرد النعم
ولحم الخروف حنيذا وقد * أتيت به جامداً فى الشبم
فاما النبيط وحيتانكم * فما زلت منها كثير السقم
وقد نلت ذاك كما نلتم * فلم أر فيها كضب هرم

وما فى البيوض كبيض الدجا * ج وبيض الجراد شفاء القرم
ومكن الضباب طعام العريب * ولا تشتهيه نفوس العجم

والى هذا المعنى ذهب جران العود حين أطعم ضيفه ضباً فهجاه ابن عم له كان يغمز فى نسبه فلما قال كلمة له

وتطعم ضيفك الجوعان ضباً * وتأكل دونه تمراً بزبد

وقال فى كلمة له أخرى

وتطعم ضيفك الجوعان ضباً * كأن الضب عندهم غريب

قال جران العود

فلولا أن أصلك فارسى * لما عفت الضباب ومن قراها
قريت الضب من حر كشاها * وأى لوية الا كساها

واللوية الطعام الطيب اللطيف يرفع للشيخ والصبي وقال الاخطل

فقلت لهم هاتوا لوية مالك * وان كان قدلاقى لبوساومطعما

حدثنى يونس بن عمران قال كان بشر بن المعتمر خاصا بالفضل بن يحيي فقدم عليه رجل من مواليه وهو أحد بني هلال بن عامر فمضي به الى الفضل ليكرمه بذلك وحضرت المائدة فذكروا الضب ومن يأكله فأفرط الفضل فى ذمه وتابعه القوم بذلك ونظر الهلالى فلم ير على المائدة عربيا غيره وغاظه كلامهم فلم يلبث الا أن أتى الفضل بصحفة ملآنة من فراخ الزنابير ليتخذله منها بزماورد والدبر والنحل عند العرب أجناس من الزبان فلم يشك الهلالى أن الذى رأى من ذباب البيوت والحشوش وكان الفضل حين ولى خراسان استظرف بزماورد الزنابير فلما قدم العراق كان يشتهيا فتطاب له من كل مكان نشمت الهلالى به وبأصحابه وخرج وهو يقول

وعلج يعاف الضب لوما وبطنة * وبعض إدام العلج هام ذباب
ولوان ملكا فى الورى ناك أمه * لقالوا لقد أوتيت فصل خطاب

ولما قال أبو طروق الضبي

يقولون أصدقها جراداً وضبة * فقد جردت بيتى وبيت عياليا

وألقت ضبابا فى الصدور وجرانها * فيالك من دعوى تصم المناديا
وناديت أعمامى وهم شر جيرة * يديرون شطر الليل عندى الافاعيا
ولقد كان فى عقب وقوس وان أشأ * من الاقط ما يلقين فى المهر حاجيا

فقال أبوها

فلو كان قعبارض قعبك بندل * ولو كان قوسا كان للنبل أذكرا

فقال عمها دعونى والعبد وأنشد للزبيرى

أعامر عبد الله انى وجدتكم * كرجفة الضب الذي يتذلل

وقال هى لينة وعودها لين فهو يعلوها اذا حضر بالقيظ ويتشوف عليها واست ترى الضبة الا وهي سامية برأسها تنظر وترقب وأنشد

بلاد يكون الخيم أطلال أهلها * اذا حضروا بالقيظ والضب نونها

وقال عمرو بن خويلد

ركيات حسل أشهر الصيف بدن * وناقة عمرو ما يحل لها رحل
* اذا ما ابتنينا بيتنا لمعيشة * يعود لما ابنى فيهدمه حسل
ويزعم حسل أنه فرع قومه * وما أنت فرع يا حسيل ولا أصل
ولدت بحول النجم تسمي اسميه * كما ولدت بالنحس ربابها عكل

وهم الحسل وحسيل وضب وضبة فمنهم ضبة بن أد وضبة بن محض وزيد بن ضب ويقال حضره ضب وفى قريش بنو حسل ومن ذلك ضبة الباب ويسمى حلب الناقة بخمسة أصابع ضبا يقال ضبها يضبها ضبا اذا حلبها كذلك وضب الجرح وبض اذا سال دما مثل ما تقول جبذ وجذب وانه لخب ضب وأنه لاخدع من ضب والضب الحقد اذا تمكن وسرت عقاربه وأخذ مكانه والضب ورم فى خف البعير وقال الراجز

ليس بذى عرك ولا ذى ضب

ويقال ضب خدع أى مراوغ ولذلك سموا الخزانة المخدع وقال ذو الرمة

مناسمها صم صلاب كأنها * رؤس الضباب استخرجتها الظهائر

وقال راشد بن شهاب

أرقت فلم تخدع لعيني نعسة * ووالله ما دهري بعسر ولا سقم

ويدل على كثرة تصففهم لهذا ما أنشدنا أبو الرديني

لا يعقر التقبيل الا زبي * ولا يداوى من صميم الحب
الا احتضان ركب أزب * ينزع فيه الاير نزع الضب
والضب في صوانه مخب

وأنشدنا أبو الرديني العكلي لطارق وكنيته أبو سماك

أبو سماك أو لما تدرى * انى على مياسرى وعسري
يكفيك رفدي رجلا دا وفر * ضخم المثاليب صغير الاير
اذا تغدى قال تمري تمرى * كأنه بين الذرى والكسر
ضب يضحي بمكان قفر

وقال اعرابي

قد اصطدت يايقظان ضبا ولم يكن * ليصطاد ضب قبله بالحبائل
يظل رعاء الشاء يرتضونه * حنيذاً ويجني بعضه للحلائل
عظيم الكشا مثل الصبي اذا عدا * يفوت الضباب حسلها في السحائل

وقال اليماني

انى لا رجو من عطايا ربى * ومن ولى العهد بعد الغب
رومية أولج فيها ضبي * لها حر مستهدف كالعقب
مستحصف نعم قران الزب

وقال الآخر

إذا أصطلحوا على أمر تولوا * وفى أجوافهم منه ضباب

﴿وقال الزبرقان بن بدر﴾

ومن الموالى ضب جندلة * زمر المروة ناقص الشبر

فالأول جعل أيره ضبا والثاني جعل الحقد ضباً وقال الخليل بن أحمد في ظهر البصرة مما يلي قصر أنس

زر وادي القصر نعم القصر والوادى * لابد من زورة عن غير ميعاد
ترى به السفن كالظلمان واقفة * والضب والنون والملاح والحادى

﴿ وقال فى مثل ذلك ابن أبى عيينة ﴾

ياجنة فاتت الجنان فما * يبلغها قيمة ولاثمن
الفتها فاتخذتها وطنا * ان فؤادي لأهلها وطن
زوج حيتانها الضباب بها * فهذه كنة وذا ختن
فانظر وفكر فيما يطيف به * ان الأريب المفكر الفطن
من سفن كالنعام مقبلة * ومن نعام كأنها سفن

﴿ وقال عقبة بن مكرم في صفة الفرس ﴾

* ولها منخر اذا رفعته * فى الجراة مثل وجر الضباب

وأنشد

وأنت لو ذقت الكشا بالا كباد * لما تركت الضب يسعى بالواد

﴿ وقال أبو حية النميري ﴾

وضربوا كل نبقاس قراسية * ابد ليس بها ضب ولاشرر

وقال كثير

ومحترش ضب العداوة بيننا * بحلو الرقاحوش الضباب الخوادع

وقال كثير أيضاً

ومازالت رقاك تسل ضغني * وتخرج من مكامنها ضبابى

أما الذين ذموا الضب وأكله وضربوا المثل به وباعضائه وأخلاقه وأعماله فكان كما
قال التميمي

لكسري كان أعقل من تميم * ليالى فر من أرض الضباب
فأنزل أهله ببلاد ريف * وأشجار وأنهار عذاب
وصار بنو بنيه بها ملوكاً * وصرنا نحن أمثال الكلاب
فلارحم الاله صدى تميم * فقد أزرى بنا فى كل باب

﴿ وقال أبو نواس ﴾

اذا ما تميمي أتاك مفاخرا * فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب
تفاخر أبناء الملوك سفاهة * وبولك يجرى فوق ساقك والكعب

﴿ وقال الآخر ﴾

خبذا هم ورويّ الله أرضهم * من كل منهمر الاحشاء ذى برد
ولا سقي الله أياما عنيت بها * ببطن فلج على اليبوع فالعقد
مواطن من تميم غير معجمة * أهل الجفاء وعيش البؤس والصرد
هم الكرام كريم الامر تفعله * وهم سعد بما يأتي الى المعد
أصحاب ضب ويربوع وحنظلة * وعيشة سكنوا منها على ضمد
ان يأكلوا الضب يأتوا مخضبين به * وزادها الجوع ان باتت ولم تصد
لو أن سعد الهاريف لقد دفعت * عنه كما دفعت عن صلّح البلد
من ذا يقارع سعدا عن مفازتها * ومن ينافسها في عيشها النكد

﴿ وقال فى مثل ذلك عمرو بن الاهتم ﴾

وتركنا عميرهم رهن ضبع * مسلحبا ورهن طلس الذئاب
نزلوا منزل الضيافة منها * فقري القوم غلة الاعراب
* ورددناهم الى حرتهم * حيث لا يأكلون غير الضباب

﴿ وقالت المرية ﴾

جاؤا بحارشة الضباب كأنما * جاؤا ببنت الحارث بن عباد
وقائلة هذا الشعر امرأة من بني مرة بن عباد وقال الخريم الكندى
لعمرى ما الى حسن أنخنا * ولا جئنا حسيناً يا بن أنس
ولكن ضب جندلة أتينا * مضباً فى مضابه يمس
فلما ان أتيناه وقلنا * بحاجتنا تلون لون ورس
وآض بكفه يحتك ضرساً * يرينا انه وجع بضرس
فقلت لصاحبي أبه كزاز * وقلت اسره أتراه يمسي

وقمنا هاربين معا جميعاً * نحاذر ان نزن بقتل نفس

وقالت عائشة بنت عثمان في أبان بن سعد بن العاصى حين خطبها وكان نزل أيلة وترك المدينة

نزلت ببيت الضب لاأنت ضائر * عدواً ولامستنفع أنت نافع

وقال جرير

وجدنا بيت ضبة في تميم * كبيت الضب ليس له سواري

وقال آخر وهذا الشعر أيضاً فى الضباب

ياضبع الاكهاف ذات الشعب * والوثب للعتر وغير الوثب
غثني ولا تخشين الا سبي * فلست بالطب ولا ابن الطب
ان لم أدع بينك بيت الضب * يضيق عن ذي العرك المنكب

وقال الفرزدق

لحي الله ماحسل غير أهله * تفاضبة عند الصفاة مكون
فلو علم الحجاج علمك لم تبع * يمينك ماء مسلماً بيمين

وأنشد زعمت بأن الضب أعمى ولم يفت * بأعمي ولكن فات وهو بصير
بل الضب أعمي يوم يخنس باسته * اليك بصحناء البياض غرير

وقالت امرأة في ولدها وتهجو أباه

وهبته من ذى ثقال خب * يقلب عينا مثل عين الضب
* ليس لمعشوق ولامحب *

وقال رجل من فزارة

وجدنا كم رأبا بنى أم ترفة * كاسنان حسل لاوفاء ولاغدر

وأنشد ثلاثون رأبا أو تزيد ثلاثة * يقاتلنا بالقرن ألف مقنع

الرأب السواء والمعني الاول يشبه قوله

سواس كاسنان الحمار فلا ترى * لذى شيبة منهم على ناشئ فضلا

وأنشد ابن الاعرابي

تبحث من سالفة ومن صدع * كأنما كشة ضب في صقع

أراد صعق بالعين فقلب وقال الآخر

* أعق من ضب وأفسى من ظرب *

وأنشد

فجاءت نهاب الدم ليست بضبة * ولا صلفع يلقى مراسا زميلها

يقول لا تخدع الضب في جحره وأنشد ابن الاعرابى لجبار بن عبيد الله الدئلى جد أبي محضة

ياسهل لو رأيته يوم الجفر * اذ هو يسمى يستجير للسور

يرمي عن الصفو ويرضى بالكدر * لا زددت منه قدرا على قدر

يضحك عن ثغر ذميم المكتشر * ولثة كأنها سير حور

* وعارض كعارض الضب الذكر *

وأنشد السدرى

هو القرنبا ومشى الضب تعرفه * وخصيتا صرصرانى من الابل

والخال ذو نخم في الجري صادقة * وعاتق يتعفي مأبض الرجل

واعلم حفظك الله تعالى قد اكتفيت بالشاهد وتبقى في الشعر فضلة مما يصلح للمذاكرة

ولبعض ما بك الى معرفته حاجة فاصله به ولا أقطعه عنه وأنشد لابن لجأ

وعنوى يرتمى بأسهم * تازق بالصخر لزوق الارقم

* لو سأم الضب بها لم يسأم *

وقال اعرابى من بنى تميم

تسخر مني ان رأتني أحترش * ولو حرشت لكشفت عن حرش

يريد عن حرك قال وقال أبو شعبة

فلهزمان جعدة لحاهما * عاداهما الله وقد عاداهما

* ضبا كدا قد عظمت كشاهما *

وقال أبو شعبة وأنشدنا الاصمعى

اني وجدتك يا جرثوم من نفر * جرثومة اللؤم لا جرثومة الكرم

انا وجدنا بني جلان كلهم * كساعد الضب لا طول ولا عظم

وقال ابن ميادة

وانى لقيس من بغيض تناصر * اذا أسد كشت لفخر ضبابها

وفى هذه القصيدة يقول

ولو أن قيسا قيس عيلان أقسمت * على الشمس لم تطلع عليك حجابها

وهذا من شكل بشار

اذا ما غضبنا غضبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وأنشد لأبى الطمحان

مهلا عمير فانكم أمسيتم * منا بثغر ثنية لم تستر
سودا كأنكم ضباب حطيطة * مطر البلاد وحرمها لم يمطر
يحبون بين أجا وبرقة عالج * حبو الضباب الي أصول السخبر
وتركتم قصب الشريف طواميا * تهوى ثنيته كعين الاعور

وقال العث واسمه زيد بن معروف للضب غلام زنبيل علام وقد رأيت من يسمي عيراً وثوراً وكلبا ويربوعا فلم نر منهم أحداً شبه العير ولا الثور ولا الكلب ولا اليربوع وأنت قد تقليت الضب حتى لم تغادر منه شيئاً فاحتمل ذلك عنه فلما قال

ومن دعوه باسم لا يناسبه * فأنت والاسم شر فوقه طبق

فقال ضب لعث

ان كنت ضبا فان الضب محتبل * والضب ذو ثمن فى السوق معلوم
وليس للعث صياد يراوغه * ولست شيئاً سوي قرض وتقليم

القول فى سن الضب وعمره

أنشد الاصمعى وغيره

تعلقت واتصلت بعكل * حصى وهزت رأسها تستبلى
تسئلني من السنين كم لى * فقلت لو عمرت عمر الحسل

أو عمر نوح زمن الفطحـل * والصخر مبتل كطين الوحل

صرت رهين هرم أو قتل

وهذا الشعر يدل على طول عمر الحسل لانه لم يكن ليقول

أو عمر نوح زمن الفطحل * والصخر مبتل كطين الوحل

ألا وعمر الحسـل عنده أطول الاعمار وروى ابن الاعرابى عن بعض الاعراب أن سن الضب واحدة أبدا وعلى حال أبدا فكانه قال لا أفعلها مادام سنها كذلك لا ينقص ولا يزيد وقال زيد بن كثيره سن الحسل ثلاثة أعوام وزعم أن قوله مثلا لا أفعله سن الحسل غلط ولكن الضب طويل العمر اذا لم يعرض له أمر وسن الحسل مثل سن القلوص ثلاث سنين حتي يلقح ، ولو كانت سن الحسل علي حالة واحدة لعرف الاعراب الفتى من الذكى وقد يكون الضب أعظم من الضب وليس بأكبر منه سنا قال ولقد نظرت يوما الى شيخ لنا بقر ضبا حجلا سجلا قد اصطاده فقلت له لم تفعل ذلك فقال أرجو أن يكون هرما قال وزعم عمرو بن مسافر أن الضبة تبيض ستين بيضة فاذا كان ذلك سدت عليهن باب الجحر ثم تدعهن أربعين يوما فيتفقص البيض ويظهر ما فيـه فتحفر عنهن عنـد ذلك فاذا كشفت عنهن أحضرن وأحضرت فى أثرهن تأكلهن فيحفر المنفلت منها لنفسه جحرا ويرعى من البقل ، قال وبيض الضب شبيه ببيض الحمام قال وفرخه حين يخرج يخرج كيسا خبيثا مطيقا للكسب وكذلك ولد العقرب وفراخ البط وفراريج الدجاج وولد العناكب وقال زيد بن كثيرة مرة بعـد ذلك ان الضب ينبت سنه معه ويكبر مع كبر بدنه فلا يزال أبدا كذلك الى أن ينتهي بدنه منتهـاه قال فلا يدعى حسـلا الا ثلاث ليال فقط وهـذا القول يخالف القول الاول وأنشد

مهرتها بعـد المطال ضبين * من الضباب سخبلين سبطين

نعم لعمر الله مهر العرسين

أنشـدنى ابن فضال أمهرتها وزعم أنه كذلك سمعها من أعرابي ، وقد يمكن أن يكون الحسل لا يبنى ولا يرفع فتكون اسنانه أبداً على امر واحد ويكون قول الحجاج فى

طول عمره حقا ويدل على أن أسنانه على ماذكروا قول الفزارى

وجدنا كم وأبا بنى أم فرقة * كاسنان حسل لا وفاء ولا غدر

يقولون لازيادة ولا نقصان وقال زيد بن كثيرة المزنى قال العنبرى وهو أبو يحيي مكثت في عنفوان شبيبتي وريعان من ذلك أربغ ضبا وكان ببعض بلادنا في وشاز من الارض وكان عظيما منها منكرا مارأيت مثله فمكثت دهرا أريغه فما أقدر عليه ثم انى هبطت الى البصرة فأقمت بها ثلاثين سنة ثم انى والله كررت راجعا الى بلادي فمرزت فى طريقى بموضع الضب معتمدا لذلك فقلت والله لأعلمن اليوم علمه ومادهري الا أن أجعل من جلده عكة للذى كان عليه من افراط العظم فوجهت الرواحل نحوه فاذا به محترشا على تلعة فلما سمع حس الرواحل ورأي سوادا مقبلا نحوه مر مسرعا نحو جحره وفاتنى والله الذى لااله الا هو وقال ابن الاعرابي أخبرنى ابن فارس بن ضبعان الكلبى أن الضبة يكون بيضها في بطنها وهو مكنها ويكون بيضها متسقا فاذا أرادت أن تبيضه حفرت في الارض أدحيا مثل أدحى النعامة ثم ترمى بيضها فى ذلك الأدحى وتدفنه بالتراب وتدعه أربعين يوما ثم تجيء بعد الاربعين فتبحث عن مكنها فاذا حملته يتعادين فتأكل ماقدرت عليه ولو قدرت على جميعهن لأكلتهن قال ومكنها جلد لين فاذا يبست فهى جلد فاذا شويتها أو طبختها وجدت لها محا كمح بيض الدجاج ،قال والضبة تقاتل الحية وتضربها بذنبها وهي أخشن من السفر وهو سلاحها وقد أعطيت فيه من القوة مثل ما أعطيت العقارب فى ابرتها فربما قطعتها بضربة أو قتلتها أو قدتها وذلك اذا كان الضب ذيالا مذنبا واذا كان مرائسا قتلته الحية والتذنيب ان الضب اذا أرادت الحية الدخول عليه فى جحره أخرج الضب ذنبه الي فم جحره ثم يضرب به كالمخراق يمينا وشمالا فاذا أصاب الحية قطعها والحية عند ذلك تهرب منه والمراءسة أن تخرج الرأس وتدع الذنب وتكون غمزا فتعضه الحية فتقتله، قال أمكنت الجرادة فهى تمكن امكانا اذا جمعت البيض فى جوفها واسم البيض المكن والضبة مكون فاذا باضت الضبة والجرادة قيل قد سرأت والمكن والسراء والبيض كان فى بطنها أم بعد ان تبيضه وضبة سرو وكذلك الجرادة تسرأ

سرءا حين تلقي بيضها وهي حينئذ ثقة وتقول رزت الجرادة ذنبها فى الارض فهى ترز رزاً وضربت بذنبها الارض ضربا وذلك اذا أرادت أن تلقى بيضها ويقولون ذئبة السخبر وشيطان الحماطة وأرنب الخلة وتيس الربل وضب السحا والسحا بقلة يحسن حاله عنها ويقال هو قنفذ برقة اذا أرادان يصفه بالخبث وما أكثر مايذ كرون الضب اذا ذكروا الصيف مثل قول الشاعر

* سار أبو مسلم عنها بصرمته * والضب فى الجحر والعصفور مجتمع

وكما قال أبو زبيد

أي سـاع ساع ليقطـع شربى * حـين لاحت للصابح الجوزاء

وأستكن العصفور كرها مع الضب * وأوفى في عوده الحرباء *

وأنشد الاصمعى

تجاوزت والعصفور في الجحر لاجئ * مع الضب والشقذان يسمو صدورها

قال والشقذان الحرابي قوله يسمو أي يرتفع والشقذان جمع شقذ بكسر الشين واسكان القاف والجمع شقذان بتحريك القاف وتقول الاعراب خاصم الضب الضفدع في الماء أيهما أصبر وكان للضفدع ذنب وكان الضب ممسوح الذنب فلما غلبها الضب أخـذ ذنبها فخرج فى الـكلأ فصـبرت الضفدع يومان فنادت ياضب ورداً ورداً فقال الضب

اصبح قلبي صردا * لايشتهى أن يردا

الا عـرارا غـردا * وصليـانا لبـــدا

فلما كان اليوم الثالث نادت ياضب وردا وردا فلما لم يجبها بادرت الى الماء واتبعها الضب فأخذ ذنبها فقال فى تصداق ذلك ابن هرمة

ألم تأرق لضوء البر * ق في أسحـم لماح *

كأعناق نساء الهنـ * ـد قـد شيبت بأوضاح

يؤم البرق كالراجف * يزجى خلف اطلاح

كأن العازف الجني * أو أصـــوات أنواح

على أرجائها الغر * يهديها بمصباح
فقال الضب للضفد * ع في بيداء قرواح
تأمل كيف تجو اليوم * من كرب وتطراح
* فاني سابح ناج * وما أنت بسباح
فلما رق أنف المز * ن أبدى خير إرواح
وسح الماء من مستحد * لب بالماء سحاح
رأي الضب من الضفد * ع عوما غير منجاح
وحط العظم يهويها * بجوح غير نساح
ثقال المشي كالسكرا * ن يمشى خلفه الصاحي

ثم قال في شأن الضفدع والضب الكميت بن ثعلبة

على أخذها يوم غب الورو * د ويوم الحكومة أذنابها

وقال عبيد بن أيوب

ظللت وناقتي نضوى فلاة * كفرخ الضب لا يبغى ورودا

أبو زياد قال الضب لصاحبه

اهدموا بيتك لا أبا لكا * وزعموا أنك لا أخا لكا
وأنا أمشى الحبكا حوالكا

وتقول العرب أروى من الضب لان الضب عندهم لا يحتاج الى شرب الماء واذا هرم اكتفى ببرد النسيم وعند ذلك تفنى رطوبته فلا يبقى فيه من الدم ولا مما يشبه الدم شيء وكذا الحية فاذا صارت كذلك لم تقتل بلعاب ولا بمجاج ولا بمخالطة ريق وليس الا مخالطة عظم السن لدماء الحيوانات وأنشد

لهيمة من حنش أعمي أصم * قد عاش حتي هو لا يمشى بدم
* فكل ما أفضل منه الجوع سم *

وأما صاحب المنطق فانه قال باضطرار انه لا يعيش حيوان الا وفيه دم أو شيء يشاكله الدم والضب تزلقه من جحره أمور منها السيل وربما صبوا في جحره قربة من ماء

فأزلقوه به وأنشد أبو عبيدة

يزلق الضب ويخفيه كما * تزلق السيل يرابيع النفر

يخفيه مفتوحة الياء ، وتزلقه حوافر الخيل ولذلك قال امرؤ القيس

خفاهن من انفاقهن كأنما * خفاهن ودق من سحاب مركب

تقول خفيته أخفيه خفيا اذا أظهرته وأخفيته اخفاء اذا سترته وقال ابن أحمر

فان تدفنوا الداء لانخفه * وان تبعثوا الحرب لانقعد

ولا بد من أن يكون وقع الحوافر هدم عليها أو يكون أفزعها فخرجت وأهل الحجاز يسمون النباش المختفي لانه يستخرج الكفن من القبر ويظهره وحكوا عن بعض الاعراب أنه قال ان بني عامر قد جعلوني على حيدرة أعينها تريد أن تخفي دمى أي تظهره وتستخرجه كأنها اذا سفحته وأراقته فقد أظهرته وأنشد أبو عبيدة

ديمة هطلاء فيها وطف * طبق الارض تحرى وتدر

تخرج الضب اذا ما أسحرت * وتواريه اذا ما تعتكر

وترى الضب دفيفا ماهرا * ثانيا برثنه ما ينعفر

وكان أبو عبيدة يقدم هذه القصيدة في الضب على قصيدة عبيد بن الأبرص وأوس ابن حجر قال أحدهما فيها

دان مسف فويق الارض هيدبه * يكاد يدفعه من قام بالراح

فمن بنجوته كمن بمحفوته * والمستكن كمن يمشي بقرواح

وانا أتعجب من هذا الحكم ، ومما يضيفون الى هذه الضباب من الكلام مارواه الأصمعي في تفسير المثل وهو قولهم هذا أجل من الحرش لان الضب قال لابنه اذا سمعت صوت الحرش فلا تخرجن قال والحرش تحريك اليد عند جحر الضب ليخرج ويرى أنه حية قال فسمع الحسل صوت الحفر فقال للضب يا أبت هذا الحرش قال يا بنى هذا أجل من الحرش فارسلها مثلا وقال الكميت

يؤلف بين ضفدعة وضب * ويعجب ان نبرّ بني أبينا

﴿ وقال في الضب والنون ﴾

ولو أنهم جاؤا بشيء مقارب * لشيء وبالشكل المقارب للشكل
ولكنهم جاؤا بحيتان لجة * قوامس والمكني فينا أبا حسل

﴿ وقال الكميت ﴾

وماخلت الضباب معطفات * على الحيتان من شبه الحسول

وقال آخر

* حتي يؤلف بين الضب والنون *

قال ويقال أضبت ارض بنى فلان اذا كثرت ضبابها وهذه أرض مضبة وأرض بنى فلان مضبة مثل فئرة من الفأر وجرذة من الجرذان ومحواة من الحيات وجردة من الجراد وسرفة من السرفة ومأسدة من الاسود ومثعلة من الثعالب لأن الثعلب يسمى ثعالة والذئب ذؤالة ويقال أرض مذبة من الذباب وذئبة من الذئاب ، ويقال فى الضب وقعنا فى مضاب منكرة وهي قطع من الارض تكثر ضبابها قال ويقال أرض مربعة كما يقال مضبة اذا كانت ذات يرابيع وضباب واسم بيضها المكن والواحدة مكنة ويقال لفرخه اذا خرج حسل والجميع حسلة وأحسال وحسول وهو حسل ثم مطبخ ثم غيداق ثم حجل والحسل السحل ماعظم منها وهو في ذلك كله ضب وبعضهم يقول غيداقا ثم يقول مطبخا ثم يكون ضبا ثم يكون حجلا وهو العظيم ثم هو حضرم ثم يكون ضبا وهذا خطأ وهو ضب قبل ذلك وقال الراجز

ينفي الغياديق عن الطريق * يلص عنه بيضه فى نيق

ويقال أضل من ضب والضلال سوء الهداية يكون في الضب والورل والديك واذا غير الحر لون جلد الضب فذلك أشد مايكون من الحر وقال الشاعر

وهاجرة تنهي علي الضب جلده * قطعت حشاها بالعريرية الصهب

وفى المثل درج الضب وفي المثل يعلمني بضب أنا حرشته وهذا أجل من الحرش وأضل من ضب وأخب من ضب وأردى من ضب وأعق من ضب وأحيا من ضب وأطول ذماء من ضب وكل ضب عند مردانه ويقال أقصر من ابهام الضب كما يقال أقصر من ابهام القطاة وقال ابن الطثرية

* ويوم كابهام القطاة قطعته *

ومن أمثالهم لا آتيك سن الحسل وقال العجاج * ثمة لا آتيه سن الحسل *
كأنه قال حتي يكون مالا يكون لان الحسل لا يستبدل بأسنانه اسنانا وزعم أن اسنان
الذئب ممطولة في فكيه وأنشد

أنيابه ممطولة فى فكين

وليس هذا الشعر دليلا على ما قال لان الشاعر يشنع الصفة اذا مدح أو هجا وقد
يجوز أن يكون ما قال حقا فأما ماقال عبد الصمد بن علي فانه لم يثغر ودخل القبر
باسنان الصبا وقد يقال للضب والحية والورل وما أشبه ذلك فح يفح فحيحا والفحيح
صوت الحية من جوفها والكشيش والقشيش صوت جلدها اذا حكت بعضه ببعض
وليس كما قال ليس يسمع صوت احتكاك الجلد بالجلد الا للأفعى فقط وقد قال رؤبة

فحي فلا أفرق أن تفحي * وأن ترحي كرحي المرحي

ويكتب فى باب حب الضب للتمر حديث ابن عمرو الانصارى رووه من كل وجه
أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لرجل من أهل الطائف الحبلة أفضل ام النخلة
قال بل الحبلة أتربها وأشمسها واستظل فى ظلها واطبخ برمتى منها قال عمر يأبي ذلك على
الانصاري دخل أبو عمرة عبد الرحمن بن محصن الانصارى فقال له عمر الحبلة أفضل
أم النخلة قال الزبيب ان آكله أضرس وان أتركه أغرث قال ليس كالبسر فى رؤس
الدقل والراسخات فى الوحل المطعمات فى المحل خرمة الصائم ونجمة الكبير وصمتة
الصغير وخرسة مريم ويحترس به الضباب من الصلعاء يعني الصحراء، قال ويقال فى
الضب حلام وفي اليربوع جفرة والجفرة التى قد انتفخ جنباتها وشربت والحلان
فوق الجدى وقد صلح أن يذبح للنسك والحلان بالنون الجدى الصغير الذى لا يصلح
للنسك وقال ابن أحمر

تهدى اليه ذراع الجدى تكرمة * اما ذبيحاً واما كان حلاناً

والحلوان والحلان جميعاً رشوة الكاهن وقد نهي عن زيد المشركين وحلوان الكاهن

وقال مهلهل

كل قتيل فى كليب حلام * حتي ينال القتل آل همام

وقال الاصمعي قال أعرابى يهزأ بصاحبه اشتر لى شاة فلما كأنها تضحك مندلقة خاصرتاها كانها في محمل لها ضرع أرقط كأنها ضبة قال وكيف المضل قال أو لهذه عضل قال وسأل مدنى أعرابياً قال أتأكلون الضب قال نعم قال فاليربوع قال نعم قال فالقنفذ قال نعم قال أفتأكلون أم حنين قال لا قال فليهن أم حنين العافية قال فراس بن عبد الله الكلبي

لما خشيت الجوع والارمالا * ولم اجد بشو لها أيالا *
أبصرت ضباً دخنا مختالا * أوقد فوق جحره وزالا
فدب لى يختانى اختيالا * حتى رأيت دونى القذالا
وميلة مامات حين مالا * فدهشت كفاى فاستطالا
منى فلا نزع ولا ارسالا * فجاهد وبرأ الأوصالا
مني ولم أرفع بذاك بالا * لما رأت عيني كساجدالا
متى ترسيت لها الاقبالا * ورحت منه دخناً ذ آلا

﴿ أسماء لعب الأعراب ﴾

النقيرا وعظيم وضاح والخطوة والدارة والشحمة الحلق ولعبة الضب فالنقيرا أن يجمع يديه على التراب في الارض الى أسفله ثم يقول لصاحبه اشته في نفسك فيصيب ويخطئ وعظيم وضاح أن تأخذ بالليل عظما أبيض ثم يرمي به واحد من الفريقين فان وجده واحد من الفريقين ركب أصحابه الفريق الآخر من الموضع الذى يجدونه فيه الى الموضع الذى رموابه والخطوة ان يعملوا مخراقا ثم يرمى واحد منهم من خلفه الى الفريق الآخر فان عجزوا عن أخذه رموا به اليهم فان أخذوه ركبوهم والدارة هى التى يقال لها الخراج والشحمة أن يمضى واحد من أحد الفريقين بغلام فيتنحون ناحية ثم يقبلون ويستقبلهم الآخرون فان منعوا الغلام حتى يصيروا الي الموضع الآخر فقد غلبوهم عليه ويدفع الغلام اليهم وان هم لم يمنعوه ركبوهم وهذا كله يكون في

ليالى الصيف عن غب ربيع مخصب ولعبة الضب أن يصوروا الضب في الارض ثم يحول واحد من الفريقين وجهه ثم يضع بعضهم يده على شيء من الضب فيقول الذى يحول وجهه أنف الضب أو عين الضب أو ذنب الضب أو كذا وكذا من الضب على الولاء حتى يفرغ فان أخطأ ماوضع عليه يده ركب وركب أصحابه وان أصاب حول وجهه الذى كان وضع يده على الضب ثم يصير هو السائل ، ويقول الاطباء ان خرء الضب صالح للبياض الذى يصير فى العين والاعراب ربما تداووا به من وجع الظهر وناس يزعمون ان أكل لحم الحيوان المذكور يطول العمر ويزيد فى العمر فصدق بذلك ابن الحارى وقال هذا كما تزعمون إن أكل الكلية جيد للكلية وكذلك الكبد والطحال والرئة واللحم ينبت اللحم والشحم ينبت الشحم فغير بذلك سننه وليس يأكل الاقديد حمر الوحش والورشان والضباب وكل شيء قدر عليه مما يقضى له بطول العمر فانتقض بذلك وكاد يموت فعاد بعد الى غذائه الاول

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

القول في تفسير قصيدة البهرانى

فاذا فرغنا منها ذكرنا مافى الحشرات من المنافع والاعاجيب والروايات ثم ذكرنا قصيدة أبى سهل بشر بن المعتمر فى ذلك وفسرنا مافيها من أعاجيب ماأودع الله تعالى هذا الخلق وركبه فيهم ان شاء الله تعالى وبالله تبارك وتعالى أستعين أما قوله

مسخ الماكسين ضبعاً وذئبا * فلهذا تناجلا أم عمرو

فان ملوك العرب كانت تأخذ من التجار فى البر والبحر وفى أسواقهم المكس وهى ضريبة كانت تؤخذ منهم وكانوا يضمنونهم في ذلك ولذلك قال التغلبي وهو يشكو ذلك فى الجاهلية ويتوعد وهو قوله

الا تستحي منا ملوك وتتقى * محارمنا لا يبرأ الدم بالدم

وفي كل أسواق العراق إتاوة * وفي كل ماباع أمرؤ مكس درهم

والاتاوة الخراج والارحان كله شيء واحد وقال الآخر

أكابن المعلى خلتنا أم حسبتنا * صواري تعطى الما كسين مكوسا

وقال الاصمعى فى ذكر المكس والسفن التي كانت تعشر فى قصيدته التي ذكر فيها من أهلك الله تعالى من الملوك وقصم من الجبابرة وأباد من الامم الخالية فقال

أعلقت تبعا حبال المنون * وأنتحت بعده على ذي جدون
وأصابت من بعدهم آل هوما * س وعادت من بعد للساطرون
ملك الحضر والفرات فما دجلة * شرقا فالطود من عابرين
كل حمل يمر فوق بعير * فله مكسه ومكس السفين

والاعراب تزعم أن الله تعالى لم يدع ما كسا الا أنزل به بلية وأنه مسخ منهم اثنين ضبعا وذئباً فلهذه القرابة تسافدا وتناجلا وان اختلفا في سوى ذلك ومن ولدهما السمع والعسبار وانما اختلفتا لان الام ربما كانت ضبعا والاب ذئبا وربما كانت الام ذئبة والاب ذيخا والذيخ ذكر الضباع وأما قوله

بعث الذر والجراد وقفى * بنجيع الرعاف فى حي بكر

فان العرب تزعم ان الله تعالى قد أهلك بالذر أمما وقد قال أمية بن أبى الصلت

أرسل الذر والجراد عليهم * وسنينا فاهلكتهم ومورا
ذكر الذرانه يفعل الشـ * ـروان الجراد كان ثبورا

واما قوله وقفى بنجيع الرعاف في حي بكر فانه يريد بكر بن عبد مناة لان كنانة بنزولها مكة كانوا لايزالون يصيبهم من الرعاف مايصير شبيها بالموتان وبجارف الطاعون وكان آخر من مات بالرعاف من سادة قريش هشام بن المغيرة وكان الرعاف من منايا جرهم أيام جرهم فأما قوله

خرقت فارة بأنف ضئيل * عرما محكم الاساس بصخر

قال الله عز وجل فأرسلنا عليهم سيل العرم والعرم المسناة التى كانوا أحكموا عملها ليكون حجازاً بين ضيعهم وبين السيل ففجرته فارة فكان ذلك أعجب وأظهر في الاعجوبة كما أفار الله تعالى غز وجل ماء الطوفان من جوف تنور ليكون ذلك أثبت فى العبرة وأعجب في الآية ولذلك قال خالد بن صفوان لليمانى الذى فخر عليه عند

المهدى وهو ساكت فقال له المهدى ومالك لا تقول قال وما أقول لقوم ليس فيهم الا دابغ جلد وناسج برد وسائس قرد وراكب عرد غرقتهم فارة وملكتهم امرأة ودل عليهم هدهد وأما قوله

فجرته وكان جيلان عنه * عاجزاً لو يرومه بعد دهر

فان جيلان فعلة الملوك وكانوا من أهل الجبل وأنشد الاصمعي

أرسل جيلان ينحتون له * ساتيدما بالحديد فانصدعا

﴿ وأنشد ﴾

وتبني له جيلان من نحتها الصفا * قصوراً تعالى بالصفيح وتكلس

وأنشد لامرئ القيس

أتيح له جيلان عند جذاذه * وردد فيه الطرف حتى تحيرا

يقول فجرته فارة ولو أن جيلان أرادت ذلك لامتنع عليها لان الفارة انما خرقتها لما سخر الله تعالى لها من ذلك العزم وأنشدوا

من سبا الحاضرين مأرب اذ * يبنون من دون سيله العرما

ومارب اسم لقصر ذلك الملك ثم صار اسما لذلك البلد ويدل على ذلك قول أبي الطمحان القيني

ألا ترى ماربا ما كان أحصنه * وما حواليه من سور وبنيان

ظل العبادى يسقي فوق قلته * ولم يهب ريب دهر حق خوان

حتى تناوله من بعد ماهجعوا * يرقى اليه على أسباب كتان

وقال الاعشي

ففي ذاك للمؤتسي اسوة * ومأرب عفا عليه العرم

رخام بنته له حمير * اذا جاء ماؤهم لم يرم

فأودى الحدوث وأعنابها * على ساقة ماؤهم ذو قسم

فطار الفيول وفيالها * بتيهاء فيها شراب لطم

فكانوا فداء لكم خفية * فمال بهم جارف منهدم

فطاروا سراعا وما يقدرو * ن منه لشرب صبي فطم

واما قوله

مسخ الضب في الجدالة قدما * وسهيل السماء عمداً بصفر

فانهم يزعمون ان الضب وسهيلا كانا ماكسين عشارين فمسخ الله أحدهما في الارض والآخر في السماء والجدالة الارض ولذلك يقال ضربه فجدله أي الزقه بالارض أي بالجدالة وكذلك قول عنترة

وخليل غانية تركت مجدلا * تمكو فريصته كشدق الاعلم

وأنشد أبو زيد سعيد بن أوس الانصاري

قد أركب الآلة بعد الآله * وأترك العاجز بالجداله

وأما قوله

والذي كان يكتني برغال * جعل الله قبره شر قبر

وكذا كل ذي سفين وخرج * ومكوس وكل صاحب عشر

وانما ذكر أبا رغال وهو الذي يرجم الناس قبره اذا أتوا مكة وكان وجهه فيما يزعمون النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات الاموال فخالف أمره وأساء السيرة فوثب عليه ثقيف وهو قسي بن منبه فقتله قتلا شنيعاً وانما ذلك لسوء سيرته في أهل الحرم فقال غيلان بن سلمة وذكر قسوة أبيه على أبي رغال

* نحن قسي وقسا أبونا *

وقال أمية بن أبي الصلت

نفوا عن أرضهم عدنان طراً * وكانوا للقبائل قاهرينا

وهم قتلوا الرئيس أبا رغال * بنخلة اذ يسوق بها الظاعنينا

وقال عمرو بن درك العبدي وذكر فجور أبي رغال وخبثه فقال

وأني ان قطعت جبال قيس * وحالفت المزون على تميم

لأعظم فجرة من ابي رغال * وأجور في الحكومة من سدوم

وقال مسكين

وأرجم قبره في كل عام * كرجم الناس قبر أبي رغال

وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لغيلان بن سلمة حين أعتق عبده وجعل ماله فى رتاج الكعبة لئن لم ترجع فى مالك ثم مت لأرجمن قبرك كما رجم قبر أبى رغال وكلاما غير هذا قد كلمه به وأما قوله

منكب كافر وأشراط سوء * وعريف جزاؤه حر جمر

فانه ذهب الى أحكام الاسلام كأنه كان قد لقى من المنكب والعريف جهداً وهم ثلاثة منكب ونقيب وعريف وقال جبيهاء الاشجعى

رعاع عاونت بكراً عليه * كما جمل العريف على النقيب

وأما قوله

وتزوجت فى الشبيبة غولا * كغزال وصدقتى زق خمر

فالغول اسم لكل شئ من الجن يعرض للسفار ويتلون فى ضروب الصور والثياب ذكراً كان أو أنثى الا أن لا كثر على أنه أنثي وقد قال أبو المضراب عبيد بن أيوب العنبرى

وحالفت الوحوش وحالفتنى * بقرب عهودهن وبالبعاد

وأمسى الذئب يرصدنى مخشاً * لخفة ضربتى ولضعف آدى

وغولا قفرة ذكر وأنثى * كان عليهما قطع البجاد

فجعل فى الغيلان الذكر والانثى وقد قال الشاعر فى تلونها

وما تزال على حال تكون بها * كما تلون فى أثوابها الغول

فالغول ما كان كذلك والسعلاة اسم لواحدة من نساء الجن تتغول لتفتن السفار قالوا وانما هذا منها على العبث أو لعلها أن تفزع انسانا فيتغير عقله من أجله عند ذلك لانهم لم يسلطوا على الصحيح العقل ولو كان ذلك لبدؤا بعلى بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وأبى بكر وعمر فى زمانهما وبغيلان والحسن في دهرهما وبواصل وعمرو في أيامهما وقد فرق بين الغول والسعلاة عبيد بن أيوب حيث يقول

وساخرة منى ولو أن عينها * رأت ما ألاقيه من الهول جنت

أزل وسعلاة وغول بقفرة * اذا الليل واري الجن فيه أرنت

وهم اذا رأوا الفتاة حديدة الطرف والذهن سريعة الحركة ممشوقة محضة قالوا سعلاة وقال الأعشي

ورجال قتلى بجنبى أريك * ونساء كأنهن السعالى

ويقولون تزوج عمرو بن يربوع السعلاة وقال الراجز

* يا قاتل الله بني السعلاة *

وفي تلون السعلاة يقول عباس بن مرداس السلمي

أصابت القوم غول جل قومهم * وسط البيوت ولون الغول ألوان

وهم يتأولون قوله تعالى وشاركهم في الاموال والاولاد وقوله عز وجل لم يطمثهن انس قبلهم ولاجان فلو كان الجان لم يصب فيهن قط ولم تأتهن ولا كان ذلك مما يجوز بين الجن وبين النساء الآدميات لم يقل ذلك وتأولوا قوله وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فجعل منهن النساء اذ جعل منهم الرجال وقوله أتتخذونه وذريته ، وزعم ابن الاعرابي قال دعا اعرابى ربه فقال اللهم انى أعوذ بك من عفاريت الجن اللهم لاتشركهم فى ولدى ولا جسدي ولادمي ولامالى ولاتدخلهم بيتى ولا تجعلهم لى شركاء فى أمر الدنيا والآخرة قالوا ودعا زهير بن هنيد فقال اللهم لاتسلطهم على نطفى ولاعلى جسدى قال أبو عبيدة فقيل له لم تدعو بهذا الدعاء قال وكيف لا أدعو به وأنا أسمع أيوب النبى والله تعالى يخبر عنه ويقول واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه اني مسنى الشيطان بنصب وعذاب حتى قيل له اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب وكيف لاأستعيذ بالله منه وأنا أسمع الله يقول الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس وأسمعه يقول واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال انى برىء منكم انى أري مالا ترون وقد جاءهم في صورة الشيخ النجدي وكيف لاأستعيذ بالله منه وأنا أسمع الله يقول ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين وكيف لا أستعيذ بالله منه وانا أسمع الله تعالى يقول ولسليمان الريح غدوها

شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ثم قال يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وكيف لا أستعيذ بالله منه وانا أسمع الله تعالى يقول قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوى أمين وكيف لا أقول ذلك وأنا أسمع الله عز وجل يقول رب اغفرلي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الاصفاد ، والأعراب يتزيدون في هذا الباب وأشباه الأعراب يغلطون فيه وبعض أصحاب التأويل يجوز فيه مالا يجوز وقد قلنا في كتاب النبوات بما هو كاف ان شاء الله تعالى وسيقع في هذا الباب الجواب فيه تاماً اذا صرنا الى القول في الملائكة وفي فرق مابين الجن والانس وأما هذا الموضع فانما مغزانا فيه الاخبار عن مذاهب الأعراب وشعراء العرب ولولا العلم بالكلام وبما يجوز مما لا يجوز لكان في دون إطباقهم على هذه الاحاديث ما يغلط فيه العاقل ، قال عبيد بن أيوب وكان جوالا في مجهول الارض لما اشتد خوفه وطال تردده وأبعد في الهرب

لقد خفت حتى لو تمر حمامة * لقلت عدو أو طليعة معشر
فان قيل أمن قلت هذى خديعة * وان قيل خوف قلت حقا فشمر
وخفت خليلي ذا الصفاء ورابني * وقيل فلان أو فلانة فاحذر
فلله در الغول أي رفيقة * لصاحب قفر خائف متنفر
أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت * حوالي نيرانا تلوح وتزهر
وأصبحت كالوحشي يتبع ماخلا * ويطلب مانوس البلاد المبعثر

وفي هذا الباب في كلمة له وهذا أولها

اذاقني طعم الامن أوصل حقيقة * علي فان قامت ففصل بنانيا
خلعت فؤادى فاستطير فأصبحت * ترامي به البيد القفار تراميا
كأني وآجال الظباء بقفرة * لنا كنب نرعاه أصبح رانيا
رأين ضئيل الشخص يظهر مرة * ويخفي مراراً ضامر الجسم عاريا

فأجفان نفراً ثم قلن ابن بلدة * قليل الاذي أمسى لكن مصافيا
ألا يا ظباء الوحش لا تشهرنني * وأخفينني ان كنت فيكن خافيا
أكلت عروق الشرى معكن والتوى * بحلق نور القفر حتي روانيا *
ومنهن قد لاقيت ذاك فلم أكن * جبانا اذا هول الجبان اعترانيا
أذقت المنايا بعضهن بأسهمي * وقددن لحمي وامتشقن ردائيا
ابيت ضجيع الاسود الجون في الهوى * كثيراً وأبناء الحشيش وساديا
اذا هجن بي في جحرهن اكتشفني * فليت سليمان بن وبر يرانيا
فما زلت مذ كنت ابن عشرين حجة * أخا الحرب مجنيا على وجانيا

ومما ذكر فيه الغيلان قوله

تقول وقد ألممت بالانس لمة * مخضبة الاطراف خرس الخلاخل
أهذا خليل الغول والذئب والذى * يهيم بربات الحجال الكواهل
رأت خلق الادراس أشعث شاحبا * على الجدب بساما كريم الشمائل
تعود من آبائه فتكاتهم * واطعامهم فى كل غبراء شامل
اذا صاد صيداً لفه بطرامة * وشيكا ولم ينكر لنصب المراجل
ونهسا كنهس الصقر ثم طراسه * بكفيه رأس الشيخة المتمايل
فلم يسحب المنديل بين جماعة * ولا فارداً مذ ضاع بين القوابل

ومما قال فى هذا المعني

علام ترى ليلى تعذب بالمني * اخا قفرات كان بالذئب يأنس
وصار خليل الغول بعد عداوة * صفيا وربته القفار البسابس

وقال فى هذا المعني

فلو لا رجال يامنيع رأيتهم * لهم خلق عند الجوار حميد
أنالكم مني نكال وغارة * لها ذنب لم تدركوه بعيد
أقل بنو الاحسان حتى أغرتم * على من يثير الجن وهي هجود

وقال ابن الاعرابي وعدت اعرابية اعرابيا أن يأتيها فكمن فى عشرة كانت بقربها فنظر

الزوج فرأى شبحا في العشرة فقال يا هناه ان انسانا ليطالعنا من العشرة قالت مه يا شيخ ذاك جان العشرة اليك عني وعن ولدي قال الشيخ وعني يرحمك الله قالت وعن أبيهم فما هو الا ان غطى رأسه فرقد ونام الشيخ وجاء الاعرابي فرفع رجليها ثم أعطاها حتى رضيت ، وروى عن محمد بن الحسن عن مجالد أو غيره قال كنا عند الشعبي جلوسا فر حمال على ظهره دن خل فلما رأى الشعبي وضع الدن وقال للشعبي ما كان اسم امرأة ابليس قال ذاك نكاح ما شهدناه وأبو الحسن عن أبي اسحاق المالكي قال قال الحجاج ليحيى بن سعيد بن العاصي أخبرني عبد الله بن هلال صديق ابليس انك تشبه ابليس قال وما ينكر الامير ان يكون سيد الانس يشبه سيد الجن وروي الهيثم عن داود بن أبي هند قال سئل الشعبي عن لحم الفيل فتلا قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الى آخر الآية وسئل عن لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف فقال له قائل ما تقول في الذبان قال ان اشتهيته فكله وأنشدوا قول أعرابي لامرأته

الا تموتين إنا نبتغي بدلا * ان اللواتي يموتن الميامين

وقال أبو الحسن وغيره كان سعيد بن خالد بن عبد الله بن أسيد تصيبه موتة نصف سنة ونصف سنة يصح فيحبو ويعطي ويكسو ويحمل فأراد أهله أن يعالجوه فتكلمت امرأة على لسانه انا رقية بنت ملحان سيد الجن والله ان لو علمت مكان رجل أشرف منه لعلقته والله لئن عالجتموه لاقتلنه فتركوا علاجه وتقول العرب شيطان الحماطة وغول القفرة وجان العشرة وأنشد

فانصلتت لي مثل سعلاة العشر * تروح بالليل وتغدو بالغير

وأنشد

يا أيهذا الصاحب الغملول * انك غول ولدتك غول

الغملول الخمر من الارض يختبي فيه الرجل ويضب ضبة الارنب ليفزعه ويوهمه أنه عامر لذلك الخمر

باب من ادعى من الاعراب والشعراء أنهم يرون الغيلان ويسمعون عزيف الجان

وما يشبهونه بالجن والشياطين وبأعضائهم وبأخلاقهم وأعمالهم وأنشد

كانه لما تدانى مقربه * وانقطعت أو ذامه وكربه
وجاءت الخيل جميعا تذنبه * شيطان جن في هواء يرقبه
* أذنب فانقض عليه كوكبه *

وأنشد

ان العقيلي لا تلقى له شبها * ولو صبرت لتلقاه على العيس
بينا تراه عليه الخز متكئاً * اذا مر يهدج في حش الكرابيس
وقد تكنفه عرامه زمنا * أشباه جن عكوف حول ابليس
اذا المفاليس يوما حاربوا ملكا * ترى العقيلي منهم في كراديس

وهو الذي يقول

أضحت ثيابك غير جلدك تلبس * قطر السماء وأنت عار مفلس

وقال أبو الخطفي

يرفعن بالليل اذا ما أسدفا * أعناق جنان وهاما رجفا
* وعنقا بعد الرسيم خيطفا *

وأنشد ابن الاعرابي

غناء كلبي يري الجن يبتني * صداه اذا ما آب للجن آيب

وقال الحارث بن حلزة

ملك مقسط وأفضل من يمـ * ـشي ومن دونه ما لديه الثناء
إرمي بمثله جالت الجن * فآبت لخصمها الاجلاء

وقال الاعشى

فاني وما كلفتموني اتباعه * ليعلم ربي من أعق وأحوبا

لكالثور والجني يضرب ظهره * وما ذنبه ان عافت الماء مشربا

وقال الرقيانى العوافى واسمه عطاء بن أسيد أحد بنى عواف بن سعد

بين اللهي منه اذا ما مدا * مثل عزيف الجن هدت هدا

وقال ذو الرمة

قد أعسف النازح المجهول معسفه * فى ظل أخضر يدعو هامه البوم

للجن بالليـل فى أرجائها زجل * كما تناوح بين الريح عيسوم

دوية ودجى ليـل كانهما * يم تراطن فى حافاته الروم

وقال

وكم عرست بعد السري من معرس * بها من صداء الجن أصوات سامر

وقال

كم جبت ذونك من بهماء مظلمة * تيه اذا مامغـنى جنـه سمـرا

وقال

ورمل لعزف الجن فى عقداته * هرير كتضراب المغنين بالطبل

﴿ وقال ﴾

وتيـه خبطنا غولهـا وارتمى بنـا * أبو البعد من أرجائه المتطاوح

فلاة اصوت الجن فى منكراتهـا * هـرير وللابوام فيهـا نوائح

وطول اغتمامى في الدجى كلما رعت * من الليل أصداء المثانى الصوائح

﴿ وقال ذو الرمة ﴾

بلاد يبيت البوم يدعو بناته * بها ومن الاصداء والجن سامر

﴿ وقال أيضا ﴾

وللوحش والجنان كل عشية * بها خلفة من عازف وبغام

﴿ وقال الراعي ﴾

وداوية غـبراء أكثر أهلها * عزيف وبوم آخر الليل صائح

أقر بهـا جأشاً بأول آية * وماضي الحسام غمده متطايح

ويقال لمن به لقوة أو شتر اذا سب لطيم الشيطان وكذلك قال عبيد الله بن زياد لعمرو ابن سعيد حين أهوى بسيفه ليطعن فى خاصرة عبد الله بن معاوية وكان مستضعفا وكان مع الضحاك فلما أسر أهوى اليه بالسيف وقد استردفه عبيد الله استغاث بعبيد الله قال عبيد الله لعمرو يدك يالطيم الشيطان ويقال للرجل المفرط الطول ياظل النعامة وللمتكبر الضخم ياظل الشيطان كما قال الحجاج لمحمد بن سعد بن أبي وقاص بينا انت ياظل الشيطان أشد الناس كبرا اذ صرت مؤدبا لفلان وقال جرير فى هجائه شبة ابن عقال وكان مفرط الطول

فضح المنابر يوم يسلح قائما * ظل النعامة شبة بن عقال

فاما قولهم منينا بيوم كظل الرمح فانه ليس يريدون به الطول فقط ولكنهم يريدون مع الطول انه ضيق غير واسع وقال ابن الطثرية

ويوم كظل الرمح قصر طوله * دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

قال وليس يوجد لظل الشخص نهاية مع طلوع الشمس قال وكان عمر بن عبد العزيز أول من نهى الناس عن حمل الصبيان على ظهور الخيل يوم الحلبة وقال تحملون الصبيان على الجنان وأنشد فى تشبيه الانس بالجن لأبي الجويرية العبدي

أنس اذا أمنوا جن إذا فزعوا * مرزؤن بهاليل اذا حشدوا

وأنشدوا

وقلت والله لنرحلنا * قلائصا تحسبهن جنا

﴿ وقال ابن الزوائد ﴾

وحولى الشول رجا شذبا * بطية الدرخين تهتصر

ولاذبى الكلاب لانباح له * يهر محرنجما وينجحر

بحور خفض لمن ألم بهم * جن بارماحهم اذا خطروا

﴿ وأنشدوا ﴾

انى امرؤ تابعنى شيطانيه * آخيته عمرى وقد آخانيه

يشرب فى قعبي وقد سقانيه * فالحمد لله الذى أعطانيه

بدنا وجوفا فى جدور راضيه * تربعت فى عقد فالماريه
بقلا نضيدا فى تلاع خاليه * حتى اذا ما الشمس مرت ماضيه
قام اليها فتية ثمانيه * فبرزوا كل ربايا ساجيه
أخلافها لذى الا كف ماليه

وقال ابن الاعرابى قال لى اعرابي مرة وقد نزلت قال وهو أخف ما نزلت به وأطيبه فقلت ما أطيب ماءكم هذا وأعدى منزلكم قال نعم وهو بعيد من الخير كله بعيد من العراق واليمامة والحجاز كثير الحيات كثير الجنان فقلت أترون الجن قال نعم مكانهم فى هذا الجبل وأشار بيده الى جبل يقال له سواخ قال ثم حدثني بأشياء وقال عبيد بن أوس الطائى فى أخت عدى بن أوس

هل جاء أوسا ليلتى ونعيمها * ومقام أوس فى الخباء المشرج
مازلت أطوى الجن أسمع حسهم * حتى دفعت الى رواق المروج
فوضعت كفى عند مقطع خصرها * فتنفست بهراً ولما تنهج
فتناولت رأسى لتعرف مسه * بمخضب الاطراف غير مشنج
قالت بعيش أخى وحرمة والدي * لأنبهن الحى ان لم تخرج
فخرجت خيفة قومها فتبسمت * فعلمت أن يمينها لم تلجج
فلثمت فاها قابضاً بقرونها * شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

﴿ وأنشدنى آخر ﴾

ذهبتم وعدتم بالامير وقلتم * تركنا أحاديثا ولحما موضعا
فما زادنى الاسناء ورفعة * ولا زادكم فى القوم الا تخشعا
فما نفرت جنى ولا فل مبردى * وما أصبحت طيري من الخوف وقعا

وقال حسان بن ثابت فى معنى قوله والله لأضربنه حتى أنزع من رأسه شيطانه فقال

وداوية سبسب سملق * من البيد تعرف جنانها
قطعت بعيرانة كالفنيق * يمرح فى الآل شيطانها

وأبين منه قول منظور بن رواحة

أتاني وأهلي بالرماح وغمرة * مسب عريف اللؤم حتى بني بدر
فلما أتاني ما تقول تقلصت * شياطين رأسي وانتشين من الخمر

ومن المثل والتشبيه قول أبي النجم

وقام جني السنام الأميل * وامتهد الغارب فعل الدمل

﴿ وقال ابن أحمر ﴾

بهجل من قسا زفر الخزامي * تهادى الجربياء به الحنينا
تكسر فوقه القلع السواري * وجن الخازباز به جنونا

﴿ وقال الأعشى ﴾

واذا الغيث صوبه وضع القد * ح وجن التلاع والآفاق
لم يزدهم سفاهة شرب الخمـ * ـر ولا اللهو بينهم والسباق

﴿ وقال النابغة ﴾

وخيس الجن اني قد أذنت لهم * يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وأهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل زمن سليمان عليه السلام باكثر مما بيننا اليوم وبين سليمان بن داود عليهما السلام قالوا ولكنكم اذا رأيتم بنيانا عجيباً وجهلتم موضع الحيلة فيه اضفتموه الى الجن ولم تعانوه بالفكر وقال العرجي

سدت مسامعها لقرع مراحل * من نسج جن مثله لاينسج

وقال الأصمعي السيوف المأثورة هي التي يقال انها من عمل الجن لسليمان بن داود عليهما السلام فاما القوارير والحمامات فذلك مالاشك فيه وقال البعيث

بني زياد لذكر الله مصنعة * من الحجارة لم تعمل من الطين
كأنها غير أن الانس ترفعها * مما بنت لسليمان الشياطين

﴿ وقال المقنع الكندي ﴾

وفي الظعائن والأحداج أملح من * حل العراق وحل الشام واليمنا
جنية من نساء الأنس أملح من * شمس النهار وبدر الليل قد قرنا
مكتومة الذكر عندي ماحييت لها * وقد لعمري ملات الصرم والحزنا

﴿ وقال أبو النجم ﴾

أدرك عقلا والرهان عمله * كان برد القاع حين تسحله
ضئن شياطين زفته شمأله

وقال الأعشى فى هذا المعنى الأول من بناء الشياطين لسليمان بن داود عليهما السلام

أرى عاديا لم يمنع الموت ربه * وورد بتيماء اليهودي أبلق
بناه سليمان بن داود حقبة * له جندل صم وطى موثق

وكما يقولون قنفذ برقة وضب سحا وأرنب الخلة وذئب خمر فيفرقون بينها وبين ما ينسب لذلك اما فى السمن واما في الخبث واما في القوة كذلك أيضا يفرقون بين مواضع الجن فاذا نسبوا الشكل منها الى موضع معروف فقد خصوه من الخبث والقوة والعرامة بما ليس لجملتهم وجمهورهم وقال لبيد

غلب تشذر بالدحول كأنها * جن البدى رواسيا أقدامها

﴿ وقال النابغة ﴾

سهكين من صدإ الحديد كأنهم * تحت السنور جنة البقار

﴿ وقال زهير ﴾

عليهن فتيان كجنة عبقر * جديرون يوما أن ينيفوا فيستعلوا

وقال حاتم

عليهن فتيان كجنة عبقرا * يهزون بالايدى الوشيج المقوما

ولذلك قيل لكل شيء فائق أو شديد عبقرى وفى الحديث فى صفة عمر رضى الله عنه فلم أر عبقريا يفرى فريه وقال اعرابى ظلمني والله ظلما عبقريا، ثم ينزلون الجن في مراتب فاذا ذكروا الجنى سالما قالوا جني فاذا أرادوا أنه ممن سكن مع الناس قالوا عامر والجميع عمار وان كان ممن يعرض للصبيان فهم أرواح فان خبث أحدهم وتعرم فهو شيطان فان زاد على ذلك فى القوة فهو عفريت والجمع عفاريت قال الله تعالي قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وهم فى الجملة جن وخوافى قال الشاعر

ولا يحس سوي الخافي بها أثر

فاذا ظهر الجني ونطق واتقي وصار خيرا كله فهو ملك في قول من تأول قوله كان من الجن ففسق عن أمر ربه على أن الجن في هذا الموضع الملائكة وقال آخرون كان منهم على الاضافة الى الدار والديانة لا على أنه كان من جنسهم وانما ذلك على قولهم سليمان بن يزيد العدوى وسليمان بن طوحان التيمى وأبو علي العبدرى وعمرو بن قائد الاسوارى أضافوهم الي المحال وتركوا أنسابهم فى الحقيقة وقال آخرون كل مستجن فهو جنى وجان وجنين وكذلك الولد قيل له جنين لكونه فى البطن واستجنانه وقال للميت الذى فى القبر جنين وقال عمرو بن كلثوم

ولا شمطاء لم تدع المنايا * لهامن تسعة الا جنينا

يخبر أنها قد دفنتهم كلهم قالوا وكذلك الملائكة من الحفظة والحملة والكروبيين فلا بد من طبقات وربما فرق بينهم بالاعمال واشتق لهم الاسماء من السبب كما قالوا الواحد من الانبياء خليل الله وقالوا لآخر كليم الله وقالوا لآخر روح الله والعرب تنزل الشجعان فى المراتب والاسم العام شجاع ثم بهمة أليس هذا قول أبى عبيدة فأما قولهم شيطان الحماطة فانهم يعنون الحية وأنشد الأصمعي

تلاعب مثنى حضرمى كأنه * تعمج شيطان بذي خروع قفر

وقد يسمون الكبر والطغيان والخنزوانة والغضب الشديد شيطانا على التشبيه قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه والله لأنزعن نعرته ولأضربنه حتي أنزع شيطانه من نخرته والاعراب تجعل الخوافي والمستجنات من قبل أن ترتب المراتب جنين تقول حن وجان بالجيم والحاء وأنشدوا

أبيت أهوى فى شياطين ترن * مختلف نجارها حن وجن

ويجعلون الحن فوق الجن وقال أعشى سليم

فما أنا من جن اذا كنت خافيا * ولست من النسناس فى عنصر البشر

ذهب الى قول من قال البشر ناس ونسناس والخوافي حن وجن ويقول أنا من أكرم العيين حيث ما كانت ، وضعفة النساك وأغبياء العباد يزعمون أن لهم خاصة

شيطانا قد وكل بهم يقال له المذهب يسرج لهم النيران ويضيء لهم الظلمة ليفتنهم وليريهم العجب اذا ظنوا أن ذلك من قبل الله تعالى وفي الحديث ان الشيطان الذى قد تفرد بحفظة القرآن ينسيهم القرآن يسمي حنوب وهو صاحب عثمان بن أبي العاص قال وأما الخابل والخبل فانما ذلك اسم للجن الذين يخبلون ويتعرضون ممن ليس عنده الا العزيف والنوح وفصل أيضا لبيد بينهم فقال

أعاذل لو كان البداذ لقوتلوا * ولكن أتانا كل جن وخابل

وزعم ناس ان الخبل والخابل ناس قالوا فاذا كان ذلك كذلك فكيف يقول ذلك أوس ابن حجر * تناوح جنان بهن وخابل * قالوا واذا تعرضت الجنية وتلونت وعبثت فهى شيطانة ثم غول والغول في كلام العرب الداهية ويقال لقد غالته غول وقال الشاعر

تقول بيتى فى عز وفى سعة * فقد صدقت ولكن أنت مدخول

لا بأس بالبيت الا مافعلت به * تبني وتهدمه هدما لك الغول

﴿ وقال الراجز ﴾

والحرب غول أو كشبه الغول * تزف بالرايات والطبول

تقلب للاوتار والدحول * حملاق عين ليس بالمكحول

ومن قول الاعراب إنهم يظهرون لهم ويكلمونهم وينا كحونهم ولذلك قال شمر بن الحارث الضبي

ونار قد خطأت بعيد وهن * بدار لا أريد بها مقاما

سوى تحليل راحلة وعين * اكالئها مخافة ان تناما

أتوا نارى فقلت منون أنتم * فقالوا الجن قلت عموا ظلاما

فقلت الى الطعام فقال منهم * زعيم نحسد الانس الطعاما

وذكر أبو زيد عنهم أن رجلا منهم تزوج السعلاة وانها كانت عنده زمانا وولدت منه حتى رأت ذات ليلة برقا على بلاد السعالى فطارت اليهن فقال

رأي برقا فأوضع فوق بكر * فلا ياما أسال وما أغاما

فمن هذا النتاج المشترك وهذا الخلق المركب عندهم بنو السعلاة من بني عمرو بن

يربوع وبلقيس ملكة سبا وتأولوا قول الشاعر

لاهم ان جرهما عباد كا * الناس طرف وهم تلاد كا

فزعموا أن أبا جرهم من الملائكة الذين كانوا اذا عصوا فى السماء أنزلوا الى الارض كما قيل فى هاروت وماروت فجعلوا سهيلا عشاراً مسخ نجما وجعلوا الزهرة امرأة بغيا مسخت نجما وكان اسمها أناهيد وتقول الهند فى الكوكب الذي يسمى عطارد شبيها بهذا ويقول الناس فلان مخدوم يذهبون الى أنه اذا عزم على الشياطين والارواح والعمار أجابوه وأطاعوه فمنهم عبد الله بن هلال الحميري الذى كان يقال له صديق ابليس ومنهم كدياس الهندى وصالح الموسوى وقد كان عبيد يقول أن العامرى حريص على اجابة العزيمة ولكن البدن اذا لم يصلح أن يكون هيكلا لم يستطع دخوله والحيلة فى ذلك أن يتبخر باللبان الذكر ويراعى سير المشترى ويغتسل بالماء القراح ويدع الجماع وأكل الزهومات ويتوحش فى الفيافي ويكثر دخول الخرابات حتى يرق ويلطف ويصير فيه مشابه من الجن فان عزم عند ذلك فلم يجب فلا يعودن لمثلها فانه ليس ممن يكون بدنه هيكلا لها ومتى عاد خبطه فربما جن وربما مات قال فلو كنت ممن يصلح ان يكون لهم هيكلا لكنت فوق عبد الله بن هلال قال الاعراب وربما نزلنا بجمع كثير ورأينا خياما وقبابا وناسا ثم فقدناهم من ساعتنا والعوام تروي أن ابن مسعود رضى الله عنه رأى رجلا من الزط فقال هولاء أشبه من رأيت من الجن ليلة الجن قال وقد روى عنه خلاف ذلك وتاولوا قوله تعالى وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ولم يهلك الناس شيئاً كالتأويل ومما يدل على ماقلنا قول أبى النجم حيث يقول * بحيث تستن مع الجن الغول *

فأخرج الجن من الغول الذي باتت به الجن وهذا عادتهم أن يخرجوا الشيء من الجملة بعد أن دخل ذلك الشيء فى الجملة فيظهر لامر خاص وفى بعض الرواية أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الاوثان همهمة وأن خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشرر حتى احترق عامة فخذه حتى عوذه النبي صلى الله عليه وسلم وهذه فتنة لم يكن الله تعالى ليمتحن بها الاعراب من العوام وما أشك أنه كان للسدنة

حيل والطاف لمكان التكسب ولو سمعت أو رأيت بعض ماقد أعد الهند من هـذ
المخاريق فى بيوت عباداتهـم لعلمت ان الله تعالى قدمن على جملة الناس بالمتكلمين
الذين قـد نشوا فيهم وقد تعرف مافيه عجاز النصارى وأغمارهم من الافتتان بمصابيح
كنيسة شامة فأما علماؤهم وعقلاؤهم فليسوا بمتحاشين من الكذب الصرف والجرا
على البهتان البحت وقد تعودوا المكابرة حتي دربوا به الدرب ولايفطن له الا ذو
الفراسة الثابتة والمعرفة الثاقبة والاعراب وأشباه الاعراب لايتحاشون من الايمان
بالهاتف بل يتعجبون ممن رد ذلك فمن ذلك حـديث الأعشى بن ماس بن زرار
الأسدى أنه سمع هاتفا يقول

لقد هلك الفياض غيث بنى فهر * وذو الباع والمجد الرفيع وذو القدر

قال فقلت مجيباً له

الا أيها الناعى أخا الجود والندي * من المـرء تنعاه لنـا من بنى فهر

﴿ فقال ﴾

نعيت ابن جدعان بن عمرو أخا الندى * وذا الحسب القدموس والمنصب القصر

وهذا الباب كثير قالوا ولنقل الجن الأخبار علم الناس وفاة الملوك والأمور المهمة
كما تسامعوا بموت المنصور فى اليوم الذى توفى فيه بقرب مكة وهذا الباب أيضا كثير
وكانوا يقولون اذا ألف الجني انسانا وتعطف عليه وخبره ببعض الاخبار وجد حسه
ورأى خياله واذا كان عندهم كذلك قالوا مع فلان رئيّ من الجن وممن يقولون ذلك
فيه عمرو بن لحاء بن شمة والمأمون الحارثى وعتيبة بن الحارث بن شهاب فى ناس معروفين
من ذوى الاقدار من بين فارس رئيس وسيد مطاع ، فأما الكهان فمثل حارثة بن جمة
وكاهنة باهلة وعنز سلمة ومثل شق وسطيح وأشباههم وأما العراف وهو دون الكاهن
فمثل الأبلق الاسيدى والاجلح الزهرى وعروة بن زيد الاسدى وعراف اليمامة
رباح بن كحلة وهو صاحب المستنير البلتي وقد قال الشاعر

فقلت لعراف اليمـامة داونى * فانك ان أبرأتني لطبيب

وقال جبيهاء الاشجعي

أقام هوي صفية فى فؤادى * وقد سيرت كل هوي حبيب
لك الخيرات كيف منحت ودى * وما أنا من هواك بذى نصيب
أقول وعروة الاسدي يرقى * أتاك برقية الملق المكذوب
لعمرك ما التثاؤب يا بن زيد * بشاف من رقاك ولا مجيب
لسير الناعجات أظن أشفي * لما بى من طبيب بني الذهوب

ومن الباب الذي يدعيه هؤلاء من جنس العيافة والزجر والخطوط والنظر في أسرار الكف وفي مواضع قرض الفار وفى الخيلان فى الجسد وفى النظر فى الاكتاف والانباء بالنجوم والعلاج بالفكر وقد كان مسيلمة يدعى أن معه رئيا فى أول زمانه ولذلك قال الشاعر حين وصف مخاريقه وخدعه

ببيضة قاروز وراية شادن * وخلة جني وتوصيل طائر

لا أراه ذكر خلة الجني ويقولون ومن الجن جنس صورة الواحد منهم على نصف صورة الانسان واسمه شق وانه كثيراً ما يعرض للرجل المسافر اذا كان وحده فربما أهلكه فزعا وربما أهلكه ضربا وقتلا قالوا فمن ذلك حديث علقمة بن صفوان بن أمية بن حرب الكنانى جد مروان بن الحكم فى الجاهلية خرج وهو يريد مالا له بمكة وهو على حمار وعليه ازار ورداء ومعه مقرعة فى ليلة أضحيانة حتى انتهى الى موضع يقال له حائط جرمان فاذا هو بشق له يد ورجل وعين ومعه سيف وهو يقول

علقم انى مقتول * وان لحمى مأكول
أضربهم بالهذلول * ضرب غلام شملول
* رحب الذراع بهلول *

فقال علقمة

يا شق ما لى ولك * اغمد عني منصلك
* تقتل من لا يقتلك *

فقال شق

عنيت لك عنيت لك * كيما أبيح مقتلك

* فاصبر لما قد حم لك *

فضرب كل واحد منهما صاحبه خرا ميتين فمن قتلت الجن علقمة بن صفوان هذا وحرب بن أمية قالوا وقالت الجن

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر

قالوا ومن الدليل أن هذين البيتين من أشعار الجن أن أحداً لا يستطيع أن ينشدهما ثلاث مرات متصلة لا يتتعتع فيها وهو يستطيع أن ينشد أثقل شعر في الارض وأشقه عشر مرات ولا يتتعتع، قال وقتلت مرداس بن أبي عامر أبا عباس بن مرداس وقتلت الغريض خنقا بعد ان غنى بالغناء الذى كانوا نهوه عنه وقتلت الجن سعد بن عبادة بن ديلم وسمعوا الهاتف يقول

نحن قتلنا سيد الخز * رج سعد بن عباده
ورميناه بسهمين * فلم نخط فؤاده

واستهووا سنان بن أبي حارثة ليستفحلوه فمات فيهم واستهووا طالب بن أبي طالب فلم يوجد له أثر الى يومنا هذا واستهووا عمرو بن عدى اللخمى الملك الذى يقال فيه شب عمرو عن الطوق ثم ردوه على جذيمة الابرش بعد سنين واستهووا عمارة بن المغيرة ونفخوا في إحليله فصار مع الوحش ويروون عن عبد الله بن قتادة باسناد له يرفعه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال خرافة رجل من عذرة استهوته الشياطين وانه تحدث يوما بحديث فقالت امرأة من نسائه هذا من حديث خرافة قال لا وخرافة حق ورووا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سأل المفقود الذى استهوته الجن ما كان طعامهم قال الروث قال فما كان شرابهم قال البول ورووا أن طعامهم الرمة وما لم يذكر اسم الله عليه ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلم والحديث صحيح أنه قال خمروا آنيتكم وأوكؤا أسقيتكم وأغلقوا الابواب وأطفؤا المصابيح وكفوا صبيانكم فان للشياطين انتشاراً وخطفة وقد قال الناس في قوله تعالى انها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كانه رؤس الشياطين فزعم ناس ان رؤس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير وقالوا ما عنى الارؤس

شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم فقال أهل الطعن والخلاف كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ولا وصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره فكيف يكون انسان كذلك والناس لايفزعون الا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صورهلم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق وعلى أن أكثر الناس من هذه الامم لم يعاين أهل الكنائس وحملة القرآن من المسلمين ولم تسمع الاختلاف ولا يتوهمون ذلك لا يقفون عليه ولا يفزعون منه فكيف يكون ذلك وعيداً عاما قلنا وان كنا نحن لم نر شيطانا ولا صور رؤسها لنا صادق بيده ففي اجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يصفون ذلك في مكانين أحدهما أن يقولوا لهو أقبح من الشيطان والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير به كما تسمي الفرس الكريمة شوهاء والمرأة الجميلة صماء وقرناء وخنساء وحرباء وأشباه ذلك على جهة التطير به ففي اجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه علي ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة اقبح من كل قبيح والكتاب انما نزل على هؤلاء الذين ثبت في طبائعهم بغاية التثبت وكما يقولون لهو أفصح من السحر الحلال وكذلك يقولون كما قال عمر ابن عبد العزيز لبعض من احسن الكلام في طلب حاجته هذا والله السحر الحلال وكذلك أيضا ربما قالوا ما فلان الا شيطان على معنى الشهامة والنفاذ وما اشبه ذلك والعامة تزعم ان الغول يتصور في احسن الصورة الا انه لابد ان تكون رجلها رجل حمار وخبروا عن الخليل بن احمد ان اعرابياً انشده

وحافر العير في ساق خدلجة * وجفن عين خلاف الانس في الطول

وذكروا أن العامة تزعم أن شق عين الشيطان بالطول وما أظنهم أخذوا هذين المعنيين الا عن الأعراب، وأما أخبارهم عن هذه الامم عن جهلنا بهذا الاجماع والاطباق فما القول في ذلك الا كالقول في الزبانية وخزنة جهنم وصور الملائكة الذين يتصورون في أقبح الصور اذا حضروا لقبض أرواح الكفار وكذلك في صور منكر ونكير

يكون للمؤمن على مثال وللكفار على مثال ونحن نزعم أن الكفار يزعمون أنهم لا يتوهمون الكلام والحاجة من انسان ألقي في جاحم تنور فكيف بأن يلقى في نار جهنم فالحجة على جميع هؤلاء في جميع هذه الابواب من جهة واحدة وهذا الجواب قريب والحمد لله ، وشق فم العنكبوت بالطول ولها ثمانية أرجل وتزعم الاعراب أن الله تعالى حين أهلك الأمة التي كانت تسمي وبار كما أهلك طسما وجديساً وعملاقا وثموداً وعاداً ان الجن سكنت في منازلهم وحمتها من كل من أرادها وانها أخصب بلاد الله وأكثرها شجراً وأطيبها ثمراً وأكثرها حبا وعنبا وأكثرها نخلا وموزاً فان دنا اليوم إنسان من تلك البلاد متعمداً أو غالطا حثوا في وجهه التراب فان أبي الرجوع خبلوه وربما قتلوه والموضع نفسه باطل فان قيل لهم دلونا على جهته وأوقفونا على حده وخلاكم ذم زعموا ان من أراده القي على قلبه الصرفة حتى كأنهم أصحاب موسى في التيه وقال الشاعر

وداع دعا والليل مرخ سدوله * رجاء القرى يامسلم بن حمار

دعى جعلا لا يهتدى لمقيله * من اللؤم حتى يهتدي لوبار

فهذا الشاعر الاعرابي جعل أرض وبار مثلا في الضلال والاعراب يحدثون عنها كما تحدثون عما يجدونه بالدو والصمان والدهناء ورمل يبرين وما أكثر مايذكرون أرض وبار في الشعر على معنى هذا الشاعر ، قالوا فليس اليوم في تلك البلاد الا الجن والابل الحوشية والحوش من الابل عندهم هي التى قد ضربت فيها فحول ابل الجن فالحوشية من نسل إبل الجن والعيدية والمهرية والعسجدية والعمانية قد ضربت فيها الحوش وقال رؤبة

* حوت رجالا من بلاد الحوش *

وقال ابن هرمة

كأني على حوشية أو نعامة * لها نسب في الطير وهو ظليم

وانما سموا صاحبة يزيد بن الطثرية حوشية على هذا المعنى ، وقال بعض أهل أصحاب التفسير في قوله تعالى وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم

رحقا ان جماعة من العرب كانوا اذا صاروا فى تيه من الارض وتوسطوا بلاد الحوش خافوا عبث الجنان والسعالى والغيلان والشياطين فيقوم أحدهم فيرفع صوته انا عائذون بسيد هذا الوادى فلا يؤذيهم أحد وتصير لهم بذلك خفارة وهم يزعمون أن المجنون اذا صرعته الجنية وان المجنونة اذا صرعها الجنى ان ذلك انما هو على طريق العشق والهوى وشهوة النكاح وان الشيطان يعشق المرأة منا وان نظره اليها من طريق العجب بها أشد عليها من حمى أيام وان عين الجان أشد من عين الانسان قال وسمع عمرو بن عبيد ناسا من المتكلمين ينكرون صرع الشيطان من المس فقال لو كان الشيطان لم يخبط أحداً لما ذكر الله تعالى به أكلة الربا فقيل له ولعل ذلك كان مرة فذهب قال ولعله قد كثر فازداد اضعافا قال وما تنكرون من الاستهواء بعد قوله تعالى كالذى استهوته الشياطين والعرب تزعم أن الطاعون طعن من الشيطان ويسمي الطاعون رماح الجن قال الاسدى للحارث الغساني ملك غسان

لعمرك ما خشيت على أبيٍّ * رماح بني مقيدة الحمار
ولكنى خشيت على أبيٍّ * رماح الجن أو اياك حار

يقول لم أكن أخاف على أبيّ مع منعته وصرامته أن تقتله الانذال ومن يرتبط العير دون الفرس ولكنى انما كنت أخافك عليه فتكون أنت الذى تطعنه أو يطعنه طاعون الشام وقال العمانى يذكر دولة بنى العباس

قد دفع الله رماح الجن * واذهب العذاب والتجنى

وقال زيد بن جندب الأيادي

ولولا رماح الجن ما كان هزمهم * رماح الاعادى من فصيح وأعجم

ذهب الى قول أبى دؤاد

سلط الموت والمنون عليهم * فلهم فى صدا المقابر هام

يعنى الطاعون الذى أصاب إيادا وجاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الطاعون فقال هو وخز من عدوكم وأن عمر وبن العاصى قام فى الناس فى طاعون عمواس فقال ان هذا الطاعون قد ظهر وانما هو وخز من الشيطان ففروا

منه في هذه الشهاب وبلغ ذلك ابن جبل فأنكر عليه وتزعم العامة ان الله تعالى قد ملك الجن والشياطين والعمار والغيلان أن يتحولوا في أي صورة شاؤا الا الغول فانها تحول فى جميع صورة المرأة ولباسها الا رجليها فلا بد أن يكونا رجلى حمار وانما قاسوا تصور الجن على تصور جبريل عليه السلام فى صورة دحية بن خليفة الكلبي وعلى تصور الملائكة الذين أتوا مريم وابراهيم ولوطاوداود فى صورة المؤمنين وعلى ماجاء فى الأثر من تصور ابليس فى صورة سراقة بن مالك وعلى تصوره فى صورة الشيخ النجدي وقاسوه على تصور ملك الموت اذا حضر لقبض أرواح بنى آدم فانه عند ذلك يتصور على قدر الأعمال الصالحة والطالحة قالوا وقد جاء فى الخبر أن من الملائكة من هو فى صورة الرجال ومنهم من هو فى صورة الثيران ومنهم من هو فى صورة النسور ويدل على ذلك تصديق النبي صلى الله عليه وسلم لامية بن أبي الصلت حين أنشد

رجل وثور تحت رجل يمينه * والنسر للاخرى وليث مرصد

قالوا فاذا استقام أن تختلف صورهم واخلاط أبدانهم وتتفق عقولهم وبيانهم واستطاعتهم جاز أيضاً أن يكون ابليس لعنة الله عليه والشيطان والغول أن يتبدلوا فى الصور من غير ان يتبدلوا في العقل والبيان والاستطاعة قالوا وقد حول الله تعالى جعفر بن أبى طالب طائراً حتي سماه المسلمون الطيار ولم يخرجه ذلك من أن نراه غدا في الجنة وله مثل عقل أخيه على ومثل عقل عمه حمزة رضى الله تعالى عنهم مع المساواة بالبيان والخلق قالوا وقد جاء فى الأثر النهى عن الصلاة فى اعطان الابل لانها خلقت من اعناق الشياطين وجاء ان النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن الصلاة عند طلوع الشمس حتى يتم طلوعها فانها تطلع بين قرنى شيطان وجاء ان الشيطان يغل فى رمضان فكيف تنكر ذلك مع قوله تعالى والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الاصفاد لشهرة ذلك فى العرب في بقايا ماثبتوا عليه من دين ابراهيم قال النابغة الذبيانى

الا سليمان اذ قال الاله له * قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيس الجن اني قد أذنت لهم * يبنون تدمر بالصفاح والعمد

فمن عصاك فعاقبه معاقبة * تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

وجاء في قتل الاسود البهيم من الكلاب وفى ذى النكتتين وفي الحية ذات الطفيتين فانها جان وجاء لا تشربوا من ثلمة الاناء فانه كفل الشيطان وفي العاقد شعره في الصلاة انها كفل الشيطان وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال تراصوا بينكم فى الصلاة لا تتخللكم الشياطين كانها بنات حذف وأنه نهى عن ذبائح الجن ورووا أن امرأة أتت الى النبى صلي الله عليه وسلم فقالت ان ابنى هذا به جنون يصيبه عند الغداء والعشاء قال فمسح النبى صلى الله عليه وسلم صدره فثع ثعة فخرج من جوفه جر ويسعي قالوا وقد قضي ابن علاثة القاضى بين الجن فى دم كان بينهم بحكم أقنعهم ثم رجع بنا القول الى تفسير قصيدة البهرانى فزعم أنه جعل صداقها غزالا وزق خمر فالخمر لطيب الرائحة والغزال لتجعله مركبا فان الظباء من مراكب الجن وأما قوله

ثيب أن هويت ذلك منها * ومتي شئت لم أجد غير بكر

كانه قال هى تتصور في أى صورة شاءت وأما قوله

بنت عمرو وخالها مسحل الخير * ر وخالى هميم صاحب عمرو

فانهم يزعمون ان مع كل فحل من الشعراء شيطانا يقول ذلك الفحل على لسانه الشعر فزعم البهراني ان هذه الجنية بنت عمرو شيطان المخبل وأن خالها مسحل شيطان الاعشي وذكر ان خاله هميم وهو همام وهمام الفرزدق وكان غالب بن صعصعة اذا دعا الفرزدق قال يا هميم وأما قوله صاحب عمرو فكذلك أيضاً يقال ان اسم شيطان الفرزدق عمرو وقد ذكر الأعشى مسحل حين هجاه جهنام فقال

دعوت خليلى مسحلا ودعوا له * بجهنام يدعي للهجين المذمم

﴿ وذكره الاعشي فقال ﴾

حبانى أخي الجنى نفسى فداؤه * بأفيح جياش العشيات مرجم

﴿ وقال اعشي سليم ﴾

وما كان جنى الفرزدق إسوة * وما كان فيهم مثل فحل المخبل

وما فى الخوافي مثل عمرو وشيخه * ولا بعد عمرو شاعر مثل مسحل

وقال الفرزدق فى مديح أسد بن عبد الله

لتبلغن أبا الاشبال مدحتنا * من كان بالغور أو طودى خراسانا
كأنها الذهب العقيان حبرها * لسان أشعر خلق الله شيطانا

﴿ وقال ﴾

فلو كنت عندي يوم قرء عذرتنى * بيوم دهتني جنة وخبائله

فمن أجل هذا البيت ومن أجل قول الآخر

اذا ما زاع جارية فلاقى * خبال الله من انس وجن

زعموا ان الخابل الناس ولما قال بشار بن برد

دعانى شقنان الى خلف بكرة * فقلت اتركني فالتفرد أحمد

يقول أحمد لى في الشعر من ان يكون لى عليه من معين فقال أعشي سليم يرد عليه

اذا الف الجني قرداً مشنفاً * فقولوا لخنزير الجزيرة أبشر

فجزع بشار عند ذلك جزعا شديداً لانه كان يعلم مع تغزله ان وجهه وجه قرد وكان أول ماعرف من جزعه من ذكر القرد الذي رأوا منه حتى أنشد قول حماد عجرد

ويا أقبح من قرد * اذا ما عمي القرد

﴿ وأما قوله ﴾

ولها خطة بأرض وبار * مسحوهافكان لى نصف شطر

فانما ادعى الربع من ميراثها لانه قد قال

تركت عبدلا ثمال اليتامى * وأخوه مزاحم كان بكري
وضعت تسعة وكانت نذوراً * من نساء فى أهلنا غير نزر

وفى ان مع كل شاعر شيطانا يقول معه قول أبى النجم

انى وكل شاعر من البشر * شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

﴿ وقال آخر ﴾

انى وان كنت صغير السن * وكان فى العين نبو عني
* فان شيطاني كبير الجن *

وأما قول عمرو بن كلثوم

وقد هرت كلاب الجن منا * وشذبنا قتادة من يلينا

فانهم يزعمون أن كلاب الجن هم الشعراء وأما قوله

لارض حوش وجامل عكنان * وعروج من المؤبل دثر

فأرض الحوش هي أرض وبار وقد فسرنا تأويل الحوش والعكنان الكثير الذى لا يكون فوقه عدد وقوله عروج جمع عرج والعرج ألف من الابل نقص شيئاً وزاد شيئا والمؤبل من الابل يقال ابل مؤبلة ودراهم مدرهمة وبدر مبدرة مثل قوله تعالى والقناطير المقنطرة وأما قوله دثر فانهم يقولون مال دثر ومال جرم اذا كان كثيراً وأما قوله

ونفوا عن حريمها كل عفر * يسرق السمع كل ليلة بدر

فالعفر هو العفريت وجعله لا يسرق السمع الا جهارا في أضوء ما يكون البدر من شدة معاندته وقوته وأما قوله

فى فتو من الشنقنان غر * ونساء من الزوابع زهر

الزوابع بنو زوبعة الجني وهم أصحاب الرهج والقتام قال راجزهم

ان الشياطين أتونى أربعه * في غبش الليل وفيهم زوبعه

فاما شنقنان وشيصبان فقد ذكرهما أبو النجم

* لاني شنقنان وشيصبان *

فهذان رئيسان ومن آباء القبائل وقد قال شاعرهم

اذا ما ترعرع فينا الغلا * م فليس يقال له من هوه

اذا لم يسد قبل شد الازا * رفذلك فينا الذى لا هوه

ولى صاحب من بنى الشيصبا * ن فطوراً أقول وطوراً هوه

وهذا البيت يصلح أن يلحق فى الدليل على أنهم يقولون أن مع كل شاعر شيطانا ومن ذلك قول بشار الاعمى

دعانى شنقنان الى خلف بكرة * فقلت اتركني فالتفرد أحمد

قال وأصحاب الرقي والاخذ والعزائم والسحر والشعبذة يزعمون أن المدد والقوة فى الجن والشياطين لنزالة الشام والهند وان عظيم شياطين الهند يقال له سكوبرك وعظيم شياطين الشام يقال له دركاراب وقد ذكرهما أبو اسحاق فى هجائه محمد بن بشير حين ادعي هذه الصناعة فقال

قد لعمرى جمعت من اصحياب * ثم من شعر ادم والخراب
وتفردت بالطوالق والهيكل * والدهتمات من كل باب
وعلمت الاسماء كي ما تلاقي * زحلا والمريخ فوق السحاب
واستثرت الارواح بالبحر يأتين * لصرح الصحيح بعد المصاب
جامعا من لطائف الدهمسيا * ت كنوسا نعتها فى كتاب
ثم أحكمت متقن الكرويا * ت وفعل النارس والنجاب
ثم لم تفتك السماية والخد * مة والاحتفاء بالطلاب
بالخواتيم والمناديل والسبى * بسكوبرك ودركاراب

وأما قوله

ضربت فردة فصارت هباء * فى محاق القمير آخر شهر

فان الاعراب والعامة تزعم أن الغول اذا ضربت ضربة ماتت الا أن يعيد عليه الضارب قبل أن تقضى ضربة أخرى فانه ان فعل ذلك لم تمت وقد قال شاعرهم

فثنيت والمقدار يحرس أهله * فليت يمينى قبل ذلك شلت

وأنشدوا لأبي البلاد الطهوى

لهان علي جهينة ما ألاقي * من الروعات يوم رحا بطان
لقيت الغول تسرى في ظلام * بسهم كالعباية صحصحان
فقلت لها كلانا نضو أرض * أخو سفر فصدي عن مكانى
فصدت وانتحيت لها بعضب * حسام غير مؤتشب يمانى
فقد سراتها والبرد منها * فخرت لليدين وللجران
فقالت زد فقلت رويد إني * على أمثالها ثبت الجنان

شددت عقالها وحططت عنها * لأنظر غدوة ماذا دهاني
اذا عينان فى وجه قبيح * كوجه الهر مشقوق اللسان
ورجلا مخدج ولسان كلب * وجلد من قراب أو شنان

وأبو البلاد الطهوى هذا كان من شياطين الاعراب وهو كما ترى يكذب وهو يعلم ويطيل الكذب ويجيزه وقد قال كما ترى

فقالت زد فقلت رويد انى * على أمثالها ثبت الجنان

لانهم هكذا يقولون يزعمون أن الغول تستزيد بعد الضربة الأولى لانها تموت من ضربة وتعيش من ألف ضربة وأما قوله

غلبتنى على النجابة عرسى * بعد أن طال فى النجابة ذكرى
وأرى فيهم شمائل انس * غير ان النجار صورة عفر

فانه يقول لما تركب الولد منها ومنى كان شبهها فيه اكثر وقد قال بجير بن أيوب

اخو قفرات حالف الجن وانتفى * من الانس حتى قد تقضت رسائله
له نسب الانسيّ يعرف نجله * وللجن منه خلقه وشمائله

﴿ وقال الآخر ﴾

وصار خليل الغول بعد عداوة * صفيا وربته القفار البسابس
فليس بجنى فيعرف نجله * ولا هو انس تحتويه المجالس
يظل ولا يبدي لشئ نهاره * ولكنه ينتاع والليل دامس

قال وقال القعقاع بن معبد بن زرارة فى ابنه عوف بن القعقاع والله لما أرى فى عوف من شمائل الجن أكثر مما أرى فيه من شمائل الانس وقال مسلمة بن محارب حدثنى رجل من أصحابنا قال خرجنا فى سفر ومعنا رجل فانتهينا الى واد فدعونا بالغداء فمد رجل يده الى الطعام فلم يقدر عليه وهو قبل ذلك يأكل معنا فى كل منزل فاشتد اغتمامنا لذلك فخرجنا نسأل عنه وعن حاله فتلقاني أعرابي فقال مالكم فأخبرناه خبر الرجل فقال ما اسم صاحبكم قلنا أسد قال هذا واد قد أجدبت سباعه فارحلوا فلو قد جاوزتم الوادى استمرى وأكل وأما قوله

وبها كنت راكبا حشرات * ملجما قنفذا ومسرج وبر
وأجوب البلاد تحت ظبي * ضاحك سنه كثير التمري
مولج دبره خزانة مكر * وهو بالليل في العفاريت يسري

فقد أخبرنا في صدر هذا الكتاب بقول الاعراب في مطايا الجن من الحشرات والوحش وأنشد ابن الاعرابي لبعض الاعراب

كل المطايا قد ركبت فلم أجد * الذ وأشهى من مطايا الثعالب
ومن عنظوان صيفة شمرية * تخب برجليها امام الركائب
ومن جرذ سرح اليدين مدرج * يقوم برحلي بين أيدي المواكب
ومن فاراة تزداد عتقاً وجدة * تبرح بالخوص العتاق النجائب
ومن كل فتلاء الذراعين حرة * مدربة من عافيات الارانب
ومن ورل يعتام فضل زمامه * أضر به طول السري في السباسب

وقال ابن الاعرابي فقلت له أتري الجن كانت تركبها فقال أحلف بالله لقد كنت أجد بالظباء التوقيع في ظهورها والسمة في الآذان وأنشد

كل المطايا قد ركبت فلم أجد * الذ وأشهى من ركوب الجنادب
ومن عضرفوط حط من فاقية * يبادر ورداً من قطار قوارب
وشر مطايا الجن أرنب خلة * وذئب الفضا أربي على كل صاحب
ولم أرفيها مثل قنفذ برقة * يقود قطاراً من عظيم العناكب

وقد فسرنا قولهم في الأرنب لم لا تركب وفي أرنب الخلة وقنفذ برقة، وحدثني أبو نواس قال بكرت الى المربد ومعي الوالي أطلب اعرابياً فصيحا فاذا في ظل دار جعفر أعرابي لم أسمع بشيطان أقبح منه وجها ولا بانسان أحسن منه عقلا وذلك في يوم لم أر كبرده برداً فقلت له هلا قعدت في الشمس فقال الخلوة أحب الى فقلت له مازحا أرأيت القنفذ اذا امتطاه الجني وعلا به في الهواء هل القنفذ يحمل الجني أم الجني يحمل القنفذ قال هذا من تكاذيب الاعراب وقد قلت في ذلك شعراً قلت فانشدني بعد ان كان قال لي قلت هذا الشعر وقد رأيت ليلة قنفذاً ويربوعا يلتمسان الرزق

فما يعجب الجنان منك عدمتهم * وفى الاسد أفراس لهم ونجائب
أتسرج يربوعا وتلجم قنفذا * لقد أعوزتهم ماعلمت المراكب
فان كانت الجنان جنت فبالحرى * ولاذنب للاقدار والله غالب
وما الناس الاخادع ومخدع * وصاحب إسهاب وآخر كاذب

قال فقلت له قد كان ينبغى ان يكون بين البيت الثالث والرابع بيتا آخر قال كانت والله أربعين بيتا ولكن الحطمة احتطمتنيها قال فقلت هل قلت في غير هذا الباب قال نعم شيء قلت لزوجتى وهو والله عندها أصدق شيء قلته لها

أراه سميعا للسرار لقنفذ * لقد ضاع سر الله ياأم معبد

فلم أصبر ان ضحكت فغضب وذهب ويكتب مع شعر ابى البلاد الطهوى

فما لاغني فيها بواجد مثلها * على غرة القت عطافا ومئزرا
لها ساعدا غول ورجلا نعامة * ورأس كمسحاة اليهودي ازعرا
وبطن كاشار المزادة رفعت * جوانبه أغماسه وتكسرا
وثديان كالخرجين نيطت عراهما * الى جؤجؤ نائى الترائب أزورا

وقال كان أبو شيطان واسمه اسحاق بن رزين أحد بني الشميط شميط جمدة بن كعب فأتاهم أمير بخمل ينكب عليهم جوراً وجمل آخر من أهل بلده ينقب عليهم اى يكون عليهم نقيباً بخمل يقول

ياذا الذي نكبنا ونقبا * زوجه الرحمن غولا عقربا
جمع فيها ماله والبلبا * لبلبة التيس اذا تهببا
حتى إذاما استطربت واستطربا * عاين منها خلق ربي ربا
* ذات نواتين وسلع أسقبا *

يعنى فرجها ونواتها يقول لم تختن وأما قوله * فان كانت الجنان جنت فبالحرى * فانهم قد يقولون فى مثل هذا وقد قال دعلج بن الحكم

وكيف يفيق الدهر كعب بن ناشب * وشيطانه عند الاهلة يصرع

وأنشدنى عبد الرحمن بن منصور الاسدي قبل ان يجن

جنونك مجنون ولست بواجد * طبيبا يداوي من جنون جنون

وأنشدني يومئذ

أتوني بمجنون يسيل لعابه * وماصاحبي الا الصحيح المسلم

ومما يشبه الاول قول ابن ميادة

فلما أتاني ماتقول محارب * تغنت شياطين وجن جنونها

وحكت لهامما أقول قصائدا * ترامت بها صهب المهارى وجونها

وقال في التمثيل

ان شرخ الشباب والشعر الاسو * د مالم يعاض كان جنونا

وقال الآخر

قالت عهدتك مجنونا فقلت لها * ان الشباب جنون برؤه الكبر

وما أحسن ماقال الشاعر حيث يقول

دلت وجلت واسبطرت وأكملت * فلوجن انسان من الحسن جنت

وما أحسن ماقال الشاعر حيث يقول

جادت بها عند الغداة يمينه * كلتا يدى عمرو الغداة يمين

ما أن يجود بمثلها فى مثله * الا كريم الخيم أو مجنون

وقال الجمحي

ولو انى لم أنل منكم معاقبة * الا السنان بذات الموت مطعون

أولا خطبت فانى قدهممت به * بالسيف ان خطيب السيف مجنون

﴿وأنشد﴾

هم أحموا حمي الرقبي بضرب * يؤلف بين أشتات المنون

فنكب عنهم درء الاعادي * وداووا بالجنون من الجنون

وأنشد جعفر بن سعيد

ان الجنون سهام بين أربعة * الريح والبحر والانسان والجمل

وأنشدني أيضا

احذر مغائظ أقوام ذوي حسب * ان المغيظ جهول السيف مجنون

وأنشدني أبو تمام الطائي

من كل أصلع قد مالت عمامته * كانه من حذار الضيم مجنون

وقال القطامي

يتبعن سامية العينين تحسبها * مجنونة أو ترى مالا ترى الابل

وقال في المثني الاول الرقيان العوافي

انا الهوا في فمن عاداني * اذيقه بوادر الهوان

* حتى تراه مطرق الشيطان *

وقال مروان بن محمد

واذا تجنن شاعر أو مفحم * اسعطته بمرارة الشيطان

وقال ابن مقبل

وعندى الدهيم لو أحل عقالها * فتصعد لم تعدم من الجن خازنا

وقد صغر الدهيم ليس على التحقير ولكن هذا مثل قولهم

دبت اليهم دويهية الدهر قال أبو اسحاق وأما قول ذى الرمة

اذا حبهن الركب في مدلهمة * أحاديثها مثل اصطخاب الضرائر

قال أبو اسحاق يكون في النهار ساعات ترى الشخص الصغير في تلك المهامه عظيما ويوجد الصوت الخافض رفيعا وتسمع الصوت الذى ليس بالرفيع رفيعا من انبساط الشمس غدوة من المكان البعيد ويوجد لأوساط الفيافي والقفار والرمال والحرار في أنصاف النهار مثل الدوى من طبع ذلك الوقت وذلك المكان عند ما يعرض له ولذلك قال ذو الرمة

اذا قال حادينا لتشبيه نبأة * صدى لم يكن الا دوي المسامع

قالوا وبالدوى سميت دوية وداوية وبه سمي الدوّ دوّاً وكان أبو اسحاق يقول في الذى تذكر الاعراب من عزيف الجنان وتقول الغيلان أصل هذا الامر وابتداؤه أن القوم لما نزلوا ببلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ومن انفرد وطال مقامه في

البلاد والخلاء والبعد من الانس استوحش ولا سيما مع قلة الاشتغال والمذاكرين والوحدة لا تقطع أيامهم الا بالمنى أو بالتفكير والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة وقد ابتلى بذلك غير حاسب كأبى ياسر ومثني ولد الفنافر، وخبرنى الاعمش أنه فكر فى مسئلة فأنكر أهله عقله حتى حموه وداووه وقد عرض ذلك لكثير من الهند واذا استوحش الانسان مثل له الشيء الصغير فى صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه فيرى مالا يرى ويسمع مالا يسمع ويتوهم على الشيء الصغير الحقير أنه عظيم جليل ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك ايمانا ونشأ عليه الناشئ وربى به الطفل فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي وتشتمل غليه الغيطان فى الليالى الحنادس فعند أول وحشة أو فزعة وعند صياح بوم ومجاوبة صدا وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور وربما كان فى الجنس وأصل الطبيعة نفاجا كذابا وصاحب تشنيع وتهويل فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة فعند ذلك يقول رأيت الغيلان وكلمت السعلاة ثم تجاوز ذلك الى أن يقول قتلتها ثم تجاوز ذلك الى أن يقول رافقتها ثم تجاوز ذلك الى أن يقول تزوجتها قال عبيد بن أيوب

فلله در الغول اى رفيقة * لصاحب قفر خائف متنفر

﴿ وقال ﴾

أهذا رفيق الغول والذئب والذى * يهيم بربات الحجال الهوا كل

﴿ وقال آخر ﴾

أخو قفرات حالف الجن وانتفى * من الانس حتى قد تقضت وسائله

له نسب الانسى يعرف نجله * وللجن منه خلقه وشمائله

ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومدلهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الاشعار وبهذه الاخبار الا اعرابيا مثلهم والاغبيا لم يأخذ نفسه قط لتميز مايوجب التكذيب والتصديق أو الشك ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت فى هذه الاجناس قط واما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر فالراوية عندهم كلما كان الاعرابى أكذب فى شعره كان أظرف عندهم وصارت روايته أغلب ومضاحيك حديثه أكثر فلذلك

صار بعضهم يدعى رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها وآخر يزعم أنه رافق في مفازة نمرا فكان يطاعمه ويؤاكله فمن هؤلاء خاصة القتال الكلابي فانه الذي يقول

أيرسل مروان الأمير رسالة * لآتيه انني اذا لمضلل

ومابى عصيان ولابعد منهل * ولكنني من خوف مروان أوجل

وفى ساحة العنقاء أوفي عماية * أوالاود مامن رهبة الموت موئل

ولى صاحب فى الغار هدك صاحبا * هو الجون الا أنه لايملل

اذا ماالتقينا كان جل حديثنا * صماتا وطرف كالمعابل أكحل

تضمنت الأروى لنا بطعامنا * كلانا له منها نصيب ومأكل

فأغلبه فى صنعة الزاد انني * أميط الأذى عنه ولايتأمل

وكانت لنا طب بأرض مضلة * شريعتنا لأى من جاء أول

كلانا عدو لويرى في عدوه * محزا وكل فى العداوة مجمل

(وأنشد الاصمعى)

ظللنا معا جارين نحترس الثأى * يسائرني من فضلتى وأسائره

ذكر سبعاً ورجلا قد توافقا فصار كل واحد منهما يدع فضلا من سؤره ليشرب صاحبه والثأى الفساد وخبر ان كل واحد منهما يحترس من صاحبه وقد يستقيم ان يكون شعر النابغة في الحية وفى القتيل صاحب القبر وفى أخيه المصالح للحية أن يكون انما جعل ذلك مثلا وقد أثبتناه فى باب الحيات فلذلك كرهنا إعادته في هذا الموضع ،فأما جميع ماذكرناه عنهم فانما يخبرون عنه من جهة المعاينة والتحقيق وانما المثل فى هذا مثل قوله

قد كان شيطانك من خطابها * وكان شيطانى من طلابها

حينا فلما اعتركا ألوي بها

والانسان يجوع فيسمع في أذنه كالدوي وقال الشاعر

دوي الفيافي رابه فكأنه * أميم وساري الليل للضوء يعوذ

يعود أي يضجر وربما قال الغلام لمولاه دعوتني فيقول لا وانما اعترى مسامعه ذلك

لمرض لا أنه سمع صوتا ومن هذا الباب قول تأبط شراً أو قول القائل في كلمة له

يظل بموماة ويمسي بقفرة * جحيشا ويعروري ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي * بمنخرق من شده المتدارك
اذا خاط عينيه كري النوم لم يزل * له كالئ من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه * الى سلة من حد أخضر باتك
اذا هزه في عظم قرن تهللت * نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يري الانس وحشي الفلاة ويهتدي * بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

ويدل على ما قال أبو اسحاق من نزولهم في بلاد الوحش وبين الحشرات والسباع ما رواه لنا أبو مسهر عن اعرابي من بني تميم نزل ناحية الشام فكان لا يعدمه في كل ليلة أن يعضه أو بعض ولده أو بعض حاشيته سبع من السباع أو دابة من دواب الارض فقال

تعاورني دين وذل وغربة * ومزق جلدي ناب سبع ومخلب
وفي الارض أحناش وسبع وخارب * ونحن أساري وسطها نتقلب
رتيلا وطبوع وشبثان ظلمة * وأرقط حرقوص وصمخ وعقرب
ونمل كاشخاص الخنافس قطب * وأرسال جعلان وهزل تسرب
وعث وحفاث وضب وعربد * وذر ودحاس وفار وعقرب
وهر وظربان وسمع وذوبل * وتزملة تجري وسيد وثعلب
ونمر وفهد ثم ضبع وحنبل * وليث يجوس الالف لا يتهيب
ولم أر آوى حيث أسمع ذكره * ولا الدب ان الدب لا يتنسب

فأما الرتيلا والطبوع والشبث والحرقوص وذر الصمخ والعنكبوت والخنفساء والجعل والعث والحفاث والدحاس والظربان والذئب والثعلب والنمر والفهد والضبع والاسد وسنقول في ذلك اذا صرنا الى ذكر هذه الابواب وقبل ذلك عند ذي الحشرات فأما الضب والورل والعقرب والجعل والخنفساء والسمع فقد ذكرناها في أول الكتاب وأما قوله وهزل تسرب فالهزلى هي الحيات كما قال جرير

* مزاحف هزلى بينها متباعد *   ﴿ وكما قال الآخر ﴾

كأن مزاحف الهزلى عليها * خدود رواضع خذلت تؤاما

﴿ وأما قوله ﴾

* ولم أرآوى حيث أسمع ذكره *

فان ابن آوي لاينزل القفار وانما يكون حيث يكون الريف وينبغى ان يكون حيث قال هذا الشعر توهم أنه بيباض نجد

﴿ وأما قوله ﴾   * ولا الدب ان الدب لا يتنسب *

فان الدب عندهم عجمى والعجمى لايقيم نسبه ورووا فى الملح ان فتي قال لجارية له أو لصديقة له ليس في الأرض أحسن منى ولاأملح مني فصارت عنده كذلك فبينا هو عندها على هذه الصفة اذ قرع عليها الباب إنسان يريده فاطلعت عليه من خرق الباب فرأت فتى أحسن الناس وأملحهم وأنبلهم وأتمهم فلما عاد صاحبها الى المنزل قالت له أو ما أخبرتني انك أملح الخلق وأحسنهم قال بلى وكذلك انا فقالت فقد أرادك اليوم فلان ورأيته من خرق الباب فرأيته أحسن منك وأملح قال لعمرى انه لحسن مليح ولكن له جنية تصرعه فى كل شهر مرتين وهو يريد بذلك ان يسقطه من عينها قالت أو ما تصرعه فى الشهر الامرتين أما والله لو أنى جنية لصرعته في اليوم الفين وهذا يدل على ان صرع الشيطان للانسان ليس هو عند العوام الا على جهة مايعرفون من الجماع، ومن هذا الضرب من الحديث ماحدثنابه المازني قال ابتاع فتى صلف مداخ جارية حسناء بديعة ظريفة فلما وقع عليها قال لها مراراً ويلك ماأوسع حرك فلما أكثر عليها قالت أنت الفداء لمن كان يملأه فقد سمع هذا كما ترى من المكروه مثل ماسمع الاول، وزعموا ان رجلا نظر الى امرأة حسناء ظريفة فألح عليها فقالت ماتنظر قرة عينك وشيء غيرك، وزعم أبو الحسين المدائنى ان رجلا تبع جارية لقوم فراوغته فلم ينقطع عنها فجدت فى المشى فلم ينقطع عنها فلما جازت بمجلس قوم قالت ياهؤلاء لى طريق ولهذا طريق ومولى ينيكني فسلوا هذا مايريد منى، وزعم لنا ان سيارا البرقي قال مرت بنا جارية فرأينا فيها الكبر والتجبر فقال بعضنا ينبغي ان

يكون مولي هذه الجارية ينيكها قالت كما يكون فلم أسمع بكلمة عامية اشنع ولا أدل على ما أرادت ولا أقصر من كلمتها هذه وقد قالت جحشوية في شعر شبيها بهذا القول حيث تقول

تواعدني لتنكحني ثلاثا * ولكن يامشوم بأى أير

فلو خطبت فى صفة ايره خطبة أطول من خطبة قيس بن خارجة بن سنان في شأن الحمالة لما بلغ مبلغ جحشوية ولكن يامشوم بأى أير وقول الخادم وكما يكون ، وزعموا ان فتى جاس الى اعرابية وعلمت انه انما جلس لينظر الى محاسن ابنتها فضربت بيدها على جنبها ثم قالت

علنداة يئط الأير فيها * أطيط الغرز فى الرحل الجديد

ثم أقبلت على الفتى فقالت

ومالك منها غير انك ناكح * بعينيك عينيها فهل ذاك نافع

ودخل قاسم منزل الخوارزمى النخاس فرأى عنده جارية كأنها جان وكأنها خوط بان وكانها جدل عنان وكانها الياسمين نعمة وبياضا فقال لها اشتريك ياجارية فقالت افتح كيسك تسر نفسك ودخلت الجارية منزل النخاس فاشتراها وهي لا تعلم ومضى الى المنزل ودفعها الخوارزمي الى غلامه فلم تشعر الجارية الا وهى معه فى جوف بيت فلما نظرت اليه وعرفت ما وقعت فيه قالت له ويلك انك والله لن تصل الىّ الا بعد أن أموت فان كنت تجسر على نيك من قد أدرجوه فى الاكفان فدونك والله ان زلت منذ رأيتك ودخلت الى الجواري أصف قبحك وبلية امرأتك بك فأقبل عليها يكلمها بكلام المتكلمين فلم تقبل منه فقال فلم قلت لى افتح كيسك تسر نفسك ففتحت كيسى فدعيني أسر نفسى وهو يكلمها وعين الجارية الى الباب ونفسها في توهم الطريق الى منزل النخاس فلم يشعر قاسم حتى وثبت وثبة الى الباب كالغزال ولم يشعر الخوارزمى الا والجارية بين يديه مغشي عليها فكر قاسم اليه راجعا وقال ادفعها الىّ أشفي نفسى منها فطلبوا اليه فصفح عنها واشتراها فى ذلك المجلس غلام أملح منها فقامت اليه فقبلت فاه وقاسم ينظر والقوم يتعجبون مما تهيأ عليه لها وتهيأ لها ، وأما عيسي بن مروان كاتب أبي مروان عبد الملك بن أبي حمزة فانه كان شديد التغزل بالتصندل حتى شرب لذلك النبيذ

وظرف بتقطيع ثيابه وتغنى أصواتا وحفظ أحاديث من أحاديث العشاق من الاحاديث التى تشتهيها النساء وتفهم معانيها وكان أقبح خلق الله تعالى أنفا حتي كان أقبح من الاخنس ومن الافطس والاجدع فاما أن يكون صادق ظريفة واما أن يكون تزوجها فلما جاء معها فى بيت وأرادها على مايريد الرجل من المرأة فامتنعت فوهب لها ومناها وأظهر تعشقها وأراغها بكل حيلة فلما لم تجب قال لها خبريني ماالذى يمنعك قالت قبح أنفك وهو يستقبل عيني فلو كان أنفك فى قفاك لكان أهون عليّ قال لها جعلت فداك الذى بأنفي ليس هو خلقة وانما هو ضربة ضربتها فى سبيل الله تعالى فقالت واستغربت ضحكا أنا ما أبالى فى سبيل الله كانت أو فى سبيل الشيطان انما هو قبحة فخذ ثوابك على هذه الضربة من الله تعالى أما انا فلا

باب الجد من أمر الجن

ليس هذا حفظك الله تعالى من الباب الذى كنا فيه ولكنه كان مستراحا وجماما وسنقول فى باب من ذكر الجن لتنتفع فى دينك أشد الانتفاع وهو جد كله والكلام الاول وما يتلوه من ذكر الحشرات ليس فيه جد الا وفيه خلط من هزل وليس فيه كلام صحيح الا والى جنبه خرافة لان هذا الباب هكذا يقع , وقد طعن قوم في استراق الشياطين السمع بوجوه من الطعن فاذ قد جرى لها من الذكر فى باب الهزل ما قد جري فالواجب علينا أن نقول فى باب الجد وفيما يرد على أهل الدين بجملة وان كان هذا الكتاب لم نقصد به الى هذا الباب حيث ابتدي وان نحن استقصيناه كنا قد خرجنا من حد القول في الحيوان ولكنا نقول بجملة كافية والله تعالى المعين على ذلك

قال قوم قد علمنا أن الشياطين ألطف لطافة وأقل آفة وأحدّ أذهانا وأقل فضولا وأخف أبدانا وأكثر معرفة وأدق فطنة منا والدليل على ذلك اجماعهم على أنه ليس فى الارض بدعة بديعة دقيقة ولا جليلة ولا فى الارض معصية من طريق الهوى والشهوة خفية كانت أوظاهرة الا والشيطان هو الداعي لها والمزين لها والذي يفتح

باب كل بلاء وينصب كل حبالة وخدعة ولم يكن ليعرف أصناف جميع الشر والمعاصي حتى يعرف جميع أصناف الخير والطاعات ونحن قد نجد الرجل اذا كان معه أدنى عقل ثم علم أنه اذا نقب حائطا قطعت يده أو أسمع انسانا كلاما قطع لسانه أو يكون متى رام ذلك حيل دونه ودون ما رام منه أنه لا يتكلف ذلك ولا يرومه ولا يحاول أمراً قد أيقن أنه لا يبلغه وأنتم تزعمون أن الشياطين الذين هم على هذه الصفة كلما صعد منهم شيطان ليسترق السمع قذف بشهاب نار وليس له خواطئ فاما أن يكون يصيبه واما أن يكون نذيراً صادقا أو وعيداً أن يقدم عليه رمى به وهذه الرجوم لاتكون الا لهذه الامور ومتى كانت فقد ظهر للشيطان احراق المستمع والمسترق أو الموانع دون الوصول ثم لانري الاول ينهى الثاني ولا الثاني ينهي الثالث ولا الثالث ينهى الرابع فى هذا الدهر الطويل فان كان المحرق المصاب هو الذى يعود فهذا عجب وان كان الذي يعود غيره فكيف خفى عليه شأنهم وهو ظاهر مكشوف وعلى انهم لم يكونوا أعلم منا حتى ميزوا جميع المعاصى من جميع الطاعات ولولا ذلك لدعوا الى الطاعة بحساب المعاصي وزينوا لها الصلاح وهم يريدون الفساد فاذا كانوا ليس كذلك فأدنى حالاتهم ان يكونوا قد عرفوا أخبار القرآن وصدقوا وان الله تعالى محقق ماأوعد كما ينجز ماوعد وقد قال الله عز وجل ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وقال تعالى ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم وقال تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد وقال تعالى هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون مع قول الجن انا لاندرى أشر أريد بمن فى الارض أم أراد بهم ربهم رشداً وقولهم انا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً فكيف يسترق السمع الذين شاهدوا الحالتين جميعاً وأظهروا اليقين بصحة الخبر بأن للمستمع بعد ذلك القذف بالشهب والاحراق بالنار وقوله تعالى انهم عن السمع لمعزولون وقوله تعالى وحفظا من كل شيطان

مارد لايسمعون الى الملأ الاعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب في آي غير هذا كثير فكيف يعودون الى استراق السمع مع تيقنهم بأنه قد حصن بالشهب ولولم يكونوا موقنين من جهة حقائق الكتاب ولا من جهة أنهم بعد قعودهم مقاعد للسمع لمسوا السماء فوجدوا الامر قد تغير لكان في طول التجربة والعيان الظاهر في إخبار بعضهم لبعض مايكون حائلا دون الطمع وقاطعا دون التماس الصعود وبعد فأي عاقل يسر بان يسمع خبرا وتقطع يده فضلا عن أن تحرقه النار وبعد فأي خبر في ذلك اليوم وهل يصلون الى الناس حتى يجعلوا ذلك الخبر سببا الى صرف الدعوى قيل لهم فانا نقول بالصرفة في عامة هذه الاصول وفي هذه الأبواب كنحو ماألقى على قلوب بني اسرائيل وهم يجولون في التيه وهم في العدد وكثرة الادلاء والتجار وأصحاب الاسفار والحمارين والمكارين من الكثرة على ما قد سمعتم به وعرفتموه وهم مع هذا يمشون حتى يصبحون مع شدة الاجتهاد في الدهر الطويل ومع قرب مابين طرفي التيه وقد كان طريقا مسلوكا وانما سموه التيه حين تاهوا فيه لان الله تعالى حين أراد أن يمتحنهم ويبتليهم صرف أوهامهم ومثل ذلك صنيعه في أوهام الامة التي كان سليمان ملكها ونبيها مع تسخير الرياح والاعاجيب التي أعطيها وليس بينهم وبين ملكهم ومملكتهم وبين ملك سبا ومملكة بلقيس ملكتهم بحار لاتركب وجبال لاترام ولم يتسامع أهل المملكتين ولا كان في ذكرهم مكان هذه المملكة وقد قلنا في باب القول في الهدهد ماقلنا حين ذكرنا الصرفة وذكرنا حال يعقوب ويوسف وحال سليمان وهو معتمد على عصاه وهو ميت والجن مطيفة به وهم لايشعرون بموته وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن ولم يأتوا به مضطربا ولا متفقا ولا مستكرها اذ كان في ذلك لاهل الشغب متعلق مع غير ذلك مما يخالف فيه طريق الدهرية لان الدهري لايقر الا بالمحسوسات والعادات على خلاف هذا المذهب ولعمري لايستطيع الدهري أن يقول بهذا القول ويحتج بهذه الحجة مادام لايقول بالتوحيد ومادام لايعرف الا الفلك وعمله ومادام يرى أن إرسال الرسل يستحيل وأن الامر والنهي والثواب والعقاب على غير ما نقول وأن الله تعالى لا يجوز أن يأمر من جهة الاخبار

الا من جهة الحزر وكذلك نقول ونزعم أن أوهام هذه العفاريت تصرف عن الذكر اتقع المحنة وكذلك نقول في النبي صلى الله عليه وسلم أن لو كان في جميع تلك المزاهزية من يذكر قوله تعالى والله يعصمك من الناس لسقط عنه من المحنة أغلظها واذا سقطت المحنة لم تكن الطاعة والمعصية وكذلك عظيم الطاعة مقرون بعظيم الثواب وما يصنع الدهرى وغير الدهري بهذه المسألة وبهذا التسطير، ونحن نقول لو كان ابليس يذكر في كل حال قوله تعالى وان عليك اللعنة الى يوم الدين وعلم في كل حال أنه لا يسلم أن المحنة كانت تسقط عنه لان من علم يقينا أنه لا يمضي غدا الى السوق ولا يقبض دراهمه من فلان لم يطمع فيه ومن لم يطمع في الشئ انقطعت عنه أسباب الدواعي اليه ومن كان كذلك فمحال ان يأتي السوق فنقول في ابليس أنه ينسى ليكون مختبراً فليعلموا ان قولنا في مسترق السمع كقولنا في ابليس وفي جميع هذه الامور التى أوجب علينا الدين ان نقول فيها بهذا القول وليس له أن يدفع هذا القول على أصل ديننا فان أحب أن يسأل عن الدين الذي أوجب هذا القول علينا فليفعل والله تعالى المعين والموفق وأما قولهم من يخاطر بذهاب نفسه لخبر يستفيده فقد علمنا ان أصحاب الرياسات وان كان متبينا كيف كان اعتراضهم على أن أيسر مايحتملون في جنب تلك الرياسات القتل ولعل بعض الشياطين ان يكون معه من النفخ وحب الرياسة مايهون عليه أن يبلغ دون المواضع التى ان دنا منها أصابه الرجم والرجم انما ضمن أنه مانع من الوصول ويعلم أنه اذا كان شهابا أنه يحرقه ولم يضمن أنه يتلف عنه فما أكثر من تخترقه الرماح في الحرب ثم يعاود ذلك المكان ورزقه ثمانون ديناراً ولا يأخذ الا نصفه ولا يأخذه الا قمحا فلولا ان مع قدم هذا الجندى ضروبا مما يهزه ويحده ويدعو اليه ويغريه ما كان يعود الى موضع قد قطعت فيه احدى يديه أو فقئت احدي عينيه ولم وقع عليه اذا اسم شيطان ومارد وعفريت وأشباه ذلك ولم صار الانسان يسمى بهذه الاسماء ويوصف بهذه الصفات اذا كان فيه الجزء الواحد من كل ماهم عليه ، وقالوا في باب آخر من الطعن غير هذا قالوا في قوله تعالى وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً فقالوا قد دل هذا الكلام على أن الاخبار هناك كانت

مضيعة حتى حصنت بعد نقد وصفهم الله تعالى بالتضييع والاستدراك قلنا ليس فى هذا الكلام دليل أن أنهم سمعوا سراقط أو هجموا على خبر ان أشاعوه فسد به من شئ الدين وللملائكة في السماء تسبيح وتهليل وتكبير وتلاوة فكان لا يبلغ الموضع الذى يسمع ذلك منه الا عفاريتهم وقد يستقيم أن يكون العفريت يكذب ويقول سمعت مالم أسمع ومتى لم يكن على قوله برهان يدل على صدقه فانما هو فى كذبه من جنس كل متنبئ وكاهن فان صدقه مصدق بلا حجة فليس ذلك بحجة على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وذهب بعضهم فى الطعن الى غير هذه الحجة قالوا وزعمتم أن الله تعالى جعل هذه الرجوم للخوافى حجة للنبى صلى الله عليه وسلم فكيف يكون ذلك ربما وقد كان قبل الاسلام ظاهراً مرئيا وذلك موجود في الاشعار وقد قال ابن أبي خازم فى ذلك

فجاءها من أقرب الري غدوة * ولما يسكنه من الارض مرتع
بأكلبة زرق ضوار كأنها * خطاطيف من طول الشريعة تلمع
فجال على نفر كما انقض كوكب * وقد حال دون النقع والنقع يسطع

فوصف شوط الثور هاربا من الكلاب بانقضاض الكوكب في سرعته وحسنه وبريق جلده ولذلك قال الطرماح

يبدو وتضمره البلاد كأنه * سيف على شرف يسل ويغمد

وأنشد أيضاً قول بشر بن أبى خازم

وتشيح بالعير الفلاة كأنها * فتخاء كاسرة هوت من مرقب
والعير يرهقها الحمار وجحشها * ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

قالوا وقال الضبى

ينالها مهتك أشجارها * بذي غروب فيه تحريب
كأنه حين خلا كوكب * أو قبس بالكف مشبوب

وقال أوس بن حجر

فانقض كالدرى يتبعه * نقع يثور تخاله طنبا

يخفي وأحيانا يلوح كما * رفع المشير بكفه لهبا

ورووا قوله

فانقض كالدري من متحدر * لمع العقيقة جنح ليل مظلم

وقال عوف بن الجذع

يرد علينا العير من دون انفه * أو الثور كالدريّ يتبعه الدم

﴿ وقال الأفوه الاودي ﴾

كشهاب القذف يرميكم به * فارس فى كفه للحرب نار

﴿ وقال امية بن أبى الصلت ﴾

وترى شياطينا تروع مصاعبا * ورواءها شتي اذا ماتطرد

يلقى عليها فى السماء مذلة * وكواكب ترمى بها فتقدد

قلنا لهؤلاء القوم ان قدرتم على شعر جاهلي لم يدرك مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولا مولده فهو بعض مايتعلق به مثلكم وان كان الجواب في ذلك سيأتيكم ان شاء الله تعالى فأما أشعار المخضرمين والاسلاميين فليس لكم فى ذلك حجة والجاهلى مالم يكن أدرك المولد فان ذلك مما ليس ينبغى لكم أن تتعلقوا به وبشر بن ابى خازم فقد أدرك الفجار والنبى صلى الله عليه وسلم شهد الفجار وقال شهدت الفجار فكنت أنبل على عمومتى وأنا غلام ، والاعلام ضروب فمنها مايكون كالبشارات في الكتب لكون الصفة اذا وافقت الصفة التى لايقع مثلها اتفاقاً وعرضاً لزمت فيه الحجة وضروب أخر كالارهاص للامر والتأسيس له وكالتمهيد والترشيح فانه لم يكن نبى الا وقد حدثت عند مولده أو قبيل مولده أو بعد مولده أشياء لم يكن يحدث مثلها وعند ذلك يقول الناس ان هذا لامر وان هذا ليراد به أمر وقع أو سيكون لهذا نبأ كما تراهم يقولون عند الذوائب التى تحدث لبعض الكواكب فى بعض الزمان فمن الترشيح والتأسيس والتفخيم شأن عبد المطلب عند القرعة وحين خروج الماء من تحت ركبة جمله وما كان من شأن الفيل والطير والأبابيل وغير ذلك مما اذا تقدم للرجل زاد في نبله وفى فخامة أمره والمتوقع أبداً معظم فان كانت هذه الشهب فى هذه الايام أبداً مرئية فانما كانت

من التأسيس والارهاص الا أن ينشدونا مثل شعر الشعراء الذين لم يدركوا المولد ولا بعد ذلك فان عددهم كثير وشعرهم معروف وقد قيل الشعر قبل الاسلام فى مقدار من الدهر أطول ما بيننا اليوم وبين أول الاسلام وأولئكم عندكم أشعر ممن كان بعدهم وكان أحدهم لا يدع عظما منبوذاً باليا ولا حجراً مطروحا ولا خنفساء ولا جعلا ولا دودة ولا حية الا قال فيها فكيف لم يتهيأ من واحد منهم أن يذكر الكواكب المنقضة مع حسنها وسرعتها والاعجوبة منها وكيف أمسكوا بأجمعهم عن ذكرها الى الزمان الذى يجتمع فيه خصومكم وقد علمنا ان النبى صلى الله عليه وسلم حين ذكر له يوم ذى قار قال هذا اول يوم انتصفت فيه العرب وبي نصروا ولم يكن قال لهم قبل ذلك أن وقعة ستكون من صفتها كذا ومن شأنها كذا وتنصرون على العجم وبى تنصرون فان كان بشر بن أبى خازم وهؤلاء الذين ذكرتم قد عاينوا انقضاض الكوكب فليس بمستنكر ان تكون كانت ارهاصا لمن لم يخبر عنها ويحتج بها لنفسه فكيف وبشر بن أبي خازم فى أيام الفجار التى شهدها النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه وان كنانة وقريشا به نصروا وسنقول فى هذه الاشعار التى أنشدتموها ونخبر عن مقاديرها وطبقاتها فاما قوله

فانقض كالدري من متحدر * لمع العقيقة جنح ليل مظلم

فخبرنى أبو اسحق ان هذا البيت في ابيات اخر لاسامة صاحب روح بن ابى همام وهو الذى كان ولدها فان اتهمت خبر ابى اسحاق فسم الشاعر وهات القصيدة فانه لا يقبل في مثل هذا الا بيتا صحيحا صحيح الجوهر من قصيدة صحيحة لشاعر معروف والا فان كل من يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتا كل بيت منها أجود من هذا البيت وأسامة هذا هو الذي قال له روح

اسقنى يا أسامه * من رحيق مدامه

اسقنيها فانى * كافر بالقيامه

وهذا الشعر هو الذى قتله وأما ما أنشدتم من قول أوس بن حجر

فانقض كالدرى يتبعه * نقع يثور تخاله طنبا

وهذا الشعر ليس يرويه لأوس الا من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر وشريح بن أوس وقد طعنت الرواة فى هذا الشعر الذى أضفتموه الي بشر بن أبي خازم من قوله

والعير يرهقها الحمار وجحشها * ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

فزعموا انه ليس من عادتهم ان يصفوا عدو الحمار بانقضاض الكوكب ولا بدن الحمار ببدن الكوكب وقالوا في شعر بشر مصنوع كثير مما قد احتمله كثير من الرواة على انه من صحيح شعره فمن ذلك قصيدته التى يقول فيها

فرجي الخير وانتظري إيابي * اذا ما القارظ العنزى آبا

وأما ما ذكرتم من شعر هذا الضبي فان الضبي مخضرم وزعمتم أنكم وجدتم ذكر الشهب في كتب القدماء من الفلاسفة وأنه فى الآثار العلوية لارسطاطاليس حين ذكر القول فى الشهب مع القول في الكواكب ذوات الذوائب ومع القول في القوس والطوق الذى يكون حول القمر بالليل فان كنتم بمثل هذا تستعينون واليه تفزعون فانا نوجدكم من كذب التراجمة وزيادتهم ومن فساد الكتاب من جهة تأويل الكلام ومن جهة جهل المترجم بنقل لغة الى لغة ومن جهة فساد النسخ ومن أنه قد تقادم فاعترضت دونه الدهور والاحقاب فصار لا يأمن ضروب التبديل والفساد وهذا الكلام معروف صحيح ، وأما ما رويتم من شعر الافوه الاودى فلعمرى انه لجاهلى وما وجدنا أحداً من الرواة يشك فى أن القصيدة مصنوعة وبعد فمن أين علم الافوه أن الشهب التي يراها انما هى قذف ورجم وهو جاهلى ولم يدع هذا أحد قط الا المسلمون فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة

ثم رجع بنا القول الى تفسير قصيدة البهراني وأما قوله

جابيا للبحار أهدي لعرسي * فلفلا مجتنا وهضمة عطر

وأحلى هربر من صدف البحـ * ـر واسقي العيال من نيل مصر

لأن الناس يقولون إن الساحر لا يكون ماهراً حتي يأتى بالفلفل الرطب من سرنديب وهربرة اسم امرأته الجنية وذكر الظبي الذى جعله مركبه الى بلاد الهند فقال

وأجوب البلاد تحتي ظبي * ضاحك سنه كثير التمرى

موكل دبره خزانة مكر * وهو بالليل بالعفاريت يسرى

يقول هذا الظبي الذى من خبثه وحذره من بين جميع الوحش لا يدخل حراه الا مستدبراً لتكون عيناه تلقاء ما يخاف أن يغشاه هو الذى يسرى مع العفاريت بالليل ضاحكا بى هازئا اذ كان تحتى وأما قوله

يحسب الناظرون انى ابن ماء * ذاكر عشه بضفة نهر

لان الجني اذا طار به فى جوّ السماء ظن كل من رآه أنه طائر ماء ، وأما قولهم في المثل أروى من ضب فانى لا أعرفه لان كل شئ الدوّ والدهناء والصمان واوساط هذه المهامه والصحاصح جميع مايسكنها من الحشرات والسباع لا يرد الماء ولا يريده لانه ليس فى أوساط هذه الفيافى فى الصيف كله وفى القيظ جميعا منقع ماء ولا غدير ولا شريعة ولا وعل فاذا استقام أن يمر بظبائها وأرانبها وثعالبها وغير ذلك منها الصيفة كلها والقيظ كله ولم تذق فيها قطرة ماء فهى له فى الشتاء أترك لأن من اقتات اليبس اذا لم يشرب الماء اذا اقتات الرطب أترك وليس العجب فى هذا ولكن العجب في ابل لا ترد الماء ، وزعم الاصمعي أن لبني عقيل ماعزا لم يرد الماء قط فينبغي على حال ان يكون واديهم لا يزال يكون فيه من البقل والورق مايعيشها بتلك الرطوبة التى فيها ولو كانت ثعالب الدهناء وظباؤها وأرانبها ووحشها تحتاج الى الماء لطلبته أشد الطلب فان الحيوان كله يهتدى الى مايعيشه وذلك فى طبعه وانما سلب هذه المعارف الذين أعطوا العقل والاستطاعة فوكلوا اليهما فأما من سلب الآلة التى بها تكون الرؤية والاداة التى يكون بها التصرف وتخرج أفعاله من حد الايجاب الى حد الامكان وعوض التمكين فان سبيله غير سبيل من منع ذلك فقسم الله تعالي للملك الكفاية وقسم لهؤلاء الابتلاء والاختبار ، أول مانبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش بشعرى بشر بن المعتمر فان له فى هذا الباب قصيدتين قد جمع فيهما كثيرا من هذه الغرائب والفوائد ونبه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة وقد كان يمكننا أن نذكر من شأن هذه السباع والحشرات بقدر ماتتسع له الرواية من غير أن نكتبهما فى هذا الكتاب ولكنهما يجمعان أمورا كثيرة أما أول ذلك فان حفظ الشعر

أهون على النفس واذا حفظ كان أعلق وأثبت وكان شاهدا وان احتيج الى ضرب المثل كان مثلا واذا قسمنا ماعندنا فى هذه الأصناف على بيوت هذين الشعرين وقع ذكرهما مصنفاً فيصير حينئذ آنق فى الاسماع وأشد في الحفظ. قال بشر بن المعتمر

الناس دأبا في طلاب الغنى * وكلهم من شأنه الختر
كاذؤب تنهشها أذؤب * لها عواء ولها زفر *
تراهم فوضى وأيدى سبا * كل له في نفسه سحر
تبارك الله وسبحانه * بين يديه النفع والضر
من خلقه فى رزقه كلهم * الذيخ والتيتل والغفر
وساكن الجو اذا ماعلا * فيه ومن مسكنه القفر
والصدع الاعصم فى شاهق * وجابة مسكنها الوعر
والحية الصماء فى جحرها * والتتفل الرائغ والذر
والقة ترغث رباحها * والسهل والنوفل والنضر
وهقلة ترتاع من ظلمنا * لها عرار ولها زمر
تلتهم النار على شهوة * أحب شيء عندها الجمر
وضبة تأكل أولادها * وعترفان بطنه صفر
يؤثر بالطعم وتأذينه * منجم ليس له فكر
وكيف لا أعجب من عالم * خشونه النابس والذعر
وحكمة يبصرها عاقل * ليس له من دونها ستر
جرادة تخرق متن الصفا * وأبغث يصطاده صقر
سلاحه سلح فما عذره * وقد عراه دونه الذعر
والدب والقرد اذا علما * والفيل والكلبة والبغر
يجحم عن فرط أعاجيبها * وعن مدى غاياتها السحر
وظبية تخضم فى حنظل * وعقرب يعجبها التمر
وخنفس تسعى بجعلانة * يقوتها الارواث والبعر

يقتلها الورد وتحيي اذا * ضم اليهـا الروث والجعر
وفارة البيش امام لها * والخلد فيه عجب هتر
وقنفذ يسرى الى حية * وحية يخلي لها الجحر
وعضر فوط ماله قبلة * وهدهد يكفره بكر
وقوة العقرب من لسعها * تخبر ان ليس لها عذر
والببر فيه عجب عاجب * اذا تلاقى الليث والنمر
وطائر أشرف ذو جردة * وطائر ليس له وكر
وثرمل تأوى الى دوبل * وعسكر تتبعه النسر
يسالم الضبع بذي مرة * اثرمها في الرحم الغمر
وتمسح خلاه طائر * وسابح ليس له سحر
والفث والخفاش ذو مخمج * وخربق يسفده وبر
وغائص في الرمل ذو حدة * ليس له ناب ولا ظفر
حرباؤها في قطها شامس * حتى يوافي وقته العصر
يميل بالشق اليها كما * يميل في روضته الزهر
والظربان الورد قد شفه * حب الكشا والوجر الحمر
يلوذ منه الضب مذلوليا * ولو نجا أهلكه الذعر
وليس ينجيه اذا مافشا * شيء ولو أحرزه قصر
وهرسة تأكلها سرفة * وسمع ذئب همه الحصر
لا ترد الماء افاعي النقا * لكنما يخنقها الخمر
وفي ذري الحرمل ظل لها * اذا غلا واحتدم الهجر
فبعضها طعم لبعض كما * أعطي سهام الميسر القمر
وتمسح النيل عقاب الهوى * والليث رأس وله الأسر
ثلاثة ليس لها غالب * الا بما ينتقض الأمر
اني وان كنت ضعيف القوي * فالله يقضي وله الأمر

لست أباضيا غبياً ولا * كرافضي غره الجفر
كما يفر الآل في سبسب * سفراً فاودي عنده السفر
كلاهما وسع في جهل ما * فماله عندهما كفر
لسنا من الحشو الجفاة الاولى * عابوا الذى عابوا ولم يدروا
ان غبت لم يسلمك من بهمة * وان رنا فلحظه شزر
يعرض ان سالمته مدبراً * كأنما يلبسه الدبر
أبله خب ضغن قلبه * له اختيال وله مكر
وانحلوا جماعة باسمها * وفارقوها فهم النعر
وأهوج أعوج ذو لوثة * ليس له رأى ولا قدر
قد غره فى نفسه مثله * وغرهم أيضاً كما غروا
لاتنجع الحكمة فيهم كما * ينبو عن الخزولة القطر
قلوبهم شتى ثما منهم * ثلاثة يجمعهم أمر
الا الاذي أوبهت أهل التقى * وانهم أعينهم خزر
أولئك الداء العضال الذى * أعيا لديه الصاب والمقر
حيلة من ليس له حيلة * حسن عزاء النفس والصبر

﴿ قال أنشدنى أيضاً ﴾

ما ترى العالم ذا حشوة * يقصر عنها عدد القطر
أوابد الوحش واجناسها * وكل سبع وافر الظفر
وبعضه ذو همج هامج * فيه اعتبار لذوى الفكر
والوزغ الرقط على ذلها * تطاعم الحيات فى الجحر
والخنفس الأسود في طبعه * مودة العقرب في السر
والحشرات الغبر منبثة * بين الورى والبلد القفر
وكلها شر وفى شرها * خير كثير عند من يدرى
لو فكر العاقل فى نفسه * مدة هذا الخلق فى العمر

* لم يزل الا عجبا شاملا * أو حجة تنقش في الصخر
فكم ترى في الخلق من آية * خفية الجسمان فى قمر
أبرزها الفكر على فكرة * يحار فيها وضح الفجر
لله در العقل من رائد * وصاحب فى العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائب * قضية الشاهد الأمر
وان شيئا بعض أفعاله * ان يفصل الخير من الشر
بذي قوي قد خصه ربه * بخالص التقديس والطهر
بل أنت كالعين وانسانها * ومخرج الخيشوم والنحر
فشرهم أكثرهم حيلة * كالذئب والثعلب والذر
* والليث قد بلده علمه * بما حوى من شدة الأسر
فتارة تحطمه خابطا * وتاره يثنيه بالهصر *
والضعف قد عرف أربابه * مواضع الفر من الكر
تعرف بالاحساس أقدارها * فى الاسم والجارح والصبر
والبخت مقرون فلا تجهلن * بصاحب الحاجة والفقر
وذا الكفايات الى سكرة * أهون منها سكرة الخمر
والضبع العثراء مع ذيخها * شر من اللبوة والنمر
ولو خلي الليث ببطن الوري * والنمر أوقد جيء بالببر
كان لها ارجا ولو فضفضت * مابين قرنيه الى الصدر
الذئب ان افلت من شره * فبعد ان أبلغ في العذر
وكل جنس فله قالب * وعنصر اعراقه تسري
وتصنع الترفة فيهم على * مثل صنيع الارض والبذر
والاضعف الاصغر احري بان * يحتال الأكبر بالفكر
متي يرى عدوه قاهراً * أحوجه ذاك الى المكر
كما تري الذئب اذا لم يطق * صاح فجاءت رسلا تجري

وكل شيء فعلى قدره * يحجم أو يقدم أو يجري
والكيس في المكسب شمل لهم * والعندليب الفرخ كالنسر
والخلد كالذئب على خبثه * والفيل والاعلم كالوبر
والعبد كالحر وان ساءه * والابغث الأعثر كالصقر
لكنهم في الدين أيدى سبا * تفاوتوا في الرأي والقدر
لمد غمر التقليد أحلامهم * فناصبوا القياس ذا الشر
فافهم كلامى واصطبر ساعة * فانما النجح مع الصبر
وانظر الى الدنيا بعين امرئ * يكره أن يجرى ولا يدرى
أما ترى الهقل وأمعاءه * تجمع بين الصخر والجمر
وفارة البيش على بيشها * طيبة فائقة العطر *
وطائر يسبح في جاحم * كماهر يسبح في غمر
ولطعة الذئب على حسوه * وصنعة السرفة والدبر
ومسمع القردان في منهل * أعجب مما قيل في الحجر
وظبية تدخل في مولج * مؤخرها من شدة الذعر
تأخذ بالحزم على قانص * يريها من قبل الدبر
والمقدم أخر ما أن له * مرارة تسمع في الذكر
وخصية تنصل من جوفه * عند حدوث الموت والنحر
ولا يرى من بعدها جازر * شقشقة مائلة الهدر
وليس للطارف طحال وقد * أشاعه العالم بالامر
وفي فؤاد الثور عظم وقد * يعرفه الجازر ذا الخبر
وأكثر الحيتان أعجوبة * ما كان منها عاش في البحر
اذ لا لبان سقى ملحه * ولا دماغ السمك الدهري
يدخل في العزب الى جسمه * كفعل ذي العلة في البر
* تدبر اوقاتا بأعيانها * على مثال الفلك المجرى

وكل جنس فله مدة * تعاقب الانواء في الشهر
والبدر مذ يظهر في ليلها * ثم يوارى آخر الدهر
ولا يسيغ الطعم ما لم يكن * مزاجه الدهر على قدر
ليس له شيء لازلاقه * سوى جراب واسع الشحر
والتفل الرائغ اما نضا * فشطر انبوب على شطر
متي رأى الليث أخا حافر * تجده ذافش وذا جزر
وان رأى الخثر طعاما له * أطعمه ذلك في الخبر
وان رأي مخلبه وافيا * ونابه يجرح في الصخر
منهرت الشدق الي غلصم * فالعير مأكول الى الحشر
وما يعادى النمر في ضيغم * زئيره أصبر من نمر
لو لا الذى في أصل تركيبه * من شدة الاضلاع والظهر
يبلغ بالجر على طبعه * ما يسحر المختال ذا الكبر
سبحان رب الخلق والامر * ومنشر الميت من القبر
فاصبر على التفكير فيما ترى * ما أقرب الاجر من الوزر

نقول بعون الله تعالى وقوته في تفسير قصيدة أبي سهل بشر بن المعتمر ونبدأ بالاولى المرفوعة التي ذكر في آخرها الاباضية والرافضة والنابتة فاذا قلنا في ذلك بما حضرنا قلنا في قصيدته الثانية ان شاء الله تعالى أما قوله

كأذؤب تنهشها أذؤب * لها عواء ولها زفر

فانها قد تتهارش على الفريسة ولاتبلغ القتل فاذا أدمى بعضها بعضاً وثبت عليه فمزقته وأكلته وقال الراجز

فلا تكوني يا ابنة الأشم * زرقاء دمي دمها المدمى

﴿ وقال الفرزدق ﴾

وكنت كذئب السوء لما رأى دماً * بصاحبه يوما احال على الدم

نعم حتى ربما اقبلا على الانسان اقبالا واحداوهما سواء على عداوته والجزم على أكله

فاذا أدمى احدهما وثب على صاحبه المدمي فمزقه وأكله وترك الانسان وان كان احدهما قد أدماه ولا أعلم في الارض خلقا الأم من هذا الخلق ولا شراً منه ويحدث عند رؤيته الدم له في صاحبه الطمع ويحدث له في ذلك الطمع فضل قوة ويحدث للمدمى جبن وخوف ويحدث عنهما ضعف واسترخاء فاذا تهيأ ذلك منهما لم يكن دون أكله شيء والله أعلم حيث لم يعط الذئب قوة الاسد ولم يعط الاسد جبن الذئب الهارب بما يرى في أثر الدم من الضعف مثل مايعتري الهر والهرة بعد الفراغ من السفاد فان الهر قبل ان يفرغ من سفاد الهرة أقوى منها كثيراً فاذا سفدها ولى عنها هارباً واتبعته طالبة له فانها في تلك الحال ان لحقته كانت أقوى منه كثيراً فلذلك يقطع الارض في الهرب ويعارى بنفسه من حالق وهذا شيء لايعدمانه في تلك الحال ولم أرهم يقفون على حد العلة في ذلك وهذا باب سيقع في موضعه من القول في الذئب تاما بما فيه من الرواية وغير ذلك وأما قوله

من خلقه في رزقه كلهم * الذيخ والتيتل والغفر

الذيخ ذكر الضبع والتيتل شبيه بالوعل وهو مما يسكن في رؤس الجبال ولا يكون في القرى وكذلك الاوعال وليس لها حفر ولا عمل محمود على التبسط وكذلك ليس للظباء حفر ولا عمل محمود في رؤس الجبال وقال الشاعر

وخيل تكردس بالدارعين * كمشى الوعول على الظاهر

﴿ وقال أيضاً ﴾

والظبي في رأس اليفاع تخاله * عند الهضاب مقيداً مشكولا

والغفر ولد الأروية واحد الاروى والاروي جماعة من اناث الاوعال وأما قوله

والصدع الاعصم في شاهق * وجأبة مسكنها الوعر

فالصدع الشاب من الاوعال والاعصم الذي في عصمته بياض وفي المعصم منه سواد ولون يخالف لون جسده والانثى عصماء والجأب الحمار الغليظ الشديد والجأبة الاتان الغليظة والجأب أيضاً مهموز المغرة وقال عنترة

فنجا امام رماحهن كأنه * فوت الاسنة حافر الجأب

شبهه بما عليه من لطوخ الدماء برجل يحفر في معدن المغرة والمغرة أيضاً المكر ولذلك قال أبو زبيد في صفة الاسد المخمر بالدماء

يناجيهم للشر ثانى عطفه * عنايته كأنما بات يمكر

وأما قوله

والحية الصماء في جحرها * والتتفل الرائغ والذر

فالتتفل هو الثعلب وهو موصوف بالروغان والخبث ويضرب به المثل في النذالة والدناءة كما يضرب به المثل في الخبث والروغان وقال طرفة

وصاحب قد كنت صاحبته * لاترك الله له واضحه

كلهم أروغ من ثعلب * ماأشبه الليلة بالبارحه

﴿ وقال دريد بن الصمة ﴾

ومرة قد أدركتهم فتركتهم * يروغون بالعراء روغ الثعالب

﴿ وقال أيضاً ﴾

ولست بثعلب ان كان كون * يدس برأسه في كل جحر

ولما قال أبو محجن الثقفي لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من حائط الطائف ماقال قال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه انما أنت ثعلب في جحر فابرز من الحصن ان كنت رجلا ، ومما قيل في ذلة الثعلب قال بعض السلف حين وجد الثعلبان بال على رأس صنمه

اله يبول الثعلبان برأسه * لقد ذل من بالت عليه الثعالب

فأرسلها مثلا وقال دريد في مثل ذلك

تمنيتني قيس بن سعد سفاهة * وأنت أمرؤ لا تحتويك المقانب

وأنت امرؤ جعد القفا متعكس * من اللاقط الحولى ثعبان كاتب

اذا انتسبوا لم يعرفوا غير ثعلب * اليهم ومن شر السباع الثعالب

﴿ وأنشدوا في مثل ذلك ﴾

ماأعجب الدهر في تصرفه * والدهر لاتنقضى عجائبه

يبسط آمالنا فنبسطها * ودون آمالنا نوائبه
وكم رأينا في الدهر من أسد * بالت على رأسه ثعالبه

ففي الثعلب جلده وهو كريم الوبر وليس في الوبر أغلى من الثعلب الاسود وهو ضروب ومنه الأبيض الذي لا يفصل بينه وبين الفنك ومنه الخلنجي وهو الاعم ومن أعاجيبه ان اصه وهو قضيبه في خلقة الانبوبة أحد شطريه عظم في صورة المثقب والآخر عصب ولحم ولذلك قال بشر بن المعتمر

والتتفل الرائغ اما نضى * فشطر أنبوب على شطر

وهو سبع جبان جداً ولكنه لفرط الخبث والحيلة يجري مع كبار السباع وزعم اعرابي ممن يسمع منه انه طارده مرة بكلاب له فراوغه حتى صار في خمر ومر بمكانه فرأى ثعلبا ميتا واذا هو قد زكر بطنه ونفخه فوهمه أنه قد مات من يوم أو يومين قال فتعديته وشم رائحة الكلاب فوثب وثبة فصار في صحراء ،وفي حديث العامة أنه لما كثرت البراغيث في فروته تناول بفيه اما صوفة واما ليفة ثم أدخل رجليه في الماء فترفعت من ذلك الموضع فما زال يغمس بدنه أولا فأولا حتى اجتمعن في خطمه فلما غمس خطمه أولا فأولا اجتمعن في الصوفة فاذا علم أن الصوفة قد اشتملت عليهن تركها في الماء ووثب فاذا هو خارج من جميعها فان كان هذا الحديث حقا فما أعجبه وان كان باطلا فانهم لم يجعلوه له الا للفضيلة التي فيه من الخبث والكيس واذا مشى الفرس مشيا شبيها بمشى الثعلب قالوا مشى الثعلبية قال الراعي

وخيل نضي بالمثان كانها * ثعالب موتى جلدها قد تسلما

وقال الاصمعي سرق هذا المعنى من طفيل الغنوى ولم يجد السرق وفي تشبيه بعض مشيته قال المرار بن منقذ

صفة الثعلب أدنى جريه * واذا يركض يعفور أشر

﴿ وقال امرؤ القيس ﴾

له أيطلا ظبي وساقا نعامة * وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

والبيت الذي ذكر الاصمعي لطفيل الغنوى أن الراعي سرق معناه هو قوله

وعجل نفى بالمثان كانها * ثعالب موتى جلدها لم ينزع

وأنشدوا في جبنه قول زهير بن أبي سلمى

وبلدة لا ترام جايبة * زوراء مغبرة جوانبها
تسمع للجن عازفين بها * تصيح من رهبة ثعالبها
كلفتها عرمسا عذا فرة * ذات هنا فقم منا كبها
تراقب المحصر المعر اذا * هاجرة لم تقل جنادبها

والذى عندى أن زهيرا قد وصف الثعلب بشدة القلب لانهم اذا هولوا بذكر الظلمة الوحشية والغيلان لم يذكروا الا فزع من لا يكاد يفزع لان الشاعر قد وصف نفسه بالجراءة على قطع هذه الارض فى هذه الحال وفي استنذاله وجبنه قالت أم سالم لابنها معمر

أرى معمراً لازين الله معمراً * ولا زانه من زائر يتقرب
أعاديتنا عاداك عز وذلة * كأنك فى السربال اذ جئت ثعلب
فلم تر عينى زائراً مثل معمر * أحق بأن يجنى عليه ويضرب

﴿ وقال عقيل بن علقمة ﴾

تأمل لما نال أمك هجرس * فانك عبد يازميل ذليل
واني متى أضربك بالسيف ضربة * أصيح بنى عمرو وأنت قتيل

الهجرس من ولد الثعلب قال و كيف يصطاد وهو على هذه الصفة فأنشد شعر ابن ميادة

ألم تر أن الوحش يخدع مرة * ويخدع أحيانا فيصطاد ثورها
بلى وضواري الصيد تخفق مرة * وان فرهت عقبانها ونسورها

قال وسألت عنه بعض الفقهاء فقال قيل لابن عباس كيف تزعمون أن سليمان بن داود عليهما السلام كان اذا صار فى البرارى وحيث لا ماء ولا شجر فاحتاج الى الماء دله على مكانه الهدهد ونحن نغطي له الفخ بالتراب الرقيق ونبرز له الطعم فيقع فيه جهلا بما تحت ذلك التراب وهو يدل على الماء فى قعر الارض الذى لا يوصل اليه الا بأن يحفر عليه القيم الكيس قال فقال ابن عباس رضي الله عنهما اذا جاء القدر لم ينفع

الحذر وأنشدوا

خير الصديق هو الصدوق مقالة * وكذاك شرهم الميون الا كذب
فاذا غـدوت له تريد نجازه * بالوعد راغ كما يروغ الثعلب

وقال حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه

بنى عائذ شاهت وجوه الأعائذ * بطاء عن المعروف يوم التزايد
فما كان ضيفي اذ بني بأمانه * قفا ثعلب أعيا ببعض المراصد

﴿وأنشد﴾

ويشربه مذقا ويسقي عياله * سجاجا كاقراب الثعالب أزرقا

وقال مالك بن مرداس

يا أيها ذا الموعدى بالضر * لا تلعبن لعبة المغتر
أخاف أن تكون مثل هر * أو ثعلب أضيع بعد حر
هاجت به مخيلة الأظفر * عراء في يوم شمال قر
يجول منها لثق الذعر * بصرد ليس بذي محجر
تنفض أعلى فروة المنبر * تنفض منها نابها بشزر
* نفضا كلون الشره الخمر *

المخيلة العقاب الذكر الاشبث صرد مكان مطمئن وقال اليقطرى كان اسم أبى الضريس ديناراً فقال له مولاه يادنينير فقال اتصغرني وأنت من بنى مخيلة والعقاب الذكر بدرهم والانثى بنصف درهم وانا اثني عشر درهماً ومن أشد سلاح الثعلب عندكم الروغان والتماوت وسلاحه انتن والزج وأكثر من سلاح الحبارى، وقالت العرب أدهى وأنتن من سلاح الثعلب وله عجيبة فى طلب مقتل القنفذ وذلك اذا لقيه فأمكنه من ظهره بال عليه فاذا فعل ذلك به ينبسط فعند ذلك يقبض على مراق بطنه، ومن العجب في قسمة الارزاق ان الذئب يصيد الثعلب فيأكله ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله ويريغ القنفذ الافعى فيأكلها وكذلك صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية والحية تصيد العصفور فتأكله والعصفور يصيد الجراد فيأكله والجراد يلتمس فراخ الزنابير وكل

شيء يكون أخوصه على المستوى والزنبور يصيد النحلة فيأكلها والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها وأما قوله

وألقـة ترعث ربابحـا * والسهل والنوفل والنضر

فالالقة هاهنا القردة ترعث ترضـع والرباح ولد القردة والسهل الغراب والنوفل والنضر وكل حرية من النساء وغير ذلك فهى ألقة وأنشدنى بشر بن المعتمر لرؤبة

* حتى وجدت ألقة من الالق *

وقد ذكرنا الهقل وشأنه في الجمر والصخر وأكل الضب أولاده في موضعه من هذا الكتاب وكذلك قوله فى المترفان وهو الديك الذي يؤثر الدجاج بالحب وكانه منجم أو صاحب أسطرلاب وذكرنا أيضاً مافى الجراد فى موضعه ولسنا نعيد ذكر ذلك وإن كان مذكوراً في شعر بشر وأما قوله

* وأبغث يصطاده صقر *

﴿ثم قال﴾

سلاحه رمح فما عـذره * وقد عراه دونه الذعر

أقول بدن الأبغث أعظم من بدن الصقر وهو أشد منه شدة ومنقاره كسنان الرمح فى الطول والذرب وربما تجلى له الصقر والشاهين فعلق الشجر والمرار وهتك كل شيء أقول فقد اجتمعت فيه خصال في الظاهر معينة له عليه ولولا أنه على حال يعلم أن الصقر لما يأتيه دبراً واعتراضاً ومن عل وأنه قد أعطى فى سلاحه وكفه فضـل قوة لما استخزي له ولما أطمعه فيه بهر به حتى صارت جرأته عليه بأضعاف ما كانت وقد قال بعض بنى مروان فى قتل عبد الملك عمرو بن سعيد

كان بنى مروان اذ يقتـلونه * بغاث من الطير اجتمن على صقر

أقول هذا من العجب وأما قوله

والدب والقرد اذا علما * والفيـل والكلبة والبغر

ان الحيوان الذى يلقن ويحكى ويكيس ويعلم فيزداد بالتعليم فهذه التى ذكرنا وهى الدب والقرد والفيـل والكلب وقوله البغر يعنى صغار الغنم ولعمري أن فى المكية

والحبشية لعبا وأما قوله

وظبية تخضم فى حنظل * وعقرب يعجبها التمر

وفى الظبي أعاجيب من هذا الضرب وذلك أنه ربما رعت الحنظل فتراه يقبض ويعض على نصف حنظلة فيقدها قد الخصفة فيمضغ ذلك النصف وماؤه يسيل من شدقيه وأنت ترى فيه الاستلذاذ له والاستحلاء لطعمه، وخبرني أبو محجن العنزى خال أبي العميثل الراجز قال كنت أرى بانطاكية الظبي يرد البحر يشرب المالح والاجاج والعقرب ترمى بنفسها في التمر وانما تطلب النوى المنقع فى قعر الاناء فأى شئ أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلى مرارة الحنظل وسنذكر خصال الظبى فى الباب الذى يقع فيه ذكره ان شاء الله تعالى ولسنا نذكر شأن الضب والنمل والجعل والروث لانا قد ذكرناه مرة وأما قوله

وفارة البيش امام لها * والخلد فيه عجب هتر

فان فارة البيش دويبة تشبه الفارة وليست بفارة ولكن هكذا تسمى وهي تكون في الغياض والرياض ومنابت الاهضام وفيها سموم كثيرة كقرون السنبل ومافي القسط فهي تخال تلك الاهضام وتطلب السموم وتقتنيها والبيش إسم لبعض السموم وهذا مما يعجب منه وقد ذكرنا شأن القنفذ والحية فى باب القول فى الحيات وأما قوله

* وعضرفوط ماله قبلة * وهو أيضاً عندهم من مطايا الجن وقد ذكره أيمن ابن خريم فقال

* دخلنا غزالة بنيانهم * نجوب العراق ونجبى النبيطا
نكر ونحجر فرسانهم * كما أحجر الحية العضرفوطا

لان العضرفوط دويبة صغيرة ضعيفة والحيات تأكلها وتغصبها أنفسها وأنشدوا عن السنة الجن

ومن عضرفوط حط من فائية * يبادر وردا من قطار قوارب

وأما قوله * وهدهد يكفره بكر * فانما ذلك لانه كان بكر ابن أخت عبد الواحد البكرية فقال له انخبر عن حال الهدهد بخير أنه كان يعرف طاعة الله

عز وجل من معصيته وقد ترك موضعه وسار الى بلاد سبا وهو وان أطرف سليمان بذلك الخبر وقبله منه فان ذنبه في ترك موضعه الذى وكل به وجولانه في البلدان على حاله ولا يكون ذلك مما يجعل ذنبه السابق إحسانا والمعصية لا تنقلب طاعة فلم لا تشهد عليه بالنفاق قال فاني أفعل قال فحكي ذلك عنه فقال اما هو فقد كان سلم على سليمان وقد كان قال لاعذبنه عذابا شديداً أو لاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين فلما أتاه بذلك الخبر رأى أنه قد أدلي بحجة فلم يعذبه ولم يذبحه فان كان ذنبه على حاله فكيف يكون ماهجم عليه مما لم يرسل فيه ولم يقصد له حجة وكيف يبقى هذا عليه وبكر يزعم أن الاطفال والبهائم لا تأثم ولا يجوز أن يؤثم الله تعالى الا المسيئين فقال بشر لبكر بأي شيء تستدل على أن المسيء يعلم أنه مسيء قال بخجله واعتذاره بتوبته قال فان العقرب متي لسعت فرت من خوف القتل وهذا يدل على أنها جانية وأنت تزعم ان كل شيء عاص كافر فينبغى للعقرب أن تكون كافرة اذا لم يكن لها عذر في الاساءة وأما قوله

والببر فيه عجب عاجب * اذا تلاقي الليث والنمر

لان الببر مسالم للاسد والنمر يطالبه فاذا التقيا أعان الببر الاسد وأما قوله

وطائر أشرف ذو جردة * وطائر ليس له وكر

فان الاشرف من الطير الخفاش لان لآذانها حجما ظاهراً وهو متجرد من الزغب والريش وهو يلد والطائر الذى ليس له وكر وهو طائر يخبر عنه البحريون أنه لا يسقط الا ريثما يجعل لبيضه ادحياً من تراب ويغطي عليه ويطير في الهواء أبداً حتى يموت وان لقي ذكر أنثى تسافدا في الهواء وبيضه يتفقص من نفسه عند انتهاء مدته فاذا أطاق فرخه الطيران كان كأبويه في عاداتهما وأما قوله

وثرمل تأوي الى دوبل * وعسكر تتبعه النسر

يسالم الظبي بذي مرة * أبو مهاف الرخم الصقر

فالثرملة أنثى الثعالب وهى مسالمة للدوبل وأما قوله * وعسكر تتبعه النسر * فان النسور تتبع العساكر وتتبع الرفاق ذوات الابل وقد يفعل ذلك العقبان وتفعله الرخم

وقد قال النابغة

وثقت له بالنصر اذقيل قد غدت * قبائل من غسان غير أشائب
بنو عمه دينا وعمرو بن عامر * أولئك قوم بأسهم غير كاذب
اذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم * عصائب طير تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقنّ أن قبيله * اذا ما التقى الجمعان أول غالب
تراهن خلف القوم خزر عيونها * جلوس الشيوخ في ثياب المذانب

والاصمعى يروي جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب وسباع الطير كذلك فى اتباع العساكر وأنا أري ذلك من الطمع فى القتلى وفى الرذايا والحسرى أو فى الجهيض وما يجرح وقد قال النابغة

سماما تبارى الريح خوصا عيونها * لهن رذايا بالطريق ودائع

﴿ وقال الشاعر ﴾

تشق هماحيق السلا عن جنينها * أخو قفرة بادي السماية أطحل

﴿ وقال حميد بن ثور فى صفة ذئب ﴾

اذا مابدا يوما رأيت غيابة * من الطير ينظرن الذي هو صانع

لأنه لامحالة يسمى وهو جائع سوف يقع على سبع أضعف منه أو على بهيمة ليس دونها مانع وقد أكثر الشعراء فى هذا الباب حتي أطنب بعض المحدثين وهو مسلم ابن الوليد بن يزيد فقال

يكسى السيوف نفوس الناكثين به * ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
قد عود الطير عادات وثقن بها * فهنّ يتبعنه في كل مرتحل

ولا نعلم أحدا منهم أسرف فى هذا القول وقال قولا يرغب عنه الا النابغة فانه قال

جوانح قد أيقن أن قبيله * اذا ماالتقى الجمعان اول غالب

وهذا لا نثبته وليس عند الطير والسباع فى اتباع الجموع الامايسقط من ركابهم ودوابهم وتوقع القتل اذ كانوا قد رأوا من تلك الجموع مرة أو مرارا فاما ان تقصد بالامل واليقين الى أحد الجمعين فهذا مالم يقله أحد وقد أكثر الشعراء فى ذكر

النسور وأكثرت ذلك قالوا فى لبد قال النابغة

أضحت خلاء وأمسي أهلها احتملوا * أخنى عليها الذي أخنى على لبد

فضرب به مثلا فى طول السلامة وقال لبيد

لما رأي صبح سواد خليله * من بين قائم سيفه والمحمل

صبحن صبحا يوم حق حذاره * فاصاب صبحا فاتقا لم يقفل

فالتف منقصفا وأضحى نجمه * بين التراب وبين خد الكلكل

ولقد جرى لبد فادرك جريه * ريب الزمان وكان غير مثقل

لما رأى لبد النسور تطايرت * ربع القوائم كالفقير الاعزل

من تحته لقمان يرجو نفعه * ولقد رأى لقمان أن لم يأتلى

وان أحسنت الاوائل فى ذلك فقد أحسن بعض المحدثين وهو الخزرجى فى ذكر النسر وضرب المثل به وبلبد وصحة بدن الغراب حيث ذكر طول عمر معاذ بن مسلم بن رجا مولى القعقاع بن سور وهو قوله

ان معاذ بن مسلم رجل * قد ضج من طول عمره الابد

قد شاب رأس الزمان واختضب * الدهر وأثواب عمره جدد

يا نسر لقمان كم تعيش وكم * تلبس ثوب الحياة يالبد

قد أصبحت دار آدم خربت * وأنت فيها كانك الوتد

تسأل غربانها اذا حجلت * كيف يكون الصداع والرمد

وما تعلق بالسحاب من الغيم يشبه بالنعام وما تراكب عليه يشبه بالنسور قال الشاعر

خليلي لا تستسلما ودعوا الذى * له كل أمر أن يصوب ربيع

فيالبلاد أنفذ المحل عودها * وجبر لعظم فى شطاه صدوع

بمنتصر غب النشاط كانها * جبال عليهن النسور وقوع

عسى أن يحل الحي جزعا وانها * وعلّ النوى بالظاعنين تريع

أفي كل عام زفرة مستجدة * تضمنها منى حشا وضلوع

وشبه العجير السلولى شيوخا على باب بعض الملوك بالنسور فقال

فنهن آساد على ضوء كوكب * له من عماني النجوم نظير
ومنهن ترعى كل باب كانما * به القوم يرجون الاذين نسور
الى فطن يستخرج القلب طرفه * له فوق أعواد السرير زئير

وذكرت امرأة من هذيل قتيلا فقالت

تمشى النسور اليه وهى لاهية * مشى العذارى عليهن الجلابيب

تقول هي آمنة ان تذعر ومدح بعض الشعراء عبد العزيز بن زرارة الكلابى فقال

وعند الكلابي الذي حل بيته * بجو سماء ماضر وصبوح
ومكسورة حمر كان متونها * نسور الى جنب الخوان جنوح

مكسورة يعنى وسائد مثنية وقال ابن ميادة

ورجعت من بعد الشباب وعصره * شيخا أزب كأنه نسر *

وقال طرفة فلا منعن منابت الصمدان اذ منع النسور

وفي كتاب كليلة ودمنة وكن كالنسر حوله الجيف ولا تكن كالجيف حولها النسور فاعترض على ترجمة ابن المقفع بعض المتكلفين من فتيان الكتاب فقال انما كان ينبغي ان يقول كن كالضرس حف بالتحف ولا تكن كالهبرة تطيف بها الا كلة وأظنه الضروس فقال الضرس وهذا من الاعتراض عجب ويوصف النسر بشدة الارتفاع حتى الحقوه بالانوق وهي الرخمة وقال عدي بن زيد

فوق علياء لاينال ذراها * يلعب النسر دونها والأنوق

﴿ وأنشدوا في ذلك ﴾

أهل الدناءة في مجالسهم * والطيش والعوراء والهذر
يدنون ماسألوا وان سئلوا * فهم مع العيوق والنسر

وقال زيد بن بشر التغلبي في قتل عمير بن الحباب

لايجوزن أرضنا مضرى * بخفير ولابغير خفير *
طحنت تغلب هوازن طحنا * والحت على بنى منصور
يوم تردي الكماة حول عمير * حجلان النسور حول جزور

﴿ وقال جميل ﴾

وماصائب من نائل قذفت به * يد وممر العقدتين وثيق
له في خوافي النسر حم نظائر * ونصل كنصل الزاعبي رقيق
على نبعة زوراء اما خطامها * فمتن واما عودها فعتيق
باوشك قتلا منك يوم رميتني * نوافذ لم تظهر لهن خروق
فلم أر حربا يا بثين لحربنا * تكشف غماها وأنت صديق

﴿ وأما قوله ﴾

يسالم الضبع بذي مرة * أبرمها في الرحم العمر

لان النسر طير ثقيل عظيم شره رغيب نهم فاذا سقط على الجيفة وتملأ لم يستطع الطيران حتى يثب وثبات ثم يدور حول مسقطه مراراً ويسقط فى ذلك فلا يزال يرفع نفسه طبقة طبقة فى الهواء حتى يدخل تحته الريح فيمكن من صادفه وقد بطن وتملأ ضربه ان شاء بعصا وان شاء بحجر حتى ربما اصطاده الضعيف من الناس وهو مع ذلك يشارك الضبع فى فريسة الضبع ولايثب عليه مع معرفته بعجزه عن الطيران وزعم ان ثقته بطول العمر هو الذى جرأه علي ذلك وقال هوت العقاب تهوى هويا اذا انقضت على صيد أو غيره مالم ترغه فاذا أراغته قيل أهوت له اهواء والاهواء أيضاً التناول باليد والاراغة ان يذهب الصيد هكذا وهكذا ويقال دوم الطائر فى جو السماء وهو يدوم تدويما اذا دار فى السماء ولايحرك جناحيه ويقال نسره بالمنسر وليس بذي مخلب وانما له أظفار كأظفار الدجاج وقال العجاج

شاكى الكلاليب اذا أهوى ظفر * كفا برى الرؤس منها أو نسر

وليس له سلاح انما يقوى بقوة بدنه وعظمه وهو سبع لئيم عديم السلاح وليس من احرار الطير وعتاقها ويقال ان عتاق الطير تنقض على عمود الرحل وعلى الطنفسة والنمرق فتحسبه لحمرته لحما وهم مع ذلك يصفونها بحدة البصر ولاأدري كيف ذلك وقال غيلان بن سلمة

في الآل يخفضها ويرفعها * ريع كأن متونه السحل

عقلا ورقما ثم اردفه * كلل على الوانها الخمل
كدم الرعاف على مآزرها * وكأنهن ضوامر أجل

وهذا الشعر عندنا للمسيب بن علس وقال علقمة بن عبدة

رد الاماء جمال الحي فاحتملوا * وكلهم بالبزيد يات معكوم
عقلا ورقما يظل الطير يتبعه * كأنه من دم الأجواف مدموم

﴿ وقال الهذلي ﴾

ولقد غدوت وصاحبي وحشية * تحت الرداء بصيرة بالمشرف
حتى أتيت الى فراش عزيزة * سوداء روثة أنفها كالمخصف

يعني عقابا وقوله بصيرة بالمشرف يريد الريح من أشرف لها أصابته وقال الآخر في شبيه بهذا

فاذا أتتكم هذه فتلبثوا * ان الرماح بصيرة بالحاسر

﴿ وقال آخر ﴾

كأني اذ غدوت ضمنت بزي * من العقبان خائتة طلوبا
كريمة ناهض في رأس نيق * ترى لعظام ما جمعت صليبا

﴿ وقال طفيل الغنوي ﴾

تبيت كعقبان الشريف رجاله * اذا ما نووا احداث أمر تعطفوا

أي امهلوا وقال دريد

تعللت بالشطاء اذبان صاحبي * وكل امرئ قد بان اذبان صاحبه
كاني وتربي فوق فتخاء لقوة * لها ناهض في وكرها لاتجانبه
فباتت عليه ينفض الطل ريشها * تراقب ليلا ما تغور كواكبه
فلما تجلى الليل عنها وأسفرت * تنفض حسري عن أخص مناكبه
رأت ثعلبا من حزة فهوت له * الى خرة والموت عجلان كاربه
فخر قتيلا واستمر بسحره * وبالقلب يدمى أنفه وترائبه

زعم صاحب المنطق أنه ليس شئ في الطير أجفى لفراخه من العقاب وانه لابد من

ن يخرج واحدا وربما طردهن جميعا حتى يجيء طائر يسمى كاسر العظام فيتكفل به
دريد بن الصمة يقول

كأني وتربي فوق فتخاء لقوة * لها ناهض في وكرها لانجانبه

د يعترى العقاب عند شبعها من لحم الصيد شبيه بالذي ذكرنا في النسر وأنشد
صالح مسعود بن قيد لبعض القسيين

ترى الطير بعد اليأس زيدا فأصبحت * بوجفاء قفر ما يدب عقابها
وما يتخطى الفحل زيد بسيفه * ولا العرمس الوجناء قد شق نابها
وان قيل مهلا انها شدنية * يقطع أقران الجبال جذابها

ر أنه يعترى العقاب من الثقل عند الطيران من البطنة ما يعتري النسر وقال
رؤ القيس ان كان قاله

كأنها حين فاض الماء واحتملت * فتخاء لاح لها بالقفرة الذيب
فأبصرت شخصه من فوق مرقبة * ودون موقعها منه سناجيب
فأقبلت نحوه في الجوّ كاسرة * يحثها من هوي اللوح تصويب
صبت عليه ولم تنصب من أمم * أن الشقاء على الاشقين مصبوب
كالدلو بتت عراها وهي مثقلة * اذ خانها ودم منها وتكريب
لا كالذى في هواء الجو طالبة * ولا كهذا الذي في الارض مطلوب
كالبز والريح مرآناهما عجب * ما في اجتهاد على الاصرار تعييب
فأدركته فنالته مخالبها * فانسل من تحتها والدف معقوب
يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت * منها ومنه على الصخر الشآبيب
ثم استغاثت بمتن الارض تعفره * وباللسان وبالشدقين تتريب
ما أخطأته المنايا قيس أنملة * ولا تحرز الا وهو مكتوب
يظل منحجر منها يراقبها * ويرقب الليل ان الليل محبوب

ل زهير

تنبذ أفلاذها في كل منزلة * تنتخ أعينها العقبان والرخم

تنتخ أى تنزع وتستخرج والعرب تسمي المنقاش المنتاخ ويقال نقت الرخم تنق نقيقا وأنشد أبو الجراح

حديثا من سماع الدل وعر * كأن نقيقهن نقيق رخم

والنقيق يشترك يقال نق الضفدع ينق نقيقا ويقال أعز من الابلق العقوق وأبعد من بيض الانوق فأما بيض الانوق فربما رؤي وذلك أن الرخم تختار أعالي الجبال وصدوع الصخر والمواضع الوحشية وأما الابلق فلا يكون عقوقا وأما العقوق البلقاء فهو مثل وقال

ذكرناك ان مرت امام ركابنا * من الأدم مخماص العشي سلوب
تدلت عليه تنفض الريش تحتها * براثنها وراحهن خضيب
غدارية صقعاء دون فراخها * من الطود دار بينها ولهوب
ان القانص المحروم آب ولم يصب * فطعمه جنح الظلام نصيب
فأصبحت بعد الطير مادون فارة * كما قام فوق المنصتين خطيب

وقال بشر بن أبي خازم

فما صدع بحية أو بشرق * على زلق زوالق ذى كهاب
تزل اللقوة الشمراء عنها * مخالبها كأطراف الاشاب

وقال بشر أيضاً

تداركت لحمي بعد ما حلقت به * مع النسر فتخاء الجناح قبوض
فان تجعل النعماء منك تمامه * ونعماك نعمي لا تزال تفيض
تكن لك في قومي يد يشكرونها * وأيدى الندى في الصالحين قروض

وعلى شبيه بهذا البيت الآخر قال الحطيئة

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه * لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال عقيل بن العرنوس

حبيب لقرطاس يؤدي رسالة * فيالك نفسا كيف حان ذهولها
وكنت كفرخ النسر مهد وكره * بملتفة الافنان خضل مقيلها

وأما قوله

وتمسيح خاله طائر * وسابح ليس له سحر

فالتمساح مختلف الاسنان فينشب فيه اللحم فيغمه فينتن عليه وقد جعل في طبعه أن يخرج عند ذلك الى الشط ويشحي، فاه لطائر يعرفه بعينه يقال انه طائر صغير أرقط فيجيء من بين الطير حتى يسقط بين لحييه ثم ينقره بمنقاره حتى يستخرج جميع ذلك اللحم فيكون غذاء له ومعاشاً ويكون تخفيفاً عن التمساح وترفيها فالطائر الصغير يأتى ما هنالك يلتمس ذلك الطعم والتمساح يتعرض له لمعرفته بذلك منه وأما قوله وسابح ليس له فان السمك كله لا رئة له قالوا وانما تكون الرئة لمن يتنفس هذا وهم يرون منخري السمك والخرق النافذ فى مكان الانف منه ويجعلون ما يرون من نفسه إذا أخرجوه من الماء ان ذلك ليس بنفس يخرج من المنخرين ولكنه تنفس جميع البدن

وأما قوله

والعث والحفاث ذو نفخ * وخرنق يسفده وبر

فان الحفاث دابة تشبه الحية وليست بحية وله وعيد شديد ونفخ وتوثب ومن لم يعرفه كان له أشد هيبة منه للافاعى والثعابين وهو لا يضر بقليل ولا كثير والحيات تقتله وأنشد

ايفا يشون وقد رأوا أحفاثهم * قدعضه فقضي عليه الاسود

والعث دويبة تقرض كل شيء وليس له خطر ولا قوة ولا بدن قال الراجز

يحثني وردان أى حث * وما يحث من كبير عث

إهابه مثل اهاب العث

وأنشد

وعث قد وكلت اليه أهلى * فطاح الاهل واجتيح الحريم

وما لا هي به طرف فيوحي * ولا صلك اذا ذكر الفصيم

فان تشتمونا على لؤمكم * فقد يقرض العث ماس الاديم

وقالوا في الحفاث هجا الكروبي أخاه فقال

جباري في اللقاء اذا التقينا * وحفات اذا اجتمع الفريق

وقال اعرابي

ولست بحفات يطاول شخصه * وينفخ نفخ الكير وهو لئيم

ووقع بين رجل من العرب ورجل من الموالى كلام فاربى عليه المولى وكان المولي فيه مشابه من العرب والاعراب فلم يشك ذلك العربى أن ذلك المولى عربي وانه وسط عشيرته فانخزل عنه فلم يكلمه فلما فارقه وصار الى منزله علم انه مولى فبكر عليه غدوة فلما رأى خذلان جلسائه له ذل واعتذر فعند ذلك قال العربي فى كلمة له

ولم أدر ما الحفات حتي بلوته * ولا نقض للاشخاص حتي تكشفا

وقد أدركت هذه القصة وكانت فى البحرين عند مسحر بن السكن عندنا بالبصرة فهو قوله والعث والحفات ذو نخفخ لان الحفات له نفخ وتوثب وهو ضخم شنيع المنظر فهو يهول من لا يعرفه وكان أبو ديجونة مولى سليمان يدعى غاية الاقدام والشجاعة والصرامة فرأي حفاثا وهو في طريق مكة فوجده وقد قتله اعرابى ورآه أبو ديجونة كيف ينفخ ويتوعد فلم يشك الا أنه أخبث من الافعى ومن الثعبان وانه اذا أتى به وادعي أنه قتله سيقضى له بقتل الاسد والببر والنمر فى نقاب فحمله وجاء به الى أبيه وهو مع أصحابه وقال ما أنا اليوم الا ذنخ وما ينبغى لمن أحس بنفسه مثل الذى أحس ان يرمى في المهالك والمعاطب وينبغي ان يستبقيها لجهاد أو دفع عن حرمة وحريم يذب عنه وذلك إني هجمت على هذه الحية وقد منعت الرفاق من السلوك وهربت منها الابل وأمعن في الهرب عنه كل جمال ضخم الجزارة فهزتني اليه طبيعة الابطال فراوغتها حتى وهب الله الظفر وكان من البلاء انها كانت بأرض ملساء ما فيها حصاة وبصرت بفهر على قاب غلوة فسعيت اليه وأنا أسوار كما تعلمون فوالله ما أخطأت حاق لهزمته حتي رزق الله عليه الظفر وأبوه والقوم ينظرون في وجهه وهم أعلم الناس بضعف الحفات وانه لم يؤذ أحدا قط فقال له أبوه ارم بهذا من يدك لعنك الله ولعنه معك ولعن تصديقي لك ما كنت تدعيه من الشجاعة والجراءة فكبروا عليه وسموه قاتل الاسد ، ومما هجوا به حين يشبهون الرجل بالمث فى لؤمه وصغر

قده قول مخارق الطائى حيث يقول

وانى قد علمت مكان عث * له ابل معاسة تسوم
عن الاضياف والجيران عزب * فأدوت والفتي دنس لئيم
وانى قد علمت مكان طرف * أغر كانه فرس كريم
له نعم يعام المحل فيها * ويروي الضيف والزف العظيم

وأما قوله

* وخرنق يسفده وبر *

فان الاعراب يزعمون ان الوبر يشتهى سفاد المكرشة وهي أنثى الارانب ولكنه يعجز عنها فاذا قدر على ولدها وثب عليه والانثى تسمى المكرشة والذكر هو الخزز والخرنق ولدهما قال الشاعر

قبح الاله عصابة نادمتهم * فى جحجحان الى أسافل نقنق
أخذوا العناق وعرضوا احسابهم * لجرب ذكر الحديد معرق
ولقد قرعت صفاتكم فوجدتكم * متشبثين بزاحف متعلق
ولقد غمزت قناتكم فوجدتها * خرعاء مكسرها كعود محرق
ولقد قبضت بقلب سلمة قبضة * قبض العقاب على فؤاد الخرنق
ثم اقتحمت للحمه فأكلته * في وكر مرتفع الجناح معلق

قالوا أنه قالها أبو حبيب بعد ان قال جشم ماقال وقد قدم اليه طعامه، ووصف اعرابي خلق اعرابى فقال كان فى غفلته خززاً وكان فى عضده جرذاً وأنشدوا للمائح ووصف ماتحاوراه يستقى على بئره فقال

أعددت للورد اذا الورد حفز * دلو جروزا وجلالا حزحز
وما تحالا لا ينثنى اذا احتجز * كان تحت جلده اذا احتفز

* فى كل عضو جرذين أو خزز *

وسنقول فى الارنب بما يحضرنا ان شاء الله تعالى قال الشاعر

زعمت غدانة ان فيها سيدا * ضخما يوازنه جناح الجندب

بروبه مايروى الذباب فينثني * سكرا ويشبهه كراع الارنب

وانما ذكر كراع الارنب من بين جميع الكراعات لان الارنب هي الموصوفة بقصر الذراع وصغر اليد ولم يرد الكراع فقط وانما أراد اليد بأسرها وانما جعل ذلك لها بسبب نحن ذاكروه ان شاء الله تعالى ، والفرس يوصف بقصر الذراع فقط والتوبير لكل محتال من صغار السباع اذا طمع في الصيد وخاف أن يصاد كالثعلب وعناق الارض هي التي يقال لها التفة وهي دابة نحو الكلب الصغير تصيد صيداً حسناً وربما واثب الانسان فعقره وهو أحسن صيداً من الكلب وفي أمثالهم لانت أغني من التفة عن الرفة وهو التبن الذى تأكله الدواب والماشية من جميع البهائم والتفة سبع خالص لا يأكل الا اللحم والتوبير أن تضم براثنها فلا تطأ على الارض الا ببطن الكف حتى لا يرى لها أثر براثن وأصابع وبعضها يطأ على زمعاته وبعضها لا يفعل ذلك وذلك كله في السهل فاذا أخذت في الحزونة والصلابة وارتفعت عن السهل حيث لا ترى لها آثار قالوا ظلفت الاثر تظلفه ظلفا وقال النميري أظلفت الاثر إظلافا وعند عبد الملك بن نمير عن قبيصة بن جابر ما الدنيا في الآخرة الا كنفخة أرنب ويقال حذفته بالعصا كما تحذف الارنب وقال أبو الوجيه العكلي لو كانت والله الضبة دجاجة لكانت الارنب دراجة ذهب الى أن الارنب والدراج لا تستحل لحومها ولا تنقلب شحومها وانما سمنها بكثرة اللحم وذهب الى مايقول المعجبون منهم بلحم الضب فانهم يزعمون ان الطعمين متشابهان وأنشد

وأنت لو ذقت الكشا بالا كباد * لما تركت الضب يسعى بالواد

قال والضب يعرض لبيض الظليم ولذلك قال الحجاج لاهل الشام انما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها القذر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء

﴿ ثم رجع القول الى الارانب ﴾

ثم في الخيل مما يشبه الارنب قول الاعشى

اما اذا استقبلته فكأنه * جذع سما فوق النخيل مشذب

واذا تصفحه الفوارس معرضاً * فتقول سرحان الغضا المتصبب
اما اذا استدبرته فتسوقه * سوقا يقنصها وظيف أحدب
منه وجاعرة كان حماتها * كشطت مكان الجل عنها أرنب

وقال عبد الرحمن بن حسان

كان حماتيهما أرنبا * ن غيضتا خيفة الاذؤب

وأنشد الأثرم

بأعصف الاذن الطويل العمر * وأرنب الخلة تلو الدهر

قد سمعت من يذكر ان أذن الانسان دليل على طول عمره حتى زعموا أن شيخا من الزنادقة لعنهم الله تعالى قدموه لتضرب عنقه فمدى اليه غلام سعدي كان له فقال أليس قد زعمت يا مولاى ان من طالت أذنه طال عمره قال بلى قال فها هم يقتلونك قال انما قلت ان تركوه وأنا لا أعرف ما قال الأثرم ولا سمعت شعراً حديثا ولا قديماً يخبر عن طول عمر الارنب قال الشاعر

معبلة فى قدح نبع حازر * تسقى دم الجوف لظفر قاصر
اذ لا تزال أرنب أو فازر * أو كروان أو حبارى كاسر
الى حمار أو أتان عاقر

قال ويزعمون أنه ليس شئ من الوحش في مثل جسم الارنب أقل لبنا ودروراً على ولد منها ولذلك يضرب بدرها المثل فمن قال فى ذلك عمرو بن قميئة حيث يقول

ليس بالمطعم الارانب اذ قلـ * ـص در اللقاح فى الصبر
ورأيت الاماء كالجثث البا * لى عكوفا على قرارة قدر
ورأيت الرجال كالورم الاضخم * يبتاع من وراء ستر
حاضر شركم وخيركم * دم جرو من الارانب بكر

والارنب قصير اليدين فلذلك يخف عليه الصعداء والتوقل فى الجبال وعرف أن ذلك سهل عليه فصرف بعض حيله الى ذلك عند ارهاق الكلاب اياه ولذلك يعجبون بكل كلب قصير اليدين لانه اذا كان كذلك كان أجدر أن يلحقها وفي الارانب من

العجب أنها تحيض وانها لا تسمن وان قضيب الخزز ربما كان من عظم على صورة قضيب الثعلب ومن أعاجيبها أنها تنام مفتوحة العين فربما جاء الاعرابي أن يأخذها من تلقاء وجهها ثقة منه بأنها لا تبصر وتقول العرب هذه أرنب كما يقولون هذه عقاب ولا يذكرون وفيها التوبير الذي ليس لشيء من الدواب التي تحتال بذلك صائدة كانت أو مصيدة وهو الوطء على مؤخر القوائم كيلا تعرف الكلاب آثارها وليس يعرف ذلك من الكلاب الا الماهر وانما تفعل ذلك في الارض اللينة واذا فعلت ذلك لم تسرع في الهرب وان خافت أن تدرك انحرفت الى الحزونة والصلابة وانما تستعمل التوبير قبل دنو الكلاب وليس لشيء من الوحش مما يوصف بقصر اليدين ما للارنب من السرعة والفرس يوصف بقصر الكراع فقط وكانت العرب في الجاهلية تقول من علق عليه كعب أرنب لم تصبه عين ولا نفس ولا سحر وكانت عليه واقية لان الجن تهرب منها وليست من مطاياها لمكان الحيض وقد قال في ذلك امرؤ القيس

يا هند لا تنكحي بوهة * عليه عقيقته أحسبا
مرسعة بين ارساغه * به عسم يبتغي أرنبا
ليجعل في يده كعبها * حذار المنية أن يعطبا

وفي الحديث بكى حتى رسعت عينه مشددة وغير مشددة أي قد تغيرت ورجل مرسع وامرأة مرسعة وكان اذا دخل أحدهم قرية خاف من جن أهلها ومن وباء الحاضرة أشد الخوف الا أن يقف على باب القرية فيعشر كما يعشر الحمار في نهيقه ويعلق عليه كعب أرنب ولذلك قال قائلهم

ولا ينفع التعشير في جنب خرمة * ولا دعدع يغني ولا كعب أرنب

الخرمة القطعة من النخل وقوله دعدع كلمة كانوا يقولونها عند العثار وقد قال الحادرة

ومطية كلفت حل مطية * حرج تنم من العثار بدعدع

وقالت امرأة من اليهود

وليس لوالدة نفسها * ولا قولها لا بنها دعدع

تدارى غراء أحواله * وربك أعلم بالمصرع

وقد قال عروة بن الورد فى التعشير حين دخل المدينة فقيل له ان لم تعشر هلكت فقال

لعمري لئن عشرت من خيفة الردى * نهاق الحمير انني لجزوع

وللارنب جلد ووبر ينتفع به ولحمه طيب ولا سيما ان جمل محشيا لانه يجمع حسن المنظر واستفادة العلم مما يرون من تدبيرها وتدبير الكلاب والانتفاع بالجلد وبأكل اللحم وما أقل ما تجتمع هذه الأمور فى شئ من الطير وأما قولهم

اذا ابتدر الناس المعالى رأيتهم * قياما بأيديهم مسوك الارانب

هجاهم بانهم لا كسب لهم الاصيد الارانب وبيع جلودها وأما قوله

وغائص فى الرمل ذو حدة * ليس له ناب ولا ظفر

فهذا الغائص هو الحلكاء دويبة تغوص فى الرمل كما يصنع الطائر الذي يسمى الغماس فى الماء وقال ابن سحيم فى قصيدته التى قصد فيها للغرائب والحلكاء التي يبعج فى الرمل ومما يغوص فى الماء ويسبح فيه سباحة السمكة في الماء شحمة الرمل وهي شحمة الارض بيضاء حسنة يشبه بها كف المرأة وقال ذو الرمة فى تشبيه البنان بها

خرا عيب أمثال كان بنانها * بنات النقا تخفي مرارا وتظهر

وقال أبو سليمان الغنوى هي أعرض من العظاة بيضاء منقطة بحمرة وصفرة أحسن دواب الارض وتشبه أيضاً أطراف البنان بالاساريع وبالعنم اذا كانت مطرفة وقال مرقش

النشر مسك والوجوه دنا * نير وأطراف الأكف عنم

وصاحب البلاغة من العامة يقول كان بنانها البياج والدراج ولها ذراع كأنها شبوطة ويشبه أيضاً بالدمقس ومن خرافات أشعار الاعراب يقول شاعرهم

أشكو الى الله العلى الأمجد * عساراً مثل فراخ السرهد

عشائراً قد نيفوا بفرقد * قد ساقهم خبث الزمان الانكد

وكل حرباء وكل خرجد * وكل رام فى الرمال يهتدي

وكل نفاض القفا ملهد * ينصب رجليه حذار المعتدى
وشحمة الارض وفرخ الهدهد * والفار واليربوع ما لم يـفقد
فنـارهم ناقبـة لم تخمـد * شـواء أحناش ولم تفـرد
من الجبين والقطاء الأجرد * يبيت يسرى ما دنا بقدقد
وكل مقطوع العرا معلكد * حتى ينالوه بقود أو يد
منها وأبصار سـمال جهـد * بقـدون بالجهد وبالتشـدد
زحفا وحبوا مثل حبو المقعد

وأما قوله

حرباؤها فى قيظها شامس * حتى يوافى وقته العصر
يميـل بالشـق اليها كما * يمـل فى روضته الزهر

قال والحرباء دويبة أعظم من العظاءة أغبر ما كان فرخا ثم يصفر وانما حياته الحر فتراه أبداً أبدت جونة يمنى الشمس قد لجأ بظهره الى جذيل فان رمضت الارض ارتفع ثم هو يقلب بوجهه أبداً مع الشمس حيث دارت حتى تغرب الا ان يخاف شيئاً ثم تراه سابحاً بيديه كما رأيت من المصلوب وكلما حميت عليه الشمس رأيت جلده قد يخضر وقد ذكره ذو الرمة بذلك فقال

يظل بها الحرباء للشمس ماثلا * الى الحول إلا أنه لا يكفر
اذا حول الظل العشى رأيته * حنيفا وفى قرن الضحى يتنصر
غدا أصفر الا على وراح كأنه * من الضح واستقباله الشمس أخضر

وكذا الجمل أيضاً يستقبل بهامته الشمس الا أنه لا يدور معها كيف دارت كما تفعل الحرباء وشقائق النعمان والخيرى يصنع ذلك ويتفتح بالنهار وينضم بالليل والنيلوفر الذى ينبت بالماء يغيب الليل كله ويظهر بالنهار والسمك الذي يقال له الكوسج فى جوفه شحمة طيبة وهم يسمونها الكبد فان اصطادوا هذه السمكة ليلا وجدوا هذه الشحمة فيهـا وافرة وان اصطادوها نهاراً لم توجد وقد ذكر الحطيئة دوران النبات مع الشمس حيث يقول

بستأسد القريان حو تلاعه * فنواره ميل الى الشمس زاهره

وقال ذو الرمة

اذا جعل الحرباء يغبر لونه * ويخضر من لفح الهجير غباغبه

وينسج بالكفين نسجاً كأنه * أخو فجرة عالى به الجذع صالبه

وقال ذو الرمة أيضاً

وهاجرة من دون مية لم يقل * قلوصى بها والجندب الجون يرمح

إذا جعل الحرباء مما أصابه * من الحر يلوى رأسه ويرنح

وقال آخر

كان يدي حربائها متشمسا * يدا مجرم يستغفر الله تائب

وقال آخر

لظا يلفح الحرباء حتى كأنه * أخو حربات بزنوبه شائح

﴿ وأنشدوا ﴾

قد لاحها يوم شموس ملهاب * أهاج ما الشمسه من جلباب

يرمى الاكام من حصاة طبطاب * شال الحرابي له بالاذناب

وقال العباس بن مرداس

على قلص يعلو بها كل سبسب * تخال به الحرباء أنشط جالسا

وقال الشاعر

تجاوزت والعصفور فى الحجر لاجيء * مع الضب والشقدان تسمو صدورها

وقال أبو زبيد

واستكن العصفور كرها مع الضـ * ـب وأوفى في عوده الحرباء

والشقدان الحرابى وقوله تسمو فى الشجرة وعلى رأس العود والوجه الشقدان باسكان القاف وكسر الشين وأنشد

ففيها اذا الحرباء مد بكفه * وقام مثيل الراهب المتعبد

وذلك ان الحرباء اذا انتصف النهار فعلا في رأس شجرة صار كانه راهب في صومعته

وقال اخر

انى أتيح لكم حرباء تنضبة * لايترك الساق الاممسكاساقا

قال وكان مولى لابى بكر الشيبانى فادعى الى العرب من ليلته فاصبح الى الجلوس في الشمس قال قال لى محمد بن منصور مررت به فاذا هو فى ضاحية واذا هو يحك جلده بأظفاره خمشا وهو يقول انما نحن ابل وقد كان قيل له مرة انك تتشبه بالعرب فقال الى يقال هذا انا والله حرباء تنضبة يشهد لى سواد لونى وشمائلى وغور عيني وحبي للشمس قال والحرباء ربما رأى الانسان فتوعده ونفخ وتطاول له حتى ربما فزع منه من لم يعرفه وليس عنده شر ولاخير، واما الذى سمعناه من أصحابنا ان الورل السامد هو الذى يفعل ذلك ولم أسمع بهذا فى الحرباء الا من هذا الرجل، قال والحرباء أيضاً المسمار الذي يكون فى حلق الدرع وجمعه حرابى وقد كنا غفلنا ان نذكر الوبر في البيت الاول قال رجل من بنى تغلب

اذا رجونا ولد من ظهر * جاءت به اسود مثل الوبر

* من بارد الادنى بعيد القعر *

وقال مخارق بن شهاب

فياراكبا اما عرضت فبلغن * بنى فالج حيث استقر قرارها

هلموا الينا لاتكونوا كانكم * بلاقع أرض طارعنها وبارها

وأرض التى أنتم لقيتم بجوها * كثير بها أو عالها ومدارها

فهجا هؤلاء بكثرة الوبار فى أرضهم ومدح هؤلاء بكثرة الوعول في جبلهم وقال آخر

هل يشتمنى لا أبالكم * دنس الثياب كطابخ القدر

جعل تمطى فى غيابته * زمر المروءة ناقص الشبر

لزبابة سوداء حنظلة * ولعاجز التدبير كالوبر

ويضرب المثل بنتن الوبر ولذلك يقول الشاعر

تطلى وهي سيئة المعرا * بوضر الوبر تحسبه ملابا

ونتن الوبر هو قوله ومما تمازح به الاعراب فمن ذلك قول الشاعر

قد هدم الضفدع بيت الفارة * فجاءت الرعية والوباره
* وحلم يشد بالحجاره * وهذا مثل قولهم
واختلط النقد على الجعلان * وقد بقى دريهم وثلثان

واما قوله

والظربان الورد قد شفه * حب الكشا والوحر الحمر
وليس ينسيه اذا مافسا * شئ ولو أحرزه نصر

قال أبو سليمان الغنوى الظربان أخبث دابة فى الارض وأهلكه لفراخ الضبة قال فسألت زيد بن كثرة عن ذلك فقال أي والله وللضب الكبير والظربان دابة فساءة لايقوم لشر فسوها شئ قلت فكيف يأخذها قال يأتي جحر الضب وهو ببابه يستروح فاذا وجد الضب ريح فسوه دخل هاربا فى جحره ومرهو معه من فوق الجحر مستمعا حرشه وقد أصغى بأحدى أذنيه من فوق الارض نحو صوته وهو أسمع دابة فى الارض فاذا بلغ الضب منتهاه وصار الى أقصى جحره وكف حرشه استد برجحره ثم حفر عليه من ذلك الموضع وهو متي شمه غشي عليه فيأخذه قال والظربان واحد والظربان الجميع مثل الكروان للواحد والكروان للجميع وأنشد قول ذى الرمة

من ال أبي موسي تري القوم حوله * كانهم الكروان أبصرن بازيا

والعامة لاتشك ان الكروان ابن الحبارى لقول الشاعر

ألم تر ان الزبد بالتمر طيب * وان الحباري خاله الكروان

وقال غيره الظربان يكون على خلقة هذا الكلب الصيني وهو منتن جدا يدخل فى جحر الضب فيفسو عليه فينتن عليه بيته حتى يزلق الضب من بيته فيصيده والضباب الدلالى أيضاً التي يدخل عليها السيل فيخرجها وأنشد

يا ظربانا يتعشي ضبا * رأي العقاب فوقه فخبا
كان خصييه اذا أكبا * فروجتان تطلبان حبا
* أو ثعلبان يحضران ضبا *

وأنشد الفرزدق

أبوك سليم قد عرفنا مكانه * وأنت بجيري قصير قوائمه
ومن يجعل الظرب القصار ظهورها * كمن رفعته في السماء دعائمه

قال والظربان يعلم ان سلاحه في فسائه ليس شيء عنده سواه والحبارى تعلم ان سلاحها في سلحها ليس لها شيء سواه قال ولها في جوفها خزانة لها فيها أبداً رجيع معد فاذا احتاجت اليه وأمكنها الاستعمال استعملته وهي تعلم أن ذلك وقاية لها وتعرف مع ذلك شدة لزجه وخبث نتنه وتعلم أنها تساور بذلك الورق وانها تثقله فلا يصيد ويعلم الديك ان سلاحه في صيصيته ويعلم ان له سلاحاً ويعلم انه تلك الشوكة ويدري لاى مكان يحتاج واي موضع يطعن به والقنفذ تعلم ان فروتها جنة وان شوك جلدها وقاية فما كان منها مثل الدلدل ذوات المدارى فانها ترمى فلا تخطىء حتى يمر مرور السهم المسدد وان كانت من صغارها قبضت على الافعى وهي واثقة بأنه ليس في طاقة الافعى لها من المكروه شيء ومتي قبضت على رأس الافعى فالخطب فيها يسير وان قبضت على الذنب أدخلت رأسها فقرضتها وأكلتها أكلا وأمكنتها من جسمها تصنع ماشاءت ثقة منها بأنه لا يصل اليها بوجه من الوجوه، والاجناس التي تأكل الحيات القنافذ والخنازير والعقبان والسنانير والشاهمرك على أن النسور والشاهمرك لا يتعرضان للكبار ويعلم الزنبور أن سلاحه في شعرته فقط كما تعلم العقرب أن سلاحها في ابرتها فقط وتعلم الذباب والبعوض والقملة أن سلاحها في خراطيمها وتعلم جوارح الطير أن سلاحها في مخالبها ويعلم الذئب والكلاب أن سلاحهما في أشداقهما فقط ويعلم الخنزير والافعي أن سلاحهما في أنيابهما فقط ويعلم الثور أن سلاحه قرنه لا سلاح له غيره فان لم يجد الثور والكبش والتيس قرونا وكانت جما استعملت باضطرار مواضع القرون والبرذون يستعمل فمه وحافر رجله ويعلم التمساح أن أحد أسلحته وأعونه ذنبه ولذلك لا يعرض الا لمن وجده على الشريعة فانه يضربه ويجمعه اليه حتي يلقيه في الماء وذنب الضب أنفع من براثنه وانما تفزع هذه الاجناس الى الخبث والى ما في طبعها من شدة الحضر اذا عدمت السلاح فعند ذلك تستعمل الحيلة مثل القنفذ في امكان عدوه من فروته ومثل الظبي واستعمال الحضر في المستوى ومثل الارنب واستعماله الحضر في الصعداء واذا كان

ممن لا يرجع الى سلاحه ولا الى خبثه كان اما أن يكون أشد خضرا ساعة الهرب من غيره واما أن يكون ممن لا يمكنه الحضر ويقطعه الجبن فلا يبرح حتى يؤخذ وانما تتقرب الشاة بالمتابعة والانقياد للسبع تظن أن ذلك مما ينفعها فان الاسد اذا أخذ الشاة لم تتابعه ولم تمنه على نفسها فربما اضطر الاسد الى أن يجرها الى عرينه واذا أخذها الذئب عدت معه حتى لا يكون عليه فيها مؤنة وهو انما يريد أن يحميها عن الراعي والكلاب وان لم يكن في ذلك الوقت هناك كلب ولا راع فيرى أن يجرى على عادته وكذلك الدجاج اذا كن وقعا على أغصان الشجر أو على الرفوف فلو مر تحتها كل كلب وسنور وكل ثعلب وكل شئ يطالبها فاذا مر ابن آوى بقربها لم يبق منها واحدة الا رمت بنفسها اليه لان الذئب هو المقصود به الى طباع الشاة وكذلك شأن ابن آوى والدجاج يخيل اليها أن ذلك مما ينفع عنده وللجبن تفعل كل هذا ولمثل هذه العلة نزل المنهزم عن فرسه الجواد ليحضر ببدنه يظن اجتهاده أنجاله وأنه اذا كان على ظهر الفرس أقل كدا وان ذلك أقرب الى الهلاك ولمثل هذه العلة يتشبث الغريق بمن أراد انقاذه حتى يغرقه ويغرق نفسه وهما قبل ذلك قد سمعا بحال الغريق والمنهزم وانهما انما هما في ذلك كالرجل المعافا الذي يتعجب ممن يشرب الدواء من يد أعلم الناس به فان أصابته شقيقة أو لسعة عقرب أو اشتكى خاصرته أو أصابه حصر أو أسر شرب الدواء من يد أجهل الخليقة أو جمع بين دواءين متضادين فالاشياء التى تعلم أن سلاحها فى أذنابها ومآخرها الزنبور والثعلب والعقرب والحبارى والظربان وسيقع هذا الباب فى موضعه ان شاء الله تعالى وليس شئ من صنف الحيوان أردى حيلة عند معاينة العدو من الغنم لانها فى الاصل موصولة بكفايات الناس فأسندت اليهم فى كل أمر يصيبها ولولا ذلك لخرجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التى تعينها فاذا لم يكن لها سلاح ولا حيلة ولم يكن ممن يستطيع الانسياب الى جحر و صدع صخرة أو فى ذروة جبل وكانت مثل الدجاجة فان أكثر ما عندها من الحيلة اذا كانت على الارض ان ترتفع الى رف وربما كانت فى الارض فاذا دنا المغرب فزعت الى ذلك وربما كان عند الجنس من الآلات ضروب كنحو زبرة الاسد ولبدته فانه

حمول للسلاح إلا في مراق بطنه فانه من هناك ضعيف جداً وقال التغلبي

ترى الناس منا جلد أسود سالخ * وزبرة ضرغام من الاسد ضيغم

وله مع ذلك بعد الوثبة واللزوق بالارض وله الجس باليد وله الطعن بالمخلب حتى ربما حبس البعير بيمينه وطعن بمخلب يساره في لبته وقد ألقاه على مؤخره فيتلقى دمه شاحيا فاه وكأنه ينصب من فوارة حتى اذا شربه واستفرغه صار الى شق بطنه وله العض بأنياب صلاب حداد وفك شديد ومنخر واسع وله مع البرثن والشدة بأظفاره دق الاعناق وحطم الاصلاب وله انه أسرع حضراً من كل شيء أعمل الحضر في الهرب منه وله من الصبر على الجوع ومن قلة الحاجة الى الماء ما ليس مع غيره وربما سار في طلب الماء ثمانين فرسخا في يوم وليلة ولو لم يكن له سلاح الا زئيره وتوقد عينيه وما في صدور الناس له لكفاه، وربما كان كالبعير الذى يعلم ان سلاحه في نابيه وفي كركرته والانسان يستعمل في القتال كفيه في ضروب ومرفقيه ورجليه ومنكبيه وفمه ورأسه وصدره كل ذلك له سلاح ويعلم مكانه يستوى في ذلك العاقل والمجنون كما يستويان في الهداية في الطعام والشراب الى الفم والمرأة إذا ضعفت عن كل شيء فزعت الي الصراخ والولولة التماسا للرحمة واستجلابا للغياث في حماتها وكفاتها أو من أهل الحسبة في أمرها، باب قال ويقال لولد السبع الهجرس والجمع هجارس ولولد الضبع الفوغل والجمع فواغل قال ابن حبناء

سلاجين منها بالركوب وغيرها * اذا ما رآها فوغل الضبع كفرا

قال والديسم ولد الذئب من الكلبة وسألت عن ذلك أبا الفتح صاحب قطرب فأنكر ذلك وزعم ان الديسمة الذرة واسم أبي الفتح هذا ديسم ويقال انه دويبة غير ما قالوا ويقال لولد اليربوع والفار درص وأدراص ويقال لولد الارنب خرنق والجمع خرانق قال طرفة

اذا جلسوا خيلت تحت ثيابهم * خرانق توفى بالضغيب لها نذرا

﴿ أشعار فيها اخلاط من السباع والوحش والحشرات ﴾

قال مسعود بن كبير الجرمي من طيئ يقولها في حمار اشتراه فوجده على خلاف ما

وصفه به النخاس

ان أبا الخرشن شيخ هلب * محبب مايحتويه العجب
قد كنت لما ان أجد الركب * واعتر القوم صحار رحب
يا أجنح الاذن الا تخب * أهانك الله فبئس النجب
ما كان لى اذ أشتريك قلب * بلى ولكن ضاع ثم اللب
ان الذى باعك خب ضب * أخبرنى انك عير ندب
وشر ما قال الرجال الكذب * صب عليه ضبع ودب
سرحانة وحسل قرشب * ذيخ عدته رملة وهضب
كأنه تحت الظلام سقب * يأخذ منه من رآه الرعب
أبو جراد مسهن السقب * حتى يقال حيث أفضى السحب
وأنت نقاق هناك ضب * وصبح الراعى مجرى غب
ورخمات بينهن كاب * وا كرع العير وفرث رطب

يقول ادنوني الى شرائه ويقال ثرية لقيك لغة طائية وقال قرواش بن حوط

نبئت انك يا عتال حوبله * بثماف دنى عدم ولى لا أعلما
صيفى مجامده وليثى هدنة * نقتلنى حمرا اذا ما أظلما
لا تسأماني من رسيس عداوة * أبدا فلست بسائم ان تسأما
غضا الوعيد فما أكون لموعدى * فيا ولا اكلاله متخضما
فتي الا قكما البراز تلاقيا * عركا يفل الحد شا كا معلما

قال وقال العديس الكلابى الوحرة دويبة كالعظاة خضراء اذا اجتمعت تلصق بالارض وجمع وحرة وحر مفتوحة الحاء ومنه قيل وحر الصدر كما قيل للحقد ضب ذهبوا الي لزوقه بالصدر كالتزاق الوحرة بالارض وأنشدوا

بئس عمر الله قوم طوقوا * فقروا أضيافهم لحم وحر
وسقوهم فى إناء مقرف * لبنا من ذى مخيراط فئر

يقال لحم وحر اذا دبت عليه الوحرة مقرف مبول ويقال فئر اذا وقعت فيه فارة

وقال الحكمي

بأرض باعد الرحمـ * ن عنها الطلح والعشرا
ولم يجعل مصائدها * يرابيعا ولا وحرا

وأما قوله

وهيشة تأكلها سرفة * وسمع ذئب همه الخضر

فالهيشة أم حبين وحبينة سواء وقد ذكرنا شأنها وأنشد

أشكو اليك زمانا قد تعرقنا * كما تعرق رأس الحية الذئب

وقد ذكرنا شأنها في صدر هذا الكتاب ويقال انها لا تقيم بمكان تكون فيه هذه الدودة التي يقال لها السرفة واليها ينتهي المثل في الصنعة ويقال انها أصنع من سرفة ويقال انها تقوم مع أم حبين مقام القراد من البعير اذا كانت أم حبين في الارض التي تكون فيها هذه الدودة ، قال وقال مدني لاعرابي أتأكلون الضب قال نعم قال فاليربوع قال نعم قال فالوحرة قال نعم حتى عد أجناسا كثيرة من هذه الحشرات قال أفتأكلون أم حبين قال لا قال فلتهن أم حبين العافية ، قال ابن أبي كريمة سأل عمرو ابن كريمة اعرابيا وأنا عنده فقال أتأكلون القرنبا قال طال والله ما سال ماؤه على شدقي ، وزعم أبو زيد النحوى سعيد بن أوس الانصاري قال دخلت على رؤبة واذا قدامه كانون وهو يمل على جمره جرذا من جرذان البيت يخرج الواحد بعد الواحد فيأكله ويقول هذا أطيب من اليربوع يأكل التمر والجبن ويحسو الزيت والسمن

﴿وأنشد﴾

ترى التيمي يزحف كالقرنبا * الى تيمية كقفا القدوم

وقال آخر

يدب على احشائها كل ليلة * دبيب القرنبا بات يعلو نقا سهلا

قال واليربوع دابة كالجرذ منكب على صدره لقصر يديه طويل الرجلين له ذنب كذنب الجرذ يرفعه الصعداء اذا هرول واذا رأيته كذلك رأيت فيه اضطرابا وعجبا والاعراب تأكله في الجهد والخصب ، قال وكل دابة حشاها الله تعالى خبثا فهو قصير

اليدين فاذا خافت شيئاً لاذت بالصمداء فلا يكاد يلحقها شيء ، قال وأخبرني ابن أبي نجيح وكان حج مع المسيب بن شريك عام حج المهدى فى سابيل قال زاملت المسيب فى حجته تلك فبينا نحن نسير اذ نظرنا الى يربوع يتخلل فراسخ الابل فصاح بغلمانه دونكم اليربوع فاحضروا في أثره فأخذوه فلما حططنا قال اذبحوه ثم قال اسلخوه واشووه وأتوني به فى غدائي قال فأتى به في آخر الغداء على رغيف قد رعبوه فهو أشد حمرة من الزهوة يريد البسرة فعطف عليه فثني الرغيف ثم غمره بين راحتيه ثم فرع الرغيف فاذا هو قد أخذ من دسمه فوضعه بين يديه ثم تناول اليربوع فنزع فخذا منه فتناولها ثم قال كل يا أبا محمد فقلت مالى به حاجة فضحك ثم جعل يأتي عليه عضواً عضواً ، قال وأما أم حبين فهى الهدسة وهى أم الحبين وهي دويبة تأكلها الاعراب مثل الحرباء الا أنها أصفر منها وهى كدراء لسواد بيضاء البطن وهو خلاف قول الاعرابى للمدنى ، وقال اعرابى لسهل بن هارون فى تواري سهل من غرمائه وطلبهم له طلبا شديداً فأوصاه الاعرابي بالحزم وتدبير اليربوع فقال

انزل أبا عمرو على حد قرية * تروغ الى سهل كثير السلائق

وخذ نفق اليربوع واسلك سبيله * ودع عنك انى ناطق وابن ناطق

وكن كأبى قطن على كل رائع * له منزل فى ضيق الارض شاهق

وانما قال ذلك لاحتيال اليربوع بأبوابه التى يخرج من بعضها اذا ارتاب بالبعض الآخر وكذا كانت دار أبي قطنة الخناق بالكوفة فى كندة يزعمون أنه كان مولى لهم وأنشد أبو عبيدة قال أنشدنى سفيان بن عيينة

اذا ما سرك العيش * فلا تمرر على كندة

وقد قتل أبو قطنة وصلب ، وممن كان يخنق الناس بالمدينة عدية المدينية الصفراء وبالبصرة رادوية والمرميون بالخنق من القبائل وأصحاب النحل والتأويلات هم الذين ذكرهم أعشي همدان فى قوله

اذا سرت فى عجل فسر فى صحابة * وكندة فاحذرها حذارك للخسف

وفى شيعة الاعمي خناق وغيلة * وقشب وأعمال لخندلة القذف

وكلهم شر على أن رأسهم * حميدة والميلاء حاضنة الكسف

متى كنت في حي بجيلة فاستمع * فان لهـا قصفا يدل على حتف

اذا اعتزموا يوما على قتل زائر * تداعوا عليه بالنباح وبالعزف

وذلك أن الخناقين لا يسيرون الا معا ولا يقيمون فى الامصار الا كذلك فاذا عزم أهل دار على خنق انسان كانت العلامة بينهم الضرب على دف أو طبل على ما يكون فى دور الناس وعندهم كلاب مرتبطة فاذا تجاوبوا بالعزف ليختفي الصوت ضربوا تلك الكلاب فنبحت وربما كان منهم معلم يؤدب فى الدرب فاذا سمع تلك الاصوات أمر الصبيان برفع الهجاء والقراءة والحساب ، وأما الاعمى فهو المغيرة بن شعبة صاحب المغيرية مولى بجيلة والخارج على خالد بن عبد الله القسرى ومن أجل خروجه عليه قال اطعمونى ماء حتى نمي عليه ذلك يحيي بن نوفل فقال

تقول من النواكة أطعمونى * شرابا ثم بلت على السرير

لاعلاج ثمانية وشيخ * كليل الحد ذى بصر ضرير

واما حميدة فكانت من أصحاب ليلى الناعظية ولها رياسة فى الغالية والميلاء حاضنة أبى منصور صاحب المنصورية وهو الكسف قالت الغالية اياه عنى وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم واياه عني معدان الاعمى حيث يقول

انذا الكسف صد آل كميل * وكميل رذل من الارذال

تركا بالعراق داء دويا * ضل فيه تلطف المحتال

وأما قوله

إنزل أبا عمرو على حذفرية * تريغ الي سهل كثير السلائق

فأراد المرب لانه متى كان فى ظهر فظ كثير الجواد والطرائق كان أمكر وأخفى ، وما أحسن ماقال النابغة فى صفة الطريق اذا كان يتشعب حيث يقول

وماحية أو عزبر فى ظهيرة * كمثل اليمانى قاصدا للمناهل

له حجل يهوى فرادى وبرعوى * الى كل ذي تبريق بادي الشواكل

وهذا موضع اليربوع فى تدبيره ومكره وقال الآخر في صفة اليربوع وفى حيلته وفى

خلقه وفى أكل الحشرات والنبات

يارب يربوع قصير الظهر * وشاخص العجب ذليل الصدر
ومحكم البيت جميع الأمر * يرعى أصول سلم وسدر
حتى تراه كمداد الدكر * باكرته قبل طلوع الفجر
بكل فياض اليدين غمر * وكل قناص قليل الوفر
مرتفع النجم كريم النجر * فعادمني ببعيد القعر
مختلف البطن عجيب الظهر * وتدمري قاصع فى جحر
فى العسران كان وبعد العسر * أطيب عندى من جني التمر
وشحمة الارض طعام المثري * وكل جبار بعيد الذكر
وهدسة أرفعها لفطري * ليوم حفل وليوم فخر
وكل شيء فى الظلام يسرى * من عقرب أو قنفذ أو وبر
أو حية أملها فى الجمر * فتلك همى واليها أجري
في كل حال من غني وفقر * وكل شيء لقضاء يجري
وكل طير جاثم فى وكر * وكل يعسوب وكل دبر
والذيخ والسمع وذئب القفر * والكلب والتتفل بعد الهر
والضب والحوت وطير البحر * والأعور الناطق يوم الزجر
آكله غير الحرابى الخضر * أو جعل صلى صلاة العصر
يشكر إن نال قرا من جحر * ياويله من شاكر ذى كفر
* أفسد والله على شكري *

فزعم أنه يستطيب كل شيء الا الحرباء الذي قد اخضر من حر الشمس والا الجعل الذي يصلي العصر وزعم أنه انما جعل ذلك شكراً على ماأطعم من العذرة وان ذلك الشكر هو اللؤم والكفر ولاأعرف معنى صلاة الجعل وقد روى ابن الاعرابى عن زاهر قال يابني لاتصل فانما يصلي الجعل ولا تصم فانما يصوم الحمار وما فهمته بعد وأراه قد قدم الهدسة وهي أم حبين وهذا خلاف مارووا عن الاعرابي والمدني وأما قوله

* وتدمري قاصع في جحر *

فقال الشاعر

واني لأصطاد اليرابيع كلها * شفاريها والتدمري المقصما

واليرابيع ضربان الشفاري والتدمري مثل القوى والمذكى وقال جرير حين شبه أشياء من المرأة بأشياء من الحشرات وغيرها وذكر فيها الجمل فقال

ترى التيمي يزحف كالقرنبا * الى تيمية كعصا المليل

يشف الزعفران عروس تيم * وتمشي مشية الجمل الدحول

يقول المجتلون عروس تيم * سوى أم الحنين ورأس فيل

وقال عبيد بن أيوب العنبري فى ذكر اليربوع

حملت عليها ما لو ان حمامة * تحمله طارت به للحفاحف

نطوعا وانساعا وأشلاء مدنف * ترى رسمه طول السري فى المخاوف

فرحنا كما راحت قطاة تنورت * لارغب ماتى بين عير صفاصف

ترى الطير والعصفور يحثن وطأها * وينقرن وطأ المنسم المتقاذف

وقال ابن الاعرابى وهو الذى أنشدنيه ترى الطير واليربوع يعني أنهما يحسبان فى آثر خفهما ملجأ يلجأن اليه إما لشدة الحر وإما لغير ذلك وأنشد أصحابنا عن بعض الاعراب وشعرائهم أنه قال فى أمه

فما أم الردين وان أجات * بعالمة بأخلاق الكرام

اذا الشيطان قصع في قفاها * تنفقناه بالحبل التؤام

يقول اذا دخل الشيطان فى قاصعاء قفاها تنفقناه أى أخرجناه من النافقاء بالحبل المثنى والمدمثل وأحسن فى نعت الشعر وان لم يكن احسن فى العقوق وأنشدنى قوس

لا كزة السهم ولا قلوع * يدرج تحت عجبها اليربوع

القلوع من القسي الذى اذا نزع فيها انقلبت على كف النازع وأما قوله

تخال به السمع الازل كانه * اذا ما عدا البيت

ويقولون ان الضبع اذا هلكت قام بشأن جرائها الذئب وقال الكميت

كما خامرت في حضنها أم عامر * لدى النخل حتى عال أوس عيالها

وأنشد أبو عبيدة في ذلك شعراً فسر به المعني وهو قوله

والذئب يغذو بنات الذيخ نافلة * بل يحسب الذئب ان النجل للذيب

يقول لكثرة ما بين الذئاب والضباع من التسافد يظن الذئب ان أولاد الضبع أولاده والأمر في الاعراب عجيب في أكل السباع والحشرات فمنهم من يظهر استطابتها ومنهم من يفخر بأكلها كالذي يقول

أيا أم عمرو من يكن عقر داره * جراء عدي يأكل الحشرات

وأما قوله

لا ترد الماء أفاعي النقا * لكنها يعجبها الخمر

وفي ذرى الحرمل ظل لها * اذا علا واحتدم الهجر

قال ومن العجب ان الافاعي لا ترد الماء ولا تريده وهي، ع هذا اذا وجدت الخمر شربت حتى تسكر حتى ربما كان ذلك سبب حتفها والافاعي تكره ريح السذاب والشيح وتستريح الى نبات الحرمل وأما أنا فاني ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أر على ما قالوا دليلا وأما قوله

وبعضها طعم لبعض كما * أعطى سهام الميسر القمر

فان الجرذ يخرج يلتمس الطعم فهو يحتال لطعمه وهو يأكل ما دونه في القوة كنحو صغار الدواب والطير وبيضها وفراخها ومما لا يسكن في جحر أو تكون أفاحيصه على وجه الارض فهو يحتال لذلك ويحتاج لمنع نفسه من الحيات ومن سباع الطير والحية تريغ الجرذ لتأكله وتحتال أيضاً للامتناع من الورل والقنفذ وهما عليه أقوى منه عليهما والورل إنما يحتال للحية ويحتال للثعلب والثعلب يحتال لما دونه، قال وتخرج البعوضة لطلب الطعم والبعوضة تعرف بطبعها ان الذى يعيشها الدم ومتى أبصرت الفيل والجاموس وما دونهما علمت انما خلقت جلودهما لها غذاء فتسقط عليهما وتطعن بخرطومها ثقة منها بنفوذ سلاحها وبهجومها على الدم وتخرج الذبابة ولها ضروب من المطعم والبعوض من أكبر صيدها وأحب غذائها اليها ولولا الذباب لكان ضرر

البعوض نهاراً أكثر وتخرج الوزغة والعنكبوت الذى يقال له الليث فيصيدان الذباب بألطف حيلة وأجود تدبير ثم تذهب تلك أيضا بشأن غيرهما كأنه يقول هذا ذهب فى أكل الطيبات بعضها لبعض وليس لجميعها بد من الطعم ولا بد للصائد ان يصطاد وكل ضعيف فهو يأكل أضعف منه وكل قوي فلا بد أن يأكله من هو أقوي منه والناس بعضهم عن بعض شبيه بذلك وان قصروا عن درك المقدار فجعل الله عز وجل بعضها حياة لبعض وبعضها موتا لبعض وقال المنهال

ووثبة من خزز أعصر * وخرنق يلعب فوق التراب
وعضر فوط قد تقوي على * محلولك البقة مثل الحباب
وظالم يعدو على ظالم * قدضج منه حشرات الشعاب

وهذان الظالمان اللذان عني الاسود والأفعى فان الاسود اذا جاع ابتلع الافعى وشكا الى حواء مرة فقال افقرنى هذا الاسود ومنعني الكسب وذلك ان امرأتى جهلت فرمت به فى جونة فيها أفاعى ثلاث أو أربع فابتلعهن كلهن وارانى حية منكرة لايبعد ما قال، والعرب تقول للمسئ أظلم من حية وقد ذكرنا في موضعه من هذا الكتاب ولا يستطيع أن يروم ذلك من الأفعى الا بأن يقتلها فيقبض على رأسها وقفاها فان الأفعى تنفذ فى الاسود لكثرة دمه واذا وصفوا اسم الحية بالشدة والاجهاز خبروا عنها أنه لم يبق فى بدنها دم ولا فلة ولذلك قال الشاعر

لو حزت ما أخرجت منه يد بدلا * ولو تكشفه الراقون ما سمما

وقال آخر

لميمة من حنش أعمى أصم * قد عاش حتى ما هو يمشى بدم

والشأن فى السلاح كلما كان أقل كان أبلغ وكلما كان أكثر عدواً وأشد ضرراً كان أشجع وأجبن لكل من عرف أنه دونه وأنشد أبو عبيدة

مشي السلبتي الى هيجاء مقطعة * لهما سلاحان أنياب وأظفار

كالاسد له فم الذئب وحسبك بفم الذئب وله فضل قوة المخالب وللنسر منسر وقوة بدن يكونن بهما فوق العقاب ولذلك قال ابن مناذر

أتجعل ليثاً ذا عرين ترى له * نيوباً وأظفاراً وعرساً وأشبلا
كآخر ذا ناب حديد ومخلب * ولم يتخذ عرساً ولم يحم معقلا

وذلك ان فتيين تواجئا بالخناجر أحدهما صبيري والآخر كلبي فحملا الى الامير فضرب الصبيري مائة سوط فلم يحمدوا صبره وشغل عن الكلبي فضربه يوم العرض خمسمائة سوط فصبر صبراً حمدوه ففخر الكلبي بذلك على الصبيري وابن مناذر مولى سليمان بن علان بن شماس الصبيري فقال هذا الشعر ومعناه ان شجاعا لو اتى الاسود وهو مسلح بأرض هو بها غريب وليس هو بقرب غيضته وأشباله لما كان معه ما يتخذه مثل الذي يكون معه في الحال الأخرى يقول وانما صبر صاحبكم لانه إنما ضرب بحضرة الاكفاء والاصدقاء والاعداء فكان هذا مما أعانه على الصبر وضرب صاحبنا في الخلاء وقد وكل الى مقدار جودة نفسه وقطعت المادة بحضور البطالة وسمعت حمدان أبا العقب وهو يقول لغلام له وكيف لا تستطيل علي وقد ضربوك بين الناس خمسين سوطا فلم تنطق فقال اذا ضربه السجان مائة قناة في مكان ليس فيه أحد فصبر فهو أصبر الناس وأما قوله مشي السبنتي هو النمر صار اسما لكل سبع جريء ثم صاروا يسمون الناقة القوية سبنتى قال الشاعر

* مشي السبنتى وجد السبنتي *

وأما قوله وتمسح النيل عقاب الهوي * والليث رأس وله الامر
ثلاثة ليس لهم غالب * الا بما ينقض الدهر

فانهم يزعمون أن الهواء للعقاب والارض للاسد والماء للتمساح وليس للنار حظ في شيء من أجناس الحيوان فكأنه سلم الرياسة على جميع الدنيا للعقاب والاسد والتمساح ولم يمد الهواء وقصر الممدود أحسن من مد المقصور وروت المعتزلة المذكورون كلهم رواية عامة الاشعار وكان بشر أرواهم للشعر خاصة وقولهم الطائر هوائي والسمك مائي مجاز كلام وكل حيوان في الأرض فهو أرضي قبل ان يكون مائياً أو هوائياً لان الطائر وان طار في الهواء فان طيرانه فيه كسباحة الانسان في الماء وانما ذلك على التكلف والحيلة ومتى صار الى الارض ودلى نفسه لم يجد بداً من الارض، وأما بقية

القصيدة التي فيها ذكر الرافضة والأباضية والنابتة فليس هذا موضع تفسيره وسنقول في قصيدته الأخرى بما أمكننا من القول ان شاء الله تعالى انقضت قصيدة بشر بن المعتمر الأولى وأما قوله

﴿ أوابد الوحش واحناشها ﴾

فان الاوابد المقيمة والاحناش الحيات مما صار بعد الضب والورل والحرباء والوحرة وأشباه ذلك من الاحناش وأما قوله

وكلها شر وفي شرها ﴿ خير كثير عند من يدري

يقول هي وان كانت مؤذية ففيها فوائد فان فيها دواء وفيها عبرة لمن فكر وأذاها محنة واختبار فبالاختبار يطمع الناس وبالطاعة يدخلون الجنة وسئل عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه غير مرة في علل نالته فقيل له كيف أصبحت فقال بشر ذهب الى قوله عز وجل قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق وأما قوله

فشرهم أكثرهم حيلة ﴿ كالذئب والثعلب والذر

فقد فسره لك في قوله

والليث قد جلده علمه ﴿ بما حوى من شدة الاسر

وهكذا كل من وثق بنفسه وقلت حاجته ويزعم أصحاب القنص ان العقاب لا تكاد تراوغ الصيد ولا تعاني ذلك وانها لا تزال تكون على المرقب العالي فاذا اصطاد بعض سباع الطير شيئاً انقضت عليها فاذا أبصرها ذلك الطائر لم يكن همه إلا الهرب وترك صيده في يدها ولكنها اذا جاعت فلم تجد كافيا لم يمتنع عليها الذئب فما دونه وله قال الشاعر

مهبل ذئبها يوما اذا ذلبت ﴿ اليه من مستكف الجو خلاقا

وقال آخر

كأنها حين فاض الماء واحتملت ﴿ صقعاء لاح لها بالقفرة الذيب

صبت عليه ولم تنصب من أمم ﴿ ان الشقاء على الاشقين مصبوب

وأما قوله

تعرف بالاحساس أقدارها * في الاسر والالحاح والصبر

يقول لا يخفى على كل سبع ضعفه وتجلده وقوته وكذلك البهيمة الوحشية لا يخفي عليها مقدار قوة بدنها وسلاحها ولا مقدار عدوها في الكر والفر وعلى أقدار هذه الطبقات تظهر أعمالها وأما قوله

والضبع العشراء مع ذيخها * شر من اللبوة والنمر

كما ترى الذئب اذا لم يطق * صاح لجاءات رسلا تجري

وكل شئ فعلى قدره * يحجم أو يقدم أو يجرى

لان هذه السباع القوية الشريفة ذوات الرياسة الاسد والنمور والببور لا تعرض للناس الا بعد أن تهرم فتعجز عن صيد الوحش وان لم يكن بها جوع شديد فمر بها انسان لم تعرض له وليس الذئب كذلك الذئب أشد مطالبة فان خاف العجز عوى عواء استغاثة فتسامعت الذئاب وأقبلت فليس دون أكل ذلك الانسان شئ ، وقسم الاشياء فقال انما هو نكوص وتأخر وفرار واحجام وليس بفرار ولا اقدام وكذلك هو وأما قوله

والكيس في المكسب شمل له * والمنديل الفرخ كالنسر

فالمنديل طائر أصغر من ابن تمرة وأصغر من ابن فرة وهو الذي يضرب به المثل في صغر الجسم والنسر أعظم سباع الطير وأقواها بدنا وقال يونس النحوى وذكر خلفا الاحمر فقال يضرب ما بين المنديل الى الكركي وقد قال فيه الشاعر

ويضرب الكركي الى القنبر * لا عانسا يبقي ولا محتلم

﴿ وقال ﴾

وعما أقول لصاحبي خلف * أيها اليك تحذرن خلف

فلو ان بيتك في ذري علم * من دون قلة رأسه شعف

لخشيت قدرك ان يبيتها * ان لم يكن لى عنه منصرف

وفي المثل كل طائر يصيد على قدره وأما قوله

والخلد كالذئب على كسبه * والفيل والأعلم كالوبر

فانه يقال أغدر من ذئب وأخبث من ذئب وأكسب من ذئب على قول الآخر

أكسب للخير من الذئب الازل

والخير عنده فى هذا الموضع ما يعيش ويقوت والخير في مكان آخر المال يعينه على قوله عز وجل ان ترك خيراً الوصية وعلى قوله وانه لحب الخير لشديد أى إنه من أجل حب المال لبخيل عليه ضيق به متشدد فيه والخير في موضع آخر الخصب وكثرة المأكول والمشروب تقول ما أكثر خير بيت فلان والخير المحض الطاعة وسلامة الصدر وأما قوله

أخبث من ذئب خمر

فعلى قول الراجز

أما أتاك عنى الحديث * اذا أنا بالغائط استغيث

والذئب وسط عنزى يعيث * وصحت بالغائط يا خبيث

وقالوا في المثل مستودع الذئب أظلم، والخلد دويبة عمياء صماء لا تعرف ما يدنو منها الا بالشم تخرج من جحرها وهى تعلم أن لا سمع ولا بصر لها وانما تشحافاها وتقف على باب جحرها فيجىء الذباب فيسقط علي شدقيها ويمر بين لحييها فتسد فما عليها وتستدخلها بجذبة النفس آنلم أن ذلك هو رزقها وقسمها فهى تعرض لها نهاراً دون الليل وفى الساعات من النهار التي يكون فيها الذباب أكثر لا تفرط فى الطلب ولا تقصر فى الطلب ولا تخطئ الوقت ولا تغلط المقدار وللخلد أيضاً تراب حوالى جحره هو الذى أخرجه من الجحر يزعمون أنه يصلح لصاحب النقرس اذا بل بالماء وطلي به ذلك المكان وأما قوله

والفيل والاعلم كالوبر

فالفيل معروف والاعلم البعير وبذلك يسمى لانه أبدا مشقوق الشفة العليا ويسمى الانسان اذا كان كذلك به ويدل على أن الأعلم والبعير سواء قول الراجز

اني لمن أنكر أو توسما * ابن جياش أقود الأعلما

وقال عنترة

وحليل غانيـة تركت مجـدلا * تمكو فريصته كشدق الأعلم

يريد شدق البعير في السعة وقال الآخر

كم ضربة لك تحكي فافراسية * من المصاعب في أشداقه علم

وقال الكميت

مشافر قرحيِ أكلن البريدا

(وقال آخر)

بضرب يلقح الضبعان منـه * طروقتـه ويأتنف السفارا

وقال الباهلي

بضرب كآذان الفـراء فضوله * وطعن كايزاغ المخـاض بثورها

كانه ضربه بالسيف فعلق عليه من اللحم كأمثال آذان الحمـير وقال بعض المحـدثين وهو ذو اليمينين

ومقعص تشخب أوداجه * قد بان عن منكبه الكاهـل

فصـار ما بينهـما هـوة * يمشى بهـا الرامح والنابـل

وفي صفات الطعنة والضربة أنشدني ابن الاعرابي

تمني أبو اليقظان عندي هجمة * فسهل مأوى ليلها بالكلا كل

ولا عقل عندي غير طعن نوافذ * وضرب كاشداق الفصال الهوازل

وسب يود المرء لومات دونه * كوقع الهضاب صدعت بالمعاول

(وقال الآخر)

جمعت بها كفي فانهـرت فتقها * ترى قائمـا من خلفها ماوراءها

وقال البعيث

أئن أمرعت معزى عطية وأرتمت * تلاعا من المروت أحوى جميمها

تعرضت لى حتى ضربتك ضربة * على الرأس يكبو لليدين أميمها

اذا قاسها الآسى النطاسي أرعشت * أنامل آسيها وجاشت هرومها

وقال الآخر

ونائحة رافع صوتها * تنوح وقد وقع المرزم
تنوح وتسبر ثلاثة * وقد غابت الكف والمعصم

وقال آخر

ومستنة كاستبال الخرو * ف قد قطع الحبل بالمرود
رفوع الاصابع ضوء الشمو * س نجلاء مؤسية العود

وقال محمد بن بشير

وطعن خليس كفرخ النطيح * أفرغ من ثعب الحاجر
تهال العوائد من فتقها * ترد السبار على السابر

وأنشد والرجل من أزدشنوءة

وطعن خليس قد طعنت مرشة * يقطع أحشاء الجبان شهيقها
اذا باشروها بالسبار تقطعت * تقطع أم السكر شيب عقوقها

وروي للفند الرماني ولا أظنه له

كففنا عن بني هند * وقلنا القوم اخوان
عسي الايام ترجعهم * جميعا كالذي كانوا
فلما صرح الشر * وأضحى وهو عريان
شددنا شدة الليث * غدا والليث غضبان
بضرب فيه تفجيع * وتوهين وارنان
وطعن كفم الزق * وها والزق ملآن

وأنشد السدى لرجل من بلحارث

أتيت المحرم في رحله * فشمر رحلى بعنس خبوب
تذ كر مني خطوبا مضت * ويوم الاباء ويوم الكثيب
ويوم حزاز وقد الجموا * وأشرطت نفسى بان لا أئوب
ففرجت عنهم بنفاخة * لها عائد مثل ماء الزبيب
اذا سبروها عوى كلبها * وجاشت اليهم بآن صبيب

وقال الآخر

طعنة ما طعنت فى جمح الذ * م هلالا وأين منى هلال
طعنة الثائر المصمم حتى * نجم الرمح خلفه كالخلال

وقال الحارث بن حلزة

لايقيم العزيز بالبلد السهـ * ـل ولا ينفع الذليل النجاء
حول قيس متلئمين بكبش * قرظى كأنه عبلاء
فرددناهم بضرب كما يخـ * ـرج من خربة المزاد الماء
وفعلنا بهم كما علم الله * وما للحائنين دماء

وقال ابن هرمة

المشرفية والمظاهر نسجها * يوم اللقاء وكل ورد صاهل
وبكل أروع كالحريق مطاعن * فمسايف فمعانق فمنازل

وروى فمعادل واذ قد ذكرنا شيئاً من الشعر فى صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من اسراف من أسرف واقتصاد من اقتصد فأما من أفرط فقول مهلهل

فلولا الريح أسمع من بحجر * صليل البيض تقرع بالذكور

وقال الهذلى

والطعن شغشغة والضرب هيقعة * ضرب المعول تحت الديمة العضدا
وللقسى أراميل وغمغمة * حين الجنوب تسوق الماء والقردا

ومن ذلك قول عنترة

برحيبة الفرعين يهدى جرسها * بالليل معبس السباع الضرم

وقال قيس بن الاسلت

قد حصت البيضة رأسى فما * أطعم نوماً غير تهجاع

وقال دريد بن الصمة

أعاذل انما أفنى شبابي * ركوبي فى الصريخ الى المنادي

مع الفتيان حتى خل جسمى * وأقرع عاتقى حمل النجاد

ومما يدخل فى هذا الباب قول عنترة

رعناهم والخيل تردى بالقنا * وبكل أبيض صارم قصال

وأنا المنيـة فى المواطن كلها * والطعن منى سابق الآجال

وأما قوله

ان المنية لو تمثـل مثلت * مثلى اذا نزلوا بضنك المنزل

وقال نهشل بن حوى

وما زال ركنى يرتقى من ورائه * وفارس هيجا ينفض الصدر واقف

فوصف بأنه مجتمع القلب مدبر لا يبرح وقد كان حميد بن عبد الحميد يوصف بذلك لانه كان لا يرمي بسهم ولا يطعن برمح ولا يضرب بسيف ولكن التصبير والتحريض والثبات اذا انهزم كل شجاع

باب من نذر في حمية المقتول نذراً فبلغ فى طلب ثاره الشفاء

قال العبسى

دعوت الله اذ قـدنا اليهـم * لنلقى منقرا أو عبـد عمرو

وكانت حلفة حلفت لوتر * وشاء الله ان أدركت وترى

وانى قد سقمت فكان برئى * بقرواش بن حارثة بن صخر

والاعراب تعد القتل سقما وداء لا يبرئه الا أخذ ثاره دون أخ أو ابن عم فذلك الثار المنيم وممن قال في ذلك صبار بن عباد بن السوام اليشكرى فى طلب الطائلة وأن ذلك داء ليس له برء وكانوا قتلوا أخاه اساف بن عباد فلما أدرك ثاره قال

ألم يأتهـا انى صحوت وانني * شفانى من الداء المخامر شافي

فأصبحت ظبياً مطلقاً من حبالة * صحيح الاديم بعد داء اساف

وكنت مغطي في قناعى حقبة * كشفت قناعى واعتطفت عطافي

وفي شبيه بهذا المذهب من ذكر الداء والبرء قال الآخر

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها * ان الشباب جنون برؤه الكبر

وفي شبيه بالاول قول الشيخ الباهلي حين خرج الى المبارزة على فرس أعجف فقالوا بال على بال فقال الشيخ

رآني الاشعرى فقال بال * على بال ولم يعرف بلائي

ومثلك قد كسرت الرمح فيه * فآب بدائه وشفيت دائي

وقالت بنت المنذر بن ماء السماء

بعين أباغ قاسمنا المنايا * فكان قسيمها خير القسيم

وقالوا فارس الهيجاء قلنا * كذاك الرمح يكلف بالكريم

وقال الاسدي

رفعنا طريقاً بأرماحنا * وبالراح منا فلم يدفعونا

فطاح الوشيظ ومال الجنو * ح ولا تأكل الحرب الا السمينا

وقال الخزيمي

وأعددته ذخرا لكل ملمة * وسهم المنايا مولع بالذخائر

وقال السموءل بن عاديا

يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول

لانا أناس لانرى القتل سبة * اذا ما رأته عامر وسلول

وقال أبو الغيران

يدنو وترفعه الرماح كأنه * شلو تنشب في مخالب ضارى

فثوي صريعا والرماح تنوشه * ان الشراة قصيرة الاعمار

وقال آخر وهو يوصي بلبس السلاح

فاذا أتتكم هذه فتلبسوا * ان السلاح بصيرة بالحاسر

(وقال الآخر)

يا فارس الناس بالهيجا اذا شغلت * كلتا اليدين كروراً غير وقاف

قوله شغلت يريد بالسيف والترس وأنشد أبو اليقظان

وكان ضروبا باليدين وباليد

أما قوله ضروباً باليدين فانه يريد القداح وأما قوله باليد فانه يريد السيف ، وأما قول حسان لمائده حين قربوا الطعام لبعض الملوك أطعام يدين أم يد قال هذا الكلام يومئذ وهو مكفوف وان كان الطعام حيسا أو ثريداً أو حريرة فهو طعام يد وان كان شواء فهو طعام يدين ومن أشعار المقتصدين فى الشعر أنشدنى قطرب

تركت الركاب لأربابها * فأجهدت نفسى على ابن الصعق
جعلت يدىّ وشاحا له * وبعض الفوارس لا يعتنق

وممن صدق على نفسه عمرو بن الاطنابة حيث يقول

واقدامى على المكروه نفسى * وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت * مكانك تحمدى أو تستريحي

(وقال آخر)

وقلت لنفسى انما هو عامر * فلا ترهبيه وانظرى كيف يركب

وقال عمرو بن معدى كرب

ولما رأيت الخيل زوراً كأنها * جداول زرع أرسلت فاسبطرت
فجاشت الى النفس أول مرة * فردت على مكروهها فاستقرت

وقال الطائى

ودنونا ودنوا حتى اذا * أمكن الضرب فمن شاء ضرب
ركضت فينا وفيهم ساعة * لهذميات وبيض كالشهب
تركوا القاع لنا اذ كرهوا * غمرات الموت واختاروا الهرب

وقال النمر بن تولب

سمونا ليشكر يوم النها * ب نهرقنا شهريا طوالا
فلما التقينا وكان الجلا * د أحبوا الحياة فولوا شلالا

وكما قال الآخر

هم المقدمون الخيل تدمى نحورها * اذا ابيض من هول الطعان المسالح

وقال عنترة

اذ يتقون بي الأسنة لم أخم * عنها ولكني تضايق مقدمي

وقال قطري بن الفجاءة

وقولي كلما جشأت لنفسي * من الابطال ويحك لا تراعي
فانك لو سألت حياة يوم * سوي الاجل الذي لك لم تطاعي

وقالت الخنساء

يهين النفوس وهون النفوس * غداة الكريهة أبقى لها

وقال عامر بن الطفيل

أقول لنفس لا يجاد بمثلها * أقلي المزاح انني غير مقصر

وقال جرير

ان طاردوا الخيل لم يشؤا فوارسها * أو نازلوا عانقوا الابطال فاقتصروا

وقال ابن مقرم الضبي

واذا تملل بالسياط جيادها * أعطي كتائبها ولم يتعلل
فدعوا نزال فكنت أول نازل * وعلام أركبه اذا لم أنزل

وقال كعب الاشقرى

اليهم وفيهم منتهى الحزم والندى * وللكرب فيهم والخصاصة فاسح
تري علقا تمشي النفوس رشاشه * اذا انفرجت من بعدهن الجوانح
كأن القنا الخطي فينا وفيهم * شياطين بئر هيجتها المواتح
هناك تذوقنا بالرماح فما يرى * هنالك في جمع الفريقين رامح
ودرنا كما دارت على قطبها الرحي * ودارت على هام الرجال الصفائح

وقال مهلهل

ودلفنا بجمعنا لبني شيبـ * ـان ان الخليل يبغي الخليلا
لم يطيقوا ان ينزلوا ونزلنا * وأخو الحرب من أطاق النزولا

وقال عبدة وهو رجل من عبد شمس

ولما زجرنا الخيل خاضت بنا القنا * كما خاضت البزل اليها الطواميا
رمونا برشق ثم ان سيوفنا * وردن فانكرن القتيل المراميا
ولم يك يثني النبل وقع سيوفنا * اذا ما عقدنا للجلاد النواصيا

باب في ذكر الجبن ووهل الجبان

قال الله عز وجل يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ويقال ان جريراً من هذا أخذ قوله

مازلت تحسب كل شيء بعدهم * خيلا تكر عليهم ورجالا

والى هذا ذهب الاول

ولو انها عصفورة لحسبتها * مسومة تدعو عبيداً وأزنما

وقال جران العود

يوم ارتحلت برحلي قبل برذعتي * والقلب مستوهل للبين مشغول
ثم اغترزت على نضوي ليحملني * إثر الحمول الغوادي وهو معقول

وهذا صفة وهل الجبان وليس هذا من قوله

كملقي الاعنة من كفه * وقاد الجياد باذنابها

وقال الزكواني أو زمرة الاهوازي ففسر ذلك حيث يقول

يجعل الخيل كالسفين ويرقى * عاديا فوق طرفه المشكول

لانهم ربما تنادوا في العسكر قد جاؤا ولا بأس فيسرج الفارس فرسه وهو مشكول ثم يركبه ويحثه بالسوط ويضربه بالرجل فاذا رآه لا يعطيه ما يريد نزل فأحضر على رجليه، ومن وهل الجبان ان يذهل عن موضع الشكال في قوائمه وربما مضى باللجام الى عجم ذنبه وهو قوله يجعل الخيل كالسفين لان لجام السفينة الذي يغمزها به والسكان هو الذنب، وقال سهل بن هارون الكاتب في المنهزمة من أصحاب ابن نهيك النهروان من خيل هرثمة بن أعين

يخيل للمهزوم افراط روعه * بأن ظهور الخيل أدنى من العطب

لان الجبن يريه أن عدوه على رجليه أنجى له كأنه يرى أن النجاة انما تكون على قدر

الحمل للبدن وقال آخر جنى فاعتل عليه قومه فى القتال بالورع

كان ربك لم يخلق لخشيته * سواهم من جميع الناس انسانا

وقال آخر

كان بلاد وهى الله عريضة * على الخائف المطلوب كفة حابل

وقال الشاعر

يروعـه السرار بكل أرض * مخافـة ان يكون به السرار

وأنشدني ابن رحيم القراطيسي الشاعر ورمي شاطراً بالجبن فقال

رأى في النـوم انسانا * فـوارى نفسـه شهرا

ويقولون في صفة الحديد اذا أرادوا أنه خالص فمن ذلك قول هميان

* يمشون فى ماء الحديد تنكبا *

وقال ابن نجا

* أخضر من ماء الحديد جمجم *

وقال الاعشى فى غير هذا

واذا ما الا كس شبه بالاز * رق عند الهيجا وقل البصاق

وقال الاعشى

اذ لا نقاتـل بالعصـ * ـى ولا نرامى بالحجاره

وقال الاخطل

وما تركت أسيافنا حين جردت * لاعدائنا قيس بن عيلان من عذر

وأنشد الاصمعى

وبنو فزارة انهـا * لا تلبث الحلب الحلاب

يقولون لا تلبث الحلاب حلبا حتى تهزمهم واما قوله

وطائر يسبح في جاحم * كماهـر يسبح في غمر

هذا طائر يسمى سندبيل وهو هندي يدخل فى أتون النار ويخرج ولا يحترق له ريشة

وزعم ثمامة أن المأمون قال لو أخذ انسان هذا الطحلب الذي يكون على وجه الماء في

مناقع المياه فجففه في الظل مالقاه في النار وكان يحترق، وزعموا ان الفلفل لا يضره الحرق ولا الغرق ولا الطلق ولا يصير جمرا أبداً قال وكذلك الحمرة فكان هذا الطائر في طباعه وفي طباع ريشه مزاج من النفاطين وأظن هذا من طلق وحطى ومغرة وقد رأيت عودا يؤتى به من ناحية كرمان لا يحترق وكان عندنا نصراني في عنقه صليب منه وكان يقول لضعفاء الناس هذا العود من الخشبة التي صلب عليها المسيح والنار لا تعمل فيها فكان يكسب بذلك حتى فطن له وعورض بهذا العود واما قوله

* كما هر سبح في غمر *

فالماهر هو السابح الماهر وقال الربيع بن قعنب

وترى الماهر في غمرته * مثل كلب الماء في يوم مطير

وأما قوله

ولطمة الذئب على حسوه * وصنعة السرفة والدَّبر

قال فان الذئب يأتي الجمل الميت فيقبض بقمغمته فيعتمد على حجاجي عينه فيلحس عنه بلسانه حسيا فكأنما قورت عينه تقويرا لما أعطى من قوة الوده ورده لسانه أشد هراقي اللحم والعصب من لسان البقر في الخلا فأما عضته ومصته فليس يقع على شئ عظما كان أو غيره الا كان له بالغا بلامعاناة من شدة فكيه ويقال إنه ليس في الارض سبع يعض على عظم الا ولكسرته صوت بين لحييه الا الذئب فان أسنانه توصف بأنها تبرى العظم بري السيف المنعوت بان ضربته من شدة مرورها في العظم من قلة ثبات العظم له لا يكون له صوت كما قال الزبير بن عبد المطاب

وينهى نخوة المختال عنى * غموض الصوت ضربته صموت

ولذلك قالوا في المثل ضربه ضربة فكأنما أخطاه لسرعة المر لانه لم يكن له صوت وقال الراجز في صفة الذئب

أطلس يخفي عينه غباره * في شدقه صفرته وناره

وسنأتي على صفة الذئب وعلى غير هذا الباب من أمره في موضعه ان شاء الله تعالى وأما ذكر صنعة السرفة والدبر فانه يعني حكمتها في صنعة بيوتها فان فيها صنعة عجيبة

وأما قوله

ومسمع القردان في منهل * أعجب مما قيل في الحجر

لانهم يقولون أسمع من فرس ويجعلون الحجر فرساً بلاهاء وانما يعنون بذلك الحجر فانه أسمع قال والحجر وان ضرب به المثل فالقراد أعجب منها لانها تكون في المنهل فتموج ليلة الورد في وقت يكون بينها وبين الابل التي تريد الورود أميال فتزعم الاعراب أنها تسمع رغاءها وأصوات أخفافها قبل ان يسمعها شيء والعرب تقول أسمع من قراد وقال الراجز

* أسمع من فرخ العقاب الاسحم *

وأما قوله

والمقرم المعلم ما إن له * مرارة تسمع في الذكر
وخصية تنصل من جوفه * عند حدوث الموت والنحر
ولا يرى بعدهما جازر * شقشقة مائلة الهدر

فهذا باب قد غلط فيه من هو أعني بتعرف أعاجيب ما في العالم من بشر ولقد تنازع بالبصرة ناس وفيهم رجل ليس عندنا أطيب منه فاطبقوا جميعاً على ان الجمل اذا نحر ومات فالتمست خصيته وشقشقته إنهما لا توجدان فقال ذلك الطبيب فامل مرارة الجمل أيضاً كذلك ولعله ان تكون له مرارة ما دام حيا ثم تبطل عند الموت والنحر وانما صرنا نقول لا مرارة له لانا لا نصل الى رؤية المرارة الا بعد ان تفارقه الحياة فلم أجد ذلك عمل في قلبي مع اجماعهم على ذلك فبعثت الى شيخ من جزاري باب المغيرة فسألته عن ذلك فقال بلى لعمري أنهما ليوجدان ان أرادهما مريد وانما سمعت العامة كلمة وربما مزحنا بها فيقول خصية الجمل لا توجد عند منحره أجل والله ما توجد عند منحره وانما توجد في موضعها وربما كان الجمل خياراً جيداً فتلحق خصيته بكليتيه فلا يوجدان لهذه العلة فبعثت اليه رسولا انه ليس يشفيني الا المعاينة فبعث الى بعد ذلك بيوم أو يومين مع خادمي نفيس بشقشقة وخصية ومثل هذا كثير قد يغلط فيه من يشتد حرصه على حكاية الغرائب وأما قوله

وليس للطرف طحال وقد * أشاعه العالم بالامر
وفي فؤاد الثور عظم وقد * يعرفه الجازر ذو الخبر

وليس عندي في الفرس أنه لا طحال له الا ما أري في كتاب الخيل لابي عبيدة والنوادر لابي الحسن وفي الشعر لبشر فان كان جوف الفرس كجوف البرذون فأهل خراسان في أهل هذا العسكر يذبحون في كل أسبوع عدة براذين وأما العظم الذى ربما وجد في قلب الثور فقد سمعنا بعضهم يقول ذلك ورأيته في كتاب الحيوان لصاحب المنطق وأما قوله

وأكثر الحيتان أعجوبة * ما كان منها عاش في البحر

فهو كما قال لان سمك البحر كله ليس له لسان ولا دماغ وأصناف من حيتان البحر تجيء في كل عام في أوقات معلومة حتى تدخل دجلة ثم تجوز الى البطاح فمنها الاشبور ومنها البرسول ووقته ومنها الجراف ووقته وانما عرفت هذه الاصناف بأعيانها وأزمانها لانها أطيب ذلك السمك وما أشك ان معها أصنافا اخر يعلم منها أهل الابلة مثل الذي أعلم أنا من هذه الاصناف الثلاثة وأما قوله

وأكبد تظهر في ليلها * ثم توارى آخر الدهر
ولا يسيغ الطعم ما لم يكن * مزاجه ماء على قدر
ليس له شيء لاذ لا فه * سوى جراب واسع السحر

فان سمكا يقال له الكوسج غليظ الجلد أجرد يشبه الجرى وليس بالجري في جوفها شحمة طيبة فان اصطادوها ليلا وجدوها وان اصطادوها نهارا لم يجدوها وهذا الخبر شائع في الابلة وعند جميع البحريين وهم يسمون تلك الشحمة الكبد وأما قولهم السمكة لا تسيغ طعمها الا مع الماء فما عند بشر ولا عندي إلا ما ذكر صاحب المنطق وقد عجب بشر من امتناعها من بلع الطعم وهي منقمعة في الماء مع سعة جراب فيها والعرب تسمي جوف البئر من أعلاه الى قعره جراب البئر وأما ما سوى هذه القصيدة فليس فيها الا ما يعرف وقد ذكرناه في موضع غير هذا من هذا الجزء خاصة وسنقول في باب الضبع والقنفذ والحرقوص والورل وأشباه ذلك مما أمكن ان شاء الله تعالى قال

أبو زياد الكلابي أكلت الضبع شاة رجل من الاعراب فجعل يخاطبها ويقول

ما أنا ياجعار من خطابك * على دق العضل من أنيابك
* على حذا جحرك لا اهابك *

جعار اسم الضبع ولذلك قال الراجز

يا أيها الجعر السمين وقومه * هزلان نحوهم ضباع جعار

ثم قال الاعرابي

ما صنعت شاتي التي أكلت * ملأت منها البطن ثم جات
* وخنتني وبئس ما فعلت *
قالت له لا زلت تلقى الهما * وأرسل الله عليك الحمي
لقد رأيت رجلا معتما
قال لها كذبت يا خباث * قد طال ما أمسيت في اكثراث
* أكلت شاة صبية غراث *
قالت له والقول ذو شجون * أسهبت في قولك كالمجنون
أما ورب المرسل الامين * لاجمن بعترك السمين
وأمه وجحشه القرين * حتى تكون عقلة العيون
قال لها ويحك حذريني * واجتهدى الجهد وواعديني
وبالامانى فعلليني
لاقطعن ملتقي الوتين * منك وأشفي الهم من دفيني
فصدقيني أو فكذبيني
أو اتركي حقى وما يليني * اذا فشلت عندها يميني
تمر في ذلك باليقين
قالت ابا لقتل لنا تهدد * وأنت شيخ عثر مفند
قولك بالجبن عليك يشهد * منك وأنت كالذى قد أعهد
قال لها فأبشرى وأبشرى * اذا تجردت لشاتي فاصبرى

أنت زعمت قد أمنت منكري * أحلف بالله العلي الا كبر
يمين ذي ثرية لم يكفر * لاخضبن منك جنب المنحر
برمية من بارع مذ كر * أو تتركين أحمري وبقري
فاتلات للقدر المقدر * فأصبحت في الشرك المزعفر
مكبوبة لوجهها والمنخر * والشيخ قد مال بقرب مجهر
ثم أشتوي من أحمر وأصفر * منها ومقدور وما لم يقدر

وقال الآخر

ياليت لى نعلين من جلد الضبع * وشركا من أستها لا ينقطع
* كل الحذاء يحتذى الحافي الوقع *

وهذا يدل على ان جلدها جلد سوء واذا كانت السنة جدبة تأكل المال سمتها العرب الضبع قال الشاعر

أبا خراشة إما كنت ذا نفر * فان قومى لم تأكلهم الضبع

وقال عمير بن الحباب

فبشرى القين بطمن شرج * يشبع أولاد الضباع العرج
ما زال إسدائي لهم ونسجي * حتي اتقوني بظهور شج
* أريتنا يوما كيوم المرج *

وقال رجل من بني ضبة

ياضبعاً أكلت أيار أحمرة * ففي البطون وقد راحت قراقير
ما منكم غير جعلان ممددة * دسم المرافق انذال غوارير
وغير همز ولمز للصديق ولا * تنكي عدوكم منكم أظافير
وانكم ما بطشتم لم يزل أبداً * منكم على الاقرب الادنى دنانير

وأنشد

الفوه أمثال السباع فانشمر * فمنهم الذئب ومنهم النمر
* والضبع العرجاء والليث الهصر *

وقال الملاجم

معاور حلباته الشخص أعم • كالذيخ أفني سنه طول الهرم

وأنشد

تجاوز الجرض ولا تشممه * لسائغ المشفر رحب بلعمه

سالت دفاريه وشاب غاصمه * كالذيخ فى يوم مرس رهمه

يقول وبر لحييها كثير كأنه شعر قد بله المطر وأنشد

لما رأيت قائما بالغرب * تخلجت أشداقه للشرب

تخليج أشداق الضباع القباب

يعنى من الحرص والشره وتمثل ابن الزبير

خذيني فجريني ضباع وأبشرى * بلحم امرئ لم يشهد اليوم ناصره

وانما خص الضباع لانها تنبش القبور وذلك من فرط طلبها للحوم الناس اذ لم تجدها ظاهرة وقال تأبط شراً

فلا تقبروني ان قبرى محرم * عليكم ولكن خامرى أم عامر

اذا ضربوا رأسي وفى الرأس أكثري * وغودر عند الملتقى ثم سائرى

هنالك لا أبغى حياة تسرنى * سمير الليالى مبسلا بالجرائر

قال اليقطرى واذا بقى القتيل بالعراء وانتفخ أيره لانه اذا ضربت عنقه يكون منبطحا على وجهه فاذا انتفخ انقلب فعند ذلك تجيء الضبع فتركبه فتقضي حاجتها ثم تأكله وكانت مع عبد الملك جارية شهدت معه حرب مصعب فنظرت الى مصعب وقد انقلب وانتفخ ايره وورم وغلظ فقالت يا أمير المؤمنين ما أغلظ أيور المنافقين فلطمها عبد الملك، ابن الاعرابي قال امرأة لزوجها, وكانت صغيرة الركب وكان زوجها صغير الاير ما للرجل فى عظم الركب منفعة وانما الشأن فى ضيق المدخل وفى المص والحرارة ولا ينبغي أن يلتفت الي ما ليس من هذا في شئ وكذلك الاير انما ينبغى أن تنظر المرأة الى حر جلدته وطيب عسلته ولا تلتفت الى كبره وصغره وأنعظ الرجل على حديثها انعاظا شديداً فطمع أن ترى ايره فى تلك الحال

عظيما فأراها اياه وفى البيت سراج فجعل الرجل يشير الى ايره وعينها طامحة الى ظل ايره فى ظل الحائط فقال يا كذابة اشدة شهوتك في عظم ظل الاير لم تفهمي عني شيئاً أما انك لو كنت جاهلا كان أنعم لبالك يا أنى لو كان منفعة عظم الاير كمنفعة عظم الركب لما طمحت عينك اليه قال الرجل فان للركب العظيم حظا في العين وعلى ذلك تحرك له الشهوة قالت وما تصنع بالحركة وشك يؤدى الى شك الاير ان عظم فقد نال جميع الحر ودخل فى تلك الزوايا التى لم تزل تنتظم من بعيد وغيرها المنتظم دونها واذا صغر ينيك ثلث الحر ونصفه وثلثيه فمن يسره أن يأكل بثلث بطنه أو يشرب بثلث بطنه قال اليقطري أمكنها والله من القول ما لم يمكنه ، وقال وخلا معاوية بجارية له خراسانية فلما همّ بها نظر الى وصيفة فى الدار فترك الخراسانية وخلا بالوصيفة ثم خرج فقال للخراسانية ما اسم الاسد بالفارسية قالت كفتار فخرج وهو يقول ما الكفتار فقيل له الكفتار الضبع فقال مالها قاتلها الله أدركت بثارها والفرس اذا استقبحت وجه الانسان قالت روى كفتار أي وجه الضبع ، قال وكتب عمر بن يزيد بن عمير الاسدى الى قتيبة بن مسلم حين عزل وكيع ابن أبى سود عن رياسة بنى تميم وولاها ضرار بن حسين الضبي عزلت السباع ووليت الضباع وأنشد لعباس بن مرداس السلمي

فلو مات منهم من جرحنا لأصبحت * ضباع بأكناف الاراك عرائسا

قال خراشة بن أشيم

فمن مبلغ عنى يساراً ورافعا * وأسلم ان الأوهيين الاقارب
فلا تدفنني فى صرى وادفنني * بديمومة تنزو على الجنادب
وان أنت لم تقدر على مطيتى * فلاقام فى مال لك الدهر حالب
فلا يأكلنى الذئب فيما دفنتني * ولا فوغل مثل الصريمة حارب
أزل هليب لا يزال مآبطا * اذا ذربت أنيابه والمخالب

﴿ وأنشد ﴾

تركوا جارهم تأكله * ضبع الوادي وترميه الشجر

يقول خذلوه حتى أكله الأم السباع وأضعفها وقوله وترميه الشجر صار يرميه من لا يرمى أحداً وقد بقى من القول فى الضبع ما سنكتبه في باب القول فى الذئب، وأما الحرقوص فزعموا أنه دويبة أكبر من البرغوث وأكثر ما ينبت له جناحان بعد حين وذلك له خير وهذا الذي يعتري النمل وعند ذلك يكون هلاكه ويعتري الدعاميص اذا صارت فراشا ويعتري الجعلان، والحرقوص دويبة عضها أشد من عض البراغيث وما أكثر ما يعض احراح النساء والخصا وقد سمى بحرقوص مازن أبو كابية بن حرقوص قال الشاعر

أنتم بنى كابية بن حرقوص * كلهم هامته كالاخوص

وقال بشر بن المعتمر فى شعره المزاوج حين ذكر فضل علىّ على الخوارج وهو قوله

ما كان من اسلافهم أبو الحسن * ولا ابن عباس ولا أهل السنن

غر مصابيح الدجى مناجب * أولئك الاعلام لا الاعارب

كمثل حرقوص ومن حرقوص * بقمة قاع حولها قصيص

ليس من الحنظل يشتار العسل * ولا من البحور يصطاد الورل

هيهات ما سافلة كعالية * ما معدن الحكمة أهل البادية

قال والحرقوص يسمى بالنهيك وعض النهيك ذلك الموضع من امرأة اعرابى فقال

وما أنا والحرقوص ان عض عضة * لها بين رجليها بجد عقور

تطيب بنفسي بعد ما تستفزنى * مقالتها ان النهيك صغير

والذين ذهبوا الى أنه البرغوث نفسه قالوا الدليل على ذلك قول الطرماح

ولو أن حرقوصا على ظهر قملة * يكر على صفي تميم لولت

قالوا ولو كان له جناحان لما أركبه ظهر القملة وليس فى قول الطرماح دليل على ما قال

وقال بعض الاعراب وعض الحرقوص خصيته

لقد منع الحراقيص القرارا * فلا ليلا نقر ولا نهارا

يغالبن الرجال على خصاهم * وفى الاحراح دسا وانجحارا

وقالت امرأة تغني زوجها

لقد وقع الحرقوص مني موقعاً * أرى لذة الدنيا اليه تصير

وانشد والآخر

برح بى ذو النقطتين الاملس * يقرص أحيانا وحينا ينهس

فقد وصفه هذا كما ترى وهذا يصدق قول الآخر ويرد على من جعل الحرافيص من البراغيث قال الآخر

يبيت بالليل جواباً على رمث * ماذا هنالك من عض الحراقيص

وسنقول فى الورل بما أمكن من القول ان شاء الله تعالى وعلى أنا قد فرقنا القول فيه على أبواب قد كتبناها قبل هذا قالوا الورل يقتل الضب وهو أشد منه وأجود سلاحا وألطف بدنا قالوا والسافر منا يكون مسروراً وهو الذى يزيف الى الانسان وينفخ ويتوعد قال واصطدت منها واحداً فكسرت حجراً وأخذت مروة فذبحته بها حتى قلت قد نخعته فاسبط لجنبه فأردت ان أصغي اليه وأشرت بابهامى في فمه فعض عليها عضة اختلفت أنيابه فلم يخلها حتي عضضت على رأسه قال فأتيت أهلى فشققت بطنه فاذا فى قانصته حيتان عظيمتان الا الرأس قال وهو يشدخ رأس الحية ثم يبتلعها فلا يضره سمها وهذا عنده أعجب ما فيه فكيف لو رأى الحوائين عندنا وأحدهم يعطى الشئ اليسير فان شاء أكل الأفعى نيا وان شاء شواء وان شاء قديداً فلا يضره ذلك بقليل ولا كثير، وفى أنه ليس شئ من الحيوان أقوى على أكل الحيات وقتلها منه ولا أكثر سفاداً حتي لقدطم فى ذلك على التيس وعلى الجمل وعلى العصفور وعلى الخنزير وعلى الذباب في العدد وفي طول المكث وفيه أنه لا يحتفر لنفسه بيتا ويغتصب كل شئ لانها أي جحر دخلت هرب منه صاحبه فالورل يغتصب الحية نفسها كما تغتصب الحية بيوت سائر الاحناش والطير والضب وهو أيضاً من المراكب وهو أيضاً مما يستطاب وله شحمة ويستطيبون لحم ذنبه، والورل دابة خفيف الحركة ذاهبا وجائيا ويمينا وشمالا وليس شئ بعد العظاة أكثر تلفتا منه وتوقفا وتزعم المجوس ان أهرمن وهو ابليس لما جلس فى مجلسه فى أول الدهر ليقسم الشر والسموم فيكون ذلك عدة على مناهضة صاحب الخير اذا انقضي الاجل بينهما ولانه من طباعه أيضا فعل الشر على كل حال

كانت العظاة آخر من حضر فحضرت وقد قسم السم كله فتداخلها الحسرة والاسف فتراها اذا اشتدت وقفت وقفة تذكر لما فاتها من نصيبها من السم ولتفريطها فى الابطاء حتي صارت لا تسكن الا فى الخرابات والحشوش لانها حين لم يكن فيها من السم شيء لم تطلب مواضع الناس كالوزغة التي تسكن معهم البيوت وتكرع فى آنيتهم الماء وتمجه وتزاق الحيات وتهيجها عليهم ولذلك نفرت طباع الناس من الوزغة فقتلوها تحت كل حجر وسلمت منهم ولم أرقولا أشد تناقضاة ولا أموق من قولهم هذا لان العظاة لم يكن ليعتريها من الاسف على فوت السم على ماذكروا الا وفي طبعها من الشرارة الغريزية أكثر مما في طبع الافعى قال الراجز في معني الاول

ياورلا رقرق فى سراب * اكان هذا أول الشواب

قال ورقرقته سرعته ذاهبا وجائيا ويمينا وشمالا قال أبو دؤاد الأيادي فى صفة لسان فرسه

عن لسان كحمة الورل الاحمر * مج الثري عليه العرار

وقال خالد بن عجرة ووصف الاصمعي حوافي بعض اراجيزه فقال

في قمردن ضرس وصك * يعرج منه بعد ضيق ضنك

فقد قلنا فى القنفذ وصنيعه فى الحيات والافاعى خاصة وفى أنه من المراكب وفي غير ذلك من أمره فيما تقدم في هذا الكتاب ويقول من نزع فروته بأنها مملوءة شحمة والاعراب تستطيب أكله وهو طيب للارواح والقنفذ لايظهر الا بالليل كالمستخفي فلذلك شبه به قال أيمن بن خريم

كقنفذ الرمل لا تخفي مدارجه * حتي اذا نام عنه الناس لم ينم

وقال عبدة بن الطبيب

قوم اذا دمس الظلام عليهم * خرجوا قنافذ بالنميمة تمرع

وقال

شربت الأمور وغاليتها * فأولى لكم يابنى الاعرج

تدبون من حول ركبانكم * دبيب القنافذ في العرفج

وقال الآخر في غير هذا الباب

كان سرا أو كحيلا بنصر * يحط من قنفذ ذفراه الزفر

وقال عباس بن مرداس السلمي يضرب المثل به وباذنيه في القلة والصغر

فانك لم تك كابن الرشيد * ولكن أبوك أبو سالم

حملت المنير وأثقالها * على أذنى قنفذ وارم

وأشبهت جدك شر الجدود * والعدو يدرى الى النائم

وأنشدنى نديم بن شهاب أحد بنى عوف بن كنانة من عكل قال أنشدنيه نفيع بن طارق فى تشبيه ركب المرأة اذا جم بجلد القنفذ

على من عنائه وشقوته * وقد رأيت هدجا فى مشيته

وقد جلى الشيب عذار لحيته * بنت ثماني عشر من حجته

يظنها ظنا بغير رؤيته * ليس بجهم صفة من همته

لم يجزه الله برحب سعته * جم بعد خلقه وبزته

كقنفذ القف اختبى فى فروته * لا يبلغ الاير بنزع رهوته

ولا يكر راجعا بكرته * كأن فيه وهجا من ملته

ويتسمون بالقنافذ وذو البرة الذى ذكره عمرو بن كلثوم هو الذى يقال له برة القنفذ وهو كعب بن زهير وهو قوله

وذو البرة الذي حدثت عنه * به نحمى ونشفي الملجئينا

ومن القنافذ جنس وهو أعظم من هذه القنافذ وذلك ان لها شوكا كصياصى الحاكة وانما هي مدارى قد سخرت لها وذللت تلك المغارز والمنابت ويكون متى شاء ان ان ينصل منها رمى به الشخص الذى يخافه فصل حتى كانه يخرج كالسهم الذى يخرجه الوتر ولم أر أشبه به فى الحذف من شجر الخروع فان الحب اذا جف فى أكمامه وتصدع عنه بعض الصدع حذف به بعض الغصون فربما وقع على قاب الرمح الطويل وأكثر من ذلك، والبرذون يسقط على جلده ذبابة فيحرك ذلك الموضع فهذ عام فى الخيل فأما الناس فان المخنث ربما حرك شيئاً من جسده وأى موضع شاء من بدنه والكاعاني وهو اسم الذي يتجنن أو يتفالج فالج الرعدة والارتماش فانه يحكي من

صرع الشيطان ومن الازباد ومن الفضة ماليس عندهما وربما جمعهما في نقاب واحد فأراك الله تعالى مجنونا . فلو جاء بجمع الحركتين جميعا بما لا يجيء من طباع المجنون والانسان العاقل وان كان لا يحسن يبني كهيئة وكر الزنبور ونسج العنكبوت فانه اذا صار الى حكاية أصوات البهائم وجميع الدواب وحكاية العميان والمرجان والفأفاء والى أن يصور أصناف الحيوان بيده بلغ من حكايته الصورة والصوت والحركة ما لا يبلغه المحكي وفي الناس من يحرك أذنيه من بين سائر جسده وربما حرك إحديهما قبل الاخرى ومنهم من يحرك شعر رأسه كما أن منهم من يبكي اذا شاء ويضحك اذا شاء وخبرني بعضهم أنه رأى من يبكي باحدى عينيه وباقي يقترحها عليه الغير ' وحكي المكي عن جوار باليمن لهن قرون مضفورة من شعر رؤسهن وان احداهن تلعب وترقص على ايقاع موزون ثم تشخص قرنا من تلك القرون ثم تلعب وترقص ثم تشخص من تلك الضفائر المرصعة واحدة بعد أخرى حتى تنتصب كأنها قرون أوابد في رأسها فقلت له فامل التضفير والترصيع أن يكو شديد الفتل ببعض العسل والتلبيد فاذا أخرجته بالحركة التي تثبتها في أصل تلك الضفيرة شخصت فلم أره ذهب الى ذلك ورأيته يحققه ويستشهد بأخيه ' وتزعم الاعراب أن الذئب ينام باحدى عينيه ويزعمون أن ذلك من حاق الحذر وينشد شعر حميد بن ثور الهلالي وهو قوله

ينام باحدي مقلتيه ويتقي * المنايا بأخري فهو يقظان هاجع

وأنا أظن هذا الحديث في معني ما مدح به تأبط شرا

اذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل * كأني من عينيه شجعان فاتك

ويجعل عينيه ربيئة قلبه * الى سلة من حد أحضر باتك

ويقال أسمع من قنفذ وقد ينبغي أن يكون قولهم أسمع من الدلدل من الامثال المولدة وفرق ما بين القنفذ والدلدل كفرق ما بين الفار والجرذان والبقر والجواميس والبخاتي والعراب والضأن والمعز والذر والنمل والحراف والأنبل وأجناس من الحيات وغير ذلك فان هذه الاجناس منها ما يتسافد ويتلاقح ومنها ما لا يكون ذلك فيها ويقال انه لأخشي من فاسية وهي الخنفساء لانها تفسو في يد من مسها وقال بعضهم

انه عني الظربان لان الظربان يفسو في وسط الهجمة فتتفرق الابل فلا تجتمع الا بالجهد الشديد ويقال ألج من الخنفساء وقال خلف الاحمر وهو يهجو رجلا

ألج لجاجا من الخنفساء * وأزهي اذا ما مشي من غراب

وأنشد أبو الردينى عن عبد الله بن كراع أخي سويد بن كراع فى الضبع

من يجن أولاد طريف رهطا * مرداً أوله سمطاً [(١)] *

وأى عضايط طوالا سبطا * كأضبع المرط هبطن هبطا

ثم يغنين هديلا مرطاً * ان لكم عندى هناء لعطا

* حطاً على أنفسكم وعلطا *

وحكى أبو مجيب ما أصابه من أهله ثم قال وقد رأيت رؤيا عبرتها رأيت كأنى طردت أرنبا فانحجرت فحفرت عنها حتى استخرجتها فرجوت أن يكون ذلك ولداً أرزقه وقد كانت لى ابنة عم هاهنا فأردت أن أتزوجها فما ترى قلت تزوجها على بركة الله تعالى ففعل ثم استأذنني أن يقيم عندنا أياما فأقام ثم أتاني فقلت لا تخبرنى بشئ حتى أنشدك ثم أنشدته هذه الابيات

ياليت شعرى عن أبى مجيب * اذ بات فى مجاسد وطيب

معانقا للرشأ الربيب * أألفم الحفار فى القليب

أم كان رخوا يابس القضيب

قال بلى كان والله رخوا يابس القضيب والله لكأنك كنت معنا ومشاهدنا ، فأما الفهد فالذي يحضرنا من خصاله أن يقال انه عظام السنام يشتهي ريحه ويستدل برائحته على مكانه ويعجب بلحمه أشد العجب وقد يصاد بضروب منها الصوت الحسن فانه يصغى اليه اصغاء حسناً واذا اصطادوا المسن كان أنفع لأهله في الصيد من الجرو الذى يربونه لان الجرو يخرج خبا ويخرج المسن على التأديب صبوراً غير خب ولا مرتكل في صيده وهو أنفع من صيد كل طائر وأحسن فى العين وله فيه تدبير عجيب وليس شئ في مثل جسم الفهد الا والفهد أثقل منه وأحطم لظهر الدابة التى

(١) هكذا هو فى أصول الكتاب

يرقى على مؤخرها والفهد أنوم الخلق والفهد نومه مصمت قال أبو حية النميرى

بمذاريها أناسا نام حلمهم * عنا وعنك وعنها نومة الفهد

وقال حميد بن ثور الهلالى

ونمت كنوم الفهد عن ذى حفيظة * أكلت طعاما دونه وهو جائع

وقال الرقاشى فى صفة الفهد

قد اغتدى والليل أحوى السد * والصبح فى الظلماء ذو تهدى

مثل اهتزاز العضب ذي الفرند * بأهرت الشد قين ملتشد

أدبر مضبور القرى علكد * طاوى الحشا فى طى جسم معد

كر الوفا حم عضور الجد * برامد ذى نكت مسود

وسحر اللجين سحر ورد * شرنبث أغلب مصمعد

كالليث الابعر فى الجلد * للمح الجائل مستعد

حتى اذا عاين بعد الجهد * على قطاة الردف ردف العبد

مر مرعتنا بحس صلد * وانقض باد واغبر مجرهد

فى لهب منه وحبل اد * مثل انسياب الحية العربد

وقوله مثل انسياب الحية العربد هذه الحية غير الدابة التي يقال لها العربد وقد ذكرها مالك بن خريم لعمرو بن معد يكرب

يا عمرو لو أبصرتنى * لرفوتنى فى الليل رفوا

والبيض تلمع خلفهم * تعصو بها الفرسان عصوا

* وفلقت مني عربدا * يقطو امام الخيل قطوا

لما رأيت نساءهم * يدخلن تحت البيت حبوا

وسمعت زجر الخيل فى * جوف الظلام هبا وهبوا

فى فيلق ململمة * تعطو على الخيرات عطوا

وقال الرقاشى أيضاً فى الفهد

لما غدا للصيد آل جعفر * رهط رسول الله أهل المفخر

بفهدة ذات شرار مضبر * وكاهل باد وعنق أزهر
ومقلة سال سواد المحجر * منها الى شدق رحاب المفغر
فى ذنب طال وجلد أنمر * وأيطلى مستأسد غضنفر
وأذن مكسورة لم تجبر * فطساء فيها رحب فى المنخر
مثل وجار الثتفل المقور * أرثها اسحاق فى التعذر
منها على الخدين والمعذر

وقال ابن ابى كريمة فى صفة الفهد

كان بنات القفر حين تشعبت * غدوت عليها بالمنايا الشواغب
بذلك يبغي الصيد طورا وتارة * بمخطفة الاحشاء رحب الترائب
مرققة الاذناب نمر ظهورها * مخططة الآماق غلب الفوارب
مولعة قطع الحياة عوابس * تخال على أشداقها خط كاتب
فوارس ما تعفين خربا وحلة * اذا أنست بالبيد شهب الكتائب
تضاءل حتى ما تكاد تبينها * عيون لدي الصراب غير كواذب
توسد أجناد القوانس أدرعا * مزملة تحكي عتاق الجنائب

قال والصبيان يصيحون بالفهد اذا رأوه يايهودى وقد عرفنا معناهم فى الحرابى والعامة تزعم أن الفارة كانت يهودية سحارة والأرضة يهودية أيضاً عندهم ولذلك يلطخون الاجذاع لحم الجزور والضب يهودي ولذلك قال بعض القصاص لرجل أكل ضبا اعلم أنك أكلت شيخا من بنى اسرائيل ولا أراهم يضيفون الى النصرانية شيئاً من السباع والحشرات ولذلك قال أبو علقمة كان اسم الذى أكل يوسف رجحون فقيل له ان يوسف لم يأكله الذئب وانما كذبوا على الذئب ولذلك قال الله عز وجل وجاؤا على قميصه بدم كذب قال فهذا اسم للذئب الذي لم يأكل يوسف فينبغى أن يكون ذلك الاسم لجميع الذئاب لان الذئاب كلها لم تأكله، وتزعم المجوس أن سومين الذي ينتظرون خروجه ويزعمون أن الملك يصير اليه يخرج على بقرة ذات قرون ومعه سبعون رجلاً عليهم جلود الفهود لا يقول هراً وبراً حتى يأخذ جميع الدنيا وكذلك ألفاظهم فى الهر

والبر وابن الكلبي يزعم عن الشرقي بن القطامي أن الهر السنور والبر الفارة والباز والفهد من جوارح الملوك والشاهين والصقر والزرق والبؤبؤ وليس ترى شريفا يستحسن حمل البازي لان ذلك من عمل البازيار ويستهجن حمل الصقور والشواهين وغيرها من الجوارح وما أدرى علة ذلك الا ان الباز عندهم أعجمي والصقر عربي، ومن الحيوان الذي يدرب فيستجيب ويكيس فيصيح العقعق فانه يستجيب من حيث تستجيب الصقور ويزجر فيعرف ما يراد منه ويخبأ الحلى فيسأل عنه ويصاح به فيمضى حتى يقف بصاحبه على المكان الذى خبأ فيه ولكن لا يلزم البحث عنه وهو مع ذلك كثيرا ما يضيع بيضه وفراخه ، وثلاثة أشياء تخبي الدراهم والحلي وتفرح بذلك من غير انتفاع به منها العقعق ومنها ابن مقرض دويبة آلف من ابن عرس وهو صعب وحشي يحب الدراهم ويفرح بأخذها ويخبيها ويصيد العصافير صيداً كثيراً وذلك أنه يؤخذ فيربط بخيط شديد الفتل ويقابل به بيت العصفور فيدخل عليه فيأخذه وفراخه لا يقتلها حتي يقتلها الوجل فلا يزال كذلك ولو طاف به على ألف جحر فاذا حل خيطه ذهب ولم يقم وضرب من الفار يسرق الدراهم والدنانير والحلى ويفرح به ويظهره ويغيبه في الجحر وينظر اليه ويتقلب عليه قال وخطب الاشعث فقال أيها الناس انه ما بقى من عدوكم الا كما بقى من ذنب الوزغة يضرب به يمينا وشمالا ثم لا يلبث أن يموت فمر به رجل من قشير فسمع كلامه فقال قبح الله تعالى هذا ورأيه يأمر أصحابه بقلة الاحتراس وترك الاستعداد وقد يقطع ذنب الوزغة من ثلثها الاسفل فتعيش ان أفلتت من الذر وقد تحتمل الخنافس والكلاب من الطعن الجائف والسهم النافذ ما لا يحتمله مثله شئ والخنفساء أعجب من ذلك وكفاك بالضب والجمل يكون سنامه كالهدف فيكشف عنه جلده في المجهدة ثم يجتث من أصله بالشفار ثم تماد عليه الجلدة ويداوي فيبرأ ويحتمل ذلك وهو أعجب في ذلك من الكبش في قطع أليته من أصل عجب ذنبه وهي كالترس وربما فعل ذلك به وهو لا يستطيع ان ينقل أليته الا بأداة تتخذ ولكن الألية على حال طرف زائد والسنام قد طبق على جميع ما في الجوف ،ونظر اياس بن معاوية في الرحبة بواسط الى آجرة فقال تحت هذه

الآجرة دابة فنزعوا الآجرة فاذا تحتها حية متطوقة فسئل عن ذلك فقال لانى رأيت ما بين الآجرتين نديا من جميع تلك الرحبة فعلمت ان تحتها شيئاً يتنفس واذا سقط الثلج في الصحارى صار كله طبقا واحداً الا ما كان مقابلا لافواه أجحرة الوحش والحشرات فان الثلج فى ذلك المكان ينحسر ويرق لانفاسها من أفواهها ومناخرها ووهج أبدانها فالكلاب فى تلك الحال يعتادها الاسترواح حتى تقف بالكلابين على رؤس المواضع التى تنبت للاجرد والقصيص وهي كالتربة التى تنبت الكماة وتربيها وربما كانت الواحدة كالرمانة الفخمة ثم تخلق من بزر وليس لها عرق تمص به من قوى تلك الارض ولكنها قوى اجتمعت من طريق الاستحالات وكما تنطبخ في أعماق الارض من جميع الجواهر وليس لها بد من تربة ذلك من جوهرها ولا بد لها من وسمي فاذا صار جانبها الى تلك المواضع ولا سيما ان كان اليوم يوما بشمسه وقع فانه اذا أبصر الاجرد والقصيص استدل على مواضعها بانتفاخ الارض وانصداعها واذا نظر الاعرابى الى موضع الانتفاخ يتصدع فى مكانه فكان بفتحه فى الحالات مستويا علم أنه كمأة وان خالط في الحركة والتصدع علم أنه دابة فاتقى مكانها

باب نوادر وأشعار وأحاديث

قال الشاعر

وعصيت أمر ذوى النهي * وأطعت رأي ذوى الجهاله
فاحتلت حين صرمتنى * والمرء يعجز لا محاله

وقال بشار

وصاحب كالدمل الممد * حملته فى رقعة من جلدي
الحر يلحى والعصا للعبد * وليس للملحف مثل الرد

وقال خليفة الاقطع

العبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه الملامه

باب من القول في المرجان قال رجل من بني عجل

وشى بي واش عند ليلى سفاهة * فقالت له ليلى مقالة ذي عقل
وخبرها انى عرجت فلم تكن * كورهاء تخبو الملامة للبعل
ومابي من عيب الفتي غير أنني * جعلت العصا رجلا أقيم بها رجلى

وقال أبو حية فى مثل ذلك

وقد جعلت اذا ما قمت أوجعنى * ظهرى فقمت قيام الشارب السكر
وكنت أمشى على رجلين معتدلا * فصرت أمشي على أخرى من الشجر

وقال أعرابى من بنى تميم

وما بى من عيب الفتى غير أنى * ألفت قناتي حين أوجعني ظهري

وكان بنو الحداء عرجان كلهم فهجاهم بعض الشعراء فقال

اذا عدوا وعصى الطلح أرجلهم * كما تنصب وسط البيعة الصلب
لله در بنى الحداء من نفر * وكل جار على جيرانه كلب

وانما شبه أرجلهم بعصى الطلح لان أغصان الطلح تنبت معوجة لذلك قال سعد ان الأعمى

والذى خفف الحذار من الذعـ * ـر وقد فات قاصم الافعال
فهذا جامعاً بأيد هشيم * وبساق كعود الطلح بالى

وله حديث وكان الحكم بن عبدل أعرج وكان بعد هجائه لمحمد بن حبان بن ثابت لا يبعث الى أحد بعصاه التى يتوكأ عليها وكتب عليها حاجته الا قضاها كيف كانت فدخل على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وهو أمير الكوفة وكان أعرج وكان صاحب شرطته أعرج فقال ابن عبدل

الق العصا ودع التعرج والتمس * عقلا فهذى دولة العرجان
فأميرنا وأمير شرطتنا معا * يا قومنا لكليهما رجلان
فاذا يكون أميرنا ووزيره * وأنا فان الرابع الشيطان

وقال آخر ووصف ضعفه وكبر سنه

آتى الندى فلا يقرب مجلسي * وأقود للشرف الرفيع حماريا

وكان من العرجان والشعراء أبو ثعلب وهو كليب بن الغول ومنهم أبو مالك الاعرج وفي أحدهما يقول اليزيدى

تلقا ثنايا اذا ما جاء ندهم * وبدهم ان أتانا كان ثنيانا

فالبدا ضخم السادات ثناويان وثنيان وهو اسم واحد وهو تأويل قول الشاعر

يصد الشاعر الثنيان عني * صدود البكر عن قرم الهجان

لم يمدح نفسه لان يغلبه الفحل وانما أراد ان يصغر بالذي هجاه وبأنه ثنيان وان كان عند نفسه فحلا وأما قول الشاعر

ومن يفخر بمثل أبي وجدى * يجئ قبل السوابق وهو ثاني

اي ثان عنانه ، أحاديث في أعاجيب المماليك أتيت باب السعدانى فاذا غلام له مليح بالباب كان يتبع دابته فقلت له قل لمولاك ان شئت بكرت الى وان شئت بكرت اليك قال أنا ليس أ كلم مولاى ومعى أبو القنافذ فقال أبو القنافذ ما نحتاج مع هذا الخبر الى معاينة، وقال أبو البصير المنجم وهو عند قثم بن جعفر لغلام له مليح صغير السن ماحبسك ياحلقي والحاقي المخنث ثم قال أما والله لئن قمت اليك ياحاقي لتعلمن فلما أكثر عليه من هذا الكلام قال أدعو الله على من جعلني حاقيا ، حدثني الحسن بن المرزبان قال كنت مع أصحاب لنا اذ أتينا بغلام سندي يباع فقلت له أشتريك ياغلام فقال حتى أسئل عنك قال المكي وأتي المثني بن بشر بشيخ سندى ليشتريه على انه طباخ فقال له المثنى كم تحسن ياغلام من لون فلم يجبه فأعاد عليه وقال ياغلام كم تحسن من لون فكلم غيره وتركه فقال المثنى فى الثالثة ماله لايتكلم ياغلام كم تحسن من لون فقال السندى كم تحسن من لون كم تحسن من لون وانا لا نحسن مايكفيك أنت قال حسبك الآن ثم قال المثنى للدلال امض بهذا عليه لعنة الله ، وحدثني ثمامة قال جاءنا رجل بغلام سندى يزعم أنه طباخ حاذق فاشتريته منه فلما أمرت له بالمال قال الرجل انه قد غاب عناغيبة فان اشتريته على هذا الشرط والا فاتركه فقلت للسندى أ كنت أبقت قط قال والله ما أبقت قط فقلت أنت الآن قد جمعت مع الآباق الكذب قال كيف ذلك قال لان هذا الموضع لايجوز أن يكذب فيه البائع قال جعلني الله تعالى فداءك

أنا والله أخبرك عن قصتي كنت أذنبت ذنبا كما يذنب هذا وهذا جميع غلمان الناس خلف بكل يمين ليضربني أربعمائة سوط فكنت ترانى ان أقيم قلت لا والله قال فهذا الآن إباق قلت لا قال فاشتريته فاذا هو أحسن الناس خبزا وأطبخهم قدراً، وخبرنى رجل قال قال رجل لغلام له ذات يوم يا فاجر قال جعلنى الله فداك مولى القوم منهم وزعم روح بن الطائفية وكان روح عبداً لأخت أنس بن أبى شيخ وكانت قد فوضت اليه كل شيء من أمرها قال دخلت السوق أريد شراء غلام طباخ فبينا انا واقف اذ جيء بغلام يعرض بعشرة دنانير ويساوى على حسن وجهه وجودة قده وحداثة سنه دون صناعته مائة دينار فلما رأيته لم أتمالك ان دنوت منه فقلت ويلك أقل ثمنك على وجهك مائة دينار والله ما يبيعك مولاك بعشرة دنانير الا وأنت شر الناس فقال أما لهم فأنا شر الناس وأما لغيرهم فأنا أساوى مائة ومائة قال فقلت التزين بجمال هذا وطيب طبخه يوما واحدا عند أصحابى يساوي عشرة دنانير فابتعته ومضيت به الى المنزل فرأيت من حذقه وخدمته وتوقيه وقلة تزيده ما ان بعثته الى الصيرفي ليأتيني من قبله بعشرين ديناراً فأخذها ومضى على وجهه فوالله ما شعرت الا والناشد قد جاء وهو يطلب جعله فقلت لهذا وشبهه باعك القوم بعشرة دنانير قال لولا انى أعلم انك لا تصدق يميني كيف طرت الدنانير من ثوبي ولكنى أقول لك واحدة احتبسني واحترس مني واستمتع بخدمتي واحتسب انك كنت اشتريتني بثلاثين ديناراً قال فاحتبسته لهواى فيه فقلت لعله ان يكون صادقا ثم رأيت والله من صلاحه واناءته وحسن خدمته ما دعانى الى نسيان جميع قصته حتي دفعت اليه يوما ثلاثين ديناراً ليوصلها الى أهلى فلما صارت الى يده ذهب على وجهه فلم ألبث الا أياما حتى رده الناشد فقلت له زعمت أن الدنانير الاولى طرت منك فما قولك فى هذه الثانية قال انا والله أعلم انك لا تقبل لى عذراً فدعنى خارج الدار ولا تجاوز بى خدمة المطبخ ولو كان الضرب يرد عليك شيئاً من مالك لاشرت عليك به ولكن قد ذهب مالك والضرب ينقص من أجرك ولعلى أيضاً أموت تحت الضرب فتندم وتأثم وتفتضح ويطالبك السلطان ولكن اقتصر بي على المطبخ فاني سأسرك فيه وأوفره عليك واستجيد ما أشتريه واستصلحه لك وعدانك

اشتريتني بستين ديناراً فقلت له أنت لا تفلح بعد هذا اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى فقال أنت عبد فكيف يجوز عتقك قلت فأبيعك بما عز وهان فقال لا تبعني حتى تعد طباخا فانك ان بعتني لا تتغذي الا بخبز وباقلاء قال فتركته وصبرت بعد ذلك أياما فبينا أنا جالس يوما اذ مرت على شاة لبون كريمة غزير الدر كنا فرقنا بينها وبين عناقها فأكثرت في الثغاء فقلت كما يقول الناس وكما يقول الضجر اللهم امن هذه الشاة ليت ان الله بعث انسانا ذبحها أو سرقها حتى نستريح من صياحها قال فلم البث الا بقدر ما غاب عن عيني ثم عاد فاذا في يده سكين وساطور وعليه قميص العمل ثم أقبل على فقال هذا اللحم ما نصنع به وأي شيء تأمر به فقلت وأى لحم قال لحم هذه الشاة قلت وأية شاة قال التي أمرت بذبحها قلت وأى شاة أمرت بذبحها قال سبحان الله أليس قلت الساعة ليت ان الله تعالى قد بعث اليها من يذبحها أو يسرقها فلما أعطاك الله تعالى سؤلك صرت تتجاهل قال روح فبقيت والله لا أقدر على بيعه ولا حبسه ولا على عتقه قال مسكين الدارمى

وان أبانا بكر آدم فاعلوا * وحواء قوم ذو عنانين شارف
كان على خرطومه متهافتا * من القطن هاجته الاكف النوادف
وللصدأ المسود أطيب عندنا * من المسك دافته الاكف الدوائف
ويصبح عرفان الدروع جلودنا * اذا جاء يوم مظلم اللون كاسف
تعلق في مثل السوارى سيوفنا * وما بينها والكعب منا تنائف
وكل رديني كان كعوبه * قطا سابق مستورد الماء صائف
كان هلالا لاح فوق قناته * جلا الغيم عنه والقتام الحراجف
له مثل حلقوم النعامة حلة * ومثل القدامي ساقها متناصف

وقال أيضاً مسكين الدارمي

واذا الفاحش لاقى فاحشاً * فهنا كم وافق الشن الطبق
انما الفحش ومن يعتاده * كغراب البين ما شاء نعق
أو حمار السوء ان أشبعته * رمح الناس وان جاع نهق

أو غلام السوء ان جوعته * سرق الجار وان يشبع فسق

وقال ابن قيس الرقيات

مقل القوم من قريش اذا ما * فاز بالجهل معشر آخرونا
لا يأمون في العشيره بالسوء * ولا يفسدون مايصنعونا

وقال ابن قيس أيضاً واسمه عبد الله

لو كان حولى بنو أمية لم * ينطق رجال اذا هم نطقوا
ان جلسوا لم تضق مجالسهم * أو ركبوا ضاق عنهم الافق
كم فيهم من فتي أخى ثقة * عن منكبيه القميص منخرق
تحسبهم عذر النساء اذا * ما احمر تحت القوانس الحدق
وأنكر الكلب أهله ورأى * الشر وطاح المروّع الفرق

وقال النابغة

سهكين من صدإ الحديد كانهم * تحت السنور جنة البقار

وقال بشار بن برد

يطيب ريح الخيزرانة بينهم * على انها ريح الدماء تضوع

وسنقول في الشهب وفى استراق السمع وانما تركنا جمعه في مكان واحد لان ذلك كان يطول على القارى ولو قد قرأ فضل الانسان على الجان والحجة على من أنكر الجان لم يستثقله لانه حينئذ يقصد اليه على أنه مقصور علي هذا الباب فاذا أدخلناه فى باب القول فى صغار الوحش والسباع والهمج والحشرات فاذا ابتدأ القراءة على ذلك استطال كل قصير اذا كان من غير هذا المعني ، قالوا زعمتم ان الله تعالى قال ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وقال تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم وقال تعالى وجعلناها رجوما للشياطين ونحن لم نجد قط كوكبا خلا مكانه فما ينبغى أن يكون واحد من جميع هذا الخلق من سكان الصحاري والبحار ومن يراعى النجوم للاهتداء وأنكر فى خلق السموات أن يرى كوكبا واحداً قائلا مع قوله وجعلناها رجوما للشياطين قيل لهم قد يحرك الانسان يده أو حاجبه أو أصبعه فتضاف

تلك الحركة الى كله فلا يشكون ان الكل هو العامل لتلك الحركة ومن فضل شعاع من كوكب فأحرق وأضاء في جميع البلاد وفي حكم كل انسان باضافة ذلك الاحراق الى ذلك الكوكب وهذا جواب سهل والحمد لله ولم يقل أحد أنه يجب في قوله وجعلناها رجوما للشياطين انه يعني الجميع فاذا كان قد صح أنه انما عنى البعض في غب نجوم المجرة والنجوم التي تظهر في ليالي الحنادس لانه محال أن تقع عين على ذلك الكوكب بعينه في وقت زواله حتي يكون الله عز وجل لو أفنى ذلك الكوكب من بين جميع الكواكب الملتفة لعرف هذا المتأمل مكانه ولو جد مس فقده ومن ظن بجهله أنه يستطيع الاحاطة بعد النجوم فانه متى تأملها في الحنادس وتأمل المجرة وما حولها لم يضرب المثل في كثرة العدد الا أنها دون الرمل والتراب وقطر السحاب فيقال بعضهم يدنو الشهاب قريبا ونراه يجيء عرضا ولا منقضا ولو كان الكوكب هو الذي ينقض لم يركالخيط الرقيق ولأضاء جميع الدنيا ولاحرق كل شيء مما على وجه الارض قيل له قد تكون الجبال أفقية وتكون علوية فاذا كانت كذلك فصل الشهاب منها عرضا وكذلك قال الله تعالي الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب وقال الله عز وجل لعلى آتيكم بشهاب قبس فليس لكم ان تقضوا بأن المباشر لبدن الشيطان من الكوكب حتى لا يكون غير ذلك وأنتم تسمونه والله تعالى يقول فأتبعه شهاب ثاقب والشهاب معروف في اللغة واذا لم يوجب عليها ظاهر لفظ القرآن لم ينكر ان يكون الشهاب كالخط أو كالسهم لا يضيء الا بمقدار ولا يقوى على احراق هذا العالم وهذا قريب والحمد لله، وطعن بعضهم من جهة أخرى فقال زعمتم ان الله تبارك وتعالى قال وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب وقال على نسق الكلام الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب قال فكيف تكون الخطفة من المكان الممنوع قيل له ليس بممنوع من الخطفة اذ كان لا محالة مؤمنا بالشهاب ومقتولا على أنه لو كان سلم بالخطفة لما كان استفاد شيئاً للتكاذيب والرياسة وليس كل من كذب على الله وادعى النبوة كان على الله تعالى أن يظهر تكذيبه بأن يخسف به الارض أو ينطق بتكذيبه في

تلك الساعة واذا وجب في العقول السليمة أن لا يصدق في الاخبار لم يكن معه برهان فكنى بذلك ولو كان ذلك لكان جائزا ولكنه ليس بواجب وعلى ان ناسا من النحويين لم يدخلوا قوله تعالى الا من خطف الخطفة في الاستثناء وقال انما هو كقوله

الا كخارجة المكلف نفسه * وأبى قبيصة ان أغيب وتشهدا

وكقوله أيضاً

الا كباشرة الذى كلفتم * كالغضو فى علوائه المتثبت

وقال الشاعر فى باب آخر مما يكون موعظة لمن الفكر والاعتبار فمن ذلك قوله

فلا تكن ريب المنون فانني * أرى قمر الليل المقدر كالفتي

يكون صغيراً ثم يعظم دائبا * ويرجع حتي قيل قدمات وانقضي

كذلك يزيد المرء ثم انتقاصه * وتكراره فى إثره بعد مامضى

﴿ وقال آخر ﴾

ومستثبت لا بالليالى تباته * ومالن تلاقت به الشفتان

وآخر فى خمس وتسع تمامه * ويجهد في سبع معا وثمان

الاول الطريق والثانى القمر وقال أبو العتاهية

* أسرع في نقض امرئ تمامه *

وقال عبد هند

فان السنان يركب المرء حده * من العار او يعدو على الاسد الورد

فان الذى ينهاكم عن طلابها * يناغي نساء الحي في طرة البرد

نملل والايام تنقص عمرنا * كما تنقص النيران من طرف الزند

وفى أمثال العرب كل ماقام شخص وكل ما ازداد نقص ولو كان يميت الناس الداء لاعاشهم الدواء وقال حميد بن ثور

أرى بصري قد رابني بعد صحة * وحسبك داء ان تصح وتسلما

وقال النمر بن تولب

يحب الفتي طول السلامة والبقا * فكيف ترى طول السلامة يفعل

وقيل للموبذ متي أبنك يني أبنك قال يوم ولد وقال الشاعر

تعرفت أطواراً أرى كل عبرة * وكان الصبي مني جديداً فأخلقا
وما زاد شيء قط الا لنقصه * وما اجتمعا الالفان الا تفرقا

وقيل لاعرابى فى مرضه الذي مات فيه أى شئ تشتكي قال تمام العدة وانقضاء المدة ، وقيل لاعرابى فى شكاته التى مات فيها كيف تجدك قال أجدنى أجد مالا أشتهى وأشتهى مالا أجد وقيل لعمرو بن العاصى فى مرضته التى مات فيها كيف تجدك قال أجدنى أذوب ولا أثوب وقال معمر قلت لرجل كان معي فى الحبس وكان مات بالبطن كيف تجدك قال أجد روحي قد خرجت من نصفي الاسفل وأجد السماء مطبقة على ولو شئت أن امسها بيدى لفعلت ومهما شككت فيه فلا أشك أن الموت برد ويبس وأن الحياة حرارة ورطوبة وقال يعقوب بن الربيع فى مرثية جارية كانت له

حتى اذا فتر اللسان وأصبحت * للموت قد ذبلت ذبول النرجس
رجع اليقين مطامعي يأسا كما * رجع اليقين مطامع المتلمس

وقال يعقوب بن الربيع

لئن كان قربك لى نافعاً * لبعدك قد كان لى أنفعا
لانى أمنت رزايا الدهر * روان جل خطب فلن أجزعا

وقال أبو العتاهية

وكانت في حياتك لى عظات * فأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال التيمى

لقد عزى ربيعة أن يوما * عليها مثل يومك لا يعود
ومن عجب تصدن له المنايا * على عمد وهن له بنود

وقال صالح بن عبد القدوس

ان يكن ماأصبت فيه جليلا * فذهاب العزاء فيه أجل

ونظر بعض الحكماء الى جنازة الاسكندر فقال ان الاسكندر كان أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس وقال حسان

أبيض مني الرأس بعد سواده * ودعى المشيب حليلتي لبعاد
واستنفد القرن الذي أنا منهم * وكفى بذلك علامة لحصادي

وقال اعرابي

اذا الرجال ولدت أولادها * واضطربت من كبر اعضادها
وجعلت اسقامها تعتادها * فهي زروع قد دنا حصادها

وقال ضرار بن عمرو من سره بنوه ساءته نفسه وقال عبد الرحمن بن أبي بكرة من أحب طول العمر فليوطن نفسه على المصائب وقال أخو ذي الرمة

ولم ينسني أوفى الملمات بعده * ولكن نكأ القرح بالقرح أوجع

وقال بعض المجان

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وسئل بعض المجان كيف أنت في دينك قال أخرقه بالمعاصي وارقعه بالاستغفار وأنشدوا لعروة بن أذينة

نراع اذا الجنائز قابلتنا * ويحزننا بكاء الباكيات
كروعة ثلة لمغار سبع * فلما غاب عادت راتعات

وقال أبو العتاهية

اذا ما رأيتم ميتين جزعتم * وان لم تروا ملتم الى صبواتها

وقالت الخنساء

ترتع ما غفلت حتي اذا ذكرت * فانما هي إقبال وادبار

وكان الحسن لا يتمثل الا بهذين البيتين وهما

يسر الفتى ما كان قدم من تقى * اذا عرف الداء الذي هو قاتله

والبيت الآخر

ليس من مات فاستراح بميت * انما الميت ميت الاحياء

وكان صالح المدني يتمثل في قصصه بقوله

فبات يروي أصول الفسيل * فعاش الفسيل ومات الرجل

وكان أبو عبد الحميد المكفوف يتمثل فى قصصه بقوله

يا راقد الليل مسروراً بأوله * ان الحوادث قد يطرقن اسحاراً

ونظر بكر بن عبد الله المزني الى مورق العجلى فقال

عند الصباح يحمد القوم السري * وتنجلى عنهم غيابات الكرى

وقال أبو النجم

كلنا يأمل مدا فى الاجل * والمنايا هى آفات الامل

فأما أبو النجم فانه ذهب فى الموت مذهب زهير حيث يقول

ان الفتى يصبح للاسقام * كالغرض المنصوب للسهام

* أخطاه رام وأصاب رامي *

وقال زهير

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

وقال الآخر

واذا صنعت صنيعة أتممتها * بيدين ليس نداهما بمكدر

فاذا تباع كريمة أو تشترى * فسواك بائعها وأنت المشترى

وقال الشاعر

قصير يد السربال يمشي معرجا * وشق قريش فى قريش مركبا

وقال الآخر

بعثت الى العراق ورافديه * فزاريا أحذ يد القميص

تفيهق بالعراق أبو المثنى * وعلم قومه أكل الخبيص

وقال الآخر

حبذا رجعها اليّ يديها * بيدى درعها تحل الازارا

وأنشد

يجاوبه المنايا وهو عنهن غافل * بمنخرق السربال عارى المناكب

جريء على الاهوال يمدل ذروه * بأبيض سقاط وراء الضرائب

وقال جرير

تركت لكم بالشام حبل جماعة * متين القوى مستحصد الفتل باقيا
وجدت رقى الشيطان لا تستفزه * وقد كان شيطاني من الجن راقيا

وقال الاسدى

كثير المناقب والمكرمات * يجود مجداً وأصلا أثيلا
ترى بيديه وراء الكمى * نباله بعد نصال نصولا
تمنى السفاه ورأى الخنا * وضل ولقد كان قد ماضلولا
فان أنت تنزع عن ودنا * فما ان وجدت لقلبي محيلا

﴿ تم الجزء السادس من كتاب الحيوان ويليه الجزء السابع ﴾
« وأوله القول في احساس أجناس الحيوان »

فهرس

﴿ الجزء السابع من كتاب الحيوان ﴾

صحيفه

﴿ تم الفهرست ﴾

الجزء السابع من كتاب

الحيوان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

البصرى المتوفى سنة ٢٥٥ هجريه

وهذا الكتاب هو

« البارع فى الأدب والجامع في حكم العرب »

عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي

الحاج محمد افندى ساسى المغربى التونسى

سنة ١٣٢٥ هـ و١٩٠٧ م

(مطبعة السعادة بجوار المحافظة بمصر)

« لصاحبها محمد اسماعيل »

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى احساس أجناس الحيوان

اللهم انا نعوذ بك من الشيطان الرجيم ونسألك الهداية الى الصراط المستقيم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم خاصة وعلى أنبيائه عامة ونعوذ بالله ان تدعونا المحبة لاتمام هذا الكتاب الى ان نصل الصدق بالكذب وندخل الباطل فى تضاعيف الحق وأن نتكثر بقول الزور ونلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن وستر قبحه بالتأليف الموثق أو نستعين على ايضاح الحق الا بالحق وعلى ايضاح الحجة الا بالحجة ونستميل الى دراسته واقتنائه ونستدعى الى تفضيله والاشارة بذكره بالاشعار المولدة والاحاديث الموضوعة والاسانيد المدخولة وبما لا شاهد عليه إلا دعوي قائله ولا مصدق له الا من لا يوثق بمعرفته ونعوذ بالله من فتنة القول وخطله ومن الاسهاب وتقحم خطته والاعتماد فيما بيننا وبين كثير من أهل هذا الزمان على من حسن الظن والاتكال فيهم على العذر فان كثيرا ممن يتكلف قراءة الكتب ومدارسة العلم يقفون من جميع هذا الكتاب على الكلمة الضعيفة واللفظة السخيفة وعلى موضع من التأليف قد عرض له شئ من استكراه وناله بعض الاضطراب أو كما يعرض فى الكتب من سقطات الوهم وفلتات الضجر ومن خطأ الناسخ وسوء تحفظ المعارض على معنى لعله لو تدبره بعقل غير مفسد ونظر غير مدخول وتصفحه وهو محترس من عوارض الحسد ومن عارض التبرع ومن اخلاق من عسي أن يتسع فى القول بمقدار ضيق صدره ويرسل لسانه ارسال الجاهل بكنه ما يكون منه ولو جعل بدل شغله بقليل ما يري من المذموم تنقله بكثير ما يري من المحمود كان ذلك أشبه بالادب المرضى والخيم الصالح وأشد مشاكلة للحكمة وأبلغ

من سلطان الطيش وأقرب الى عادة الصلف وسيرة الأولين وأجدر أن يهب الله تعالى له السلامة فى كتبه والدفاع عن حجته يوم مناضلته خصومه ومقارعة أعدائه وليس هذا الكتاب يرحمك الله فى ايجاب الوعد والوعيد فيعترض عليه المرجئ ولا في تفضيل على فينتصب له العثمانى ولا هو فى تصويب الحكمين فيسخطه الخارجى ولا هو فى تقديم الاستطاعة فيعارضه من يخالف التقديم ولا هو فى تثبيت الاعراض فيخالفه صاحب الاجسام ولا هو فى تفضيل البصرة على الكوفة ومكة على المدينة والشام على الجزيرة ولا فى تفضيل العجم على العرب وعدنان على قحطان وعمرو على واصل فيرد بذلك الهذلى على النظامى ولا هو فى تفضيل مالك على أبى حنيفة ولا هو فى تفضيل امرئ القيس على النابغة وعامر بن الطفيل على عمرو بن معدي كرب وعباد بن الحسين على عبيد الله بن الحر ولا في تفضيل ابن سريج على الغريض ولا فى تفضيل سيبويه على الكسائى ولا فى تفضيل الجعفرى على العقيلى ولا فى تفضيل حلم الاحنف على حلم معاوية وتفضيل قتادة على الزهرى فان لكل صنف من هذه الاصناف شيعة ولكل رجل من هؤلاء جنداً وعدداً من مخاصميهم وسفائهم والمتسرعون منهم كثير وعلماؤهم قليل وانصاف علمائهم أقل ولا تنكر هذا حفظك الله تعالى أنا رأيت رجلين بالبصرة على باب مويس بن عمران تنازعا فى العنب النيروزي والرازقى فجرى بينهما اللحين حتى تواثبا فقطع الكوفى أصبع البصرى وفقأ البصرى عين الكوفى ثم لم ألبث الا يسيراً حتى رأيتهما متصافيين متنادمين لم يقما قط على مقدار ما يغضب من مقدار ما يرضى فكيف يقعان على مقدار طبقات الغضب والرضا والله المستعان، وقد ترك هذا الجمهور الاكبر والسواد الاعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانبا وأعرضوا عنه صفحا فليس الا لا أو نعم الا أن قولهم لا موصول منهم بالغضب وقولهم نعم موصول منهم بالرضا وقد عزل الحق جانبا ومات ذكر الحلال والحرام ورفض ذكر القبيح والحسن، قال عمرو بن الحارث كنا نبغض من الرجال ذا الرياء والنفخ ونحن اليوم نتمناها، قد كتبنا من كتاب الحيوان ستة أجزاء وهذا الكتاب السابع هو الذى ذكرنا فيه الفيل بما حضرنا من جملة القول فى شأنه

وجملة أسبابه والله تعالى الموفق وانما اعتمادنا في هذا الكتاب على أخبار مافى أجناس الحيوان من الحجج المتظاهرة وعلى الادلة المترادفة وعلى التنبيه على ماخلقها الله تعالى من البرهانات التي لا يعرف حقائقها الا من الفكرة وغشاها من العلامات التي لا تنال منافعها الا بالعبرة وكيف فرق فيها من الحكمة العجيبة والاحساس الدقيقة والصنعة اللطيفة وما ألهمها من المعرفة وكساها من الجبن والجرأة وبصرها بما يقيمها ويعيشها وأشعرها من الفطنة بما تحاذر بها عدوها ليكون ذلك سبباً للحذر ويكون حذرها سبباً للحراسة وحراستها سبباً للسلامة حتى تجاوزت فى ذلك مقدار حراسة المجرب من الناس والخائف المطلوب من أهل الاستطاعة والروية كالذى ترون من تحارس الغرانيق والكراكى وأشكال من ذلك كثيرة حتى صار الناس لا يضربون المثل الا بها ولا يذمون ولا يمدحون الا بما يجدون فى أصناف الوحش من الطير وغير ذلك فقالوا أحذر من عقعق وأحذر من غراب وأحذر من عصفور وأحذر من فرخ العقاب وأسمع من قراد وأسمع من فرس وأجبن من صافرة وأسخي من لافظة وأصنع من تنوط وأصنع من سرفة وأصنع من دبر وأهدى من قطاة وأهدى من حمام وأهدي من جمل وأزهي من ذباب وأجرأ من الليث وأكسب من الذئب وأخدع من ضب وأروغ من ثعلب وأعق من ضب وأبر من هرة وأسرع من سمع وأظلم من حية وأظلم من ورل وأكذب من فاختة وأصدق من قطاة وأموق من رخمة وأحزم من فرخ العقاب ونبهنا تعالى وعز عن هذه المناسبة وعن هذه المشاركة وامتحن ماعندنا بتقديمها علينا ببعض الامور وتقديمها علينا في أكثر الامور وأراد بذلك ألا يخلينا من حجة ومن النظر الى عبرة والى مايعود عند الفطن موعظة ولما كرهنا من السهو والاغفال ومن البطالة والاهمال جعلنا في كل أحوالنا لا تفتح أبصارنا الا وهي واقعة على ضرب من الدلالة وعلي شكل من أشكال البرهانات وجعل ظاهر مافيها من الآيات داعياً الى التفكير فيها وجعل ما استخزنها من أصناف الاعاجيب يعرف بالكشف عنها فمنها ظاهر يدعوك الى نفسه ويشير الى مافيه ومنها باطن يزيدك بالامور ثقة اذا أفضيت الى حقيقته لتعلم أنك مع فضيلة عقلك وتصرف استطاعتك

اذا ظهر عجزك عن عمل من هو أعجز منك ان الذى فضلك عليه بالاستطاعة والمنطق هو الذي فضله عليك بضروب أخر وانكما ميسران لما خلقتما له ومتصرفان لما سخرتما له وان الذي يعجز عن صنعة السرفة وعن تدبير العنكبوت في قلتهما ومهانتهما وضعفهما وصغر صورهما لاينبغي أن يتكبر فى الارض ولا يمشى الخيلاء ولا يتهكم فى القول ولا يتألى ولا يستأمر وليعلم ان عقله منحة من ربه وان استطاعته عارية عنده وانه انما يستبقى النعمة بادامة الشكر ثم حبب اليها طلب الذرء والسفاد والذي يكون مجلبة للولد وحبب اليها أولادها ونجلها وذرءها ونسلها حتى قالوا أكرم الابل أشدها حنيناً وأكرم الصفايا أشدها حباً لاولادها وجعل تألفها مع بعضها من الطروقة اذا لم يكن الزواج لها خلقا وجعل إلف العرس لها عادة وقواها على المسافدة لتتم النعمة وتتم المنة وألهمها المبالغة في التربية وحسن التعهد وشدة التفقد وسوى فى ذلك بين الجنس الذى يلقم أولاده تلقيما وبين الذي يرضعها ارضاعا وبين الذى يزقها زقا وبين مايحضن وما لايحضن ومنها ماأخرجها من ارحام البيض وارحام البطون كاسية ومنها ماأخرجها كاسية كاسبة وأمتعها وأولدها وجعلها نعمة على عباده وامتحانا لشكرهم وزيادة فى معرفتهم وجلاء لما يتراكم من الجهل على قلوبهم فليس لهذا الكتاب ضد من جميع من يشهد الشهادة ويصلى الى القبلة ويأكل الذبيحة ولا ضد من جميع الملحدين من يقر بالبعث وينتحل الشرائع وأن الحد في ذلك وزاد ونقص الا الدهرى فان الذى ينفي الرب ويحيل الأمر والنهى وينكر جواز الرسالة ويجعل الطينة قديمة ويجحد الثواب والعقاب ولا يعرف الحلال والحرام ولا يقر بان في جميع العالم برهانا يدل على صانع ومصنوع وخالق ومخلوق ويجعل الفلك الذى لايعرف نفسه من غيره ولا يفصل بين الحديث والقديم وبين المحسن والمسيء ولا يستطيع الزيادة فى حركته ولا النقصان من دورانه ولا معاقبة للسكون بالحركة ولا الوقوف طرفة عين ولا الانحراف عن الجهة هو الذى يكون به جميع الابرام والنقض ودقيق الامور وجليلها وهذه الحكم العجيبة والتدابير المتقنة والتآليف البديعة والتركيب الحكيم على حساب معلوم ونسق معروف على غاية من حقائق

الحكمة واحكام الصنعة ولا ينبغى لهذا الدهرى أيضاً أن يعرض لكتابنا هذا وان دل على خلاف مذهبه ودعا الى خلاف اعتقاده لان الدهرى ليس يري أن في الارض ديناً أو نحلة أو شريعة أو ملة ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ولا للحرام نهاية ولا يعرفه ولا يتوقع العقاب على الاساءة ولا يتوخي الثواب على الاحسان وانما الصواب عنده والحق في حكمه انه والبهيمة سيان وأنه والسبع سيان ليس القبيح عنده الا ماخالف هواه وأن مدار الأمر على الاخفاق والدرك وعلى اللذة والالم وانما الصواب فيما نال من المنفعة وان قتل الف انسان صالح لنالة الدرهم الردىء فهذا الدهرى لا يخاف ان ترك الطعن على جميع الكتب عقابا ولا لائمة ولا عذابا ولا منقطعاً ولا يرجو ان ذمها ونصب اليها ثوابا فى عاجل ولا آجل فالواجب أن يسلم هذا الكتاب على جميع البرية إذ كان موضعه على هذه الصفة ومجراه الى هذه الغاية والله تعالى الكافى الموفق بلطفه وتأييده انه سميع قريب ، ثم رجع بنا القول الى الاخبار عن الحيوان وبأى شيء تفاضلت وبأي شيء خصت وبماذا أنست وقد عرفنا ما أعطيت فى الشم والاسترواح قال الراجز وذكر الذئب

يستخبر الريح اذا لم يسمع * بمثل مقراع الصفا المرقع

وقد عرفنا كيف شم السنانير والسباع والذئاب وأعجب من ذلك وجد ان الذرة لرائحة شيء لو وضعته على أنفك لما وجدت له رائحة كرجل جرادة يابسة منبوذة كيف تجد رائحتها من جوف جحرها حتى تخرج اليها فاذا تكلفت حملها فاعجزتها كيف تستدعى اليها سائر الذر وتستعين بكل ما كان منها في الجحر ونحو شم الفرس رائحة الحجر من مسيرة ميل والفرس يسير قداما والحجر خلفه بذلك المقدار من غير تلفت ولا معاينة من جهة من الجهات وهذا كثير وقد ذكرناه فى غير هذا الموضع ،فاما السمع فدعنا من قولهم أسمع من فرس وأسمع من فرخ العقاب وأسمع من كذا وأسمع من كذا ولكنا نقصد الى الصغير الحقير في اسمه وخطره والقليل في جسمه وفي قدره وتقول العرب اسمع من قراد ويستدلون بالقردان التي تكون حول المياه والبئر فاذا كان ليلة ورود العرب وقد بعث القوم من

يصلح لابلهم الارشية وأداة السقي وباتت الرجال تنتظر مجيء الابل فانها تعرف قربها منهم فى جوف الليل بانتفاش القردان وسرعة حركتها وخشخشتها ومرورها نحو الراعى وزجر الراعى ووقع الأخفاف على الارض من غير أن تحس أولئك الرجال حسها أو يشعروا بشيء من أمرها فاذا استدلوا بذلك من القردان نهضوا وبرزوا وتهيؤا للعمل، فأما درك البصر فقد قالوا أبصر من غراب وأبصر من فرس وأبصر من هدهد وأبصر من عقاب والسنانير والفار والجرذان والسباع تبصر بالليل كما تبصر بالنهار فأما الطعم فيظنون انه لفرط الشره والشهوة ولفرط الاستمراء ولفرط الحرص والنهم ان لذتها تكون على قدر شرهها وشهوتها ويكون على قدر ما يرى من حركتها وظاهر حرصها ونحن قد نرى الحمار اذا عاين الاتان والفرس اذا عاين الحجر والرمك والبغل والبغلة والتيس والعنز فنظن على قدر الشهوة والشهوة على قدر الحركة وان الصياح على قدر غلبة الارادة ونجد الرجال اذا اعتراهم ذلك لا يكونون كذلك الا فى الوقت الذي هم فيه أشد غلمة وأفرط شهوة، وان قال قائل ان الانسان يعشق النساء في كل حال من الفصلين والصميمين وانما هيج السباع والبهائم في فصل معلوم وهيج التيس والجمل والانسان المداوم أحسن حالا قلنا اذا لم يكن فى ذكر المخايرة بين نصيب الانسان فى ذلك مجموعاً ومفرقا وبين نصيب كل جنس من هذه الاجناس مجموعا ومفرقا وانما ذكرنا نفس المخالطة فقط وما يدريكم أيضاً لعلها ان تستوي في هذه الايام اليسيرة أضعاف ما يأتى الانسان فى تلك الايام الكثيرة وعلى أنا قد نري مما يعترى الحمار والفرس والبغل وضروبا كثيرة اذا عاينوا الاناث في غير أيام الهيج وها هنا أصناف تديم ذلك كما يديمه الانسان مثل الحمام والديكة وغير ذلك وقد علمنا ان السنانير وأشباه السنانير لها وقت هيج ولكن ذلك يكون مراراً في السنة على أشد من هيج الانسان فليس الامر على مايظنون فان كان الانسان موضع ذهنه من قلبه أو دماغه يكون أدق وأرق وأنفذ وأبصر فان حواس هذه الاشكال أدق وأرق وأبصر وأنفذ وان كان الانسان يبلغ بالروية والتصفح والتحصيل والتمثيل مالا يبلغه شيء من السباع والبهائم فان لها أموراً تدركها وصنعة تحذقها تبلغ منها

بالطبائع سهواً وهويا مما لا يبلغ الانسان فى ماهو بسبيله الا ان يكره نفسه على التفكير وعلى ادامة التنقير والتكشيف والمقاييس فهو يستثقله ولكل شئ ضرب من الفضيلة وشكل الامور المحمودة لينفي تعالى وعز عن الانسان العجب ويقبح عنده البطر ويعرفه اقدار القسم وسنذكر من فطن البهائم واحساس الوحش وضروب الطير أمورا تعرفون بها كثرة ما أودعها الله تعالى من المعارف وسخرها فى الصنعة ثم لانذكر من ذلك فى هذا الموضع الا من كل طائر منسوب الى الموق والى كل بهيمة معروفة بالغثاثة بعدة ما فيه أشكالها من المعرفة والفطنة ولو أردنا الاجناس المعروفة بالمعارف الكثيرة والاحساس اللطيفة لذكرنا الفيل والبعير والذرة والنملة والذئب والثعلب والغرنوق والنحلة والعنكبوت والحمام والكلب، وسنذكر على اسم الله تعالى بعض ما فى البهائم والسباع والطير من المعرفة ثم نخص فى هذا الكتاب المنسوبات الى الموق والمعروفات بالغباوة والغفلة وقلة المعرفة كالرخمة والزنبور والربع من أولاد الابل والنسر من عظام الطير، وقال المفضل الضبى قلت لمحمد بن سهل راوية الكميت ما معنى قول الكميت فى الرخمة

وذات اسمين والالوان شتى * تحمق وهي كيسة الحويل
لها خب تلوذ به وليست * بضائعة الجنين ولا مذول

قال المفضل كان معناه عندي حفظ فراخها أو موضع بيضها وطلب طعمها واختيارها من المساكن ما لا يطوره سبع طائراً ولا ذو أربع قال فقلت له فأى كيس عند الرخمة الا ما ذكرت ونحن لا نعرف طائراً ألأم لؤما ولا أقذر طعمة ولا أظهر موقا منها حتى صارت فى ذلك مثلا فقال محمد بن سهل وما حمقها وهى تحضن بيضها وتحمي فراخها وتحب ولدها ولا تمكن الا زوجها وتقطع فى أول القواطع وترجع فى أول الرواجع فان الرماة وأصحاب الحبائل والقناص انما يطلبون الطير بعد ان يعلموا أن القواطع قد قطعت فيقطع الرخمة يستدلون فلا بد للرخمة من ان تجو سالمة اذا كانت أول طالع عليهم واما قولهم ولا تراب بالوكور يقول الوكر لا يكون الا فى عرض الجبل وهي لا ترضى الا بأعالى الهضاب ثم مواضع الصدوع وخلال الصخور وحيث يمتنع على جميع

الخاق المصير الى فراخها ولذلك قال الكميت

ولا تجعلوني في رجائي ودكم * كراج على بيض الانوق احتيالها

والانوق هي الرخمة وقال ابن نوفل

وأنت كساقط بين الحشايا * يصير الى الخبيث من المصير

ومثل نعامة تدعى بعيراً * تعاظمها اذا ماقيل طيري

وان قيل احملى قالت فاني * من الطير المربة في الوكور

وأما قوله ولا تمير بالشكير فانها لا تنهض بالشكير حتي يصير الشكير قصبا وأما قوله ولا تسقط على الجفير فانما عنى جعبة السهام والرخم والنسور والعقبان تتبع الجيوش لتوقع القتال وما يكون لها فيه من الجيف وتتبع أيضاً الجيوش والحجاج لما يسقط من كسير الدواب وتتبعها أيضاً في الازمنة التى تكون فيها الانعام والحجور حوامل لما تؤمل من الاجهاض والاخداج قال النابغة

وثقت له بالنصر اذ قيل قد غدت * كتائب من غسان غير أشائب

بنو عمه دينا وعمرو بن عامر * أولئك قوم بأسهم غير كاذب

جوانح قد أيقن ان قبيله * اذا ما التقي الجمعان أول غالب

تراهن خلف القوم خزرا عيونها * جلوس الشيوخ في ثياب المرانب

فأخذ هذا المعنى حميد بن ثور الهلالى فقال

اذا ما غزا يوما رأيت عصابة * من الطير ينظرن الذى هو صانع

وقال آخر

يكسو السيوف نفوس الناكثين به * ويجعل الروس تيجان القنى الذبل

قد عود الطير عادات وثقن بها * فهن يتبعنه في كل مرتحل

فقال الكميت كما ترى * تحمق وهي كيسة الحويل * وقال بعض أصحابنا قيل لاعرابى أتحسن ان تأكل الرأس قال نعم قيل وكيف تصنع به قال أعض عينيه واسحا خديه وأعقص أذنيه وأفك لحييه وأرمى بالدماغ الى من هو أحوج منى اليه قيل له انك لاحمق من ربع قال وما حمق الربع والله انه ليجنب العدوى ويتبع أمه في المرعى

ويراوح بين الاطباء ويعلم ان حنينها رغاء فان حمقه وحدث ابن الاعرابي عن هشام بن سالم وكان هشام من رهط ذى الرمة قال أكلت حية بيض مكاء فجعل المكاء يشرشر على رأسها ويدنو منها حتى اذا فتحت فاها تريده التى فيه حسكة فلم يزل يلقى فيه حسكة بعد حسكة فأخذت بحلقها حتى ماتت وأنشد ابن الاعرابي عند هذا الحديث قول الشاعر

كان لكل عند كل سخيمة * يريد بتخريق الاديم استلالها

وأنشد أبو عمرو الشيباني بيت شعر وهو هذا المعنى بعينه وهو قول الاسدى الزبيرى

ان كنت أبصرتنى قداً ومصطلما * فربما قتل المكاء ثعبانا

يقول قد يظهر القليل بالكثير والقليل الاعوان بالكثير الاعوان والمكاء من أصغر الطير وأضعفه وقد احتال للثعبان حتى قتله وقال جالينوس فى الاخبار عن معارف البهائم والطير وفى التعجب من ذلك وتعجيب الناس منه قولوا لى من علم النسر الانثي اذا خافت على بيضها وفراخها الخفافيش أن تفرش ذلك الوكر بورق الدلب حتى لا تقربه الخفافيش وهذا أعجب والاطباء والعلماء لا يتدافعونه والنسور هى المنسوبة الى قلة المعرفة والكيس والفطنة ، وقال ابن الاعرابي وأبو الحسن المدائني قال رجل من الاعراب كان سنان بن أبي حارثة أحزم من فرخ العقاب وذلك ان جوارح الطير تتخذ أوكارها فى عرض الجبال كان الجبل عموداً فلو تحرك الفرخ اذا طلب الطعم وقد أقبل اليه أبواه أو أحدهما وزاد فى حركته شيئاً من موضع مجثمه لهوى من رأس الجبل الى الحضيض وهو يعرف مع صغره وضعفه وقلة تجربته ان الصواب فى ترك الحركة ولو وضع في أوكار الوحشيات فرخ من فراخ الاهليات لتهافتن تهافتاً كفراخ القطا والحجل والقبج والدراج والدجاج لان هذه تدرج على البسط وذلك لها عادة وفراخ الوحشية لا تجاوز الاوكار لانها تعرف وتعلم ان الهلكة فى المجاوزة وأولاد الملاحين الذين ولدوا فى السفن الكبار والمنشآت العظام لا يخاف الآباء والأمهات عليهم اذا درجوا ومشوا ان يقع فى الماء ولو أن أولاد سكان القصور والدور صاروا

مكان أولاد أرباب السفن تهافتوا ولكل شئ قدر وله موضع وزمان وجهة وعادة فاذا استوى قصب ريش العقاب وأحس بالقوة طار وأبوا فرخ الخطاف يعلمانه الطيران تعليما ، وزعم ناس من أطباء النصارى وهم أعداء اليهود انهم يختنون أولادهم في اليوم الثامن وان ذلك نفع ويوافق ان يكون في الصميمين كما وافق الفصلين وأنهم لم يروا قط يهوديا أصابه مكروه من قبل الختان وأنهم قد رأوا من أولاد المسلمين والنصارى ممن لا يحصى من لقى من المكروه فى ختانه ان كان ذلك في الصميمين من ريح الحمرة ومن قطع طرف الكمرة ومن أن تكون الموسى حديثة العهد بالاحداد وسقى الماء فيسقط ذلك الكمرة ويعتريها برص ويظن ان ابن ثمانية أيام أعسر من الغلام الذي قد شب وشدن وقوى الا ان ذلك برص لا يتقشر ولا يعدو مكانه كنحو البرص الذي يكون من الكي واحراق النار فانهما يفحشان وان كانا لا ينبتان ، ويختتن من أولاد السفلة والفقراء فيؤمن عليهم خطأ الخاتن وذلك غير مأمون على أولاد الملوك وأشباه الملوك بفرط الاجتهاد والاحتياط ومع ذلك يزيغ ومع الزيغ والرعدة يقع الخطأ وعلى قدر الاحتياط اليه ينال القلب من الاضطراب على حسب ذلك وليس من التدبير أن يحضر الصبي والخاتن الا سفلة الخدم ولا يحضره من يهاب وهذا الختان في العرب فى النساء والرجال من لدن ابراهيم وهاجر الي يومنا هذا ثم لم يولد صبي مختون قط أو فى صورة مختون وناس يزعمون ان النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى بن مريم ولدا مختونين والسبيل فى مثل هذا الرجوع الى الرواية الصحيحة ، قال والبظراء تجد من اللذة ما لا تجده المختونة فان كانت مستأصلة مستوعبة كان على قدر ذلك وأصل ختان النساء لم يحاول به الحسن دون التماس نقصان الشهوة فيكون العفاف عليهن مقصوراً قال ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم يا أم عطية شميه ولا تنهكيه فانه أسرى للوجه وأحظى عند البعل كأنه أراد النبي صلى الله عليه وسلم ان ينقص من شهوتها بقدر ما يردها الى الاعتدال فان شهوتها اذا قلت ذهب التمتع ونقص حب الازواج وحب الزوج فيه دون الفجور والمرأة لا تكون فى حال من حالات الجماع أشد شهوة منها للكرم الذي لفحت منه وقد كان رجل من كبار الاشراف عندنا يقول للخاتنة لا تعرضي

الا ما يظهر فقط وزعم حباب بن حسان القاضي انه أحصى في قرية النساء المختونات والمبظرات فوجد أكثر العفائف مستوعبات وأكثر الفواجر مبظرات وان نساء الروم والهند وفارس انما صار الزنا وطلب الرجال فيهم أعم لان شهوتهن للرجال أكثر ولذلك اتخذ الهند دوراً للزواني قالوا وليس لذلك علة الا فارة البظر والقلفة والهند توافق العرب في كل شيء الا في ختان النساء والرجال ودعاهم الى ذلك تعمقهم في توفير حظ الباه قالوا ولذلك اتخذوا الادوية وكتبوا في صناعة الباه كتبا ودرسوها الاولاد، قالوا ومن أكثر ما يدعو النساء الى السحق اذا الصقن موضع محز الختان وجدن هناك لذة عجيبة وكلما كان ذلك منها أوفر كان السحق الذ قال ولذلك صار حذاق الرجال يضمون أطراف الكمر ويعتمدون بها على محز الختان لان هناك مجتمع الشهوة ، ومن هذا الباب الذي ذكرنا فيه صدق احساس الحيوان ثم اللاتي يضاف منها الى الموق وينسب الى الغباوة قال داود النبي صلى الله على نبينا وعليه وسلم في الزبور شوق الى المسيح مثل الايل اذا أكل الحيات فاعتراه العطش الشديد فكيف تراه يدور حول الماء ويحجزه من الشرب علمه بأن ذلك عطبه لان السموم حينئذ تجري مع الماء وتدخل مداخل لم يكن ليبلغها الطعام نفسه وليس علي بهذا علما عن تجربة متقدمة بل هكذا يوجد في أول ما يأكل الحيات وفي آخرها وربما اصطيد الايل فيجد القناص رؤس الافاعي وسائر الحيات ناشبة الاسنان في عنقه وجلد وجهه لانه يريد أكلها فربما بدرته الافعى والاسود وغيرهما من الحيات فتعضه وهو يأكلها ويأكل ما نال منها بالعض فتبقى الرؤس مع الاعناق معلقة عليه الى أن تنقطع ، وقال ابن الكلبي قال الشرقي بن القطامي ذات يوم أرأيتم لو فكر رجل منكم عمره الاطول في ان يتعرف الشيء الذي تتخذ الزنابير بيوتها المحدقة بمثل المجالس المستوية في الاقدار المتحاجزة بالحيطان السخيفة في المنظر الخفيفة في المحمل المستديرة المضمر بعضها ببعض المتقاربة الاجزاء وهي البيوت التي تعلم أنها بنيت من جوهر واحد وكانها من ورق أطباق صفار الكاغد المزررة فولوا الى كيف جمعته ومن أي شيء أخذته وهو لا يشبه البناء ولا النسج ولا الخياطة ولم يفسر ابن الكلبي والشرقي في ذلك شيئاً فلم يعرفي

أيدينا منها الا التعجب والتعجيب فسألت بعد ذلك مشايخ الاكرة فزعموا أنها تلتقطه من زبد الممدود فلا يدرى أمن نفس الزبد تأخذ أم من شئ يكون في الزبد والذى عرف الزنابير مواضع تلك الاجزاء ودلها على ذلك الجوهر هو الذى علم العنكبوت ذلك النسج وقد قال الشاعر

كأن ثفا هارون اذ يعذلونه * قفا عنكبوت سل من دبرها غزل

وقد قال بلا علم واما دودة القز فلا نشك أنها تخرجه من جوفها ، وتزعم الاطباء أنهم استفادوا معرفة الحقنة من قبل الطائر الذى اذا أصابه الحصر أتى البحر فأخذ بمنقاره من الماء المالح ثم استدخله فمجه في جوفه وأمكنه ذلك بطول العنق والمنقار فاذا فعل ذلك ذرق فاستراح والقنفذ وابن عرس اذا ناهشا الافاعى والحيات الكبار تعالجا بأكل الصعتر البرى والعقاب اذا اشتكت كبدها من رفعها الارنب والثعلب فى الهواء وحطها لها مرارا فانها لا تأكل الا من الاكباد حتى تبرأ من وجع كبدها واذا جمع بعض أهل العبث وبعض أهل التجربة بين العقرب وبين الفارة في إناء زجاج ليس عند الفارة حيلة أبلغ من قرض أبرة العقرب فاما أن تموت من ساعتها واما ان تعجل السلامة منها ثم تقتلها كيف شاءت وتأكلها كيف أحبت قال ومن علم الذرة أنها تفلق الحبة وتأكل موضع القطمير لئلا تنبت فتفسد واذا أخذت الحبة من حبة الكزبرة فلقتها انصافا فلم ترض حتى تفلقها ارباعا لان الكزبرة من بين جميع البزور تنبت وان كانت انصافا وهذا علم غامض اذا عرفه الشيخ الفلاح المجرب والفاشكار الرئيس والاكار الحاذق فقد بلغوا النهاية في الرياسة وقال جالينوس ومن علم الدب الانثى اذا وضعت ولدها ان ترفعه في الهواء أياما تهرب به من الذر والنمل لانها تضعه كجذوة من لحم غير متميز الجوارح فهى تخاف عليه الذر وذلك له حتف فلا تزال رافعة له وراصدة وتتفقده وتحوله من موضع الى موضع حتي يشتد وتتفرج أعضاؤه وقال بشار الاعمى

اما الجياد فكل الناس يحفظها * وفي المعيشة أشياء مناكير

وكل قسم فللعقبان أكثره * والحظ شئ عليه الدهر مقصور

وقال بشر أخو بشار وكانوا ثلاثة واحد حنفى وواحد سدوسى وبشار عقيلى وانما نزل فى بنى عقيل لمكان أخيه وقد كان قيل لأخيه لو خيرك الله أن تكون شيئا من الحيوان أى شئ كنت تتمنى أن تكون قال عقاب قيل ولم تمنيت ذلك قال لانها تبيت حيث لاينالها سبع ذو أربع وتحيد عنها سباع الطير وهى لاتعانى الصيد الا فى الفرط ولكنها تسلب كل صيود صيده واذا رآها الجامع صاحب الصقر وصاحب الشاهين وصاحب البازى فهى لاتحمل على نفسها فى الكسب وان كانت فوق كل شئ وان شاءت كانت بقرب كل شئ وتتغدى بالعراق وتتعشى باليمن وريشها الذى عليها موفروها فى الشتاء وخيشها فى الصيف وهى أبصر خلق الله هذا قول صاحب المنطق فى عقوق العقاب وجفائها بأولادها فأما أشعار العرب فهى تدل على خلاف ذلك قال دريد بن الصمة

وكل لجوج فى العناق كأنها * اذا اغتمست فى الماء فتخاء كاسر

لها ناهد فى الوكر قد مهدت له * كما مهدت للبعل حسناء عاقر

والحيوان المحمق الرخمة والحبارى قال عثمان بن عفان رضي الله عنه كل يحب ولده حتي الحبارى وأنثى الذئاب وهى تسمى جهيرة والضبع والنعجة والبقر هذه من الموصوفات بالموق قال آخر ومن الحيوان من ليس عنده الا الجمال والحسن وكذلك التدرج مع جماله وحسنه وعجيب وشيه والزرافة وهى أيضاً موصوفة بالموق وليس عندها الا ظرافة الصورة وغرابة النتاج وهي من الخلق العجيب مواضع الاعضاء ويتنازعها أشباه كثيرة والفيل عجب ظريف ولكنه قبيح سمج وهو في ذلك بهي والعين لا تكرهه والخنزير قبيح سمج والعين تكرهه والقرد قبيح مليح وعند الببغاء والمكاء والعندليب وابن تمرة مع صغر أجرامها ولطافة شخوصها وضعف أسرها من المعرفة والكيس والفطنة والخبث ماليس عند الزرافة والطاووس ، والببغاء عجيب الأمر ويقولون عند ليب وهو أصغر الطير فأما الاجناس المائية من أصناف السمك والاجناس التي تعاشر السمك فان جماعتها موصوفة بالجهل والموق وقلة المعرفة وليس فيها خلق مذكور ولا خصلة من خصال الفطن الا كنحو مايروى من صيد الجري

للجرذان وحمل تلك الدابة للغرقى حتى تؤديهم الى الساحل والسمكة شديدة البدن وكذلك الحية وكل شيء لايستعين بيد ولا رجل ولا جناح وانما يستعمل اجزاء بدنه معا فانه يكون شديد البدن ، وخبرني بعض الصيادين ان الشبوط تنتهي الى التحيز الى الشبكة فلا تستطيع النفوذ منها فتعلم أنها لاينجيها الا الوثوب فتتأخر قدر قاب رمح ثم تتأخر جامعة بجراميزها حتى تثب فربما كان ارتفاع وثبتها في الهواء أكثر من عشرة أذرع وانما اعتمدت على ماوصفنا وهذا العمل أكثر ماروره من معرفتها وليس لها في المعرفة نصيب مذكور وأنواع من السمك يغوص في الطين وذلك أنها تسحر وتتنفس في جوفه وتلزم أصول النبات اذا لم يرتفع وتلتمس الطعم والسفاد ونحن لم نرابط في بطن دجلة والفرات وجميع الاودية والانهار عند نضوب الماء وانكشاف الارض وظهور الطين وعند الجزر والنقصان في الماء في مواخر الصيف وما نأمن مجاورة الابلة جحراً قط فضلا عما يقولون أن لها في بطون الانهار بيوتا ورأيت عجبا آخر وهو أني في طول مادخلت البراري ودخلت البلدان في صحاري جزيرة العرب والروم والشام والجزيرة وغير ذلك وما أعلم اني رأيت على لقم طريق أو جادة أوسرك مصافت ذلك وأنا جاريت الطرق وأمعنت في البراري وضربت الي المواضع الوحشية وما أكثر ماأرى الجحرة ولكني لم أرشيئاً يسع الثعلب وابن آوى فضلا عن هذه الوحوش الكبار مما هو مذكور بالتوالج والوجار وبالكناس والعرين وجحر الضب يسمى عريناً وهو غير العرين الذى يضاف الى الشجر واما حفظ الحياة والبصر بالكسب والاحتراس من العدو والاستعداد بالحيل فكما أعد الضب واليربوع والفهد اذا سمن عرف أنه مطلوب وان حركته قد ثقلت فهو يخفى نفسه بجهده حتى ينقضى ذلك الزمان الذى تسمن فيه الفهود ويعلم ان رائحة بدنه شهية الى الاسد فهى لاتكاد تكون على حلاوة الريح والايل ينصل قرنه في كل عام فيصير كالاجم فاذا كان ذلك الزمان استخفى وهرب وكمن فاذا شب قرنه عرضه للريح والشمس في الموضع الممتنع ولا يظهر حتى يصلب قرنه ويصير سلاحا يمتنع به وقرنه مصمت وليس في جوفه تجويف ولاهو مصمت الاعلى أجوف الاسفل والبعير يدخل

الروضة والغيضة فيعرف ماينفعه من النبات وما هو سم عليه خاصة وما يخرج من الحالتين جميعاً ومن الغذاء مايريد في حال أخري كالحمض والخلة ومنه مايغتذيه غير جنسه فهو لا يقربه وان كان ليس بقاتل ولا معطب فمن تلك الاجناس ماتعرفه برؤية العين دون الشم ومنها مالا تعرفه حتي تشمه وقد تغلط في البيش فتأكله كصنع الحافر في الدفلى والناقة تعرف قولهم حل والجمل يعرف قولهم حاه قال الراجز وهو يحمق رجلا هجاه

يقول للناقة قولا للجمل * يقول حاه ثم يثنيه بحل

ومما فضلت به السباع على بني آدم ان الله جعل في طباع إناث السباع والبهائم من الوحشية والاهلية في رفع اللبن وارساله عند حضور الولد والمرأة لاتقدر ان تدر على ولدها وترفع ولدها في صدرها اذا كان ذلك القرب منها لغير ولدها والذي أعطى الله البهائم من ذلك مثل ماتعرف به المعنى وتتوهمه اعلم ان الله تعالى قد قدر الانسان على أن يحبس بوله وغائطه الى مقدار وان يخرجهما مالم تكن هناك علة من حصر واسر وانما يخرج منه بوله ورجيعه بالارادة والتوجه والتهيؤ لذلك وقد جعل الله حبسه واخراجه وتأخيره وتقديمه على مافسرنا فعلى هذا الطريق اناث السباع والبهائم في رفع اللبن وارساله وقد قال الله جل ثناؤه ومامن دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم مافرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون فالكلمة في الحشر مطلقة ومرسلة غير مستثني منها فأوجب في العموم الخير على الشر والطير أكثر الخلق والحديث ان أكثر الخلق الجراد، ومن العقارب طيارة قاتلة وزعم صاحب المنطق أن بالحبشة حيات لها أجنحة وأشياء كثيرة تطير بعد ان لم تكن طيارة مثل الدعاميص والنمل والارضة والجعلان والجراد تنتقل في حالات قبل نبات الاجنحة قالوا وحين عظم الله شان جعفر بن أبي طالب خلق له جناحان يطير بهما في الجنة كانه تعالى الحقه بشبه الملائكة في بعض الوجوه وذكر الله الملائكة فقال أولى أجنحة مثني وثلاث ورباع ولا يقال للملائكة طير ولا يقال انها من الطير رفعا لاقدارها ولا يقال للنمل والدعاميص والجعلان والارضة اذا طارت من الطير كذلك لا يقال للجرجس

والبعوض وأجناس الهمج انها من الطير وضعا لاقدارها عن اقدار مايسمى طيرا فالملائكة تطير ولا يسمونها طيرا لرفع اقدارها عن الطير ولا تسمى طيرا لوضع اقدارها عن الطير وفي الرواية أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد قول أمية بن أبي الصلت

رجل وثور تحت رجل يمينه * والنسر للاخرى وليث موصد

فقال صدق وقوله نسر يعني في صورة نسر لان الملك لا يقال له نسر ولا صقر ولا عقاب ولا باز ، وذكروا ان غراب نوح وحمامة نوح وهدهد سليمان والنحل والدراج وما جاء في الأثر في الديك الذي يكون في السماء وقال الناس غراب نوح وهدهد سليمان وحمامة نوح ورووا في الخطاف والصرد ولا نعرف شيئاً من الحيوان أشرف اسما من الخيل والطير لانهم يقولون فرس جواد وفرس كريم وفرس عتيق وفرس رائع وقالوا في الطير لذوات المخالب المعقفة والمناسر المحدبة أحرار ومصرحات وعتاق وكواسب وجوارح وقال لبيد بن ربيعة

فانتضلنا وابن سلمي قاعد * كعتيق الطير يغضي ويجل

وقال الشاعر

حر صنعناه لتحسن كفه * عمل الرقيقة واستلاب الأخرق

ولولا انا قد ذكرنا شأن الهدهد والغراب والنمل وما ذكرها به القرآن والخصال التى فيها من المعارف حق القول والعمل لذكرناه في هذا الموضع وقال أمية بن أبي الصلت

فاسمع لسان الله كيف شكوله * عجب وينبئك الذي تستشهد

والوحش والانعام كيف لغاتها * والعلم يقسم بينهم ويبدد

وقال الله عز وجل مخبرا عن سليمان يا أيها الناس علمنا منطق الطير وقال الشاعر

ياليلة لي بحوارين ساهرة * حتى تكلم في الصبح العصافير

وقال الشاعر

وغنت الطير بعد عجمتها * واستوفت الخمر بعد ما كملا

وقال الكميت

الدساس منها فانها تلد ولا تبيض ولا ترضع ولا تلقم والخفاش تلد ولا تبيض وترضع وهذا مختلف والدجاج والحجل والقطا وأشباه ذلك من الدراريج وغيرها أفاحيصها في الارض والحمام منها طورى جبلي ومنها ألوف أهلى فالجبلى تبيض في أوكار لها في عرض مقاطع الجبال والاهلى منها يبيض في البيوت والعصافير فى بيوتها في أصول أجذاع السقف والخطاطيف تتخذ بيوتها فى باطن البيوت في أوساطه وأمنه والرخم لاتبيض من الجبال الا في الوحشى منها ومن أبعدها والا فى اسحقها وأبعدها عن مواضع أعدائها ثم من الهضبات الا في صدوع صخورها ولذلك يضرب بامتناع بيضها المثل وأما الرق والضفدع والسلحفاة والتمساح وهذه الدواب المائية فانها تبيض في الأرض وتحضن وأما السراطين فان لها بيوتا فى عرض شطوط الانهار والسواقى تمتلىء مرة ماء وتخلو مرة ومن الحيوان مالايجثم كالضبة فانها لاتجثم على بيضها ولكنها تغطيه بالتراب وتنتظر أيام انصداعها فاذا كان موضع الفراخ والبيض من القطا وأشباه القطا فهو أفحوصه واذا كان من الطير الذي يهيىء ذلك المجثم من العيدان والريش والحشيش فهو عش واذا كان من الظليم فهو ادحى يذكر ذلك أبو عبيدة والاصمعى وكلها وكور ووكون ووكنات ووكرات فالتي تبيض الكثير من البيض لايجوزه شيء في الكثرة السمك ثم الجراد ثم العقارب ثم الضبة لان السمك لاتزق ولا تلقم ولا تلحم ولا تحضن ولا ترضع فحين كانت كذلك كثر الله تعالى ذرءها وعدد نسلها فكان ذلك على خلاف شأن الحمام الذى يزاوج أصناف الحمام ومثل العصافير والنعام فانها لاتزاوج فاما الحمام فلما جعله الله يزق ويحضن ويحتاج الى مايغذو به ولده ويحتاج الى الزق وهو ضرب من القيء وفيه عليها وهن شديد ولذلك لايرحل اذا كان زاقا فلما كان كذلك لم يحمل عليها أكثر من فرخين وبيضتين ولما كانت الدجاجة تحضن ولا تزق وهى تأكل الحب وكل مادب ودرج زاد الله في بيضها وعدد فراريجها ولم يجعل ذلك فى عدد أولاد السمك والعقارب والضباب التى لاتحضن البتة ولاتزق ولا تلقم ولما جعل الله أولاد الضب لها معاشا زاد فى عدد بيضها وفراخها وصار مايسلم كثيراً غير متجاوز للقدر وكذلك الظليم لما كان لايزق

ولا يحضن اتسع عليه مطاب الرزق من الحبوب وأصول الشجر وجعلها تبيض ثلاثين بيضة وأكثر بيضها كبار وليس فى طاقتها ان تشتمل وتجثم على القليل منها وكذلك الحية تضع ثلاثين بيضة ولها ثلاثون ضاما وبيضها واضلاعها عدد أيام الشهر ولذلك قويت اصلابها لكثرة عدد الاضلاع وحمل عليها فى الحضن بعد الحضن اذ كانت لا ترضع والطائر الذى يلقم فرخه يكون أقوي من الطائر الزاق وكذلك من البهائم المرضعة ولما كانت العصافير تصيد الجراد والنمل والارضة اذا طارت وتأكل الحب واللحم وكانت مع هذا تلقم لم تكثر من البيض كتكثير الدجاج ولم تقلل كتقليل الحمام والعصافير فيها زواج وكذلك النعام وليس فى شيء من ذوات الاربع زواج وانما الزوج للتى تمشي على رجلين كالانسان والطير والنعام وليس فى الطير بالعام وهو فى الحمام من هذه المغنيات والنوائح عام وسبيل الحجل والفتخ سبيل الديكة والدجاج والدجاجة تمكن كل ديك والديك يثب على كل دجاجة وربما غبر الذكر حياته كلها لا يقمط غير انثاه وكذلك الانثي لا تدعو الا زوجها وربما أمكنت وفي الحمام في هذا الباب من الاختلاف مافي النساء والرجال واما السفتين فانه لا يقمط غير أنثاه وان هلكت الانثى لم يزاوج أبداً وكذلك الانثى للذكر فأما العلة في وضع القطا بيضها افرادا وخروج البيضة من جهة أوسع الرأسين واستدارة بيض الرق واستطالة بيض الحيات وما يكون منها ارقط وأخضر واصفر وأبيض واسود فانى لم أرض لهم بذلك جوابا فأحكيه لك قالوا انما يعظم البيض على قدر جثة البياضة وبيض الابكار أصغر فأما كثرة العدد فقالوا إنه كلما كان أكثر سفاداً كان أكثر عددا وليس الامر كذلك لان العصفور أكثر سفاداً من أجناس كثيرة هي أقل بيضا منها والجراد والسمك لا حضن ولا زق ولا رضاع ولا لقم عليهن فحين جعل الفراخ كثيرة العدد وكانت الامهات والآباء عاجزة عنها لم يجعلها محتاجة الى الامهات والآباء فتفهم هذا التدبير اللطيف والحكمة البالغة قالوا والاقل في ذلك البازى والاكثر في الذر والسمك قال الشاعر

بغاث الطير أكثرها فراخا * وأم الصقر مقلاة نزور

وقال صاحب المنطق نسل الاسد يقل لانه يجرح الرحم فيعقم قالوا والفيلة تضع في سبع سنين وأقل الخلق عددا وذرءاً الكركدن لان الانثي تكون نزوراً وأيام حملها كثيرة وهي من الحيوان الذى لايلد الا واحداً وكذلك عظام الحيوان وهى مع ذلك تأكل أولادها ولايكاد يسلم منها الا القليل لان الولد يخرج سويا نابت الاسنان والقرن شديد الحافر

ماجاء في الفيلة من عجيب التركيب وغريب التأليف في المعارف الصحيحة والاحساس اللطيفة وفي قبولها التثقيف والتأديب وسرعتها الى التلقين والتقويم وما جاء في أبدانها من الاعضاء الكريمة والاجزاء الشريفة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

وصلى الله على سيدنا محمد خاصة وعلى أنبيائه عامة ونسأله التأييد والعصمة ونعوذ به من كل سبب جانب الطاعة ودعا الى المعصية أنه قريب مجيب فعال لما يريد، قد قلنا في أول هذا الجزء من القول في الحيوان في احساس أجناسها المجهولة منها وفي صغارها المطبوعة عليها وفي أعاجيب ماركبت عليه من الدفع عن أنفسها والتقدم فيما يحييها وفي تحصينها عواقب أمورها وكلما خوفت من حوادث المكروه عليها بقدر ماينوبها من الآفات ويعتريها من الحادثات وأنها تدرك ذلك بالطبع من غير روية ويحس النفس من غير فكرة ليعتبر معتبر ويفكر مفكر ولينفي عن نفسه العجب ويعرف مقداره من العجز ونهاية قوته ومبلغ نفاذ بصره وأنه مخلوق مدبر ومصرف وميسر وان الاعجم من أجناس الحيوان والاخرس من تلك الاشكال يبلغ في تدبير معيشته ومصلحة شأنه وفي كل ماهو بسبيله ما لا يبلغه ذو الروية التامة والمنطق البليغ وان منها ما يكون ألطف مدخلا وارق مسلكا واصنع كفا وأجود حنجرة وأطبع على الاصوات الموزونة وأقوم في حفظ ما يعيشه طريقة الا ان ذلك منها مفترق غير مجموع ومنقطع غير منظوم والانسان ذو العقل والاستطاعة والتصرف والروية اذا علم علما غامضا وأدرك

ني خفياً لم يكد يمتنع عليه مادونه اذا قاس بعض أمره على بعض وأجناس الحيوان
د يعلم بعضه علما ويصنع بكفه صنعة يفوق بها الناس ولايهتدى الى ماهو دون الذى
در عليه وأنا ذاكر ان شاء الله ماجاء في الفيلة من عجيب التركيب وغريب التأليف
ي المعارف الصحيحة والاحساس اللطيفة وفي قبولهـا التثقيف والتأديب وسرعتها
لى التلقين والتقويم وماجاء في أبدانها من الاعضاء الـكريمة والاجزاء الشريفـة وكم
قـدار منافعها ومبلغ مضارها وبكم فضلت أجناس الحيوان وفاقت تلك الاجناس
ماجعل الله تعالى فيها من الآيات والبرهانات والعلامات النيرات التى جلاها العيون
لقه وعرف بينها وبين عقول عباده وقيدها عليهم وحفظها لهم من الادلة ويزيدهم
ي وضوح الحجة ويسخرهم لتمام النعمة وما ذكرها الله بها في الحديث الناطق والخبر
صادق وفي الآثار المعروفة والامثال المضروبة والتجاريب الصحيحة وماقالت فيها الشعراء
نطقت به الخطباء وميزته العلماء وعجبت منها الحكماء وحالها عند الملوك وموضع نفعها
ند الحروب ومهابتها فى العيون وجلالتها فى الصدور وفى طول أعمارها وقوة أبدانها
في اعتزامها وتصميمها واخفارها وشدة اكترائها وطلبها بطوائلها وارتداعها عن ملك
سقاط والحشوة وعن اقتناء الانذال والسفلة وعن ارتخاصها فى الثمن وارتباطها على الخسف
ابتذالها واذالتها وعن امتناع طبائعها وتمنع غوائرها ان تصلح أبدانها وتنبت أنيابها
تعظم جوارحها وتتسافد وتتلاقح الا فى معادنها وبلادها وفى منابتها ومغارس أعراقها
ع التماس الملوك ذلك منها حتى أعجزت الحيل وخرجت عن الطبع وعن الاخبار عن
ملها ووضعها ومواضع أعضائها والذى خالفت فيه الاشكال الأربعة التى تحيط بالجميع
انساح أو يعوم أو يمشى أو يطير وجميع ماينتقل عن أولية خلقه ومايبقى على الطبائع
لاول من صورته أو عما يتازعه من شبه الحيوان أو مايخالف فيه جميع الحيوان وعن
لقول فى شدة قلبه وأسره وفى جرأته على ماهو أعظم بدنا وأشد كلبا واحد أظفاراً واذرب
نيابا ونفرته مماهو أصغر منه جرما وأكل حداً وأضعف اسراً وأخمل ذكراً وعن الاخبار
ن خصاله المذمومة وأموره المحمودة وعن القول فى لونه وجلده وشعره ولحمه وشحمه
عظمه وبوله ونجوه ودون لسانه وفيه وعن أذنه وعينه وعن خرطومه وغرموله وعن

مقاتله وموضع سلاحه وعن أدوائه ودوائه وعن القول في أنيابه وسائر أسنانه وسائر عظامه وفرق ما بين عظامه وعظام غيره وعن مواضع عجزه وقوته والقول فى ألبانها وضروعها وعدد أخلافها وأماكن ذلك منها وعن سياحتها ومشيها وحضرها وسرعتها وخفة وطئها ولين ظهورها والتذاذ راكبها وعن ثبات خفها فى الوحل والرمل وفي الحدر والصعداء وعن أمن راكبها من العثار وكيف احتيالها عند اهتياجها واغتلامها وعن سكونها وانقضاء هيجانها عند حملها وعن طربها وطاعتها لسواسها وفهمها لما يراد منها وكيف حدة نظرها والفهم الذى يرى فى طرفها مع الوقار والنبل والاطراق والسكون ولو اجتمعت الملوك عربها وعجمها وأحمرها واسودها على اقتنائها والتزين بها والفخر بكثرة ما تهيأ لهم منها حتى صارت عندهم من أكرم الهدايا وأشرف الالطاف حتى صار اتخاذها مروة وعتاداً وعدة ودليلا على أن مقتنيها صاحب حرب وفي تفضيل الفيل على خصال البعير وفي أي مكان يكون أنفع للحرب من الفرس وأصبر عند القتال من النمر واقتل للاسد من الجاموس واكلب من الببر اذا تعرض واشد من الكركدن اذا اغتلم حتى لا يبلغه مقدار ما يكون من تماسيح النيل وعقبان الهواء واسد الغياض وقد جمع هارون مولى الازد الذى كان يرد على الكميت ويفخر بقحطان وكان شاعرا مولدا ولا اعرف من شأنه وصناعته وقد قال فى صفات الفيل أشعاراً كثيرة ذكرتها فى ما قدمنا ذكره فمن ذلك قوله

أليس عجيبا بأن خلقة * له فطن الانس فى جرم فيل

وأنشد هذا البيت صفوان بن صفوان الانصاري وكان من رواة داود بن مزيد

أليس عجيبا بأن خلقة * له فطن الانس فى جرم فيل
واكرم من نشأة ذولت * بحلم يجل عن الخشنبيل
روانص مختلف خلقه * طويل النيوب قصير النعيل
ويلق العدو بناب عظيم * وجوف رحيب وصوت ضئيل
وأشبه شيء اذا قسته * بخنزير بر وجاموس غيل
تنازعه كل ذي أربع * فما فى الانام له من عديل

ويخضع لليث ليث العرين * بان ناصب الهرمن رأس ميل
ويعصف بالببر بعد النمور * كما تعصف الريح بالعنديل
وشخص ترى يده أنفه * فان وصفوه بسيف ثقيل
وأقبل كالطود هادي الخميس * بهول شديد امام الرعيل
ومر بسيل كسيل الاتى * بخطو خفيف وجرم ثقيل
فان سمته ذاك فى هوله * شناعة اذنين فى رأس غول
وقد كنت اعددت هراله * ثقيل التثبت للزنديل
فلما أحس به في العجاج * أتانا الاله بفتح جميل
* فطار وراغم فياله * بقلب نجيب وجسم نبيل
فسبحان خالقه وحده * اله الانام ورب الفيول

وذكر صفوان بن صفوان ان هارون هذا جاء معه هر تحت حضنه ومشى بسيفه الى الفيل وفى خرطومه السيف والفيالون يذمرونه فلما دنى منه رمي بالهر فى وجهه فادبر هاربا وتساقط كل من كان فوقه وكبر المسلمون وكان ذلك سبب الهزيمة وذكر الهر في هذا الشعر كما كتبته لك وأما قوله

* بحلم يجل عن الخشنبيل *

فقد قال الانصاري في صفة النحل

تمص العشايا ذناباتها * وفي مدر الارض عنها فصول
ويشبهها المص مص الثرى * اذا جاءت الشاة والخشنبيل

وهذا غير قوله قد علمت جارية عطبول * انى بنصل السيف خشنبيل

وأما العنديل فهو طائر صغير جدا ولذلك قال الشاعر

وما كان يوم الريح أول طائر * يروع كروع العنديل الى الوكر

لان الريح تعصف به من صغره فهو يعرف ذلك من نفسه فاذا قويت الريح دخل جحره ويقولون عند ليب وعنديل وكل صواب ولذلك قال هارون

ويعصف بالببر بعد النمور * كما تعصف الريح بالعنديل

وسنخبر عن تقرير ما في هذه القصيدة مفرقا اذ لم نقدر عليه مجموعا متصلا ولو أمكن ذلك لكان أحسن للكتاب وأوضح وأفهم لمعناه

﴿ باب ما يدخل في ذكر الفيل وفيه اخلاط ﴾

قال رؤبة في صفة الفيل

أجرد كالحصن طويل النابين * مشرف اللحى صغير العينين

* عليه أذنان كفضل الثوبين *

وأنشد ابن الاعرابي

هو البعوضة اذ كلفته كرما * والفيل في كل أمر أصله لوم

وقال اعرابي ووصف امرأة له

* لو أكلت فيلين لم تخش البشم *

وقال الاعرابي يصف الاكرياء

لو تركب البختي ميلا انحطم * أو تركب الفيل نهي الفيل ورم

وحمل ناس أبا الحلال الهداهدي الفيل أيام الحجاج فتمنع وانشأ يقول

أأركب شيطانا ومسخا وهضبة * واسلم اني قبل ذلك فعال

فقالوا له لو علوته ما كان عندك الا كالبغل فلما علاه صاح الارض الارض فلما خافوا ان يرمي بنفسه وهو شيخ كبير أنزلوه فقال بعد ذلك في كلمة له

وما كان تحتي يوم ذلك بغلة * ولكن تحتى من رفيع السحائب

وقال بعض المملحين في بعض النساء

أرادت مرة بيتا * لها فيه تماثيل

فلما أبصرت سترا * لوجهيه تهاويل

وفيه الفيل منقوشا * وفي مشفره طول

قالت انزعوا الستر * لا يأكلنى الفيل

وقال خلف بن خليفة الاقطع حين ذكر الاشراف الذين يدخلون على ابن هبيرة

وقامت قريش قريش البطا * ح هي القضب الاول الداخله

يقودهم الفيـل والزنديـل * وذو الضرس والشفة المائلة

الفيل والزنديل أبان والحكم بنا بشر بن عبد الملك بن مروان وذو الضرس خالد بن سلمة المخزومى الخطيب وهو ذو الشفة قتل مع يزيد بن عمرو بن هبيرة فيمن قتل وله فصل خلف بن خليفة الفيل من الزنديل ولم يقصر وقد اختلفوا في ذلك وسنذكر شبهه ان شاء الله تعالى، وذكر بعض الفياليين ان الفيلة تضع بسبع سنين ولدا مستوى الاسنان وانهم يرصدون ذلك الوقت من الوحشية بها ويحتالون فى أخذ الولد وان ذلك الولد يعيش فيهم فى أيديهم ما بين الثمانين سنة الى المائة وان عمر الوحشية أطول وان كل شئ منها اليوم بالعسكر إناث وان الموت بالعراق الى الذكورة أسرع وان نابه لا يطول عندنا وانهم يعملون من جلودها الترسة أجود من جلود الجواميس ومن الحيوان من الدرق والجحف التى تتخذ من جلود الابل ومن هذه المعقبة ومن جميع ما يؤلف من أنواع الخشب والجلود التى قد أطيل انقاعها في اللبن ومن كل شئ رصين وذكر ان لها مروجا وان المروج أصاح لها من القري ومواضعها من الوحش أصاح لها من المروج وذكر رسول لى الى سائسها انه قد اتبعها الى دجلة وان بعض الغوغاء صاح بها يا حجام بابك وهذا الكلام اليوم ظاهر على السنة الجهال وان فيلا منها ركله برجله ركلة صك بها الحائط حتى خيف عليه منها وانه رأى منها الانكار لذلك القول وان الفيال كان يحثها على الانتقام لما صاح بها واذا عرف الكلب اسمه وكذلك السنور وكذلك الشاة والفرس والطفل والمجنون المصمت الجنون وعرفت الناقة مابين حل وحاه وعرف الحمار الصوت الذى يلتمس به وقوفه والذي يلتمس به سيره وعرف الكلب مخاطبة الكلاب والببغاء مناغاة المتكلم له لم يجز ان يكون الفيل بفضل فطنته يفهم اضعاف ذلك فاذا أمروه بضرب انسان عند ضرب من الكلام استماد وأدامه لم ينكر ان يعرفه على طول الترداد، قالوا واذا حملت المرأة شيئاً من نجو الفيل بعد ان تخلط به شيئاً من عسل فانها لا تحمل أبداً قالوا ومما يؤكد ذلك انك لو علقت على شجرة من نجوه شيئاً ان تلك الشجرة لا تحمل في تلك السنة قالوا وزوانى الهند يفعلن ذلك استبقاء للطراق ولانها إذا كانت موقوفة على جميع

الاجناس من الرجال كانت أسرع في الحبل لانها لا تعدم موافقا لطبعها واذا حملت ووضعت مراراً بطلت وليس هذا بعجيب لانهم يزعمون ان صاحب الحصاة اذا أخذ روث الحمار حين يروثه حاراً فعصره وشرب ماءه انه كثيرا ما يبول تلك الحصاة وفي روث الحمار أيضا دواء للفرس المأكول وقال الاصمعي سألت بعض الأكلة ممن كان يقدم على ميسرة التياس كيف تصنع اذا جهدتك الكظة والعرب تقول اذا كنت بطينا فعد نفسك زمنا فقال آخذ روث حمار حاراً فاعصره واشرب ماءه فاختلف عليه مراراً فلا أثبت ان يلحق بطني بصلبي فأشتهي الطعام والمرأة من نسائنا اليوم اذا استحيضت استفت مثقالا من الاثمد لانها عندهن اذا فعلت ذلك لم تلد وانا رأيت امرأة فعلت ذلك ثم ولدت وخرء الكلب اذا كان الجعر أبيض اللون وكان غذاء الكلب العظام دون اللحم فهو عجيب لصاحب الذبحة وكذلك رجيع الانسان وخرء الفار يكون شيافا للصبيان يحملونه اذا استوكأ بطن أحدهم وان كان من خرء الجرذان وكان عظيما كان الواحد منه هو الشياف ويصلح أيضا خرء الكلب لداء الثعلب وهو القرع الذي يعرض لشعر الرأس وخرء الحمام الاحمر يصلح من الهيولات من الرمل والحصا يقمح منه وزن درهم مع مثله من الدار صيني وقال بعض المحدثين

يالحية طالت على كونها * كأنها لحية جبريل
لو كان ماينصب من مائها * نهرا اذا طم على النيل
أو كان مايقطر من دهنها * كيلا لوفي ألف قنديل
فلو تراها وهي قد سرحت * حسبتها نبذا على فيل

وأنشد أبو عمرو الشيباني لبعض المولدين

اذا تلاقى الفيول وازدحمت * فكيف حال البعوض في الوسط

وقال

وما الفيل أحمله موقراً * رصاصا بأثقل من معبد
ولا قزملي عليه العبيد * طينوء بعد لين من إثمد
وجاموسة أو قرت زئبقا * بأثقل منه ولا أنكد

وقال آخر

باب يري ليس له داخل * الاخرا أجمع فى الزاويه
ان جئت فالفيل على هامتى * ومثله نيط بأوصاليه

ورأى مرة بن محكان قذرا فقال

ترمي الصلاة بذيل غير طائشة * وقما اذا آنست من تحتها لهبا
زرافة مثل جوف الليل محفرة * لم يقذف الرال في حيزومها ذهبا

وقال بعض الا كرياء من امرأة كان حملها بيضا من رفقة عمران الاصم

لا نقل في سنها ولا قصم * بهنكة لو تركب الفيل ورم
كأنها يوم توافي بالحرم * غمامة غراء من غب وهم

وقال رؤبة بن العجاج

ان الردافا والكرى الارقبا * يكفيكرن الفيل حتى تركبا

ثم قال

سعادى الميران حتى أجنبا * شرآ معير أولياحا معربا

ومما قرأه الناس من الأمثال فى شأن الفيل التى وجدوها فى كتاب كليلة ودمنة فمن ذلك قوله أفلا ترى أن الكلب يبصبص بذنبه مراراً حتي تلقي له الكسر وان الفيل المغتلم ليعرف قوته وفضله واذا قدم اليه علفه مكرهاً لم يأكل حتي يمسح ويتملق قال وقيل فى أعمال ثلاثة لا يستطيعها أحد الا بمعونة من ابداع همة وعظيم خطر منها عمل السلطان وتجارة البحر ومناجزة العدو قالت العلماء في الرجل الفاضل انه لا ينبغى ان يرى الا فى مكانين ولا يليق به الا أحدهما إما مع الملوك مكرما وأما مع النساك متبتلا كالفيل انما بهاؤه وجماله في مكانين إما فى برية وحشيا وأما مركبا الملوك فقد قيل فى أشياء ثلاثة فضل ما بينها متفاوت فضل المقاتل على المقاتل والفيل على الفيل والعالم على العالم وقال فى كلام آخر فان لم يجمع الحيلة فهو اذا القدر الذي لا يدفع فان القدر هو الذي يسلب الاسد قوته حتي يدخله التابوت وهو الذى يحمل الرجل الضعيف على ظهر الفيل المغتلم فيضربه الفيل بأذنه فيهلك وهو الذى يسلط الحواء على

الحية ذات الحمة فينزع حمتها ويلعب بها وقال لما أقام الجمل مع الاسد حتى اذا كان ذات يوم توجه الاسد نحو الصيد فلقيه فيل فقاتله قتالا شديداً وأفلت الاسد مثقلا يسيل دما قد جرحه الفيل بأنيابه فكان لا يستطيع ان يطلب صيداً فلبث الذئب والغراب وابن آوي أياماً لا يجدون ما يعيشون به من فضول الاسد، وقال كيف يرجو اخوانك عندنا كرما وأنت قد صنعت بملكك الذى كرمك وشرفك ماصنعت بل مثلك فى ذلك كما قال التاجر ان أرضا يأكل جرذانها مائة من من حديد غير مستنكر أن تخطف بزاتها الفيلة وقال الجرذ للغراب أشد العداوة عداوة الجوهر وعداوة الجوهر عداوتان منها عداوة متجارية كعداوة الفيل والاسد ربما قتل الفيل الاسد وربما قتل الاسد الفيل ومنها عداوة انما ضررها من أحد الجانبين كعداوة ما بينى وبين السنور فان العداوة بيننا ليس ضررا منى عليه بل ضررا منه على وقال ان الكريم اذا عثر لم يستعن الا بالكريم كالفيل اذا وحل لم يستخرجه الا الفيلة وسنذكر عداوة الشيطان للانسان وعداوة العقرب مخالفة لعداوة الحية وعداوة الذئب والاسد والانسان خلاف عداوة العقرب والحية وعداوة النمر الاسد والاسد للنمر مخالفة لجميع ماوصفنا ومسالمة الببر للاسد غير مسالمة الخنفساء والعقرب وشأن الحيات والوزغ خلاف شأن الخنافس والعقارب وعداوة الانسان للانسان خلاف عداوة ذلك كله وابن عرس أشد عداوة للجرذان من السنور وعداوة البعير للبعير والبرذون للبرذون والحمار للحمار شكل واحد وعداوة الذئب للذئب خلاف ذلك والشاة من الذئب أشد فرقا منها من الاسد والنمر والببر وهى أقوى عليها من الذئب وفرق الدجاج من ابن آوي أشد من فرقها من الثعلب والحمام أشد فرقا من الشاهين منها من الصقر والبازي وأسباب عداوات الناس ضروب منها المشاكلة فى الصناعة ومنها التقارب فى الجوار ومنها التقارب فى النسب والكثرة من أسباب التقاطع فى العشيرة والقبيلة والمساكن عدو للمسكن والفقير عدو للغني وكذلك الماشى والراكب وكذلك الفحل للخصى وبغضاء السوق موصولة بالملوك وكذلك الوصلة بالمال الرغيب وكذلك الوارث والمورث وجميع هذا تفسير ولكنه يطول وذكر صاحب المنطق عداوة الغراب

للحمار والنحويون ينشدون فى ذلك قول الشاعر

عاديتنا لا زلت فى تباب * عداوة الحمار للغراب

وذكر أيضاً عداوة البوم للغراب وكذلك عصفور الشوك للحمار وفى هذا كلام كثير وقد ذكرنا بعضه فى أول كتابنا من الحيوان ثم رجعنا الى الاخبار عن الامثال قال وأكيس القوم من يلتمس الا من بالقتال ما وجد عن القتال مذهبا فانما القتال النفقة فيه من الانفس وسائر الاشياء انما النفقة فيها من الاموال فلا يكون قتال البوم من رأيك فانه من يؤا كل الفيل يؤا كل الحين قال فأجابه الجرذ فقال انه رب عداوة باطنة ظاهرها صداقة قال وهى أشد ضرراً من العداوة الظاهرة ومن لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذى يركب ناب الفيل المغتلم ثم يغلبه النعاس قال واعلم أن كثيراً من العدوّ لا يستطاع بالشدة والمكايدة حتي يصاد بالرفق والملاينة كما يصاد الفيل الوحشي بالفيل الاهلي وقال ان العشب كما رأيت فى اللين والضعف وقد يجتمع منه الكثير فيصنع منه الحبل الذى يوثق به الفيل المغتلم، وقالوا يريبك أحب بنيك اليك وأكرمهم عليك ويريبك اكتب الكتاب صاحب سرك والسيف الذى لا يوجد مثله والفيل الابيض الذى لا تلحقه الخيل هو مركبك في القتال ويريبك الفيلان العظيمان اللذان يكونان مع الفيل الذكر، وقد سمعنا في هذا الحديث والاخبار عن يوم القادسية ويوم جسر مهران وقيس الناطف وجلولاء ويوم نهاوند بالفيل الابقع والفيل الاسود والفيل الابيض والناس لم يروا بالعراق فيلا أو برولا فيلا أشعر والفيلة التى كانت مع الفرس حكمها حكم الفيلة التى كانت مع أمير المؤمنين المنصور وعند سائر الخلفاء وكلها معصمة ولم نلق أحداً رآها وحشية قبل ان تصير فى القرى والمواضع التي تنكرها فقد علمنا ان الطائر الصيود من الجوارح لو أقام فى بلاده مائة عام لم يحدث بمنسره زوائد وعير المائة اذا أقام فى غير بلاده احتاج الي الاخذمن حافره والى من يختلف به الى البيطار والطائر الوحشي من هذه المغنيات والنوائح لو أقامت عندنا دهراً طويلا لم تصوت اذا اتخذناها وقد كبرت وكذلك المزاوجة والتعشيش والتفريخ وكل ملك يصل الى ان تكون عنده الفيلة فان كان لا يدع

الا كثار منها والتجمل منها والتهويل بمكانها عنده ولا يدع ركوبها في الحروب وفي الاعياد وفي يوم الزينة وكانت عند حمير والتبابعة والمقاول والصاهلة من ملوكهم والكيسوم من أولاد الحبشة وعند ملوك سبا مقربة مكرمة يدل على ذلك الاشعار المعروفة والاخبار الصحيحة وقال الاعشي لما ذكر حضرموت وملوك سبا وسيل العرم فقال

فني ذاك للمؤتسى اسوة * ومأرب عفي عليها العرم
رجام بنته لنا حمير * اذا جاء ماؤهم لم يرم
فأردى الحروث وأعنابها * على ساعة ماؤهم قد قسم
وطار الفيول وفيالها * بتيماء فيها سراب فطم

وكان العتبي مع الحجاج يقاتل ابن الزبير فلما رأى البيت يرمى بالمنجنيق أنشأ يقول

ولم ار جيشاً غر بالحج مثلنا * ولم ار جيشا مثلنا كلهم خرس
دلفنا لبيت الله نرمي ستوره * باحجارنا نهب الولائد للعرس
دلفناهم يوم الثلاثاء من منى * بجيش كصدر الفيل ليس له رأس

فلما فرغ وعاد تفيب مروان وكتب له عبد الملك كتابا الى الحجاج يخبره فيه وفوض الامر اليه فقال

وقد علمت لو ان العلم ينفعني * ان انطلاقي الى الحجاج تغرير
مستحقبا صحفاً تدمى طوابعها * وفي الصحائف حيات منا كير
لان رحلت الى الحجاج معتذراً * اني لاحمق من تجري به العير

وكل حيوان في الارض ذولسان فاصل لسانه الى داخل وطرفه الى خارج الا الفيل فان طرف لسانه الى داخل وأصله الى خارج وتقول الهند ان لسان الفيل مقلوب ولولا أنه مقلوب ثم لقن الكلام تكلم وكل سمك يكون في الماء العذب فان له لسانا ودماغا الا ما كان منها في الملح فانه ليس لسمك البحر لسان ولا دماغ وكل شيء يأكل بالمضغ دون الابتلاع فانه انما يحرك فكه الاسفل الا التمساح فانه انما يحرك فكه الاعلى وكل ذي عين من ذوات الاربع والسباع والبهائم الوحشية والاهلية فانما

الاشفار لجفونها الاعالى الا الانسان فان الاشفار للأعالى والاسافل وكل حيوان ذي صدر فانه ضيق الصدر الا الانسان فانه واسع الصدر وليس شئ من ذكور جميع الحيوان له ثدي في صدره الا الانسان والفيل وقال ابن مقبل

وليلة مثل ظهر الفيل غيرها * طاس النجوم اذا اغبر الدياميم

والفيل أضخم حيوان وهو مع ضخمه أملح وأظرف وأخطر وهو يفوق في ذلك كل خفيف الجسم رشيق الطبيعة وانما الحكاية من جميع الحيوان في الكلب والقرد والدب والشاة المكية وليس عند الببغاء الا حكاية صور الاصوات فصار مع غلظه وفخامته أرشق ذهنا وأدق طرفا وأظهر طربا فهذا من أعجب العجب وما ظنكم بعظم خلق ربما كان في نابه أكثر من ثلاثمائة من ، فقال من يعارضه قد أجمعوا على أن أعظم الحيوان خلقا السمكة والسرطان وحكوا عن عظم بعض الحيات وقد ألحقوه بهما وأكثروا في شأن التنين فليس لكم أن تدعوا للفيل ما ادعيتم ، قال صاحب الهند والمعبر عن خصال الفيل وعلو سمكه وعظم جثته واتساع صهوته وطول خرطومه وسعة أذنه وكبر غرموله مع خفته وطيشه وطول عمره وثقل حمله وقلة اكترائه لما وضع على ظهره فقد عاين ذلك من الجماعات من لا يستطيع الرد عليهم الا جاهل أو معاند فأما ما ادعيتم من عظم الحية فانه متي مسحنا طولها وثخنها وأخذنا وزنها كانت أكبر من الفيل فانا لم نسمع بهذا الا في أحاديث الرقائين والحوائين وتزيد البحريين وأما التنين فانما سبيل الايمان فيه سبيل الايمان بعنقاء مغرب وما رأيت مجلسا قط فيه خبر التنين الا وهم ينكرون ويكذبون المخبر عنه الا أنا في الفرط ربما رأينا بعض الشاميين يزعم أن التنين أعصار فيه نار يخرج من قبل البحر في بعض الزمان فلا يمر بشيء الا أحرقه فسمى ذلك ناس التنين ثم جعلوه في صورة حية وأما السرطان فلم نر أحداً قط ذكر أنه عاينه فان كنا الى قول بعض البحريين نرجع فقد زعم هؤلاء أنهم ربما قربوا الى بعض جزائر البحر وفيها الغياض والاودية واللخافيق وأنهم في بعض ذلك أوقدوا ناراً عظيمة فلما وصلت الى ظهر السرطان ساح بهم وبكل ما عليه من النبات حتي لم ينج منهم الا الشريد وهذا الحديث قد طم على الخرافات والتهويلات

وحديث الخلوة وأما السمك فلعمري إن السمكة التي يقال لها البالسة الفاحشة العظم فقد عاينا ذلك عيانا وقتلوه يقينا ولكن أحسب على أن الشأن في البالة على ما ذكرتم فهل عرفتم أن فيها من الحس والمعرفة واللقن والحكاية والظرف وحسن المؤاتاة وشدة القتال والتصمد تحت الملوك وغير ذلك من الخصال كما وجدنا ذلك وأكثر منها في الفيل وهل رغبت في صيدها الملوك واحتالت لها التجار أو حث على الظفر باجزائها بعض الاطباء وهل تصلح لدواء أو غذاء أوليس انما غاية البحريين ان سلموا من عيبها نائمة أو غافلة حتى تفزع وتنفر بقرع العصا واصطكاك الخشب وانما قدمنا خصال الفيل على خصال الحيوان الذى في كتفه ومنقاره من الصنعة العجيبة أو يكون فيه من طرف المعرفة وغريب الحس ونفوذ البصر أو بعض ما فيه من الجمال والحسن ومن التفاريج ومن التحاسين والوشي والتساوى بالتأليف العجيب والتنضيد الغريب وما في خلقه من الاصوات الملحنة والمخارج الموزونة والاغانى الداخلة في الايقاع الخارجة من سبيل الخطأ مما يجمع الطرب والشجا ومما يفوق النوائح ويروق كل مغن حتى يضرب بحسن تخريجه وشجا مخرجه المثل وحتى يشبه به صوت المزمار والوتر، وأما ما يعرف بالمكر والحيل والكيس والروغان وبالفطنة وبالخديعة والرفق والتكسب والعلم بما يعنيه والحذر بالمشاولة والصبر على المطاولة مما يعطيه وتأتيه لذلك وحذقه وأما بعض ما يكون في طريق الثقافة يوم الثقافة بالمشاولة والصبر على المطاولة والقدم والروغان والكر والجولان ووضع تلك التدابير في موضعها حيث لا نرد له طعنة ولا تخطيء له وثبة، وأما بعض ما يعرف بالنظر والعاقبة وباحكام شأن الحال والمعيشة بالاخذ لنفسه والتقدم في حال المهلة والادخار ليوم الحاجة والاجناس التى تدخر لأنفسها ليوم العجز عن الطلب والتكسب فمثل الذرة والنملة والجرذ والفارة وكنحو العنكبوت والنحل فاذا كان ليس لنفيل الاعظمه وان كان العظم قد يدخل في باب من أبواب المفاخرة فلا ينبغى لأحد أن يشاهد به الابدان التى لها الخصال ويناضل به ذوات المفاخر العظيمة فما ظنك ببدن قد جمع مع العظم من الخصال الشريفة مايفنى الطوامير الكبيرة ويستغرق الجلود الواسعة وقد علمت من أن

جهل هذه السمكة بما يعيشها ويصلحها انها شديدة الطلب والشهوة لأكل العنبر والعنبر أقتل للبال من الدفلى للدواب فاذا أصابوه ميتا استخرجوا من جوفه عنبراً كثيراً فاسداً وما فيه من النفع الا أن دهنه يصلح لتمرين سفن البحريين فرآنى غانم العبد يوما وأنا أحكي هذا الكلام وكان من أموق الناس وأرقعهم رقاعة مع تيه شديد وعجب ورضى عن نفسه وسخط على الناس فمن حمقه أنه هندى وهو يتعصب على الفيل فقال ما تقول الهند فى الحوت الذي يحمل الارض أليس أعم نفعا وأعلى أمراً قلت له يا هالك ان مدار هذا الكلام انما يقع على الاقسام الاربعة من بين جميع الحيوان المذكورة فى الماء وفي الارض وفى الهواء كالذى ينساح من جميع الحيات والديدان وكالذي يمشي من الدواب والناس وكالذي يطير من احرار الطير وبغاثها وخشاشها وهمجها وكالذى يعوم كالسمك وكل ما يعايش السمك فأما الحوت الذى يكون على وجه الارض فقد علمنا أن فى الملائكة من هو أعظم من هذا الحوت مراراً ولو لا مكان من قد حضرنا لكان ممن لا يتساهل بالجواب وهذا مقدار معرفته، قالوا والفيل أقوى من جميع الحيوان في حمل الاثقال ومن قوة عظمه وعظمه أنه يمر خلف القاعد مع عظم بدنه فلا يشعر بوطئه ولا يحس بسيره لاحتمال بعض بدنه لبعض وهذه أعجوبة أخرى وليس فى حوامل اناث الحيوان أطول مدة حمل من الفيل والكركدن فانه مذكور فى هذا الباب والفيل يزيد عليه فى بعض قوته، فأما الهند ففتنتهم بالكركدن أشد من فتنتهم بالفيل فأما ما كان دون ذلك من أجناس الحيوان فأطولها حملا الحافر والخف ولا يزيدان على السنة الا ان تسحب الانثى وتزيد أياما فأما الظلف فعلى ضربين فما كان منها من البقر فان مدة حملها وحمل السمكة تسعة أشهر وما كان من الغنم فان حملها خمسة أشهر وقد ذكرنا أجناس الحيوان في ذلك فيما سلف من كتابنا هذا، قالوا والفيلة هولها في العين واحدوان فتحت ظهورها كالمناظر والمسالح والارصاد وللفيل قتال وضرب وخبط بقوائمه وكانت الاكاسرة ربما قتلت الرجل بوطء الفيلة قد دربت على ذلك وعلمته فاذا ألقى اليها الرجل تركت العلف وقصدت نحوه فداسته ولذلك أنشد أبو العباس بن يعقوب العامري لناهض بن بوصة

العامري قوله

أنا الشاعر الخطار من دون عامر * وذو الضغم اذ بعض المحامين ناهش

يخبط كخبط الفيل حتى تركته * أميا به مستدميات مفارش

وأنشد الاصمعى وأبو محمد لتميل بن مقبل

بني عامر ما تأمرون بشاعر * يحبر بآيات الكتاب هجائيا

أأعفو كما يعفو الكريم فانني * أرى الشعب فيما بيننا متدانيا

أم اخبط خبط الفيل هامة رأسه * بحرد فلا أبقى من الريش باقيا

وكانت الاكاسرة وهي الكسور تؤدبها وتعودها وطء الناس وخبطهم اذا التي تحت قوائمها بعض أهل الجنايات فكان ممن رمى به تحت رجل الفيلة النعمان بن المنذر وقال في ذلك الشاعر

ان ذا التاج لا أبالك أضحى * وذرى بيته يجوز الفيول

ان كسري عدى على الملك النعما * ن حتى سقاه أم البليل

وذكر الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير قال رأيت في ديوان معاوية كتابا من ملك الصين الذى على مربطه ألف فيل وبنيت داره بلبن الفضة والذهب والذى تخدمه بنات ألف ملك والذى له نهران يشقان اللؤلؤ الى معاوية وقال ولما أراد كسرى قتل روشك المغني لقتله فلهوذ المغنى وأمر أن يرمى تحت الفيلة التفت الى كسري وقال اذا قتلت روشك المغنى وقد قتل روشك فلهيذ فمن يطربك فقال كسرى المدة التى بقيت لك التى أنطقتك خلوا سبيله، وقال صفوان بن صفوان الانصارى وكان عند داود بن يزيد المرزبان الهند تؤدب الفيلة بأنواع من التأديب ويدربونهم على أنواع آداب الحروب حتى ربما ربطوا السيف اللهذم الرغيب الشديد المتن الحديد الغرب التام الصقل الطويل السيلان في طرف خرطوم الفيل وعلمن كيف يضرب به قداما ويمينا وشمالا وكيف يرفعه بخرطومه حتي يكون فوق رؤس الفيالين القعود على ظهره قال وأنشدنى هارون بن فلان المولى مولى الانصار قصيدته التي ذكر فيها خروجه في الحرب الى فيل في هذه الصفة تمشي اليه فلما كان حيث يناله السيف

وثب وثبة أعجله بها عن الضربة ولصق بصدر الفيل ويعلق بأصول نابيه وهما عنده قرناه فجال به الفيل جولة كاد يحطمه من شدة ما جال به وكان رجلا شديد الخلق رابط الجاش قال فاعتمدت وأنا فى تلك الحال وأصول الانياب جوف فانقلعا من أصلهما وأدبر الفيل وصار القرنان في يدي وكانت الهزيمة وغنم المسلمون غنائم كثيرة وقال فى ذلك

مشيت اليه وادعا متمهلا * وقد وصلوا خرطومه بحسام
فقلت لنفسى إنه الفيل ضارب * بأبيض من ماء الحديد هذام
فان تنكلي عنه فعذرك واضح * لدى كل منخوب الفؤاد عبام
وعند شجاع القوم أكلف فاحم * كظلمة ليل جللت بقتام
فناهشته حتي لصقت بصدره * فما هوان لازمت أى لزام
وعدت بقرنيه أريد لبانة * وذلك من عادات كل محامى
فجال وهجيراه صوت مخضرم * وابت بقرني يذبل وبشام

(وقال هارون)

ولما أتانى أنهم يعتدونه * بقائم سيف فاضل الطول والعرض
صررت ولم أحفل بذلك منهم * اذا كان أنف الفيل فى عفر الارض
وحين رأيت السيف يهتز قائما * ويلمع لمع البرق بالبلد الغض
وصار كمخراق بكف حزور * يصرفه في الرفع طورا وفي الخفض
وأقبل سفرى كل شئ شماله * وصرت كاني فوق مزلقة دحض
وأهوى نجاتي فاغتنمت ذهوله * ولم يقترب عنه أخو ثقة محض
فجال وجال القرن في كف ماجد * كثير مراس الحرب مجتنب الخفض
فطاح وولى هاربا لا تهيده * رطانة هندى برفع ولا خفض

والهند تزعم ان نابي الفيل يخرجان مستبطنين حتى يخرقا الحنك ويخرجا أعقفين وانما يجعلهما نابين من لا يفهم الامور وقالوا والدليل على ذلك أن لهما أصلين في مخارج القرون يوجد ذلك عند سالخ جلده ولان القرن لا يكون نابا ومع ذلك أنا لا نجد الفيل يعض

كعض الاسد الاكول ولا كعض الجمل الصؤل للعمل ولا كعض الافعى لافراغ السم ولاتراه يصنع به ويستعمله الا كما يستعمله ذو القرن عند القتال والغضب فقال لهم بعض من يرد عليهم اما قولكم ان القرن لايكون الامجوف الاصل فهذا قرن الايل مصمت من أوله الى آخره وهو ينتقل في كل سنة فاذا نبت حديثا لم يظهر حتى يستحكم فى يبسه وصلابته واذا علم أنه قد بلغ ظهر وأكثر القرون الجوف يكون فى أجوافها قرون وليس ذلك كقرن الفيل قالوا ولم نجد هذا القرن فى لون القرون ووجدناه لسائر أسنانه واضراسه أشبه للبياض والسمرة وليس كذلك صفة القرون ووجدناه يقول فم الايل صغير وهوأفقم ولا يجوز أن يكون مثل ذلك اللحى والفك ينبت فيه ومنه نابان يكون فيهما ثلاثمائة من وقد رأيت قرونا كثيرة الاجناس بيضاء وبرشاء وصهباء وهذه أيضا من عجائب الفيل وقرن الكركدن أغلظ من مقدار ذراع وليس طوله الا على قدر غلظه وهو أصلب وأكرم من قرن الفيل ويقال أكبر ايور الحيوان اير الفيل وأصغرها قضيب الظبي وقضيب البط لا يذكر مع هذه الاشياء وليس لشيء على قدره ومقدار جسمه أعظم ايرا من الفيل وقد علمت أن للضب ايرين وكذلك الحرذون والسقنقور وقد عرفنا مقدار ذلك ولكنه لايدخل فى هذا الباب ولو لم يكن من عجائب الفيل الا خرطومه الذى هو أنفه وهو يده وبه يوصل الطعام والشراب الى جوفه وهو شيء من الغضروف والعصب وبه يقاتل ويضرب ومنه يصيح وليس صياحه فى مقدار جرم بدنه ويضرب به الارض ويرفعه في السماء ويصرفه كيف شاء وهو مقتل من مقاتله والهند تربط في طرفه سيفا شديد المتن فيقاتل به مع ما فى ذلك من التهويل على العدو وهو مع عظم بدنه جيد السباحة الا أنه يخرج خرطومه ويرفعه فى الهواء صعدا لانه أنفه ألا ترى أن الجاموس يغيب جميع بدنه فى الماء الا منخريه والبعير قبيح السباحة لانه لا يسبح الاعلى جنبه فهو فى ذلك بطيء ثقيل والبعير يغاير بينه وبين الفيل فلذلك ذكرناه وقد علمنا أن الانسان يغرق فى الماء ما لم يتعلم السباحة فأما الفرس الاعسر والقرد فانهما يغرقان البتة والعقرب يقوم وسط الماء لاطافية ولا لازقة في الارض وأشراف السباع

وساداتها وكبارها ورؤساؤها ثلاثة الكركدن والفيل والجاموس قال ولعل بعض من اغري بالاعتراض على الكتب يقول وان الخيل والابل وفيها من خصال الشرف والمنافع والغناء فى السفر والحضر وفي الحرب والسلم وفى الزينة والبهاء وفى العدة والعتادما ليس عند الكركدن ولا عند الفيل ولا عند الجاموس قال القوم ليس الى هذا الباب ذهبنا ولا اليه قصدنا ولا ذلك الباب مما يجوز أن ندخله في هذا الباب ولكنا ذهبنا الى المحاماة والدفع علي الانفس والقتال دون الاولاد والى الامتناع من الاضداد بالحيلة اللطيفة وبالبطش الشديد وليس عند الخيل والابل اذا صادمت الاسد والنمور والنبور ما عند الجاموس والفيل والكركدن فأما الكركدن فان كل شيء من الحيوان يقصر عنه غاية التقصير الفاحش وما أكثر من ينكران فى الدنيا حيوانا يسمي الكركدن ويزعمون ان هذا وعنقاء مغرب سواء وان كانوا يرون صورة العنقاء مصورة في بسط الملوك واسمها عندهم بالفارسية سيمرك كأنه قال وحده ثلاثون طيراً لان قولهم بالفارسية سي هو ثلاثون بالعربية ومرك بالفارسية هو الطائر بالعربية والعرب اذا أخبرت عن شيء وبطلانه قالت حلقت به فى الجو عنقاء مغرب وفى الحديث إن بعض الأمم سألوا نبيهم وقالوا ان نؤمن لك حتى تفعل كذا وتفعل كذا وتلق فى فم العنقاء اللجام وترد اليوم أمس قال أبو الهندى السميطى وهو معدان المكفوف المريدي

ياسمي النبي والصادق الوعـ * ـد وجد الصبي ذى الخلخال
صاحب اللؤلؤ الذى لم يشنه * بعد خرز مثاقب اللآل
مهدته العنقاء وهي عقيم * رب مهد يكون فوق الهلال
يوم تصغي له النعامة والاحنا * ش طرا لشدة الزلزال

فأهل هذه النحلة يثبتون العنقاء ويزعمون انها عقيم وقال زرارة بن أعين مولى بني أسعد بن همام وهو رئيس التميمية وذكر هذا الصبي الذي تكفله العنقاء فقال

وأول مايحيي نماج وأكبش * ولوشاء أحيا أمه وهو مذنب
ولكنه ساع بأم وجدة * وقال سيكفيني الشقيق المغرب

وآخر برها نانه قاب يومكم * والجامه العنقاء فى العين أعجب
يصيف بساباط ويشتو بآمد * وذلك سر ما علمنا مغيب
أساغ له الكبريت والبحر جامد * وملكه الابراج والشمس تجنب
فيومئذ قامت سماط بقدرها * وقام عسيب القفر يثنى ويخطب
وقام صبى درنق فى حماطه * عليهم بأصناف البساتين يغرب

فثبت زرارة بن أعين قول أبى السرى فى العنقاء وزادنا الكبريت الاحمر ولا أعلم في الارض قوما يثبتون العنقاء على الحقيقة غيرهم قال فيثبتون الكركدن ذكر النبي داود عليه السلام فى الزبور حين سماه وقد ذكره صاحب المنطق فى كتاب الحيوان الا أنه سماه بالحمار الهندى وجعل له قرنا واحداً في وسط جبهته وكذلك أجمع أهل الهند كبيرهم وصغيرهم وانما صار الشك يعرض فى أمر من قبل أن الانثى منها ما يكون نزورا وأيام حملها ليست أقل من أيام حمل الفيل فلذلك قل عدد هذا الجنس وتزعم الهند أن الكركدن اذا كانت ببلاد لم يرع شئ من الحيوان شيئاً من أكناف تلك البلاد حتي يكون بينه وبينها مائة فرسخ من جميع جهات الارض هيبة له وخضوعا له وهربا منه ،وقد قالوا في ولدها وهو فى بطنها قولا لولا أنه ظاهر على السنة الهند لكان أكثر الناس بل كثير من العلماء يدخلونه فى باب الخرافة وذلك أنهم يزعمون أن أيام حملها اذا كادت أن تتم واذا نضجت وشحنت وجرى وقت الولادة فربما أخرج الولد رأسه من باطنها فأكل من أطراف الشجر فاذا شبع أدخل رأسه ، حتى اذا تمت أيامه وضاق به مكانه وأنكرته الرحم وضعته مطيقا قويا على الكسب والحضر والدفع عن نفسه بل لا يعرض له شيء من الحيوان والسباع وقد زعم صاحب المنطق أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الاسنان لطول مكثه في بطنها وهذا جائز فى ولد الفيل غير منكر لان جماعة نساء معروفات الآباء والابناء قد ولدن أولادهن ولهن أسنان نابتة كالذى رووا فى شأن مالك بن أنس ومحمد بن عجلان وغيرهما وقد زعم ناس من أهل البصرة ان خاقان بن عبد الله بن الاهتم استوفي في بطن أمه ثلاثة عشر شهراً وقد مدح بذلك وهجي وليس ذلك بالمستنكر وان كنت لم أرقط

قابلة تقر بشيء من هذا الباب وكذلك الاطباء وقد رووه كما علمت ولكن العجب كل العجب ماذكروا من اخراج ولد الكركدن رأسه واعتلافه ثم ادخالها بعد الشبع والبطنة ولا بد أكرمك الله لما أكل من نجوفان كان بقى الولد يأكل ولا يروث فهذا عجب وان كان يروث فى جوفها فهذا أعجب وانما جعلناه يروث حيث سموه حماراً وهذا مما ينبغى لنا أن نذكره في خصال الخصال اذا بلغ ذلك الباب ولا أقران الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتي يأكل شبعه ثم يدخل رأسه ولست أراه محالا ولا ممتنعا فى القدرة ولا في الطبيعة وأرى جوازه مرهوبا غير مستحيل الا أن قلبي ليس يقبله وليس في كونه ظلم ولا عيب ولا خطأ ولا تقصير فى شيء من الصفات المحمودة ولم نجد القرآن ينكره والاجماع يدفعه والله هو القادر دون خلقه ولست أبت بانكاره وان كان قلبي شديد الميل الى رده وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ولا يعرف الا بالعيان الباهر والخبر المتظاهر وليس الخبر عنه مثل الخبر عن الدساس التى لا تبيض ولا تلد وانما أنكر ذلك ناس لان الدساس ليس أشرف كالخفاش بل هو كالممسوح وكسائر الطير وكاللواتى تبيض من ذوات الاربع ومن المائيات والارضيات وليس الخبر عن الكركدن أيضا كالخبر عن الدلفين أنها تلد وعن اللحم مثل ذلك وان الكوسج يتولد من بين اللحم وسمكة أخرى وهذا كله غير مستحيل الا انى لاأجعل الشيء الجائز كالشيء الذى تثبته الادلة ويخرجه البرهان من باب الانكار والواجب فى مثل هذا الرفق وان كان القلب الى نقض ذلك أميل والميل أيضاً يكون من طبقات وكذلك الظن يكون داخلا في باب الايجاب وربما قصرا عن ذلك وقد زعم ناس من أهل العلم ان السمك كله يلد وأنهم انما سموا ذلك بيضا على التشبيه والتمثيل لانه لاقشر له هناك ولا مخ ولا بياض ولا غرقئ وأن السمكة لا توجد أبداً الا فارغة البطن أو محشوة ولم نر الحب الذى عند مثالها أعظم ولم نرها ألقت احدى تلك الطوامير واحدا فواحداً وأولا فاولا وماذلك بأعجب ولا أضيق من حياء الناقة والسقب والحائل يخرجان منه خروجا سلسا اذا أذن الله بذلك وكذلك المرأة وولدها والجاموس والرمكة والحجر والأتان والشاة فى ذلك

كله مثل السمكة وقالوا لا بد للبيض من حضن ومتى حضنت السمكة بيضها لا تلتفت الى بيضها وفراخها والعوام تضرب المثل في الشدة والقوة بالكركدن وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذى فى وسط جبهته فلا يشعر بمكانه ولا يحس به حتى ينقطع على الايام وهذا القول بالخرافة أشبه وأعجب من القول فى ولد الكركدن مايخبرنا به ناس من أهل النظر والادب وقرأة الكتب وذلك أنهم يزعمون أن النمرة لا تضع ولدها أبداً الا وهو متطوق بأفعى وانها تعيش وتنهش الا أنها لا تقتل ولو كنت أجسر في كتبي على تكذيب العلماء ودراس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر وليس هذا عندي كزعمهم ان الافعى تلد وتبيض لان تأويل الافعى ينفصل بيضها فاذا طرقت بالبيض تلوت لخطمته في جوفها ثم ترمى بتلك القشور والحراشي أولا فأولا ولا بد لكل ذات حمل أن تلقى مشيمتها ويزعم كثير من الاعراب أن الكمأة تتعفن ويتخلق منها أفاعى فهذا الخبر وان كنت لا أسرع الى رده فاني على أصحابه الين كنفا، وأما قرن الكركدن فخبرني من رأى قرنه ممن أثق بعقله وأسكن الى خبره أن غلظ أصله وسعة جسمه يكون نحواً من شبرين وليس طوله على قدر ثخنه وهو محدد الرأس شديد الملاسة ملموم الاجزاء مدبج ذو لدونة وعلوكة فى صلابة لا يمتنع عليه شئ ويحضر عندنا بالبصرة الى الصين الا أنه يقع الينا قبلهم فاذا ظهر ظهرت فى مقاطعه صورة عجيبة وفيه خصال غير ذلك لما يطاب، ولقد كنا نزعم أن الهواء للعقاب والماء للتمساح والغياض للأسد حتي زعم أصحابنا أن في نيل مصر خيولا تأكل التمساح أكلا ذريعا وتقوي عليها قوة ظاهرة وتغتصبها أنفسها فلا تمتنع عليها وعارضوا من أنكر خيل الماء بخنازير الماء وبكلاب الماء وبديس الماء ولم أجدهم يشكون أن بعض الحيوان الذى يكون فى البحر مما ليس بسمك وقد ذهب عني اسمه اذا أبصر غريقا عرض له وصار تحت بطنه وصدره فلا يزال كالحامل له والمزجى والمعين حتى يقذف به الى جزيرة أو ساحل أو جبل وأصناف سمك البحر وأجناس ما يعايش سمك البحر اذا عاينوا نباتا أو طيراً أيقنوا بالارض الا أن ذلك القريب قد تعني بعيداً فلذلك سلم ذلك الغريق بمعونة ذلك الحيوان فأما الاسد والببر فيتسالمان

وأما الاسد والنمر فيتماديان والظفر بينهما سجال والنمر وان كان ينتصف من الاسد فان قوته على سائر الحيوان دون قوته على الاسد وبدنه في ذلك أحمل لوقع السلاح ولا يعرض النمر للببر وقد أيقنا أنهما ليسا من بابته فلا يعرض لهما لسلامة ناحيته وقلة شره وهما لا يعرضان له لما يعرفان من أنفسهما من العجز عنه وأما البهائم الثلاث التي ذكرناها فانها فوق الاسد والنمر والببر هندى مثل الفيل أيضاً والكركدن فلا يقوم له سبع ولا بهيمة ولا يطمع فيه ولا يروم ذلك منه ، وأما الجاموس والاسد فخبرني محمد بن عبد الملك أن أمير المؤمنين المعتصم بالله أبرز للأسد جاموستين فغلبتاه ثم أبرز له جاموسة ومعها ولدها فغلبته وحمت ولدها منه وحصنته ثم أبرز له جاموسا وحده فواثبه ثم أدبر عنه هذا وفي طبع الاسد من الجراءة عليه بمقدار ما مع الجاموس من التهيب له فيعلم أنه قد أعطى في كفه ومخالبه من السلاح ما ليس لشئ سواه ويعلم الاسد والجاموس جميعا انه ليس في فم الجاموس ويديه وظلفه من السلاح قليل ولا كثير فمع الاسد من الجراءة عليه ومع الجاموس من الخوف منه على حسب ذلك ويعلم الاسد ان بدنه يتموج في اهابه وان له من القوة على الوثوب والصبر والحضر والطلب والهرب ما ليس في الجاموس بل ليس ذلك عند الفهد في وثوبه ولا عند السبع في سرعة مره ولا عند الارنب في صعد ولا هبوط ولا يبلغه نقزان الظبي اذا جمع جراميزه ولا ركض الخيل العتاق اذا أجيد إضمارها والجاموس يعرف كل ذلك منه ومع الجاموس من النكوص عنه بقدر مامع الاسد من الاقدام عليه ويعلم انه ليس له الا قرنه وان قرنه ليس في حدة قرن بقر الوحش فضلا عن حدة أطراف مخالب الاسد وانيابه وان قرنه متبذل لايصان عن شئ ومخالب الاسد في اكمام وصوان واذا قوى الجاموس مع هذه الاسباب المخففة على الاسد مع تلك الانياب المستحقة حتى يقتله أو يعرض عنه كان قد تقدمه تقدما فاحشاً وعلاه علواً ظاهراً فلذلك قدمنا الجاموس وهو بهيمة وقدمنا رؤساء البهائم على رؤساء السباع هذا سوي ما فيها من المرافق والمنافع والمعاون والجاموس أجزع خلق الله من عض خرشنة وبعوضة وأشد هربا منها الى الماء وهو يمشى الى الاسد رضى

البال رابط الجاش ثابت الجنان فأما الفيل فلم يولد الناس عليه وعلى الكركدن ما ولدوا من فراط القوة والنجدة والشهامة الا والامر بينهما متقارب عندهم ، والهند أصحاب الببور والفيول كما أن النوبة أصحاب الزرافات دون غيرهم من الأمم وأهل غانة ما صار لباسهم جلود النمور بها الا أنها على حال موجودة في كثير من البلدان وقد ذكروا بأجمعهم قوة الفيل الوحشي على الاسد وقالوا في الفيلة الاهلية اذا لقيت عندنا بالعراق الاسد وجمعنا بينهما قالوا أما واحدة فان ذكور الفيلة لا تكاد تعيش عندكم وأنيابها التي هي أكثر سلاحها لا تنبت ببلادكم ولا تزيد على ما كانت عليه ما اقامت فى ارضكم وهي أيضا لا تتناتج عندكم وذلك من شدة مخالفة البلدة وطباعها ونقضها لقواها وانما أسرع اليها الموت عندكم للذى يعتريها من الآفات والاعراض فى دوركم فاجتمعت عليها خصال أول ذلك انها من الوحش فى صميم بلادها أجرى وأقوي وأشهم نفساً وأمضى فلما اصطدناها بالحبل وصيرناها مقهورة أهلية بعد ان كانت وحشية وفى غير غذائها لانها كانت تشرب اذا احتاجت وتأكل اذا احتاجت وتأخذ من ذلك مقدار ما تعرف من توقع الحاجة فلما صارت الى قيام العبيد عليها والاجراء لسواسها والوكلاء بما يصلحها دخل ذلك من النقص والخور والخطأ والتقصير على حسب ما تجد في سائر الاشياء ثم لم نرض ذلك حتى نقلنا ما كانت تجده من انكارها لتلك البلدة فصيرناها الى الضد بعد ان كانت في الخلاف وقد علمنا ان سبيلها سبيل سائر الحيوان فان الابل تموت ببلاد الروم وتهلك وتسوء حالها والعقارب تموت والتماسيح تموت ان نقلت الى دجلة والفرات والناس يصيبهم الجلاء فيموتون ويتهافتون وقد علمنا ان الزنج اذا خرجوا من بلادهم كما يحصل بالبصرة عندنا منهم وكذلك لو نقلوا اليكم بزر الفلفل والساج والصندل والعود وجميع تلك الاعضام فما امتناع نبات العاج ببلادكم الا كامتناع نبات الابنوس وان كان ينبت فى حيوان والارضى في أرض فلا يفتخرن مفتخر فى الاسد فى هذه البلدة اذا قام الفيل والاسد هاهنا في بلاده وفي الموضع الذي تتوفر أموره عليه لان اسد العراق هي الغاية وأقواها أسد السواد ثم أسد الكوفة ولان الفيلة عندكم أيضاً تري عندكم

السنانير وقد جعل الله في طبع الفيل الهرب من السنور والوحشة منه وكما أن بعض شجعانكم يمشي الى الاسد ويقبض على الثعبان ولا يستطيع النظر الى الفار والجرذان حتى يهرب منها كل الهرب ويعتريه من القبض واصفرار اللون مالا يعتري المصبور على السيف وهو يلاحظ بريقه عند قفاه وذكر علىّ بن محمد السميري قال بينما عبد الله بن حازم السلمي عند عبيد الله بن زياد اذ دخل عليه جرذ أبيض ليقبل منه فأقبل عبيد الله على عبد الله فقال هل رأيت يا أبا صالح أعجب من هذا الجرذ واذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه فرخ واصفر حتى كأنه جرادة فقال عبيدالله أبو صالح يعصى الرحمن ويتهاون بالشيطان ويقبض على الثعبان ويمشي الى الاسد ويلقى الرماح بوجهه وقد اعتراه من جرذ ما ترون اشهدوا أن الله على كل شئ قدير ، واذا عاين الفيل الاسد رأى فيه شبه السنور فيظن أنه سنور عظيم فلا يبلغ مقدار تلك المناسبة وذلك الشبه ومقدار ذلك الظن ما يبلغ رؤية السنور نفسه وليس هربه منه من جهة انه طعام له وأنه ان ساوره غلبه على نفسه وان كان في المعني يرجع الى انه طعام لصغار السباع وكبارها وهل قتل الاسد قط فيلا ومتي أكله وانه مع ذلك لربما ركله الركلة فاما أن يقتله وأما ان يذهب عنه هاربا في الارض وأما أن يخليه وأية حجة على الفيل في أن يرى سنوراً فيفزعه ذلك ،فلمعرفته بان الماء الكدر لا تتصور فيه الصور يضرب بيديه هذا قول بعضهم وأما صاحب المنطق وغيره ممن يدعي معرفة شأن الحيوان فانه يزعم أن الفرس بالماء الكدر أشد عجبا منه بالماء الصافي كما أن الابل لا يعجبها الماء الا ان يكون غليظا وذلك هو الماء النمير عندهم وانما تصلح الابل عندهم على الماء الذي تصلح عليه الخيل ويزعم من أقام ببلاد السودان أن الذين يسكنون شاطئ النيل من الحبشة والنوبة انهم يشربون الماء الكدر ويأكلون السمك الني فيعتريهم طحال شديد فاذا شدوا على بطونهم ضرسا من أضراس خيل الماء وجدوه صالحاً لبعض ما يعرض من ذلك ويزعمون ان أعفاج هذا الفرس يبرئ من الصرع الذى يكون في الاهلة وقال بعض من يبصر بالاسد أن الاسد في الهند أضعف بل هي ضعيفة جداً والفيل في بلادهم أقوى والوحشي منها والمغتلم لا يقوم له الا الكركدن وأنه

ليقحم عليه فيحجم عنه حتى تذهب عنه سكرة الغلمة فيرجع الى معرفة حال الكركدن فلا يطور طوره ولا يخليه بأدانى أرضه وأما الفيل فاذا كان غير هائج والاسد فى غير أيام سفاده ثم لا يكون الاسد عراقيا ويكون سواديا ثم يكون من أجمة أفريقيا فان الفيل لا يقوم له قال صاحب الفيل الفيل لا يعاين أسدا أفريقيا حتي تفسخه البلدة وتوهنه الوحشة ويعرضه الغذاء ويفسده الماء وهو لا يصل الى ذلك المكان حتى يجمع بينه وبين الاسد وحتي يسمع تجاوب السنانير وتضاغطها وهو أسمع من قراد فيثبت ذلك فى صدره وتتزايد تلك الوحشة فى نفسه فتى رأي أسداً قائما فربما حملته الدهشة منه والبغض المجبول الى الصدود والذهاب عنه فيظن كثير من الناس ان ذهابه هرب وان صدوده جبن وانما هو من الوحشة منه والكراهة لمنظره وربما اضطره الاسد بخرقه حتى ينقض حلمه ويغلب وقاره فيخبطه خبطة لا يفلح بعدها أبداً قال صاحب الفرس زعمتم أن الاسد فى الارض كالعقاب في الهواء وكالتمساح فى الماء وأن تمساحا وأسداً اعتلجا على شريعة فقتل كل واحد منهما صاحبه كأن التمساح ضرب بذنبه في الشريعة وضغم الاسد رأسه فماتا جميعاً قال والفرس المائى بالنيل يقتل التماسيح ويقهرها ويأكلها ولا يساجلها الحرب ولا تقع بينهما مغالبة ومجاذبة ولا تكون الايام بينهما دولا فهذه فضيلة ظاهرة على الاسد وشرف فرس الماء راجع الى فرس الارض فان كان فرس الارض لا يقوي على الاسد ولا على النمر ولا على الببر فان ابن عمه وشكله فى الجنس قد قوي على التمساح وهو رئيس سكان الماء قالوا اما واحدة فان التمساح ليس برئيس سكان الماء الا أن يريد بعض سكان الاودية والانهار والخلجان والمتحيزات فى بعض المياه العذبة والكوسج واللخم والسرطان والدلفين وضروب من السمك مما يعايش السمك ينهش التمساح من نابه وعلى أن التمساح ربما يأكله ذلك الفرس وهو فى الماء وليس للتمساح فى جوف الماء كبير عمل الا أن يحتمل شيئاً بذنبه ويلحجه اليه ويدخله الماء وربما خرج الى الارض للسفاد ولحضن البيض فلا يكون على ظهر الارض شئ أذل منه وذله على الارض شبيه بذل الاسد فى وسط الماء الغمر ولعمرى أن لو عرض له هذا الفرس في الشرائع فقتله لقد كان ذلك من مفاخره فلذلك لم نذكر الخيل في

باب الغلبة والقتال والمساجلة والانتصاف من الاعداء والفرس قد يقاتل الفرس في المروج اذا أراد أن يحمى الحجور كما يحمى العير العانة ويقاتل عليها كل عير يريد مشاركته فيها وهذا شيء يعرض لجميع الفحولة في زمن الهيج وقد يصاول الجمل الجمل فربما قتل أحدهما صاحبه ولكن هذه الفحولة لا تعرض لشيء من الحيوان في غير هذا الباب وان أراد الفرس أسد فليس عنده من احراز نفسه وقتل عدوه ما عند الجاموس فان فضله الجاموس بقرنيه فان البيان الذى فى القرن لو استعمله لكان سلاحا ولو استدبر الاسد فركله ورمحه وعضه بفيه لكان ذلك مما يدفع عنه ويحمى لحمه وليس للجاموس فى اظلافه وفى رجليه وفي فمه سلاح فقد دلت الحال على أن مدار الامر انما هو شجاعة القلب وفى هذا القياس ان الصقر انما يواثب الكركى لمكان سلاحه دون شجاعة القلب التى يقوي بها الضعيف وبخلافها يضعف القوي وسأقرر لك ذلك ببعض ما تعرفه ، لا تشك أن الهر أقوى من الهرة في كل الحالات حتي اذا سفدها حدث بينهما بغض ومطالبة وحدثت للهرة شجاعة وللهر ضعف فصارت الهرة فى هذه الحال أقوى منه وصار الهر أضعف ولو لا أنه يمعن فى الهرب غاية الامعان ثم لحقته لقطعته وهو مستخذ ومثال ذلك أن الجرذ يخصى ويرمى به فى أنابير التجار وفى الابرجة والبيادر فلا يدع جرذا ضخما قد أعيا الهر وابن عرس الا قتله وان كان أعظم منه وأشد والخصى من كل شيء أضعف قوة من الفحل الا الجرذ فانه اذا خصى أحدث له الخصى شجاعة وجراءة وأحدثت له الشجاعة قوة وأحدث له علم الجرذان بحال الخصاء لها جبنا وأحدث الجبن لها ضعفا والرجل الشديد الاسر قد يفزع فتنحل قوته ويسترخى عصبه حتي يضربه الصبى والذئب القوى من ذئاب اللحم يكون معه الذئب الضعيف فان رمي القوى أحدث ذلك للضعيف طمعا فعند ما يرى الدم وثب عليه فيعتري ذلك القوى عند ذلك من الضعف بمقدار ما يعترى الضعيف من القوة حتى يأكله كيف شاء والاسد الذى يعتريه الضعف فى الماء الغمر حتى يركب ظهره الصبى ثم يقبض على أذنيه فيغطه كيف شاء وقد يفعل به ذلك غلمان السواد وشاطئ الفرات اذا احتملت المدود الاسدة

لا تملك من أنفسها شيئاً وهو مع ذلك يشد على العسكر حتى يفرقه تفريق الشعر ويطويه طي السجل ويهارش النمر عامة نهاره لا يقتل أحدهما صاحبه وان كان الجمل الهائج باركا أتى فضرب جنبه ليثنى اليه عنقه كأنه يريد عضته فيضرب بيساره الى مشفر فيه فيجذبه جذبة يفصل بها دأيات عنقه وان ألفاه قائما وثب به فاذا هو على ذروة سنامه فعند ذلك يصرفه كيف شاء ويلعب به كيف أحب ونحن لا نشك أن للفرس تحت الفارس غناء في الحرب لايشبهه غناء ولذلك فضل في القسم وانما ذلك بتصريف راكبه له وقتاله عليه فأما هو في نفسه فان كان أوفر سلاحا من الجاموس وفر عن قرنه واستسلم لعدوه فانه من ها هنا لا يقدر انحصار أقسام الخير في شخص واحد ولكن ان كان عليه تقاتل الانبياء واتباع الانبياء وملوك الكفار حتى يقمع الله الباطل ويظهر الحق فلذلك قدمناه على جميع البهائم والسباع وانما نقدمه على الوجه الذي قدمه الله فيه، واعترض على أصحاب فرس الماء معترضون فقالوا الفرس لايكون الا بهيمة والبهائم لا تصيد وتأكل صيدها وانما طعام الفرس النبات وليس اللحم لها بطعام وقال النمر بن تولب

والخيل في اطعامها اللحم ضرر * نطعمها اللحم اذا عز الشجر

في كلمته التي يقول فيها * الله من آياته هذا القمر *

وقد تعلف في تلك الحالات اللحم اليابس وحشيش السمك فأما الحشيش فالخيول أهل الاسياف خاصة قيل لهؤلاء المعترضين على فرس الماء وقد يكون في الخلق المشترك وغير المشترك ما يأكل اللحم والحب فالمشترك مثل الانسان الذي يأكل الحيوان والنبات والعصفور من الخلق لانه يأكل الحب والصيد ويصطاد النمل الطيار والأرضة فيأكلها ويأكل اللحم والدجاج تأكل اللحم والديدان وتحسو الدم وتلقط الحب والغراب لايدع شيئاً الا أكله وما خرج من حد المشترك وهو كنحو الذئب والضبع وكنحو الشاهين والصقر فان هذه وأشباهها لا تعرف الا اللحم وضروب من الطير لاتعرف الا الحب والنبات والمشترك أجمع مما هو غير مشترك والسمكة تأكل الطير والنبات وتأكل الجيف التى تصيب في الماء وتصاد بضروب من الحيوان تجعل لها في الشطوط

ثم ينصبون لكل ضرب من الطعام، والجرى يأكل الجرذان ويصيدها وهو آكل لها من السنانير والحيات والكلاب السلوقية ويأكل الجرى جميع جيف الموتى والسمك يأكل السمك ويأكل من كل حب ونبات يسقط فى الماء وان استفهم مستفهم أو اعترض معترض فقال وكيف يأكل الجرى الجرذان والجرذان أرضية بيوتية والجري مائي قيل له يخبرنا جميع من يبيت في السفن وفي المشارع وفى فيض البصرة عندنا ان جرذان الانابير تخرج ارسالا بالليل كأنها بنات عرس والجري قد كمن لهن وهو فاتح فاه فاذا دنا الجرذ من الماء فمر فيه التقمه ليس دون ذلك شئ بسحر فم واسع يدخل فى مثله الضب الهرم وانما يضع خطمه على الشريعة قال أبو عثمان ومما لا أكتبه لك من الاجناس العجيبة التى لا يجسر عليها الا كل وقاح أخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب يقرأها ويدارس أهل البصرة ويحفظها زعموا أن الضبع يكون عاما ذكر وعاما أنثي وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته قال الفضل بن اسحاق أنا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد قال ومن العفص ما يكون مثل الاكر وقد خبرني بذلك غيره وهو يشبه تحول الانثى ذكراً والذكر أنثي وقد ذكرت العرب فى أشعارها الضباع والذئاب والسمع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والاجناس وهم أخبر الخلق بشأن الضبع فكيف تركت ما هو أعجب وأظرف ولقد ذكرت العلماء الضباع في مواضع من الفتيا لم نر أحداً ذكر ذلك وأولئك بأعيانهم هم الذين يزعمون أن النمر تضع فى مشيمة واحدة جروا وفى عنقه أفعي قد تطوقت به واذا لم يأتنا فى تحقيق الاخبار شعر شائع أو خبر مستفيض لم نلتفت اليه ولقد أقررنا أن للسقنقور ايرين وكذلك الحرذون والضب حين وجدناه ظاهراً على السنة الشعراء وحكاية الاطباء، والخرطوم للفيل هو أنفه ويقوم مقام يده عنقه والخرق الذى هو فيه لا ينفذ وانماهو وغل واذا ملأه الفيل من طعام أوماء أوفى لجه فيه لانه قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى وانما صار ولد البختى من البختية جزور لحم لقصر عنقه ولعجزه عن تناول الماء والمرعى وللبعوضة خرطوم وهو أشبه بالفيل الا أن خرطومها أجوف فاذا طعن به فى جوف الانسان والبهيمة فاستقي به الدم من جوفه

قذفت به الي جوفها فهو لها كالبلعوم والحلقوم وللذبابة خرطوم تخرجه اذا أرادت الدم وتدخله اذا رويت فأما من يسمى خطم الخنزير والكلب والذئب خرطوما فانما ذلك على التشبيه وكذلك يقولون لكل طويل قصير اللحيين وقد يقال للخطم خرطوم وأنشد ابن الاعرابي لفتى من بني عامر

ولا أقوم على شيخي فاشتمه * ولا أمر على تلك الخراطيم

جعل سادة عشيرته في النادى كالخراطيم والمقاديم والهوادى وعلى ذلك قالوا بنو فلان رؤسهم وخراطيمهم ومعنى العامري الذى ذهب اليه في شعره كأنه عظم الشيخة أن يمر بهم وقد قال الشاعر

* هم الانف المقدم والسنام *

والفيل والببر والطاووس والببغا والدجاج السندى والكركدن مما خص الله به الهند وقد عدد ذلك مطيع بن اياس حين خاطب جارية له تسمى روقة فقال

روق أى روق كيف فيك أقول * صار بينا ورد ورمل ونيل
وبعيد من بينه حينما كا * ن وبين الحبيب بين وبيل
ببلاد بها تبيض الطواوي * س وفيها تزاوج الزنديل
وبها الببغاء والصقر والعر * دله في ذرى الاياط مقيل
والخموع العرجاء والايل الاقر * ن والليث في الغياض الشبول

وقال أبو الاصلع الهندي يفخر بالهند وما أخرجت بلادها

لقد يعذلنى صحبي * وما ذلك بالامثل
وفى مدحتى الهند * وسهم الهند فى المقتل
وفيه الساج والعاج * وفيه العود والدغفل
وإن التوتيا فيه * كمثل الجبل الاطول
وفيه الدار صيني * وفيه ينبت الفلفل

والمتشابه عندهم من الحيوان الخنزير والبعوضة والجاموس وقال رؤبة

لبث يدق الاسد الهاموسا * والاقهبين الفيل والجاموسا

ولما هجا أبو طروق الضبي امرأته وكان اسمها سفير جعل الخنزير خنزيرات فجمعها كما ترى للتشابه وقال الآخر

كان الذى يبدو لنا من لثامها * جحافل عير أو أشافر فيل

والفيل يوصف ولذلك قال الاعرابى

قد قادني يا صاحبي المعصم * ولم أكن أخدع فيما أعلم
اذ يصفق الناب العريض الاعظم * وأذنى الفيل له أو ترجم
وقيل ان الفيل فيل مرجم * وحنفش قد تم منه المخرم
أجرد أعلا الجسم منه الضخم * يجر أرجاء ثقالا تحطم *
ما تحتها من قرضها مبسم * وحنك حين يعد أفقم
ومشفر حين يمد سرطم * يرده في الجوف حتي يعظم
لو كان عندي سبب أو سلم * نجيت نفسي جاهداً لا أظلم

(وقال آخر)

من يركب الفيل فهذا الفيل * ان الذى يركبه محمول
على تهاويل لها تهويل * كالطود الا أنه يجول
* وأذن كأنها منديل *

وقال عمارة بن الوليد يضرب المثل بقوة الفيل

اذا أتانا أمير لم يقم لهم * هذا وجاءت بنا منه الاحايل
وعض مجهولنا الافعى وحمله * من المظالم ما لا يحمل الفيل

وقال الهذيل يمدح أبا الفيل الاشعرى

ان أبا الفيل لا تحصى فضائله * قد عم بالعرف كل العجم والعرب

ونظر ابن أبي سلمة المدني الى خرطوم الفيل والى غرموله فقال

ولم أر خرطومين فى جسم واحد * قد اعتدلا في مشرب ومبال

فقد غلط لان الفيل لا يشرب بخرطومه ولكن به يوصل الماء الى فمه فشبه غرموله بالخرطوم وغرموله يشبه بالجعبة والمنديل والنزع وقال المخبل في تعظيم شأن الفيل

أتهزأ مني أم عزة ان رأت * نهاراً وليلا أبلياني فأسرعا
فان أك لاقيت الدهاريس منهما * فقد أبليا النعمان قبلي وتبعا
ولا يلبث الدهر المفرق بينه * على الفيل حتى يستدير فيصرعا

وقال مروان بن محمد وهو أبو الشمقمق حدثني صديق لي قال سألت أبا الشمقمق عن اسمه وكنيته فقال أنا مروان بن محمد مولى مروان بن محمد

يا قوم اني رأيت الفيل بعدكم * فبارك الله لي في رؤية الفيل
لما بصرت باير الفيل أذهلني * عن الحمير وعن تلك الاباطيل

وقال الاصمعي جنى قوم من أهل اليمامة فأرسل اليهم السلطان جندا من غازية ابن زياد فقام رجل من أهل البادية من أصحابه فقال يامعشر العرب ويابنى المحصنات قاتلوا عن أحسابكم ونسائكم والله لئن ظهر هؤلاء القوم عليكم لايدعون فيها لبنة حمراء ولا كلة خضراء الا وضعوها بالارض ولا أعركم من نشاب معهم في جعاب كأنه أيور الفيلة ينزعون في قسى كأنها الفيل تئط احداهن أطيط الزربوق يمعط أحدهم فيها حتى يعرق شعر إبطيه ثم يرسل نشابة كأنها رشأ منقطع فما بين أحدكم وبين أن تنضح عينه أو يصدع قلبه منزلة قال فخلع قلوبهم فطاروا رعباً ، قالوا الفيلة ضربان فيل وزنديل وقد اختلفوا في أشعارهم وأخبارهم فبعضهم يقول كالبخت والعراب والجواميس والبقر والبراذين والخيل والفأر والجرذان والذر والنمل وبعضهم يقول انما ذهبوا الى الذكر والانثى قال خالد القناص في قصيدته تلك المزاوجة التى ذكر فيها الضبة فاطنب فيها فقال حين صار الى ذكر الفيل

ذاك الذى مشفره طويل * وهو من الافيال زنديل

فذهب الى القطس وقال الآخر

* من بين فيلان وزنديل *

فجعل الزنديل هو الذكر وقال أبو يقظان سحيم بن حفص ان الزنديل هو الانثى فلم يقفوا من ذلك على شئ وبعض الناس يقسم الجن على قسمين فيكون جن وحن ويجعل التى بالحاء أضعفها وأما الراجز فقال

أبيت أهوى في شياطين ترن * مختلف نجواهم جن وحن

ففرق هذا بين الجنسين وسمع بعض الجهال قول الحسن ذهب الناس وبقيت في النسناس فجعل النسناس جنساً على حدة وسمع آخرون أجهل من هؤلاء قول الكميت نسناسهم والنسانسا فزعموا أنهم ثلاثة أجناس ناس ونسناس ونسانس هذا سوى القول في أشق وواق والزوال في أولاد العراق وفي أولاد السعالى من الناس وفي غير ذلك مما ذكرناه في موضعه من ذكر الجن والانس وقد علم أهل العقل ان النسناس وقع على السفلة والاوغاد والغوغاء كما سموا الجراد اذا ألقى البيض وسخف وخف وطار ، قال واذا اغتلم الفيل قتل الفيلة والفيالين وكل من لقيه من سائر الناس ولم يقم له شيء حتى لايكون لسواسه هم الا الهرب والا الاحتيال لانفسهم وتزعم الفرس ان فيلا من فيلة كسرى اغتلم فأقبل نحو الناس فلم يقم له شيء حتى دنا من مجلس كسرى فاتسع عنه جنده وأسلمته صنائعه وقصد الى كسرى ولم يبق معه الا رجل واحد من فرسانهم كان أخصهم به حالا وأرفقهم مكانا فلما قرب من الملك شد عليه بطبر زين كان في يده فضرب به جبهته ضربة غاب لها جميع الحديد في جبهته فصدف عنه وارتدع وأبى كسرى أن يزول من مكانه فلما أيقن بالسلامة قال لذلك الرجل ما أنا بما وهب الله لي من الحياة على يديك بأشد سرورا مني بما رأيت من هذا الجلد والوفاء والظفر في رجل من صنائعنا وحين لم تخطئ فراستي ولم يفل رأيي فهل رأيت أحدا قط أشد منك قال نعم قال حدثني عنه قال على أن تؤمنني فأمنه فحدث عن بهرام سوبين بحديث شق على الملك وكرهه اذ كان عدوه على تلك الصفة ، قال اذا اغتلم الفيل وصال وغضب وخمط خلاه الفيالون والرواض فربما عاد وحشياً والفيلة من الاجناس التي يكون فيها الاهلي والوحشي كالسنانير والظباء والحمير وما أشبه ذلك وأنشد الكرماني الشاعر لموبان قوله

فكنت في طابي من عنده كرما * كراكب الفيل وحشياً ومغتلما

وهذه القصيدة التي يقول فيها

قد كنت صمدت عن يمبور مغتربا * حتى لقيت بها حلف الندى علما

ترم كان ضياء الشمس سنته * لو ناطق الشمس ألقت نحوه الكلما

وتقول الفرس أعطى كسرى ابرويز ثمان عشرة خصلة لم يعطها ملك مضى ولا يعطاها أحد أبداً من ذلك اجتمع له تسعمائة وخمسون فيلا وهذا شيء لم يجتمع عند ملك قط ومن ذلك أنه أنزى الذكورة على الاناث وان فيلة منها وضعت عنده وهى لا تتناتج بالعراق فكانت أول فيلة بالعراق وآخر فيلة تضع قالوا واتى رستم الادنى المسلمين يوم القادسية ومعه عشرون ومائة فيل من بقايا فيلة كسرى أبرويز قالوا ومن خصاله أن الناس لم يروا قط أمد قامة ولا أتم ألواحا ولا أبرع جمالا منه فلما مات فرسه السيد كان لا يحمله الا فيل من فيلته وكان يجمع وطاء ظهر الفيل وثبات قوائمه ولين مشيته وبعد خطوه وكان ألطفها لدنا وأعدلها خببا قالوا ولم يجتمع لاحد من ملوك الاسلام من الفيلة ما اجتمع عند أمير المؤمنين المنصور اجتمع عنده أربعون فيلا منها عشرون فحلا قالوا والفيل أشرف مراكب الملوك وأكثرها تصرفا ولذلك سأل وهرز الاسوار عن صاحب الحبشة حين صافهم فى الحرب فقيل له ها هو ذاك على الفيل فقال لا أرميه ثم سأل عنه فقيل له قد نزل عنه وركب الفرس قال لا أرميه وهو على مركب الحماة قيل قد نزل عنه وركب الحمار قال قد نزل عن مركبه لحمار فدعا بعصابة رفع بها حاجبيه وكان قد أسن حتى سقطت حاجباه على عينيه ثم رماه فقتله وكان سهل بن هارون يتعجب من نظر الفيل الى الانسان والى كل مايمر به وهو الذى يقول

ولما رأيت الفيل ينظر قاصداً * ظننت بان الفيل يلزمه الفرض

قال أبو عثمان وقد رأيت أنا فى عين الفيل من صحة الفهم والتأمل اذا نظر بها وشبهت نظره الى الانسان بنظر ملك عظيم الكبر راجح الحلم واذا أردت أن ترى من الفيل مايضحك وتراه فى أسخف حالاته فألق اليه جوزة فانه يأخذها بطرف خرطومه فاذا دنا منها تنفس فاذا تنفس طارت الجوزة من بين يديه ثم يدنو ثانية ليأخذها فيتنفس أخرى فتبعد فلا يزال ذلك دأبه، قال وبفضل الفيل الفرس في الحرب أن الفيل يحمى الجماعة كلهم ويقاتل ويرمى ويزج بالمداريق وليس له من الهول ما للفرس وهو أحسن مطاوعة ولا يعرف بجماح ولا طماح ولا حران والخيول العتاق ربما قتلت

الفرسان بالحران مرة وبالاقدام مرة وبسوء الطاعة وشدة الجزع وربما شب الفرس بفارسه حتي يلقيه بين الحوافر والسيوف لسهم يصيبه ولحجر يقع به وما يشبه ظهر الفرس من ظهره وظهر الفيل قنطرة من القناطر ومساحة من المسالح وفي الفيلة عجب آخر وذلك ان قصر الاعمار مقرون بالابل والبراذين وبكل خلق عظيم وبكل شئ يعايش الناس في دورهم وقراهم ومنازلهم فالناس أطول أعمارا منها كالجمل والفرس والبرذون والبغل والحمار والثور والشاة والكلب والدجاج وكل صغير وكبير الاالفيل فانه أطول عمراً والفيل أعظم من جميع الحيوان جسما وأكثرأ كلا وهو يعيش المائةسنة والمائتي سنة وزعم صاحب المنطق فى كتاب الحيوان أنه قد ظهر فيل عاش أربعمائة سنة فالفيل فى هذا الوجه يشارك الضباب والحيات والنسور واذا كان كذلك فهو فوق الورشان وعير العانة وهو من المعمرين وفوق المعمرين وهو مع ذلك أطول الحيوان بدنا وأطولها عمراً، وقال بعض من يستفهم ويحب العلم مابال الاسد اذا رأى الفيل علم أنه طعام له واذا رأى النمر والببر لم يكونا عنده كذلك وكيف وهو أعظم وأضخم وأشنع وأهول فان كان الاسد انما اجترأ عليه لانه لحم ودم واللحم طعامه والدم شرابه فالببر والنمر من لحم ودم وهما أقل من هؤلاء واقأ جسما قال القوم ومتى قدر الاسد فى الفيل انه اذا قاتله غلبه واذا قتله أكله وقد نجد الببر فوق الاسد وهو لا يعرض له والاسد فوق الكلب وهو يشتهى لحمه ولحم القنفذ بأكثر مما يشتهي لحم الضبع والذئب وليست تحله الهوائية التي ذهبتم اليها فاما علم جميع الحيوان بالمواضع التى تعيشها فمن علم البعوضة ان بين ظاهر جلد الجاموس دما وأن ذلك الدم غذاء لها وانها متي طعنت في ذلك الجلد الغليظ الشثن الشديد الصلب ان خرطومها ينفذ فيه من غير معاناة ولو أن رجلا مناطعن جلده بشوكة لا نكسرت الشوكة قبل ان تصل الى موضع الدم وهذا باب يدرك بالحس وبالطبع وبالشبه وبالخلقة والذى سخر لخرطوم البعوضة جلد الجاموس هو الذى سخر الصخرة لذنب الجرادة وهو الذى سخر قمقم النحاس لابرة العقرب وقال بعض الحكماء ولو كانت الفيلة لا تتلاقح عندنا بالعراق لانها هندية لتغير الهواء والارض فعقر ذلك ارحامها وأعقم اصلابها لكان ينبغي للطاووس ان لايتزاوج عندنا

وان لا يبيض ولا يفرخ ونحن قد نصيد البلابل والدناني والوراشين والفواخت والقماري والدراج فلا تتسافد عندنا في البيوت وهي من أطيار بساتيننا وضياعنا ولا تتلاقح إذا اصطدناها بل لا تصوت ولا تغني ولا تنوح وتبقى عندنا وحشية كمدة ماعاشت فان أخذناها فراخا زاوجت وعششت وباضت وفرخت فلعلكم أن تكونوا لو أهديتم اليها أولادها صغاراً فنشأت عندنا وذهب عنها وحشة أنس الأهلي فان الوحشة هي التي كمدتها ونقصت قوتها وأفنت شهوتها وقد نجد الشفنين الذكر تهلك أنثاه فلا يزاوج غيرها أبدا في بلادها كان ذلك أو في غير بلادها ونحن لو جئنا بالاسد والذئاب والنمور والببور فأقامت عندنا الدهر الطويل لم تتلاقح وقد أصاب اعرابي جرو ذئب فرباه ورجا حراسته وان يألفه فيكون خيراً من الكلاب فلما قوى وثب على شاة له فأكلها فقال الاعرابي

أكلت شويهتي وربيت عندي * فمن أنباك أن أباك ذيب

وقد تتسافد عندنا وقد تلاقحت عند بعض الملوك وكان جعفر بن سليمان أحضر على مائدته بالبصرة يوم زاره الرشيد البان الظباء وزبدها وسلاها ولباها فاستطاب الرشيد جميع طعومها فسأل عن ذلك وغمز جعفر بعض الغلمان فأطلق عن الظباء ومعها خشفانها وعليها سمها حتى مرت في عرصة تجاه عين الرشيد فلما رآها على تلك الحال وهي مفرطة مخصبة استخفه الطرب حتى قال ما هذه الالبان وما هذه السمنان واللبا والرائب والزبد الذي بين أيدينا قال من حلب هذه الظباء اقتنيت وهي خشفان فتسافدت وتلاقحت ولو أطلقوا الذئاب والاسد في مروج العراق وأقاموا لها حاجاتها لتسافدت وتلاقحت فلعلهم لو تقدموا في اصطناع أولاد الفيلة واقتنائها صغاراً لم تلبث حتى تتسافد وتلاقح وقد زعمتم أن كسري أبرويز استنتج دغفلا واحداً قال الهندي تكفينا هذه الحجة وهي بيننا وبينكم أوليس قد جهد في ذلك جميع الملوك من جميع الأمم في قديم الدهر فلم يستنتجوا الا واحدا واعلم ان هذه الاحاديث من أحاديث الفرس وهم أصحاب نفخ وتزيد ولا سيما في كل شيء مما في باب العصبية ويزيد في الدار الا كاسرة وان كانوا كذلك فهم أطباء وأئمتهم لا شهادة لهم ولكن هل رأيتم

قط هنديا أقر بذلك أم هل أقر بقايا الامم للفرس بهذا الامر للفيل المعروف بهذا الاسم ويقال رجل فيل اذا كان في رأيه فيالة والفيالة الخطأ والفساد وهم يسمون الرجل بفيل منهم فيل مولى زياد ويكنون بأبي الفيل منهم أبو الفيل الاشعرى الذي امتدحه أبو دهبل وقال الراجز غيلان يقال له راكب الفيل ومنهم عنبسة الفيل وكذلك يقال لابنه معدان وله حديث وقال الفرزدق

لقد كان في معدان والفيل زاجر * لعنبسة الراوى على القصائدا

وقال الاصمعي اذا كان الرجل نبيلا جبانا قيل هذا فيل وأنشد

يقولون للفيل الجبان كأنه * أزب خصى نفرته القعاقع

وقال سلمة بن عباس قال لى رؤبة ما كنت أري فى رأيك فيالة ويقول الرجل لصاحبه لم يفل رأيك وهو رأى فائل ورجل فيل وبالكوفة باب الفيل ودار الفيل في الساحة وكذلك حمام فيل وفى حمام فيل يقول بعض السلف

لعمر أبيك ما حمام كسرى * على البانين من حمام فيل

ولم أر قاضيا حلف الموالى * كنسبتنا على عهد الرسول

وأبو الفيل محمد بن ابراهيم الرافقى كان فارس أهل العراق وفيلوية السنطي هو الذي كان يجرى لامه كل أضحى درهما فحدثتني امرأة قالت قلت لام فيلوية أو ما كان يجرى فيلوية في كل أضحى الا درهما قالت أي والله وربما أدخل أضحى في أضحى، وقال بعض من يخالف الهند الفيل لا ينتفع بلحمه ولا بلبنه ولا بسمنه ولا بزبده ولا بشعره ولا بوبره ولا بصوفه عظيم المؤنة فى المنفعة شديد السرف على الرياض ان اغتلم لم تف جميع منافعه فى دهره بمضرة ساعة واحدة وهو مرتفع فى الثمن وان أخطاوا فى تدبير مطعمه ومشربه وتعلمه وتلقنه هلك سريعا ولا يتصرف كتصرف الدواب ولا يركب في الحوائج في الاسواق والجنائز والزيارات ولو أن انسانا عاد مريضا أو اتبع جنازة على فيل لصار شهرة وترك الميت آية وسئل ابن سيرين عن رجل رأى فيما يري النائم كأنه راكب علي فيل فقال له أمر جسيم لا منفعة فيه قالوا وقال رجل للحجاج رأيت فى المنام رجلا من عمالك لدم فيلا فضرب عنقه فقال ان صدقت

رؤياك هلك زاهر بن بصبهرى وسئل الشعبي عن أكل لحم الفيل فقال ليس هو من بهيمة الانعام وخرطومه الذى هو سلاحه والذى به يبطش وبه يعيش من مقاتله وقال زهرة بن حيوة يوم القادسية اما لهذه الدابة مقتلا قالوا بلى خرطومه فشد عليهم حتى خالطهم ودنا من الفيل فحمل كل واحد منهما على صاحبه فضرب خرطومه فبرك وأدبر القوم قال والفيل أفقم صغير العنق مقلوب اللسان مشوه الخلق فاحش القبح ولم يصلح ذو أربع قط قصير العنق في طلب ولا هرب ولو أن سلاح الثور يجول في اهابه ولو لا سعته ما خطا مع قصر عنقه ولذلك قال اعرابى[1] قال الشاعر فى عيب الثور وهو اسحاق بن حسان الخريمي

وأغلب فضفاض جلد اللبان * يدافع غبغبه بالوظيف

وليس يؤتى البعير فى ظهره مع طول عنقه الا من ضيق جلده والفيل ضئيل الصوت وذلك من أشد عيوبه والفيل اذا بلغ فى الغلمة أشد المبالغة أشبه الجمل في ترك الماء والعلف حتى تنضم أيطلاه وترم رأسه وقد وصف الراجز الجمل الهائج فقال

سام كان رأسه فيه ورم * اذ ضم ايطلا هياج فقطم

* وآض بعد البدن ذا لحم ودم *

ولو لم يكن فى الفيلة عيب الا أن عدد أيام عمرهم كعمر بعض البهائم لكان ذلك عيبا ولو ترك أهل المدينة غراس العجوة لما كانت تطعم الا بعد أربعين سنة قال وليس شيء يحمل من عدد الارطال ما يحمل الفيل لان الذي يفضل بين حمل الفيل وحمل البختى أكثر من قدر ما يفضل بين جسم الفيل على جسم البختى وقد قال الاعرابى الذى دخل على كسري ليتعجب من جفائه وجهله حين قال له أى شيء أبعد صوتا قال الجمل قال فأى شيء أطيب لحما قال الجمل قال كسرى كيف يكون الجمل أبعد صوتا ونحن نسمع صوت الكركي من كذا وكذا ميلا قال الاعرابي ضع الكركى فى مكان الجمل وضع الجمل فى مكان الكركي حتى تعلم أيهما أبعد صوتا قال وكيف يكون لحم الجمل أطيب من لحم البط والدجاج والفراخ والدراج والنواهض والجوازل قال

(١) هنا بياض بالاصل قدر سطر

الاعرابي يطبخ لحم الدجاج بماء وملح ويطبخ لحم الجمل بماء وملح حتى تعرف فضل ما بين اللحمين قال كسرى فكيف تزعم أن الجمل أحمل للثقيل من الفيل والفيل يحمل كذا وكذا رطلا قال الاعرابي ليبرك الفيل ويبرك الجمل وليحمل الفيل حمل الجمل فان نهض به فهو أحمل للأثقال ، قال القوم ليس في استطاعة الجمل للنهوض بالاحمال ما يوجب لها فضيلة بالنهوض بعد النزول فأما نفس الفيل فالذي بينهما أكثر من أن يقع بينهما الخيار قالوا وبفارس ثيران تحمل حمل الجمل باركة ثم ناهضة فهذا باب الذم فقد حدثنا عن شريك عن جابر الجعفي قال رأيت الشعبي خارجاً فقلت له أين تريد قال أنظر الى الفيل قال وسألت أبا عبيدة فقلت ما لون الفيل قال جون ومن أعاجيب الفيل سوطه الذي به يحث ويضرب بمحجن حديد طرفه فى جبهته والطرف الآخر في يد راكبه فاذا أراد منه شيئاً غمز تلك الحديدة فى لحمه على قدر ارادته لوجوه التصرف وقد ذكر أبو القيس بن الاسلت فى الجاهلية وهذا الشعر حجة فى صرف الله الفيل والطير الابابيل وصد أبى يكسوم عن البيت وسنذكر فى ذلك طرفا ان شاء الله تعالى قال أبو قيس

ومن صنعه يوم فيل الحبو * ش اذ كل ما بعثوه وزم
محاجنهم تحت اقرابه * وقد كلموا أنفه فانخرم
وقد جعلوا سوطه معولا * اذا يمموه قفاه كلم
فأرسل من ربهم حاصب * يلفهم مثل لف القزم

قال أيضاً صيفي بن عامر وهو أبو قيس بن الاسلت وهو رجل من أهل يثرب وليس بمكي تهامى ولا قرشى ولا حليف قرشى وهو جاهلى

قوموا فصلوا ربكم وتعوذوا * بأركان هذا البيت بين الاخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق * غداة أبى يكسوم هادى الكتائب
فلما أجازوا بطن نعمان ردهم * جنود الاله بين ساف وحاصب
فولوا سراعا نادمين ولم يؤب * الى أهله ملجيش غير عصائب

ويدل على صحة هذا الخبر قول طفيل الغنوى وهو جاهلى وهذه الاشعار صحيحة

معروفة لا يرتاب فيها أحد من الرواة وانما ذكر ذلك طفيل لان تحتها كانت تنزل تهامة فأخرجتها كنانة فيمن أخرجت فهو قوله

ترعى مذالف وسمى أطاع له * بالجزع حيث عصي أصحابه الفيل

قال أبو الصلت واسمه ربيعة وهو أبو أمية بن أبى الصلت وهو ثقفي طائنى وهو جاهلى وثقيف يومئذ اضداد بالبلدة وبالمال وبالحدائق وبالجفان وله اللات والغبغب وبيت له سدنة يضاهون بذلك قريشاً فقال هذه الاشياء التى توجب الحسد والمنافسة

ان آيات ربنا بينات * ما يماري فيهن الا الكفور

حبس الفيل بالمغمس حتى * ظل يحبو كأنه معقور

واضما خلفه الحوار كما ذ * طرصخر من كبكب محدور

وقال بعضهم لا برهة الاشرم

أين المفر والاله الطالب * والاشرم المغلوب غير الغالب

وقال عبد المطلب وهو على حراء

لاهم ان المرء ي * نع رحاله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم * ومحا لهم ابدا محالك

ان كنت تاركهم وقب * لتنا فأمر ما بدالك

وقال نفيل بن حبيب الخثعمى وهو جاهلى شهد الفيل ومنع الله عز وجل فى ذلك اليوم

الا ردى جمالك يا ردينا * نعمنا كم مع الاصباح عينا

فانك لو رأيت ولن تريه * الى جنب المحصب ما رأينا

أكل الناس يسأل عن نفيل * كان على للحبشان دينا

حمدت الله ان عاينت طيراً * وحصب حجارة تلقى علينا

وقال المغيرة بن عبد الله المخزومى

أنت حبست الفيل بالمغمس * حبسته كأنه مكردس

* محتبس تزهق فيه الانفس *

قال الله تبارك وتعالى ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الى آخر السورة وأنزل هذه السورة وقريش يومئذ مجلبة فى الرد على النبي صلى الله عليه وسلم وما شيء أحب اليهم من أن يروا له سقطة أو عثرة أو كذبة وبعض مايتعلق به مثلهم فلولا انه كان أذكرهم أمرا لا يتدافعون ولا يستطيع العد و انكاره للذى يري من اطباق الجميع عليه لوجدوا أكثر المقال فهذا باب يكثر الكلام فيه وقد أتينا عليه فى كتاب الحجة قال أبو عثمان خرجت يوم عيد فلما صرت بقساذ واذا فيل مجلل بمقطوع ومقطعات واذا برجال جلوس عليهم الاسلحة فسألت بعض من شهد العيد فقلت مابال هذه المسلحة فى هذا المكان وقد اختلط الناس بذلك التل فقال هـذا الفيل فقصدت نحـوه ومالى هم الا النظر الى أذنيه وما كانت لى في ذلك علة الاشغل قلبى بكل شيء هجمت عليه منه وكله كان شاغلا عن أذنه التى اليها كان قصدي فـذا كرت في ذلك سهل بن هارون فذكر لى انه ابتلى بمثلها وأنشد فى ذلك بيتين من شعره وهما قوله

أتيت الفيل محتسبا بقصدي * لابصر أذنه ويطول فـكري

فـلم أر أذنه ورأيت خلقـا * يقرب بين نسيانى وذكرى

قال وقال رجل مرة أخزى الله الفيل فقال بكر بن عبد الله لا تشتم شيئا جعله الله آية فى الجاهلية وإرهاصا للنبوة وقال سعدان الاعمى النحوي قلت للاصمعى أى شيء رأيت أعجب فقال الفيل وقيـل لابى الفيل أى أمور الدنيا أعجب فقال الشم وقيـل لابراهيم النظام أى أمور الدنيا أعجب فقال الروح وقيل لابى عقيل بن درست أى أمور الدنيا أعجب فقال النوم واليقظة وقيل لابى شمر أى أمور الدنيا أعجب فقال النسيان والذكر وقيـل لسالم الخلال أى أمـور الدنيا أعجب فقال النار وقيل لبطليموس أى أمور الدنيا أعجب فقال بطن الفلك وقال مرة أخري الضياء وقيل لابى عمرو بن فايد الاسوارى أى شيء أعجب قال الآجال والارزاق وكان ابراهيم بن سيار النظام شديد التعجب في الفيل وكان سـعيد بن عمرو يقول إن السرطان والنعامة أكثر عجائب من الفيل وهذا تفسير أبو عقيل السواق عن مقاتل بن سليمان قال قال موسى للخضر أي الدواب أحب اليك وأيها أبغض قال أحب الفرس والحمار والبعير لانها مراكب

الانبياء وأبغض الجاموس والثور فأما البعير فركب هود وصالح وشعيب والنبيين عليهم السلام وأما الفرس فركب أولى العزم من الرسل وكل من أمره الله بحمل السلاح وقتال الكفار وأما الحمار فركب عيسى بن مريم وعزير وبلعم وكيف لا أحب شيئا أحياه الله بعد موته قبل الحشر ، قال ولما نظر الفضل بن عيسى الرقاشي الى مسلم بن قتيبة على حمار يريد المسجد قال قعدة نبي وبذلة جبار وأبغض الفيل لانه أبو الخنازير وأبغض الثور لانه يشبه الجاموس وأبغض الجاموس لانه يشبه الفيل وأنشد في هذا المعنى جعفر بن أخت واصل في منزل الفضل بن عاصم الناجوري

ما أبغض الخضر فيلا منذ كان ولا * أحب عيرا وذا كم غاية الكذب
والفيل أقبل شئ لو تلقنه * حاجات نفسك من جد ومن لعب
ولو تتوج منها واحد لرأي * رأي الملوك ولو أوفى على الركب
يغضي ويركع تعظيما لهيبته * وليس يعدله النسوان في الطرب

قال أنشدنيها يونس بن رباح سان وهو يمدح الفيل كما ترى بالطرب والحكاية وانه قد أدب وعلم السجود للملوك وزعموا ان أول شئ يؤذنونه بالسجود للملك الفيل قالوا خرج كسري ابرويز ذات يوم لبعض الاعياد وقد وضعوا له ألف فيل وقد أحدق بها ثلاثون ألف فارس فلما بصرت به الفيلة سجدت له فما رفعت رأسها حتي جذبت بالمحاجن وراطنها الفيالون وقد شهد ذلك المشهد جميع أصناف الدواب والخيل فما دونها وليس فيها شئ يفصل بين الملك والرعية فلما رأى ذلك كسرى قال ليت أن الفيل كان فارسيا ولم يكن هنديا انظروا اليها والى سائر الدواب وفضلوها بقدر ماترون من فهمها وأدبها ،وأما ماذكرته الزنج من طول الخطب فكذلك هم في بلادهم وعند نوائبهم ولكن معانيهم لا ترتفع عن اقدار الدواب الا مالايذكر وأنشدنا في تعظيم شأن الفيل وصحة نظره وجودة تحديقه وتأمله وسكون طرفه

اذا مارأيت الفيل ينظر قاصدا * ظننت بأن الفيل يلزمه الفرض

وقال عبد الاعلى في المثل ان النون قال للضب حين رأي انسانا في الارض اني قد

رأيت عجبا قال وما هو قال رأيت خلقا يمشي على رجليه ويتناول الطعام بيديه الى فيه قال ان كان ماتقول حقا فانه سيخرجني من قعر البحر وينزلك من وكرك من الجبل والفيل أعجب منه لان يده فمه وأيدي البهائم والسباع على ذلك عاملة شيئاً والقرد يأكل بيديه وينقي الجوز ويفلي ثيابه وليس شيء يكرع بأنفه ويوصل الطعام الى فيه بأنفه غير الفيل والدب الانثى تقيم أولادها تحت شجرة الجوز ثم تصعد الشجرة فتجمع الجوز في كفها ثم تضرب باليمنى على اليسرى فتحطم ذلك الجوز فترمى به الى أولادها فلا تزال كذلك حتى اذا شبعن نزلت وربما قطع الدب من الشجرة الغصن الضخم الذي لا يقطعه صاحب الفاس الا بالجهد ثم يشد به على الفارس قابضا عليها في موضع لبض الماء فلا يصيب شيئاً الا هتكه ، قال صاحب المنطق ليس شيء من ذوات الاربع الا وتصرف يديه في الجهات أقل من تصرف يدى الفيل نوصل هذا الموضع بالباب الذي فيه ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل قال ومثل قوله ألم تر كيف فعل ربك بعاد وقوله ألم تر الى ربك كيف مد الظل وقوله ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون وهذا كله ليس من رؤية العين وباب آخر من هذا وهو قوله وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ويقول الرجل رأيت الله كيف يقول كذا وكذا وفلان يرى السيف وفلان يري رأى أبي حنيفة وقد رأيت عقله حسنا وقال ابن مقبل

سل الدار من حي جبير براهب * بحيث ترى هضب القليب المصبح

واذا قابل الجبل الجبل فهو يراه اذ قام منه مقام الناظر الذي ينظر اليه وتقول العرب دار فلان تتناظر وقال النبي صلى الله عليه وسلم أنا برىء من كل مسلم مع مشرك قيل وكيف ذلك قال لا تتراءي نارا هما ويقولون اذا استقبلت تلقاء وجهك فنظر اليك الجبل فخذ عن يمينك وقال أبو عثمان ويوصف جلد الفيل والجاموس بالقوة قال جميل

اذا ما علت نشزا تمد زمامها * كما امتد جلد الاصاف المترقرق

وما يبتني منى المداة تعاقدوا * ومن جلد جاموس سمين مطرق

وأبيض من ماء الحديد مهند * له بعد اخلاص ضربة رونق

وقال كعب بن زهير فى اعتذاره الى النبي صلى الله عليه وسلم

لقد أقوم مقاما ما يقوم به * أري وأسمع مالو يسمع الفيل
لظل يرعد الا أن يكون له * من الرسول بأمر الله تنويل

وذكر أمية بن أبي الصلت سفينة نوح فقال

تصرخ الطير والبرية فيها * مع قوى السباع والافيال

وقال أمية أيضاً

خلق النحل معصرات تراها * تعصف اليابسات والمحظورا
والتماسيح والرتائل والاي * ل شتي والريم والعصفورا
وصواراً من النواشط عينا * ونعاما ضواحيا وحميرا
وأسودا عواريا وفيولا * وسباعا والنمل والخنزيرا

وتزعم الهند ان بهيمة الفيل في بعض الزمان يعرق عرقا غليظا غير سائل يكون أطيب رائحة من المسك وهذا شئ يعتريه كل عام وموضع ذلك الينبوع فى جبهته والناس يجدون ريح المسك فى بيوتهم فى بعض الاحايين وهي ريح فارة يقال لها فارة المسك وليس به وهو بالخشف حين تضمه الظبية أشبه وتقول العرب فى فارة الابل صادرة ان أرج ذلك العرق أطيب من المسك الاذفر في ذلك الزمان وفى ذلك الوقت من الليل والنهار قال الراعي

لها فارة ذفراء كل عشية * كما فتق الكافور بالمسك فاتقه

قال الاصمعى قلت لابن مهدية كيف تقول لاطيب الا المسك والبان وأدهان يحجر قال فأين أنتم عن فارة الابل صادرة قالوا وربما وجد الناس فى بيوتهم الجرذ يضرب الى السواد يجدون من بدنه اذا عدا الى جحره رائحة تشبه رائحة المسك وبعض الناس يزعم أن هذا الجنس هو الذى يخبأ الدنانير والدراهم والحلى كما يصنع العقعق والغراب وهذا الجرذ غير فارة المسك التي تكون بخراسان وتلك بالخشف الصغير أشبه وانما يأخذون سرته وهى ملآنة من دم عبيط قالوا وقد جعل الله الفيل من أكبر الآيات وأعظم البرهانات للبيت الحرام ولقبلة الاسلام وتأسيسا لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم

وتعظيما لشأنه وما أجرى من ذلك على يدي جده عبد المطلب حين غدت الحبشة لتهدم البيت الحرام وتذل العرب فلم يذكر الله منهم ملكا ولا سوقة باسم ولا نسب ولا نعت وذكر الفيل باسمه المعروف وأضاف اليه السورة التي ذكره فيها وجعل فيها من الآية أنهم اذا قصدوا به نحو البيت تعاصي وبرك واذا خلوه وشانه صد عنه وصدف وفي أضعاف ذلك التقم أذنه نفيل بن حبيب وقال أبرك جمهور وكان ذلك اسمه وقد طعن في ذلك ناس فقالوا قد يستقيم أن ينصرف عنه ويحرد دونه كل ذلك بتصريف الله له وكيف يجوز أن يفهم كلام العرب ويعرف معنى قول نفيل قلت يفهم الفيل عن الفيال جميع الادب والتقويم وجميع ما يراد منه عند الحط والرحيل والمقام والمسير قلنا قد يفهم بالهندية كما يعرف الكلب اسمه ويعرف قولهم أخسأ وقد يعرف السنور اسمه ويعرف الدعاء والزجر وكذلك الطفل والمجنون وكذلك الحمار والفرس اذا كن قد عودن تلك الاشارة وسماع تلك الالفاظ فأما الفيل وهو هندي جاء به الى تلك البلدة حبشي فخرج من عجمة الى عجمة كيف يفهم مع ذلك كلام العرب وسرار نفيل بن حبيب بالعربية قلنا قد يستقيم أن يكون قال له كلاما بالهندية كان قد تعود سماعه من الفيالين فيكون ترجمته بالعربية هذا الكلام الذي حكوه وقد يكون الذي أنطق الذئب لأهبان بن أوس وجعل عود الهيثم يجيء الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يصور لوهم الفيل ارادة نفيل بن حبيب وقد يستقيم مع لقن الفيل وذكائه وحكاياته ومؤاتاته أن يعرف ذلك كله وأكثر منه لطول مقامه في أرض الحبشة واليمن وليس يبعد أن يكون بأرض الحبشة جماعة كثيرة من العرب من وافد وباغ وتاجر وغير ذلك من الاصناف فيسمع ذلك منهم الفيل وليس هذا المقدار بمستنكر من الفيل مع الذي قد أجمعوا عليه من فهم الفيل ومعرفته وكان منكه الطبيب الهندي صحيح الاسلام وكان اسلامه بعد المناظرة والاستقصاء والتثبت قالوا فسمع مرة رجلا يقرأ أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت وسمع بعض الجهال يقول فكيف لو رأى الفيل فعذله قوم فقال منكه لا تعذلوه فانه لا شك ان خلق الفيل أعجب قيل له كيف لم يضرب تعالى به الله المثل دون البعير فقال انما خاطب العرب وهم الحجة على جميع اللغات ثم

تصير الخاطبة لجميع الامم بعد الترجمة على ألسنة هؤلاء العرب الذين بهم بدأت الخاطبة لجميع الامم وكيف يجوز أن يعجب جماعة الامم من شيء لم يروه قط ولا كان على ظهرها يوم نزلت هذه السورة رجل واحد قد شهد الفيل من الحبشة وعلى أن الفيل وافى مكة وما بها أحد الا عبد المطلب في نفر من بقية الناس ولا كانوا حيث يتأملون وقال ناس كان الناس كرجلين رجل قد سمع بهذا الخبر من رجالات قريش الذين يحقرون أنفسهم بذلك التعظيم كما كانت السدنة تكذب الاوثان والاصنام لتحقر بذلك التابع ورجل لم يكن عنده علم بأن هذا الخبر باطل ولم يتقدم على انكار ذلك الخبر وجميع قريش تثبته قيل لهم ان مكة لم تزل وان خزاعة وبقايا جرهم بها وقد كان بينهم ما كان حتى انتزعوا البيت بينهم وقد كان بين ثقيف وقريش لقرب الدار والمصاهرة والمشابهة والثروة والمشاكلة في التجارة تحاسد وتصاقب وقد كان بينهم هنالك أموال والحلفاء والسكان والنازلة ومن يحج في كل عام وكان البيت مزوراً على وجه الدهر يأتونه رجالا وركبانا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق وبشق الانفس كما قال الله تعالى فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وكان بقرب سوق عكاظ وذي المجاز وهما سوقان معروفان وما زالتا قائمين حتي جاء الاسلام فلا يجوز أن يكون السالب والمسلوب والمفتخر عليه والمحسود والمتدين به والمنكر له مع اختلاف الطبائع وكثرة العلل يجمعون كلهم على قبول هذه وتصديق هذه السورة وهم مطبقون على عداوة النبي صلي الله عليه وسلم والكفر به والمحلون من العرب ممن كان لا يرى للحرم ولا للشهر الحرام حرمة طيء كلها وخثعم كلها وكثير من أحياء قضاعة ويشكر والحارث بن كعب هؤلاء كلهم أعداء الدين والنسب هذا الى ما كان في العرب والنصاري والذين يخالفون دين مشركي العرب كل الخلاف كتغلب وشيبان وعبد القيس وقضاعة وغسان وسليم والعباد وتنوخ وعاملة ولخم وجذام وكثير من بلحارث بن كعب وهم خلطاء وأعداء يغاورون ويسبون ويسبى منهم وفيهم الشرور والاوتار والطوائل وهم العرب وألسنتها الحداد وأشعارها التى هى مياسم همها البعيدة وطابها للطوائل وذمها لكل دقيق وجليل من الحسن والقبيح في الاشعار والارجاز والمزدوج والمنثور فما سمعنا من جميع هؤلاء الذين

عندنا أحداً أنكر شأن الفيل أو عرف فيه بحرف واحد ورزين العروضي وهو أبو وهب لم أر قط أطيب منه احتجاجا ولا أطيب عبارة قال في شعر له يهجو ولد عتبة بن جعفر فكان في احتجاجه عليهم وتعريفه لهم أن قال

تهتم علينا بأن الذئب كلمكم * فقد لعمري أبوكم كلم الذئبا
فكيف لو كلم الليث الهصور اذا * تركتم الناس مأكولا ومشروبا
هذا السنيدي لا أصل ولا طرف * يكلم الفيل تصعيدا وتصويبا

ولو كان ولد أهبان بن أوس ادعوا أن أباهم كلم الذئب كانوا مجانين وانما ادعوا أن الذئب كلم أباهم وأنه ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وأنه صدقه والفيل ليس يكلم السندي ولم يدع ذلك السندي قط وربما كان السندي هو المكلم له والفيل هو المتفهم عنه فذهب رزين العروضي من الغلط في كل مذهب والناس يكلمون الطير والبهائم والكلاب والسنانير والمراكب وكل ما كان تحتهم من اصناف الحيوان التي قد خولوها وسخرت لهم وربما رأيت القراد يكلم القرد بكل ضرب من الكلام ويطيعه القرد في ذلك وكذلك ربما رأيته يلقن الببغاء ضروبا من الكلام والببغاء تحكيه وان في غراب البين تعجبا وكذلك كلامهم للدب والشاة المكية وهذه الاصناف التي تلقن وتحكي وقد روى الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم في كلام السباع والابل ضروبا ولم يذهبوا الى أنها نطقت بحروف مقطعة ولكن النبي صلى الله عليه وسلم اما أن يكون أوحي اليه بحاجاتها واما أن تكون فراسته وحسه وتنبهه في الامور مع ما يحضر الله من التوفيق بين له معانيها وجلاها له واستدل بظاهر على باطن ونبهه وحركه على موضع الحاجة واما أن يكون الله ألهمه ذلك إلهاما وأما جهة سليمان بن داود صلى الله على نبينا وعليه في المعرفة بمنطق الطير ومنطق كل شيء فلا ينبغي أن يكون ذلك الا أن يقوم منها في الفهم عنها مقام بعضها من بعض اذ كان الله قد خصه بهذا الاسم وأبانه بهذه الدلالة واعلام الرسل لا يكثر عددها ولا يعظم قدرها على أقدار فضل الانبياء فوق سليمان بن داود وأدنى ذلك أن داود فوقه لان الحكم في الوارث والمورث والخليفة والذي استخلفه أن يكون المورث أعلى والمستخلف أرفع

كذلك ظاهر هذا الحكم حتى يخص ذلك برهان حادث وانما تكثر العلامات وتعظم على قدر طبائع أهل الزمان وعلى قدر الاسباب التي تتفق وتتهيأ لقوم دون قوم وهو أن يكونوا جبابرة عتاة واغبياء منقوصين أو علماء معاندين أو فلاسفة محتالين أو قوما شملهم من العادات السيئة وتراكم على قلوبهم من الالف للامور المردية مع لبث ذلك في قلوبهم أن تكون نحلتهم وملتهم ودعوتهم تحتمل من الاسباب والاحساب أكثر مما يحتمل غيرها من ذلك ان من الكفر ما يكون عند المسئلة والجواب أسرع انتشاراً وأظهر انتقاضا ومنه مايكون أفتن شيئا وان كان مصير الجميع الى الانتقاض والى الفساد ومنه شيء يحتاج من المعالجة الى أكثر وأطول وانما يتفاضل العلماء عند هذه الحال وقد يكون أن يتقدح في قلوب الناس عداوات وأضغان شبيها بالتحاسد الذي يكون بين المتفقين في الصناعات وربما كانت العداوة من جهة العصبية فان عامة من ارتاب بالاسلام انما كان ذلك رأى الشعوبية والتمادى وطول الجدال المؤدي الى القتال فاذا أبغض شيئا أبغض أهله وان أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام اذا كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف، وتزعم الهند ان شدة غلمة الفيل وطول اقامته فيها وهجرانه الطعام والشراب وبقية تلك الطبيعة وعمل ذلك العرق الساري هو الذي يمنع الفيل أن يصير في مثل جسمه مرتين لان ذلك من أمتن أسباب الهزال واذا تقادم ذلك في بدنه وعب فيه عمل في العظم والعصب ونفذ في الشحم واللحم وان كان رفع الصوت والصياح وكثرة الكلام والغضب والحدة يورث الهزال لان البدن يسخن عن ذلك اذا شاعت فيه الحرارة أحرقت وأكلت وشربت ولذلك صار الخصي من الديوك والانعام أسمن وزعموا أنه ليس يعايش الناس من الحيوان أقصر عمراً من العصفور ولا أطول عمراً من البغل وللبغل أسباب فليس يقع الظن الا على قلة سفاد البغل وكثرة سفاد العصفور قالوا ونجد العمر الطويل أمراً خاصا في الرهبان فنظن أيضاً تركها الجماع من أسباب ذلك، قالوا واذا اغتلم الذكر من الحيوان فهو أخبث ما يكون لحما واذا كثر سفاده تضاعف فيه ذلك وصار لحمه أيبس

منه قال الشاعر

أحب أن اصطاد ظبيا سحبلا * أو جرذاً يرعى ربيعا أرملا

بجمله أرمل لازوجة له فيكون أسمن له لان كثرة السفاد يورثه الهزال ولا يكثر سفاده الا من شدة غلمته وهجا اعرابي صاحبه حين أكل لحم سوعث فقال

أكلته من عوث ومن قرم * كالورل السافد يغرى بالنسم

لان الورل يشبه لحم الضب وهم لايرغبون فيه لانه عضل متشنج ولانهم كثيراً مايجدون في جوفه الحيات والافاعي وله ذنب سمين وذلك شر له وللورل فى السفاد ما يجوز به حد الجمل والخنزير قال والنسم والنسيم فى هذا الموضع واحد وقالت فروة القرنية

نفي نسم الريح القذا عن متونه * فما أن به عيب تراه لشارب

وأنا أعلم انى لو فسرت لك معانى هذه الاشعار وغريبها لكان أتم للكتاب وأنفع لمن قرأ هذه الابواب ولكنى أعرف ملالة الناس للكتاب اذا طال قال الشاعر يهجو من قراه لحم كلب

فجاء بحر شاوى شمير عليهما * كراديس من أوصال أعقر سافد

فلم يرض أن جعله كلبا حتى جعله سافداً فاما ابن الاعرابى فزعم أنه انما عني تيسا وقد أبطل وعلى أن المعنى فيهما واحد قالوا وانما صار الخصى من كل شئ أسمن لانه لايسفد ولايهيج قال والسقنقور انما ينفع أكله اذا اصطادوه في أيام هيجه وسفاده لان العاجز عن السفاد يتعالج بأكل لحمه فصار لحم الهياج أهيج له أقبل أبو نواس ومعه الخزامى الكاتب وكان أطيب الخلق وقد كان قبل ذلك نظر الى الفيلة فأبصر غرمول فيل منها وعلم الخزامي أن غرمول الفيل يوصف بالجعبة فوصف لنا غرموله وأنشدنا فيه شعراً لنفسه

كانه لما بدا للسفد * جعبة تركى عليها لبد

قلنا له أقويت وأجريت ذكر اللبد على غير حاجة قال فانى قد قلت غير هذا قلنا فانشدنا فقال

كأنه لما بدا للسفد * جعبة فيل افقت في لبد

قلنا فلا نرى لك بدا من اللابد على حال قال قال أبو نواس فانى أقول عنك بيتين قال هاتهما فقال

كأنه لما بدا للوثبه * أيور أعيار جمعن ضربه

قال الخزامى لابي نواس هبهمالى على أن لاتدعيهما فعسى انتحلهما قال وما ترجو من هذا الضرب قال قد رأيت غرموله فما عذرى عند الفيل ان لم أقل فيه شيئاً وحدثنى صديق لى قال رأيت الفيالين على ظهر فيل من هذه الفيلة فأقبل صبى يريد السندى الراكب فكلم الفيل بالهندية فوقف ثم كلمه فمديده رافعا في الهواء حتي ركبها الغلام ثم رفع يده حتى مد السندى يده فأخذ بيد الصبي وللبقر والجواميس أربعة أخلاف في مؤخر بطونها وللشاة خلفان وللناقة أربعة فى مواخر البطن وللمرأة والرجل والفيل ثديان فى الصدر وثدى الفيل يصغر جداً اذا قرنته الى الفيل وللسنور ثمانية أطباء وكذلك الكلبة في جميع بطنها والخنزيرة كثيرة الاطباء وللفهد فى بطنها أربعة أطباء وللمرأة طبيان لايصغران عن مقدار بدنها والبقرة والانسان والرمكة والحجر فى ذلك سواء الا أنها من الحافر أطباء ومن اظلاف الخلاف والسباع فى ذلك والحوافر سواء وقال صاحب المنطق غرمول الفيل يصغر عن مقدار بدنه وخصيته لاحقة بكليته لاترى ولذلك يكون سريع السفاد وزعم الهندى صاحب كتاب الباه أن أعظم الايور أير الفيل وأصغرها اير الظبي وما أعجب ماقرأت لصاحب الحيوان في كتاب المنطق وجدته قد ذكر قصر عنقه ولم يذكر انقلاب لسانه وذلك أعجب مافيه ولم ينظر فى كم يضع ولا مقدار مدة حمله وكيف يخرج من بطن أمه نابت الاسنان والفيلة لاتلد التوأم قال وهى تفذ وتفرد قال وقال بعض العلماء لايقال أفذت ولا أفردت الا لما يجوز ان يتئم قال وأمراضها أقل من أمراض غيرها الا أن النفخ والرياح يعرض لها كثيراً ويؤذيها أذى شديداً وعامة أمراضها من ذلك ولاسيما اذا أكثرت منه فعاودته قال وربما ابتلعت الحجارة قال واذا أصابها استطلاق وسقيت الماء الحار وعلفت الحشيش الفسول واذا أتعبوها اعتراها السهر فتعالج عند ذلك بأن تدلك أكتافها بزيت وبعضها يشرب الزيت شربا ذريعا قال واذا تصعب الفيل وكان

فى حدثان ما اقتطعوه من الوحش فانهم ينزون عليه فيلا مثله ويحتالون له فى ذلك فما أكثر مايجدونه بعد ذلك قد لان قال وهو مادام راكبه عليه فهو الين من كل ذى أربع وأحسن طاعة ولكن لبعضها صعوبة عند نزوله عنه فاذا شدوا مقاديم قوائمها بالحبال شدا قويا لانت قال وهى على صعوبتها تأنس سريعا وتلقن سريعا فأول ما يعلم السجود للملك فاذا عرفه فكلما رآه سجد له فاما صدق الحس فهو يفوق فى ذلك جميع الحيوان وهو والجمل سواء اذا علما لان الانثى اذا لقحت لم يعاودها للضراب فهذه فضيلة مذكورة فى حس الجمل وقد شاركه الفيل فيها وباينه فى خصال أخر واناث الفيلة وذكورها متقاربة فى السمن وكذلك النساء والرجال وهو بحرى الطباع ونشأ فى الريف فهو أجرد الجلد فلذلك يشتد جزعه فى البرد فان كان أجرد الجلد فما قولهم فى أحاديثهم طلبوا من الملك الفيل الابيض والفيل الابقع وجاء فلان على الفيل الاسود وأخبرني رجل من البحريين لم أرفيهم أقصد ولا أسد ولا أقل تكلفا منه قال لم أجدهم يشكون أن فيالا ضرب فيلا فأوجعه فالح عليه وأنهم عند ذلك نهوه وخوفوه وقالوا لاتنم حيث ينالك فانه من الحيوان الذي يحقد ويطالب ولما أراد ذلك السائس القائلة شده الي أصل شجرة وأحكم وثاقه ثم تنحى عنه بمقدار ذراع ونام ولذلك السائس جمة فتناول الفيل بخرطومه غصنا كان مطروحا فوطيء على طرفه حتى تشعث ثم أخذه بخرطومه فوضع ذلك الطرف على جمة الهندي ثم لواها بخرطومه فلما ظن أنها تشبكت به وانعقدت جذب الهندي فاذا هو تحت رجليه فخبطه خبطة كانت نفسه فيها فان كان الحديث حقا فى أصل مخرجه فكفاك بالفيل معرفة ومكيدة وان كان باطلا فانهم لم يحلوا الفيل هذه النحلة دون غيره من الدواب الا وفيه عندهم ما يحتمل عليه ويليق به قال والعرق الذى يسيل من جبهته فى زمن من الزمان يضارع المسك فى طيبه لا يعرض له وهو في غير بلاده وقد علمنا أن لرائحة الطيب فضيلة اذا كان بالمدينة وان الناس اذا وجدوا ريح النوى النقيع بالعراق هربوا منه وأن أهل المدينة ينتابون المواضع التى يكون فيها ذلك التماسا لطيب تلك الرائحة ويزعم تجار التبت ممن قد حصل الصين والزانج وقلب تلك الجزائر ونقب فى

البلاد أن كل من أقام بقصبة تبت اعتراه سرور لا يدري ما سببه ولا يزال مبتسما ضاحكا من غير عجب حتي يخرج منها وزعموا ان شيراز من جميع قرى فارس لهابنة طيبة ومن مشى واختلف فى طرقات مدينة الرسول الله صلى الله عليه وسلم وجد منها عرفا طيبا ونبتة عجيبة لا تخفى على أحد ولا يستطيع أن يسميها ولو أدخلت كل غالية وكل عطر من المعجونات وغير المعجونات بقصبة الاهواز وقصبة انطاكية لوجدته قد تغير وفسد اذا أقام فيه الشهرين والثلاثة وأجمع أهل البحرين أن لهم تمراً يسمى الماتحي وأن من فضخه وجعله نبيذاً ثم شربه وعليه ثوب أبيض صبغه عرقه حتي كانه ثوب سخمى وزعم لى بعض البحريين أنها بالهند تكون نقالة وعوامل كعوامل البقر والابل والنقالة التى تكون فى الكلا والسوق وأنها تذل وتسامح وتطاوع وأنها غلات من هذا الوجه وزعم لى ان أحد هذه الفيلة التى رأيناها بسر من رأى أنه كان لقصار بأرض سندان يحمل عليه الثياب الى المواضع التي يغسلها فيه ولا أعلمه الا الفيل الذى بعث به ماهان أو زكريا بن عطية قالوا وعظام الفيل كلها عاج الا ان جوهر الناب أثمن وأكرم وأكثر مايرى من العاج الذى في القباب والحجال والفلك والمداهن انما هو من عظام الابل يعرف ذلك بالرزانة والملاسة والعاج متجر كبير يتصرف في وجوه كثيرة ولو لا قدره لما فخر الاحنف ابن قيس فيما فخر به على أهل الكوفة حيث قال نحن أكثر منكم عاجا وساجا وديباجا وخراجا ويقال إنه من كلام خالد بن صفوان ويقال أنه من كلام أبى بكر الهذلى والفرس الكريم تقع الذبابة على موقى عينيه فيصفق باحدي جفنيه فتخر الذبابة ميتة وقال ابن مقبل

كان اصطفاق مآقيه بطرفته * صفاق أدم بالادم يقابله

ويصيح الحمار فتصعق الذبابة فتموت قال العبدى

من الحمير صعق ذبابه * بكل ميثاء كتغريد المغن

وقال عقبة بن مكرم التغلبي

وترى طرفها حديدا بعيدا * أعوجيا لطن رأس الذباب

وقال ابن مقبل

ترى البعرات الخضر تحت لبانه * فرادى وشتى أصمقتها صواهله

وأنشد في غير هذا الباب

وانى لقاض بين شـيبان وائل * ويشكر انى بالقضاء بصير

وليس هذا موضع هذين البيتين وأنشد

أمسي المضاء وأهله في غبطة * ليسوا كما كان المضاء يقـول

لا تخرأ الذبان فوق رؤسهم * فاليوم تخـرأ فوقها وتبـول

وقال أبو الحسن قال قال دخل زياد داره وكان بناها فيل مولاه فلم يرض بناءها فقال ادعوا فيلا فلم يجدوه فقال ليتها في بطن فيل وفيل في البحر وكان فيل مولى زياد شديد اللكنة وأهدى بعضهم الى زياد حمار وحش فقال فيل أصلح الله الامير أهـدوا لنا همار وهش فقال أي شئ تقول ويلك قال أهدوا لنا ايرا يعنى عيرا فقال زياد الاول أمثل وكان أبو مالك يقول العيثوم الفيل الانثي وذهب الى قول الشاعر

* وطئت عليك بخفها العيثوم *

فدل قول علقمة بن عبدة على ان العيثوم من صفات الفيل وقال

يتبع جدبا اذا ما هيجت رحلت * كان رفا على العلياء مهزوم

اذا ترغم من حافاتها ربع * حنت سماميم من أوساطها كوم

يهدى بها أسجح الخدين مختبر * من الجمال شديد الخلق عيثوم

وقد أكثروا في ضرب المثل ببعد ما بين الجنسين وقال عبد الرحمن بن الحكم

أتغضب أن يقال أبوك عف * وترضي ان يقال أبوك زانى

وأشهد أن آلك من قريش * كآل الفيل من ولد الاتان

فجعل معاوية من نسل الفيل لشرفه وجعل زيادا من نسل الحمار لضعفه ولعمرى لقد باعد وكذلك قول الكميت

وما خفت الضباب معطفات * على الحيات من شبه الحسول

قال فهذا أبعد وأبعد لانه وان ولد نزار عرب فهم في معني الذئب وساكنى الصحارى

وأولئك عجم لجملهم كالسمك الذي يعيش في الماء ألا ترى أن معاوية بن أبي سفيان ابن معاوية بن يزيد لما قتلته ضبة دست في أسته سمكة وقال جرير

ما بين تيم واسماعيل من نسب * الا قرابة بين الزنج والروم

فقال قطرب الصقالبة أبعد قيل له أن جريراً لا يفضل بين الصقالبة والروم انما هو على معنى قول الكميت * حتى يؤلف بين الضب والنون * وتقول العرب لا يكون ذلك حتى يجمع بين الاروى والنعام لان الاروي جبلية والنعام سهلية وقال الكميت

يؤلف بين ضفدعة وضب * ويعجب أن نبر بنى أبينا

وهذا هو معناه الاول وأبعد من هذا قول الشاعر

* حتى يؤلف بين الثلج والنار *

وقال أبو الحسن المديني قال أبو البرهان العلائي ثم الوقاصي قال وحدثني بذلك الغيداقي عن الوقاصي قال قالت جارية لامها ليلة زفافها يا أمه ان كان أير زوجي مثل أير الفيل كيف أحتال حتى أنتفع به قال فقالت الام أي بنية قد سألت عن هذه المسئلة أمي فذكرت أنها سألت عنها أمها فقالت لا يجوز الا أن يجعلك الله مثل امرأة الفيل قال فسكتت حولا ثم قالت لامها يا أمه فاني ان سألت ربي أن يجعلني مثل امرأة الفيل أتطمعي ان يفعل ذلك قالت يا بنية قد سألت عن هذه المسئلة أمي فذكرت انها سألت عنها أمها فقالت لا يجوز الا أن يجعل الله جميع نساء الرجال مثل نساء الفيلة قال فسكتت عنها حولا ثم قالت فان سألت ربي أن يجعل نساء جميع الرجال مثل نساء الفيلة أتطمعي أن يفعل ذلك قالت يا بنية قد سألت عن مثل هذه أمي فذكرت أنها سألت أمها عنها فقالت لا يجوز الا أن يجعل الله جميع رجال النساء مثل رجال نساء الفيلة قال فسكتت عنها حولا ثم قالت فان سألت ربي أن يجعل جميع رجال النساء مثل جميع رجال نساء الفيلة أتطمعين أن يفعل ذلك قالت يا بنية قد سألت عن هذه المسئلة أمي فذكرت أنها سألت أمها عنها وانها قالت يا بنية ان الله ان جعل جميع الناس فيلة لم تجد امرأة الفيل مع عظم بدنها من اللذة الا مثل ما تجدين أنت اليوم مع زوجك من اللذة ثم تذهب عنك لذة الشم والتقبيل

والضم والعطر والصبغ والحلي والمشطة والعتاب والتفدية وجميع مالك اليوم فسكنت عنها حولا ثم قالت يا أمه ان سألت ربي أن يجعل اير الفيل أعظم أتطمعين أن يفعل ذلك قالت الام أي بنية قد سألت عن هذه المسألة أمي فذكرت أنها سألت عنها أمها وأنها قالت أي بنية ان الله ان جعل اير الفيل أعظم وجعل حر امرأة الفيل أوسع وأعظم فيعود الامر كله الى الامر الاول قال فسكنت حولا ثم قالت يا أمه فان سألت ربي أن يجعل اير الفيل أعظم غلمة فيصير عدد أكوامه أكثر أتطمعين أن يفعل قالت أي بنية قد سألت عن هذه المسئلة أمي فذكرت أنها سألت أمها عنها وأنها قالت أي بنية سلي الله أن يجعل زوجك أشد غلمة مما هو عليه ولكن لا تسئليه ذلك حتى تسئليه أن يزيد في غلمتك قالت يا أمه فان سألت أبي أن يجعله في غلمة التيس أتطمعين أن يفعل ذلك قالت أي بنية قد سألت عن مثل هذه المسئلة أمي فذكرت أنها سألت عنها أمها وانها قالت لا يجوز أن يجعله في غلمة التيس حتى يجعله تيسا قالت يا أمه فان سألت ربي أن يجعله تيسا ويجعلني عنزاً أتطمعين أن يفعل ذلك قالت بنية قد سألت عن هذه المسئلة أمي فذكرت أنها زارت أمها لتسئلها عن هذه المسئلة فوجدتها في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة وما أشك أن يومي قد دنا فلم تلبث الا أياما حتى ماتت معناها في تسويف اللذة ودفعها بالحيلة

باب الظلف

وهي الظباء وهي معز والمعز أجناس والبقر الوحشي ذات اظلاف وهي بالمعز أشبه منها بالبقر الاهلي وفي ذلك تسمى نعاجا وليس بينها وبين الظباء وان كانت ذوات جرة وكروش وقرون وأظلاف تسافد ولا تلاقح وهي تشبهها في الشعر وفي عدم السنام ومن الظلف الوعل والتيتل والثامور والايل جبليات كلها لا أدري كيف التسافد والتلاقح منها ومن الظلف الخنازير وهي لا كرش ولا جرة ولا قرون وليس بينهما موافقة الا في الظلف وفي الخنازير ما ليس ظلفه بمنشق فيقال هو المخالف بالناب وتقدر الاشياء كلها وتشا كل المعز والبقر والظباء بالشعر وقصر الذنب ويخالف البقر

والجواميس في طول الذنب وفي عدد أيام الحمل ومن الظلاف الضأن والمعز وقد يكون بينهما تسافد وتلاقح الا أنها تلقيه مليطا قبل أن يشعر وذلك أقل من القليل ومن الظلاف البقر الاهلى والجواميس وهى أهلية أبدا وهي موافقة للضأن في القرون وفى عدم الناب والجرة والكرش وتخالف الضأن في الصوف والسنام وتوافق المعز فى الشعر وتخالف السنام وتخالف جميع الغنم فى الحمل لان الغنم تضع لخمسة أشهر والبقر تضع كما تضع المرأة فى تسعة أشهر وليس تشبه المرأة فى غير ذلك الا مايذكرون من القبب ونتو الكاهل فانهما ربما كانا فى بعض النساء وأكثر ذلك في نساء الدهاقين

﴿القول فى الزرافة﴾

قالوا والزرافة تكون فى أرض النوبة فقط قالوا وهي تسمي بالفارسية شتركاوبلنك كانه يعني بقرة لاكان وهو البقر واشتر الجمل وبلنك هو الضبع فزعموا ان الزرافة ولد النمر من الجمل فلو زعمتم ان الجمل يكوم الضبع ويكوم ماله ظلف ما كان الا كذلك والمسافدة فى أجناس المخالب والخف والحافر أعم فلو جعلوا الفحل هو النمر والانثى هي الناقة كان ذلك أقرب فى الوهم وليس كل ذكر يكون أنثى يلقحها وقد يكوم الانسان الدابة بشهوة منهما جميعا ولا يكون تلاقح كما اتفقا فى المسافدة وان الراعى يكوم الغنم وغير الغنم وانظركم من ضرب ادعوا مما لا يعرف فواحدة ان بهيما ذكرا اشتهي سبعا أنثي وهو من أصعب السباع ثم الثانية ان ألقح والثالثة ان ارحام النمور لاتتسع لاولاد الابل قالوا نمورهم عظام وابلهم لطاف وقد تتسع ارحام القلاص العربية للواقح كرمان فتجيء بهذه الجبارات ولولا أنه سبع لجاز أن يكون النمر يكوم الناقة فتتسع أرحامها لذلك قالوا وفي أعالى بلاد النوبة يجتمع سباع ووحوش ودواب كثيرة فى حمارة القيظ الى شرائع المياه فتتسافد هناك فيلقح منها مايلقح ويمتنع مايمتنع فيجيء من ذلك خلق كثير مختلف الصورة والشكل والقدر منها الزرافة وللزرافة خطم الجمل والجلد للنمر والاظلاف والقرن للايل والذنب للظبى والاسنان للبقر فان كانت أمها ناقة فقد كامها نمر وظبى وأيل فى تلك الشرائع وهذا القول يدل على جهل شديد والزرافة طويلة الرجلين منحنية الى أواخرها وليس لرجليها ركبتان وانما

الركبتان ليديها وكذلك البهائم كلها وعساها ان أرادت القيام والانسان ركبتاه في رجليه ويقولون اشترمك للنعامة على التشبيه بالبعير والطائر يريدون تشابه الخلق لا على الولادة ويقولون للجاموس كاوماس على ان الجاموس يشبه الكبش والثور لا على الولادة لان كاوبقرة وماس على شبه الجواميس بالضأن لان البقر والضأن لا يقع بينهما تلاقح والتفاليس الذى في الزرافة لا يشبه الذى فى النمر وهو بالليث أشبه وما الليث أحق به من هذا الوجه من الفهد فقد يمكن ان تسمح الضبع للارنب والكلبة للذئب وكذلك الثعلب والهرة وكذلك الطير وأجناس الحمام كالورداني والورشان والحمام وكالشهرى من بين الحجر والبرذون والرمكة والفرس والبغل من بين الرمكة والحمار فأما بروك الجمل على النمرة والجمل لا بد ان تكون طروقته باركة فكيف تبرك النمرة للجمل والسباع انما تتسافد وتتلاقح قائمة وكذلك الظلف والحافر والمخلب والخف والانسان والتمساح يتبطنان الانثى والطير كله انما يتسافد ويتلاقح بالاستاه من خلف وهى قائمة وزعموا ان الغراب يزاق الحجل والقبج فربما ألقحا الاناث اذا كانا على علاوة الريح ولا تكون الولادة الا فى مواضع القاء النطفة وأما السمكة فقد باين قوم معارضة الذكر الانثي فاذا سبح الذكر الى جنب الانثى عقف ذنبه وعقفت ذنبها فيلتقى الحيا آن فتكون الولادة حيث يكون التلقيح لا يجوز غير ذلك والذين زعموا ان الحجلة تلقح من الحجل اذا كانت في سفالة الريح فى شي لنقصان مني الذكر فانما شبهوا الحجل بالنخل وان النخلة ربما لقحت من ريح كافور النخال اذا كانت تحت الريح وسئل الشرقى عن مجاجزة ما بين القرون والجم فقال الابل والخيل من الحافر والبرثن والمخلب والقدم التى هي للانسان فمن خصال ذى القرن ان منه ذا القرنين الملك المذكور فى القرآن ويزعم بعضهم انه الاسكندر وقال أمية بن أبي الصلت

رجل وثور تحت رجل يمينه * والنسر للاخرى وليث مرصد

وقال ضربه على قرنه وقرن من دم كما يقال قرن من عرق والقرن أمة بعد أمة والقرن شئ يصيب فروج النساء يشبه بالعفلة والفيل من ذوات القرون وفي الحيات والافاعى

ما لها قرون وانما ذلك الذي سمع به قرن انما هو شيء يقولونه على التشبيه لانه من جنس الجلد والغضروف ولو كان من جنس القرون لكانت الحية صلبة الرأس والحية أضعف شيء رأسا ورأسه هو مقتله لان كل شيء له قرن فرأسه أصلب وسلاحه أتم والقرون سلاح عتيد غير مختلف ولا مصنوع وهو لذوات القرون في الرؤس وللكركدن قرن في جبهته والجاموس أوثق بقرنه من الاسد بمخلبه ونابه وتقول المجوس يجيء سرقين على بقرة ذات قرون وظهرت الآية في شأن داوود وطالوت في القرن وشبور اليهود من قرن والبوق في الحروب التي منها كانت الحرب انما كان قرنا ويسمى الرجل ررق والروق كل شيء يضاف الى شيء وقال بشار في اليعاقيب

أعقبه الجنوب روقا من الاريب

وفي العرب روق وأبو روق وقال ابن ميادة

دان له الروقان من وائل * وقبله دان له حمير

الروقان بكر وتغلب ويقال قرن الضحى وقرن الشمس وقرن الكلام وقرون السنبل وأطراف عذوق النخل وأطراف عذوق الحلفاء وأبرة العقرب كلها قرون والاجناس التي لها قرون تكون قرونها في الذكور منها وقد يكون الفحل أجم كما ان اللحا عام في الرجال وقد يكون منهم السنباط وقد تشعب قرون الظباء اذا أسنت وقرون الظباء وبقر الوحش شداد جداً وانما تعدو الاوعال في السلاح والوثوب وفي القذف بأنفسها من أعالي الجبال على القرون والاغلب على القرون ان تكون اثنتين اثنتين وقد يكون لبعض الغنم قرون عدة والجواميس تمنع أنفسها وأولادها من الاسد بالقرون وبقر الوحش تمنع أنفسها وأولادها من كلاب القناص ومن السباع التي تطيف بها بالقرون قال الطرماح

أكل السبع طلاها فما * نسل الاسلام غير انهزام

وقال ابن النوسحار أقبلت من خراسان في طروف الجبال فرأيت أكثر من ميلين في مواضع كثيرة من الارض أثر سنة أرجل فاضطرني ذلك الى أن سألت المكارى فزعم أن الخنزير الذكر في زمان الهيج يركب الخنزيرة وهي ترتع أو تذهب نحو

مبيتها فلا يقطع سفاده أميالا ويداه على ظهرها ورجلاه خلف رجليها فمن رأى ذلك الاثر رأى ستة أرجل لا يدرى كيف ذلك قال فالخنزير في ذلك على شبه الذباب اذا سقطت على ظهر الانثى فى طول السفاد وأن الجمل فى ذلك لعجيب الشأن والعدد في العصفور ويحكى أن للورل فى ذلك ما ليس لشيء يعنى من القوة وأنشد أبو عبيدة فى عظم اير الفيل

* وهو قوس وطول حبس اذا حبس *

قال عمرو بن سعيد فرس الماء يأكل التمساح قال ويكون فى النيل خيول وفى تلك البحور يعني تلك الخلجان مثل خيول البر وهى تأكل التمساح أكلا ذريعا ولا للتمساح فى وسط الماء سلطان يظهر الا على ما احتمله بذنبه من الشريعة قال وفرس البحر يؤذن بطلوع النيل بأثر وطء حافره فحيث وجد أهل مصر أثر تلك الارجل عرفوا أن النيل ينتهى فى طلوعه الى ذلك المكان وهذا الفرس ربما رعى الزرع وليس يبدأ اذا رعى في أدنى الزرع اليه ولكنه يحرز منه بقدر ما يأكل يبدأ فيأكل بأكله من أقصاه فيرعي مقبلا الى النيل وربما شرب من الماء بعد الرى ثم قاء فى المكان الذى يرعي فيه فينبت أيضا والطير عندنا تأكل التوت وتذرقه فينبت من ذرقه شجر التوت قالوا واذا أصابوا من هذه الخيل فلوا صغيرا ربوه مع نسائهم وصبيانهم فى البيوت ولم يزد على هذا الكلام قالوا وفى سن من أسنانه شفاء من وجع المعدة قال والنوبة وناس من الحبشة يأكلون الحية نية بغير نار ويشربون الماء العطن فيمرضون فاذا علقوا سن هذا أفاقوا قال وأعفاج هذا الفرس يبرئ من الجنون والصرع الذى يعترى مع الاهلة قال وكذلك لحوم بنات عرس صالحة لمن به هذه العلة قال وانما يكون الانسان من مصائد الذئب اذا لقيه والارض ثلجاء فانه عند ذلك يخفش وجه الارض ويجمعه ويضرب وجه الارض فارسا كان أو راجلا قال ودقائق الثلج وغباره اذا صك وجه الفارس سدر واسترخى وتحير بصره فاذا رأى ما قد حل به فربما بعج بطن الدابة وربما عضها فيقبض على الفارس فيصرعه ولا حراك به فيأكله كيف شاء الا أن يكون الفارس مجربا ماهرا فيشد عليه عند ذلك بالسلاح وهو فى ذلك يسير ويقطع المفازة ولا يدعه حينئذ يتمكن من النفر عليه وزعم عبويه أن الخصى العبدى الفقيه من أهل همدان السوداني

الجبلى وهو رجل من العرب قد ولدته حليمة ظئر النبي صلى الله عليه وسلم وهو من بني سعد ابن بكر فزعم أن السودانى أشبه خلق الله بجارحة وأحكمهم بتدبير ذئب وكلب وأسد ونمر وتعليم وتثقيف وأنه بلغ من حذقه ورفقه أنه ضرى ذئبا وعلمه حتى اصطاد له الظباء والثعالب وغير ذلك من الوحوش وأن هذا الذئب بمينه سرحه فرجع اليه من ثلاثين فرسخا وذكر ان هذا الذئب اليوم بالعسكر وحدثني بهذا الحديث في الايام التى قام بها أمير المؤمنين المتوكل على الله وذكر أنه ضرى أسداً حتى ألف وصار أهليا صيودا حتى اصطاد الحمير والبقر وعظام الوحش صيداً ذريعا الا أن الاسد بعد هذا كله وثب على ولد له فأكله فقتله السوداني والذي عندنا في الذئب أنه يألف ولو أخذ انسان جرواً صغيراً من جرائه ثم رباه لما نزع الا وحشيا غدوراً مفسداً ولذلك قال الاعرابى

أكلت شويهتى ونشأت فينا * فمن أنباك أن أباك ذيب

فالذى حكى عبوية من شأن هذا الذئب والاسد من غريب الغريب وأخبرني عبوية صاحب ياسر الخادم قال أرسلت كلبة لى فأحضرت ثعلبا فوالله ان زالا كذلك حتى خرا ميتين قال فقلت أكرم بهما صيداً ومصيداً وطالبا ومطلوبا قال واذا أسن القرشى رحل الى الحجاز وقال ما احتنك رجل قط الا أحب الخلوة وقالوا ما فكر فيلسوف قط الا رأي الغربة أجمع لهمه وأجود لخواطره قال وشتم رجل الارضة فقال بكر ابن عبد الله المزنى مه فهي التى أكلت جميع الصحيفة التي تعاقد المشركون فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ذكر رسول الله وبها تبينت الجن اذ لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين وبها تكشف أمرها عند العوام بعد الفتنة والعظيمة عندهم وكان على الخاصة من ذلك أعظم المحن وخبرني رجل من بنى هاشم كان منهوما بالصيد لهجا به أنه ضرب وسط ضب بالسيف فقطعه نصفين فتحرك كل واحد منهما على حياله ساعة من نهار ثم سكنا وأخبرنى أنهم كانوا يهارشون بين الضب والورل فيلغبه الورل حتى يقتله وحكي أن الورل يقتل الضب على معني الصائد والطالب وأن الضب يقاتل على معني المحرج وأنه هارش بين الورل والحية فوجد الورل يقتل

الحية ويأ كلها ويقتل الضب ولا يأ كله ولكنه حسوله وزعم أنه وجد مشايخ الاعراب لا يقتلون ورلا ولا قنفذاً ولا يدعون أحداً يصطادهما لانهما يقتلان الافاعي ويريحان الناس منها وأنشد أبو عبيدة لابي ذؤيب

وسود ماء المرزن منها فلونه * كلون النؤور وهي بيضاء سـارها

وأنشد شبيها به للنابغة

يجاب ليصيد من أشداقها * صفر مناخرها *

وأنشد شبيها بذلك لابراهيم بن هرمة

كأنها اذ خضبت حنا ورم * من حرض والهرم[1] والعصم

﴿ وأنشد أيضاً ﴾

تعلم الا كل أولاد الظباء بها * فما يحس بها سيد ولا أسد

﴿ وأنشد ﴾

ذكرتك ذكرة فاصطدت ظبيا * وكنت اذ ذكرتك لا أخيب

منحتكم المودة من فؤادي * ومالي في مودتكم نصيب

وقال ابن مقبل

وكم من عدو قد شققت قميصه * باسمر عزال اذا هز عامله

وقال أيضاً ولم اصطبح صهباء صافية القذى * با كدر من ماء اللهاءة والعجب

ولم أسر في قوم كرام أعزة * غطارفة شم العرانين من كلب

اللهاءة والعجب ما آن من مياه كلب موصوفان بالعذوبة وهي في ذلك كدرة وأنشد ابن مروع لعدي بن عطيف الكلبي وكان جاهليا

أكان الليل والنهار معا * والدهر يعدو على الفتى جزعا

والشمس في رأس فلكة نصبت * رفعها في السماء من رفعا

كما سطا بالأنام عاد وبالحجـ * ـر وأرجا لتبع تبعا

فليس مما أصابني عجب * ان كنت شيئاً أنكرت أوصنعا

قال هو عاد بن عوص بن أيدوسطا بالحجر أي أتى بأهل الحجاز وأرجا أي أخر

والارجاء التأخير وقال كعب بن زهير

فم مقلدها عبل مقيدها * فى خلقها عن بنات الفحل تفضيل
حرف أخوها أبوها من مهجنة * وعمها خالها قوداء شمليل

وقال سالم بن دارة

حدوت بهم حتي كان رقابهم * من السير فى الظلماء خيطان خروع

وقال بعض المحدثين

وقد شربوا حتي كان رقابهم * من اللين لم تخلق لهن عظام

(وقال آخر)

كان هامهم والنوم واضعها * على المناكب لم تعمد بأعناق

وقال الكميت

وفي الديات اذا ما السنو * ن ألقى من بركها كلكل
لهام يقول له المدلفو * ن هذا المقيم لنا المرحل

وقال أيضاً

الطيبو ترب المغار * س والمنابت والمكاسر
والساحبون اللاحقو * ن الارض هداب المآسر
أنتم معادن للخلا * فة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعيـ * ـن خلائفا وبخير عاشر

وقال أيضاً

مكرم قوله للزائرين له * أعشبت فانزل الى معلوية عشب

ذهب الى قوله

مستأسد ذبابه فى غيطل * يقلن للرائد أعشبت انزل

ولكن أنظركم بين الديباجتين وفى الاول ذهب الى قول الاعشى

اذا الحبرات تلوت بهم * وجروا أسافل هدابها

قال فان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون كونوا بلها كالحمام ولا كان الرجل

منهم يدعو لصاحبه يقول أقل الله فطنتك قال وهذا يخالف قول عمر رضى الله عنه حين قيل له أن فلانا لا يعرف الشر قال ذلك أجدر أن يقع فيه وقال النابغة الذبيانى

ولا يحسبون الخير لا شر بعده * ولا يحسبون الشر ضربة لازب

وقال الآخر

ولا تعذرانى في الاساءة انه * شرار الرجال من يسيء فيعذر

وقالت امرأة ترثى عمير بن معبد بن زرارة

أعين ألا فابكي عمير بن معبد * وكان ضروبا باليدين وباليد

تقول بالسيف وبالقداح لان القداح تضرب باليدين جميعا وقال ابن مقبل

وللفؤاد وجيب عند أبهره * لدم الوليد وراء الغيب بالحجر

وقال ابن أحمر

* وفؤاده وجل كمرف الهدهد *

وكان حسان يقول لقائده طعام يد أو طعام يدين طعام يدين الشواء وما أشبه ذلك وطعام اليد الثريد وقال بعض السلاطين لغلام من غلمانه وبين يديه أسير اضرب قال بيد أو يدين قال بيد فضربه بالسياط قال أحسنت فانت حر وزوجه وأعطاه مالا وكان فرج الحجام مولى جعفر بن سليمان اذا حجمه وأخذ من شعره لم يتكلم ولم يتحرك ولم يأخذ فى شيء من الفضول فقال له جعفر ذات يوم ما اسمك يا حجام قال فرج قال وما كنيتك قال لا أكتني بحضرة الامير قال فهل تحتجم قال نعم قال متى قال عند الهيج قال وهل تعرف وقت الهيج قال في أكثر ذلك قال فأى شيء تأكل عند الحجامة قال أما في الصيف فسكباجة عذبة محضة وأما في الشتاء فدا كراجة خاثرة حلوة فأعتقه وزوجه ووهب له مالا وكان قاطع الشهادة ولم يكن أحد من مواليه أن يشهده الا على ما يختلف فيه الفقهاء وهو الذى ذكره أبو فرعون فقال

خلوا الطريق زوجتى امامي * أنا حمام فرج الحجام

وكان أهل المدينة يقولون لا نرى الانصاف الا في حانوت فرج الحجام لانه كان لا يلتفت الى من أعطاه الكثير دون من أعطاه القليل ويقدم الاول فالاول حتي يأتي

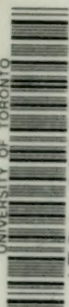
على آخرهم على ذلك يأتيه من يأتيه وكان المؤخر لا يغضب ولا يشكو وقال ابن مقوم الضبي

واذا تعلل بالسياط جيادنا * أعطاك نائية ولم يتعلل
فدعوا نزال فكنت أول نازل * وعلى ما أركبه اذا لم أنزل
ولقد أفدت المال من جمع امرئ * وعففت نفسي عن كريم المأكل
ودخلت ابنية الملوك عليهم * ولشر قول المرء ما لم يفعل
وشهدت معركة الفيول وحولها * أبناء فارس بيضها كالاعبل
متسربلي حلق الحديد كأنهم * حرب مقاذفة لشحم الحنظل

تم المصحف السابع من كتاب الحيوان وبتمامه تم الكتاب والحمد لله على حسن الختام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام

يقول مصححه عفا الله عنه

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده (وبعد) فقد تم بعون الله وتأييده وتوفيقه وتسديده طبع هذا الكتاب الجليل على نفقة ذي الرأي الصائب والفكر الثاقب محيي رفات المعارف بعد اندراسها ومجدد رسوم الفضائل بعد انطماسها حضرة (الحاج محمد أفندي ساسي المغربي التونسي) وفقه الله لمثل هذه الاعمال وكان الفراغ من طبعه في أواخر رجب الفرد من شهور سنة ١٣٢٥ هجريه والحمد لله كثيراً


UNIVERSITY OF TORONTO
3 1761 00482293 8